موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين
رحمه الله

المؤلفات

من المؤمنين رجال

القسم الثاني

المجلد السابع

دار المؤرخ العربي

بيروت

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين

المؤلفات

(٧)

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

من المؤمنين رجال

القسم الثاني

المجلد السابع

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

دار المؤرخ العربي

بيروت - بئر العبد - مقابل بنك بيروت والبلاد العربية - بناية نخلة

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ١ - ٠١ - هاتف: ٠١-٥٤٤٨٠٥ - ص.ب: ١٢٤/٢٤

البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com

دليل موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين
المؤلفات

المجلد صفر (٠): سيرته الدراسية والعلمية

المجلد الأول: أصول الدين

- ـ ألله بين الفطرة والدليل
- ـ العدل الإلهي بين الجبر والاختيار
- ـ النبوة
- ـ الإمامة
- ـ المعاد

المجلد الثاني: في رحاب الرسول (ص)

المجلدات الثالث والرابع والخامس: (سيرة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام)

المجلدان السادس والسابع: من المؤمنينَ رجالٌ (سيرة ٢٩ صحابياً).

المجلد الثامن: مفاهيم إسلامية

- ـ في رحاب القرآن
- ـ عباد الرحمن
- ـ نهج البلاغة.. لمن؟
- ـ المهدي المنتظر(عج) بين التصور والتصديق

المجلد التاسع: في رحاب الإسلام

- ـ المادة بين الأزلية والحدوث
- ـ الإنسان بين الخلق والتطور
- ـ هوامش على كتاب نقد الفكر الديني

المجلد العاشر: الأعمال الفقهية

- ـ على هامش كتاب العروة الوثقى
- ـ مذكرات في الفقه الإستدلالي (١ و٢)
- ـ مناسك العمرة المفردة
- ـ بين يدي «المختصر النافع»

المجلد الحادي عشر: أعلام من التراث

- الصاحب بن عبّاد حياته وأدبه
- محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)
- منهج الطوسي في تفسير القرآن
- السيد علي بن طاووس (حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه)

المجلد الثاني عشر: دراسات وصنعات

● **شعر تراثي:**

- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب في صنعتين
- من المستدرك على ديوان الخبزارزي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ديوان متمم بن نويرة
- ديوان مالك بن نويرة

● **الأعمال اللغوية:**

- صيغة (فَعَّلَ) في العربية
- (فَيْعِلٌ) أم (فَعِيْل)
- ملاحظات في المعجمات المحققة المطبوعة
- المعجم الذي نطمح إليه
- جوهرة الجمهرة للصاحب إسماعيل بن عبّاد ٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ
- مسائل لغوية في مذكرات مجمعية
- (إبريق) لفظ عربي فصيح
- السلسبيل لفظ عربي فصيح

المجلد الثالث عشر: دراسات تاريخية

- تاريخ المشهد الكاظمي
- المعمى والأحاجي والألغاز
- تاريخ الحكم البويهي في العراق
- الأرقام العربية : فوائدها، نشأتها، تطورها
- تاريخ الصحافة الكاظمية
- لمحات من تاريخ الكاظمية
- لمحات من تاريخ الطبري

المجلدان الرابع عشر والخامس عشر: تاريخ الشعر الكاظمي ١/٣

المجلدان السادس عشر والسابع عشر: معجم النبات ١/٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾

«صدق الله العظيم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم أنبيائه محمد؛ وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذه صفحات متواضعة تُعنى بالحديث عن فوارس من فرسان العقيدة، وجنود شجعان من جنود الحق، وفتيان من أولياء الله المخلصين، ومن صحب رسول الله (ص) وأتباعه الأُمناء الصادقين، من المجاهدين في ساحات الوغى ضد المشركين والمنحرفين والناكثين والقاسطين.

وما أشدَّ حاجة العرب خاصةً؛ والمسلمين عامةً؛ في ظروفهم الحاضرة، وقد تكالبتْ عليهم قوى الجور والضلال والعدوان، فبطشت بهم في أكثر من مكان، وهَزَمَتْهم في أكثر من جولةٍ وميدان، وما زالت في نهم إلى المزيد من الوقيعة بهم والتسلُّط عليهم وامتصاص ما حباهم الله تعالى من نِعَم الأرض وبركات السماء.

أقول: ما أشدَّ حاجة هؤلاء اليوم؛ وحاجة أجيالهم الناشئة بالخصوص، إلى وقفةٍ ذكيَّة فاحصة، بل عودة متفتِّحة واعية، إلى دراسة التاريخ بعمق، واستلهام التراث بتدبُّر، والتفاعل مع الماضي المشرق بفهمٍ وقدرةٍ على الفرز والتمييز، لتقتبس من كل ذلك ما يُعينها على صنع الغد المنتظر المنشود، الذي لا يهدِّد أَمْنَه طامع، ولا يدنِّس ترابَه معتدٍ أثيم، ولا يقف أمامَ زحفِه الحضاريِّ الخَلاّق مُشَرِّقٌ أو مُغَرِّب.

وليس من مجالٍ لذلك الدرس والاستلهام والتفاعل، أفضل من معرفة سِيَر أولئك الروّاد الأفذاذ الذين آمنوا بالله فاطمأنَّتْ قلوبهم، وعاهدوا على الفداء والوفاء فصدقوا في عهودهم، وبذلوا الجهود المضنية والدماء الزكية تحت لواء الحق، ليجعلوا كلمة الله هي العليا؛ وراية القرآن هي الخفّاقة؛ وصوت العقيدة هو الصوت المُدَوّي في أرجاء الأرض؛ كلِّ الأرض.

وكلُّ أملي أن تكون هذه الصفحات اليسيرة قادرة على إيضاح الصورة المطلوبة، في التعريف بسيرة هؤلاء الرجال، فيما بلغنا خبرُه من جوانب حياتهم، ومجالات جهدهم وجهادهم، وفي إبراز مواقفهم البطولية الشجاعة وأعمالهم النضالية الفذة، في الدفاع عن عقيدتهم السامية وحمايتها من كيد الكائدين؛ وعدوان الناكثين والقاسطين؛ وتزييف المزيِّفين.

والله المسؤول أن يتقبَّل ذلك بِقَبُولِهِ الحسن الجميل، وأن يوفِّق للمزيد من هذه الدراسات المعنيَّة بأولئك المجاهدين المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، إنه ـ تعالى ـ نِعْمَ المسدِّد والموفِّق والمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد حسن آل ياسين

[١٨]

عبد الله بن بُديل ابن ورقاء

عبدالله بن بديل ابن ورقاء

عبدالله بن بُدَيل بن وَرْقاء بن عبد العُزّى بن ربيعة بن جُزَيٍّ بن عامر بن عَبْد بن مازن بن عَدِيّ بن عمرو بن عامر بن لُحَيّ[1]؛ من ربيعة؛ من خزاعة[2] صحابي معروف ومجاهد مغوار.

وأورد الخطيب البغدادي نسبه بالنص الآتي: عبدالله بن بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبدالعزى بن ربيعة بن جُزيّ ـ وقيل حَزْن ـ بن عامر بن مازن بن عدي بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء»[3].

وكنيته: «أبو علقمة»[4] و«أبو ربيعة»[5].

وأبوه: هو الصحابي الجليل بُدَيْل بن ورقاء، و«كان أدهى العرب»[6]، وهو «من كبار مسلمة الفتح، وقد قيل إنه أسلم قبل الفتح»[7]، وهذا القول هو الأصح، فقد روى الطبري أن بديلاً كان قد بايع

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٩.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ٣٣٩ والاستيعاب: ١/ ١٧٢.

(٣) تاريخ بغداد: ١/ ٢٠٤. ويراجع أيضاً في سلسلة النسب: طبقات ابن سعد: ٤/ ق٢/ ٣١ و٥/ ٣٣٩ وأسد الغابة: ١/ ١٧٠ والإصابة: ١/ ١٤٥.

(٤) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٢٠ و٣٣١.

(٥) الاستيعاب: ٢/ ٢٥٩.

(٦) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٩.

(٧) طبقات ابن سعد: ٤/ق٢/ ٣١ والاستيعاب: ١/ ١٧٢ وأسد الغابة: ١/ ١٧٠ والإصابة: ١/ ١٤٥.

النبي (ص) خارج مكة قبل أن يدخلها فاتحاً[١]، ولكنه روى في قضية الحديبية مجيء خزاعة وعلى رأسهم بديل بن ورقاء إلى النبي (ص)، ووصف خزاعة بأنهم «كانوا عَيْبَة نصح رسول الله (ص) من أهل تهامة»[٢]، وكل ذلك يدل على أن إسلامهم كان قبل الفتح بحين، كما قد يؤيِّد ذلك بل يؤكِّده دخول خزاعة في وثيقة صلح الحديبية في عقد رسول الله (ص) وعهده[٣]، وذهاب بديلٍ ونفرٍ من قومه خزاعة إلى النبي (ص) في المدينة لإخباره بعدوان قريش عليهم ونقض ما كان بينهم وبين رسول الله (ص) من عهدٍ وميثاق، فكان سبباً في عزم النبي على إعداد العدَّة لفتح مكة[٤]. وهذا كله دالٌّ على قدم إسلامه كما قال ابن مندة وأبو نعيم[٥].

وكان النبي (ص) قد خصَّ بديلاً بكتابٍ دعاه فيه وقومه إلى الإسلام[٦]، وقال سلمة بن بديل فيما رُوِي عنه: «دفع إليَّ أبي بديل بن ورقاء كتاباً فقال: يا بُنيَّ؛ هذا كتاب رسول الله (ص) فاستوصوا به، فلن تزالوا بخيرٍ ما دام فيكم»[٧]، ومما جاء في هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى بديل بن ورقاء وسروات بني عمرو، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٥ والاستيعاب: ١/ ١٧٢ وأسد الغابة: ١/ ١٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٢٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٢٥ ودلائل النبوة: ٤/ ١٠٢. وربما كان منشأ ذلك ما رواه محمد بن حبيب في المنمق: ٨٩ من وجود حلف سابق بين خزاعة وبني هاشم.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٣ و٤٤ ودلائل النبوة: ٥/ ٦.

(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٧ و٤٢ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٤، ٤٦ ودلائل النبوة: ٥/ ٧ ـ ٨.

(٥) أسد الغابة: ١/ ١٧٠.

(٦) طبقات ابن سعد: ٤/ ق٢/ ٣١ وتاريخ بغداد: ١/ ٢٠٤ والاستيعاب: ١/ ١٧٢.

(٧) الإصابة: ١/ ١٤٦.

بعد: . . . إن أكرم أهل تهامة عَليَّ أنتم، وأقربهم لي رحماً ومَنْ معكم من المُطيَّبين. وإني قد أخذتُ لمن هاجر منكم مثل ما أخذتُ لنفسي ولو هاجر بأرضه غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجّاً . . . ، وإنكم غير خائفين من قبلي ولا مُحْصَرين»[١]، «وكان الكتاب بخطّ علي بن أبي طالب (ع)»[٢].

وشارك بديل في فتح مكة، ورُويَ عنه قوله: «لما كان يوم الفتح قال لي رسول الله (ص) ورأى بعارضي سواداً: كم سنوكَ؟ قلتُ: سبع وتسعون، فقال: زادك الله جمالاً وسواداً»[٣].

ولم تمنعه هذه السن المتقدمة من الإسهام والحضور في غزوات حنين والطائف وتبوك. وقد ولآه النبي (ص) أمر سبي هوازن في غزوة حنين، وأمره أن يحبس النساء والأموال بالجعرانة معه حتى يقدم[٤].

ويعث رسول الله (ص) بديلاً وعمرو بن سالم وبُسْر بن سفيان إلى بني كعبٍ يستنفرونهم إلى عدوهم حين أراد أن يخرج إلى تبوك، وشهدوا جميعاً مع رسول الله (ص) تبوك»[٥].

وشهد بديل في خاتمة المطاف حجة الوداع مع رسول الله (ص)[٦]، وتوفي قبل وفاة النبي (ص)[٧].

وكان لبديلٍ من الأولاد غير عبدالله ـ موضوع البحث ـ:

(١) أسد الغابة: ١/ ١٧٠.
(٢) أسد الغابة: ١/ ١٧٠ والإصابة: ١/ ١٤٦.
(٣) الإصابة: ١/ ١٤٦.
(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ ق٢/ ٣١ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٦٥ والاستيعاب: ١/ ١٧٢ وأسد الغابة: ١/ ١٧٠ والإصابة: ١/ ١٤٥.
(٥) طبقات ابن سعد: ٤/ ق٢/ ٣١.
(٦) المصدر نفسه: ٤/ ق٢/ ٣١.
(٧) أسد الغابة: ١/ ١٧٠.

١ ـ أبو عمرو بن بديل:

وكان من رؤساء أهل مصر الذين حاصروا عثمان[١]، وكان قد خرج على رأس عددٍ من المصريين في شوال سنة خمس وثلاثين[٢] ليوافوا عثمان فيستعتبوه، فإن أعتب وإلا رأوا رأيهم فيه، وأسفرت المفاوضات بين وفود الحواضر الإسلامية وبين الخليفة عن تعهد عثمان بإعطاء كتابٍ يلتزم فيه بالعمل بكتاب الله وسنة نبيِّه، وأشهد على ذلك عدداً من كبار الصحابة، وأرسل نسخاً منه إلى جميع الحواضر الثائرة التي أرسلتْ مندوبيها إلى المدينة المنورة.

و«لما شخص المصريون بعد الكتاب الذي كتبه عثمان فصاروا بأيْلَة أو بمنزلٍ قبلها؛ رأوا راكباً خلفهم يريد مصر، فقالوا له: مَنْ أنتَ؟ فقال: رسول أمير المؤمنين إلى عبدالله بن سعد؛ وأنا غلام أمير المؤمنين، وكان أسود»، وبعد الاستجواب والمساءلة فتَّشوا الرجل؛ فعثروا عنده على كتابٍ من الخليفة موجَّهٍ إلى عامله على مصر، فقُرِىء فإذا مكتوب فيه:

«أمّا بعد: فإذا قدم عليك أبو عمرو بن بديل فاضربْ عنقه، واقطعْ يَدَي ابن عديس وكنانة وعروة، ثم دعهم يتشحطون في دمائهم حتى يموتوا، ثم أوثِقْهم على جذوع النخل».

فرجع الثوار عودهم على بدئهم حتى دخلوا المدينة، «وجاء المصريون إلى دار عثمان فأحدقوا بها»[٣]... ثم كان ما كان.

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٩ والإصابة: ٤/ ١٣٩.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٩ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٨ والجمل: ٦٩.
(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٤ ـ ٦٦.

٢ ـ حبيب بن بديل:

«من الصحابة، روى حديثَه ذرٌّ بن حبيش قال: خرج عليٌّ من القصر فاستقبله ربكان متقلدو السيوف فقالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا مولانا ورحمة الله وبركاته. فقال عليٌّ: مَنْ هاهنا من أصحاب النبي (ص)، فقام أثنا عشر: منهم قيس بن ثابت ابن شماس وهاشم بن عتبة وحبيب بن بديل بن ورقاء فشهدوا أنهم سمعوا النبي (ص) يقول: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»[١].

٣ ـ سلمة بن بديل:

وكانت له صحبة[٢].

٤ ـ عبد الرحمن بن بديل:

من الصحابة، ويروى أن علياً (ع) لما تولّى الخلافة «عقد له عقداً وأمره بالمسير إلى أرض الماهَيْن [الدِّينور ونَهَاوند] أميراً وعاملاً عليها»[٣]. وقد استشهد عبدالرحمن محارباً في جيش عليّ في صفين[٤].

٥ ـ عثمان بن بديل:

وقد استشهد في حرب الجمل[٥].

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٢٦٩، وورد الخبر في الإصابة: ١/ ٣٠٤ مروياً عن ابن عقدة في كتاب الموالاة.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٨٥ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣٤ والإصابة: ٢/ ٦٢.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٦٩.

(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٦ والاستيعاب: ٢/ ٢٥٩ و٤٠٣ وأسد الغابة: ٣/ ١٢٤ و٢٨٢ والإصابة: ٢/ ٣٨٤.

(٥) وقعة صفين: ٢٤٥ ومروج الذهب: ٢/ ٢٤٦ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٦ والإصابة: ٢/ ٦٢ و٣/ ٧٩.

٦ ـ محمد بن بديل:

من الصحابة، وكان هو وأخوه عبدالله رسولَيْ رسول الله (ص) إلى أهل اليمن[١]، وقيل: هما عبدالله وعبدالرحمن. وقد شهد محمد مع عليّ (ع) حرب الجمل ثم صفين، واستشهد فيها[٢].

٧ ـ نافع بن بديل:

وكان قديم الإسلام، وهو أقدم إسلاماً من أبيه، وقد استشهد يوم بئر معونة؛ لمّا بعث رسول الله (ص) المنذر بن عمرو إلى هناك، ورثاه الصحابي عبدالله بن رواحة قائلاً:

رحم اللهُ نافعَ بن بديل ... رحمة المبتغي ثواب الجهادِ
صابراً صادق اللقاء إذا ما ... أكثر القومُ قال قولَ السدادِ[٣]

وسُمّي في بعض المصادر رافعاً، وعدَّ ابنُ الأثير ذلك وهماً[٤].

❁ ❁ ❁

وُلِد عبدُالله في دار بني قومه في تهامة، ونشأ هناك في ظلال أبيه ـ سيد خزاعة وزعيمهم الكبير ـ نشأة أبناء الرؤساء وأولاد الذوات، وكان من فضل تلك الظروف المحيطة به وعطائها الطبيعي له أن يصبح مقدَّم أقرانه وطليعة أخدانه، بما أتقن من فروسية ورَمْي؛ وما مارس من شؤون

---

(١) تاريخ بغداد: ١/ ٢٠٤.

(٢) تاريخ بغداد: ١/ ٢٠٤ والإصابة: ٣/ ٣٥١.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٨ وطبقات ابن سعد: ٤/ق٢/ ٣١ والاستيعاب: ٣/ ٥١٢ وجمهرة أنساب العرب: ٢٣٩ وأسد الغابة: ٥/ ٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٧٤ والتاريخ الكبير: ١/ ٢٢٤ والإصابة: ٣/ ٥١٤، وورد البيتان المذكوران ومعهما ثالث معزوة لحسان بن ثابت في ديوانه: ١٣٦.

(٤) أسد الغابة ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

الحرب والغزو؛ وما عايش به الصحراء وأهوالها معايشة العارف الخبير، إذ تعاونت هذه العوامل كلها على تهذيبه وصقله؛ وتربيته ونضجه، لتجعل منه ـ من ثَمَّ ـ فتى الفتيان وزين الشباب.

ولمّا أرسل الله تعالى رسوله محمداً (ص) بالهدى والفرقان وكلمة التوحيد؛ آمن مَنْ آمن؛ وكفر من كفر.

وكان عبدالله بن بديل ممن سبق إلى الإسلام والنبي ما زال بعدُ في مكة المكرمة، ثم هاجر في وقتٍ لاحق إلى المدينة المنورة فأُدرج في عداد «المهاجرين» في نصِّ الزهري والبخاري[1]. وقد أغفل كثير من المؤرخين ذكر ذلك واكتفوا بالقول بكونه قد أسلم قبل الفتح[2]، بلا تحديدٍ لتلك القَبْلية على نحوٍ واضح.

ولعلَّ فيما وُصِف به أبناء بديل بن ورقاء من كونهم «من فضلاء الصحابة وجلَّتهم»[3] ما يؤيِّد أو يُؤكِّد سبق إيمانهم وتقدُّم إسلامهم.

وزعم سيف بن عمر ـ وهو الراوي الكذاب المشهور بالوضع والتلفيق ـ أن عبدالله بن بديل كان «يوم قُتِل بصفين ابن أربع وعشرين سنة، وهو أيام عُمَرَ صبي»[4]، وتلك أكذوبة من جملة أكاذيب سيف الصارخة التي يفضحها ما تقدمت روايته عن الزهري والبخاري وابن

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٦ و٧١ والإصابة: ٢/ ٢٧٢ و٢٧٣.
(٢) الاستيعاب: ٢/ ٢٥٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٢٤.
(٣) الاستيعاب: ٣/ ٥١٢ وأسد الغابة: ٥/ ٧.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ١٣٩.

عبدالبر وابن الأثير والذهبي وابن حجر؛ من إسلامه قبل الفتح وعدِّه من المهاجرين، وما يأتي من الروايات المماثلة في دلالتها على ذلك فيما بعد.

ويبدو أن سُكْنى عبدالله في تهامة وبُعْده عن مواقع الأحداث قد حرمه من المشاركة في المعارك الإسلامية الأولى التي خاض غمارها المسلمون في بدايات الهجرة، ولكنه لم يُحْرَم من الإسهام في حروب الفتح وحنين والطائف وتبوك(١).

وذكر المؤرخون في أخبار عبدالله في عصر النبوة: أنه وأحد أخَويه ـ عبدالرحمن أو محمد ـ كانا رسولَيْ رسول الله (ص) إلى اليمن(٢).

وسكتت المصادر التاريخية فلم ترِوِ لنا من سيرة هذا الرجل خلال الحقبة النبوية الحافلة ما يزيد على ذلك، وربما كان للسياسة الحاكمة التي أملت التاريخ أو هيمنت على إملائه فيما بعد؛ يدٌ في التعتيم على أخباره وأخبار نظرائه من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

---

(١) الاستيعاب: ١/ ١٧٢ و٢/ ٢٥٩ وأسد الغابة: ١/ ١٧٠ و٣/ ١٢٤ والإصابة: ٢/ ٢٧٢.

(٢) تاريخ بغداد: ١/ ٢٠٤ والإصابة: ٢/ ٢٧٢.

وتوفي رسول الله (ص) في أوائل السنة الحادية عشرة من الهجرة؛ فاهتز الكيان الوليد هزّاً عنيفاً، وانقلب الناس على الأعقاب كما أخبر أصدق القائلين في محكم ذكره المجيد.

ولم نجد في أخبار عبدالله التي رواها المؤرخون ـ وهي مقتضبة كل الاقتضاب ـ ما ينص على أي دورٍ له فيما شهد المجتمع الإسلامي إثر وفاة النبي (ص) من أحداث وأعاصير.

وكان من المفروض أن يبرز هذا الصحابي الجليل وهو يعاصر تلك الأيام العصيبة وطوارقها الهائلة المذهلة؛ بموقفٍ معيَّن ورأي خاص في منهج الحكم وطريقة الاستخلاف، لأنه «كان سيد خزاعة»[1] و«من وجوه الصحابة»[2] والمعدود أحد خمسة أو ستة من مشاهير دهاة العرب[3]، ولعل رقباء التاريخ الدامي قد تعمَّدوا إغفال ذكر موقف عبدالله وأضرابه من الصُّحب الأُمناء الميامين، لئلا يخدش ذلك صفاء ما نمّقوا من صفحات؛ وما أرادوا لها أن تبدو به أمام الناظرين؛ ناصعة المحيّا وضّاءة القسمات.

وعلى كل حال؛ فقد شارك صاحبنا في حروب الفتوح الإسلامية الأولى أسوةً بجميع رفاق سلاحه وإخوان دينه ودربه، ولم يكن لهم من

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٢٥٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٢٤.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٢٥٩.

(٣) المحبّر: ١٨٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٠٥ والغيث المسجم: ١/ ٧٥.

هدفٍ وراء ذلك إلاّ نشر الحق وإبلاغ الدعوة المحمدية وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وكان من جملة مشاركاته المأثورة ما رواه البلاذري وغيره من أن الخليفة عمر بن الخطاب قد وجَّهه إلى أصبهان في سنة ٢٣ هـ على رأس ألْفَي راجل وفارس من جند أهل البصرة، «ففتح عبدالله بن بديل جَيَّ صلحاً بعد قتالٍ، على أن يؤدي أهلها الخراج والجزية... وغلب ابنُ بديل على أرض أصبهان وطساسيجها»، «وسار ابن بديل في نواحي أصبهان سهلها وجبلها فغلب عليها، وعامَلَهم في الخراج نحو ما عاملهم عليه أهل الأهواز»، واندفع بعد فتح أصبهان وأطرافها إلى ملاحقة يزدجرد بن شهريان بن كسرى ففرَّ يزدجرد هارباً فلم يظفر به عبدالله[١].

وفي أيّام خلافة عمر أيضاً فَتَحَ عبدُ الله بن بديل كرمانَ، ثم أتى الطَّبَسَيْن وهما حِصنان معروفان في كرمان ويُعَدّان بابَيْ خراسان؛ ففتحهما أيضاً[٢].

وروى الرواة أن عبدالله كان العامل على أصبهان إلى أن مضت من خلافة عثمان سنة، ثم ولاّها عثمانُ السائبَ بن الأقرع[٣].

وَلما غزا عبدُالله بن عامر والي البصرة أصبهان في سنة ٢٩ هـ ـ وكان ذلك للمرة الثانية فيما يبدو من سياق النصوص ـ كان على مقدّمة جيشه عبدالله بن بديل، فأتى أصبهان فصالح أهلها[٤].

❀ ❀ ❀

---

(١) فتوح البلدان: ٣٠٨ ـ ٣١١ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) فتوح البلدان: ٣٩٤ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٨٠ ومعجم البلدان: ٦/ ٢٧.
(٣) يراجع المصدران المذكوران في الهامش (٤) المتقدم.
(٤) تاريخ خليفة: ١/ ١٦٧ والاستيعاب: ٢/ ٢٥٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤.

وثار المسلمون على عثمان من كل حدب وصوب، مستنكرين الفساد والانحراف الطاغي على قيادة الدولة ومَنْ بيده الحل والعقد من رجالها الكبار، وتجمع ممثلوهم في المدينة المنورة يطالبون باسم جماهيرهم بعودة الخليفة إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ص).

وكان عبدالله بن بديل أحد المشاركين في تلك الثورة، بل كان من «القوّاد الذين أقبلوا إلى عثمان» كما يقول الأصمعي[(١)].

وعلى الرغم من ندرة المعلومات المروية عن مواقف المعارضة الإسلامية للخليفة؛ فقد روى الطبري في أخبار تلك الأحداث إن الثوار لما أطافوا بدار عثمان بعد أن أبى إلاّ الإصرار على موقفه، «أرسل إلى حشمه وخاصته فجمعهم، فقام رجل من أصحاب النبي (ص) يقال له نِيَار بن عِياض ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فنادى: يا عثمان. فأشرف عليه من أعلى داره. فناشده الله وذكّره الله لَمَا أعتزلهم. فبينا هو يراجعه الكلام؛ إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم».

«فقالوا لعثمان عند ذلك: ادفع إلينا قاتلَ نيار بن عياض فلنقتله به».

«فقال: لم أكن لأقتل رجلاً نَصَرَني؛ وأنتم تريدون قتلي».

«فلمّا رأوا ذلك ثاروا إلى بابه فأحرقوه».

«وخرج عليهم مروان بن الحكم من دار عثمان في عصابة، وخرج سعيد بن العاص في عصابة، وخرج المغيرة بن الأخنس الثقفي في عصابة، فاقتتلوا... فحمل المغيرة بن الأخنس الثقفي على القوم... فحمل عليه عبدُالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو يقول:

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٢٩٢.

إنْ تكُ بالسيف كما تقولُ فاثبتْ لقِرنٍ ماجدٍ يصولُ
بمشرفيّ حدُّه مصقولُ

«فضربه عبدُالله فقتله»[١].

وروى ابن عبد ربّه: أن ابن بديلٍ «دخل على عثمان وبيده سيف، وكانت بينهما شحناء، فضربه بالسيف، فاتّقاه بيده فقطعها»[٢].

ولم يوضح لنا هذا الراوي ولا المرويُّ عنه تفاصيل تلك «الشحناء» وأسبابها، ولعلّهم أغفلوا ذلك ليوهموا قراءهم بأن ثورة المسلمين على الخليفة؛ وتلك الغضبة الخزاعية عليه لم تكن بدافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما كان سببها الأول والأخير هو «الشحناء»؛ ولا شيء غيرها!!!.

وما أبلغ ما قاله الأستاذ الأردني المعاصر الدكتور حسن أحمد الحياري وهو يتحدث عن أمثال هذه الأقاويل:

إن «الهوى الذي تموج به النفوس البشرية كان وراء الانحراف الحادّ عند المسلمين، حيث ذهب رجال الهوى والشهوة إلى تحرير الفتاوى الجائرة والدسّ في السنّة النبوية الشريفة؛ بما ينسجم مع أهواء أسيادهم، لتثبيت دعائم الحكم والسلطان للذين لا يستحقونه»[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد تأزّم الوضع بين الثوار وحاكمهم حتى أسفرت الحال عن خليفة مقتولٍ ودمٍ مطلول وعِقدٍ مفلول وتوجُّهٍ صاخب صوب عليّ (ع)؛ لغرض بيعته وإعادة الحق إلى نصابه.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٢.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٢٩٨.
(٣) أُصول التربية: ١٤١.

ورضخ عليٌّ لإرادة تلك الجماهير المسلمة، بعد تردُّدٍ وتلكُّؤ وتمهُّل؛ وبعد قراءةٍ خبيرة منه للمستقبل واستشرافٍ ذكيّ للغيب وما يحمل في طياته من توقعات ونذر؛ وما يضم من فواجع وآلام، لعلمه ـ سلام الله عليه ـ بما سيفعله الطلقاء والمؤلّفة قلوبهم ومن كان على شاكلتهم من زمر النفعيين والطامعين؛ من أفاعيل الجاهلية الجهلاء؛ ومؤامرات الغدر النكراء، وما سيرفعون من شعارات كاذبة، وما يطرحون من مزاعم باطلة، وما يطلقون من ادعاءات جوفاء ما أنزل الله بها من سلطان.

وما إن شاع بين الناس رضوخ عليّ للأمر الواقع حتى بادر الجميع ـ وفي مقدمتهم الغيارى الصادقون ـ إلى البيعة زرافات ووحدانا. وكان عبدالله بن بديل ـ وهو الصحابي المجاهد الصلب الإيمان ـ في الطليعة من أولئك المبادرين[(١)] المتحمسين لهذه الخلافة الراشدة؛ والمناضلين في سبيل إرساء أركانها وسلامة مسيرتها، حتى أصبح معدوداً «من أفاضل أصحاب عليّ وأعيانهم»[(٢)].

❀ ❀ ❀

ولما تجمّع أدعياء الدين وأبناء الطلقاء في حلفهم المشؤوم غير المقدّس لحرب إمام زمانهم، كان من الطبيعي جداً أن ينبري ابن بديل ـ وهو المؤمن المحارب الشديد الحماس في الله ـ للمشاركة في هذا الميدان، ردّاً على بغي البغاة وعدوان المعتدين من ناكثين وقاسطين ومتمردين.

---

(١) الجمل: ٥٠ و٥٢.

(٢) أسد الغابة: ظ/ ١٢٤.

وكانت أُولى تلك المشاركات إسهامه الفعّال في حرب أتباع الجمل الذين سمّاهم رسول الله (ص): الناكثين[١].

وروى الرواة: أن الجيشين لما صُفّا للحرب أصدر عليٌّ (ع) وصاياه المعروفة، وأعلن أوامره لأصحابه: أن لا يقتلوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح، ولا يكشفوا عورة، ولا يهيجوا أمرأة، ولا يمثّلوا بقتيل. «فبينا هو يوصي قومه إذْ أظلَّهم نبلُ القوم فقُتِل رجل من أصحاب أمير المؤمنين، فلما رآه قتيلاً قال: اللهم أشهد».

«ثم رُمِيَ ابنُ عبدالله بن بديل فقُتِل[٢]، فحمله أبوه عبدالله ـ ومعه عبدالله بن العباس ـ حتى وَضَعاه بين يدي أمير المؤمنين. فقال عبدالله بن بديل: حتى متى يا أمير المؤمنين نُدلي نحورنا للقوم يقتلونا رجلاً رجلاً، قد ـ واللهِ ـ أعذرتَ إن كنتَ تريد الإعذار». فأمر عليٌّ (ع) ابنه محمداً ـ وكان حامل رايته ـ أن يتقدَّم[٣].

وجاء في الرواية أن عبدالله بن بديل التقى السيدة عائشة في هذه الحرب فقال لها: «أُنشِدُكَ الله، ألم نسمعكِ تقولين: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: عليٌّ مع الحق والحق مع عليّ؛ لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض. قالت: بلى. فقال لها: إذا كان ذلك فِلمَ هذا؟. قالت: دعوني؛ واللهِ لوددتُ أنهم تفانوا جميعاً»[٤].

---

(١) يراجع في هذه التسمية النبوية: الاستيعاب: ٣/ ٥٣ وتاريخ بغداد ٨/ ٣٤١ و١٣/ ١٨٧ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠١ و٨/ ٢٩٧ و١٣/ ١٨٣ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨.

(٢) كذا في كتاب الجمل، ولكن المقتول في رواية المسعودي أخو عبدالله ولم يُسَمّه (مروج الذهب: ٢/ ٢٤٦)، وربما استشهد ابنه وأخوه كلاهما في هذه الوقعة.

(٣) الجمل: ١٨٢.

(٤) الجمل: ٢٣١.

وفي نصّ ابن عبد ربّه الأندلسي عن ابن أَبْزَى قال:

«انتهى عبدالله بن بديل إلى عائشة وهي في الهودج فقال: يا أُم المؤمنين!، أنشِدُكِ بالله؛ أتعلمين أني أتيتكِ يوم قتل عثمان فقلتُ لكَ: إن عثمان قد قُتِل فما تأمرينني؟ فقلتِ لي: الزم علياً. فوالله ما غيَّر ولا بدَّل، فسكتت، ثم أعاد عليها فسكتت، ثلاث مرّات. فقال: اعقروا الجمل، فعقروه».

قال الراوي: «فنزلتُ أنا وأخوها محمد بن أبي بكر فاحتملنا الهودج حتى وضعناه بين يدي عليّ، فسُرَّ به، فأُدْخِل في منزل عبدالله بن بديل»[1].

وأُثِر عن ابن بديل في هذه الحرب بيتان من الشعر قال فيهما:

يا قوم للخطَّة العظمى التي حدثتْ حرب الوصيِّ وما للحرب من آسِ
الفاصل الحكم بالتقوى إذا ضربتْ تلك القبائل أخماساً لأسداسِ[2]

❀ ❀ ❀

ثم كانت مشاركته الثانية في حرب «القاسطين» في صفين.

وكان هذا المجاهد الشجاع من المتحمسين لحرب معاوية وأتباعه المرتزقة النفعيين، للقضاء على بؤرة البغي والغدر والعدوان في داخل الكيان الإسلامي، وقد رُوي عنه قوله لعليّ (ع) في ذلك:

«يا أمير المؤمنين؛ إن القوم لو كانوا الله يريدون أو لله يعملون ما خَالفُونا، ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة؛ وحبّاً للأثرة؛ وضَنّاً بسلطانهم؛ وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم، وعلى إحَنٍ في أنفسهم

(١) العقد الفريد: ٤/ ٣٢٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٤٦ وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٣.

وعداوةٍ يجدونها في صدورهم، لوقائع أوقعتَها يا أمير المؤمنين بهم قديمةٍ قتلتَ فيها آباءهم وإخوانهم».

ثم التفت إلى مَنْ حوله من الناس فقال:

«فكيف يبايع معاويةُ علياً وقد قتل أخاه حنظلة وخالَه الوليد وجدَّه عتبة في موقف واحد. واللهِ ما أظن أن يفعلوا ولن يستقيموا لكم دون أن تُقَصَّد فيهم المُرّان؛ وتُقَطَّع على هامهم السيوف؛ وتُنْثَر حواجبُهم بعُمِدِ الحديد؛ وتكون أُمور جمَّة بين الفريقين»[١].

ولما أراد علي (ع) انتقاء قادة جيشه واختيار امرائه كان عبدالله ابن بديل أحد أولئك الذين وقع عليهم الاختيار؛ فجعله أمير الرجّالة[٢] ـ أي المشاة ـ، ولا عجب ولا غرو في هذا التعيين، فقد كان من الأبطال المغاوير، وهو الذي وصفه عدوه الألدُّ معاوية بأنه «فاعل الأفاعيل»[٣]؛ وإنه «سيد من سادات خزاعة غير مدافع»[٤]، واتفقت الرواية على أن دهاة العرب كانوا يومذاك خمسة ـ وقيل ستة ـ: اثنين من قريش وواحداً من ثقيف وواحداً من الأنصار وواحداً من المهاجرين هو عبدالله بن بديل بن ورقاء[٥].

وقد وضع أمير المؤمنين (ع) هؤلاء الرجّالة في ميمنة جيشه؛ وأصبح ابن بديل قائد الميمنة[٦] بحكم كونه أمير الرجّالة، وكان «قرّاء

---

(١) وقعة صفين: ١٠٢ وفتوح ابن أعثم: ٢/٤٤٧ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٨٠.

(٢) تاريخ خليفة: ١/ ٢٢١ ووقعة صفين: ٢٠٥ والاستيعاب: ٢/ ٢٥٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٢٤ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٦ والإصابة: ٢/ ٢٧٢.

(٣) وقعة صفين: ٤٥٥ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٩٢.

(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٩.

(٥) المحبّر: ١٨٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٦ و٧١ والإصابة: ٢/ ٢٧٢.

(٦) وقعة صفين: ٢٠٨ و٢٣٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥١ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٩ و٥/ ١٧٨.

أهل العراق مع ثلاثة نفرٍ: مع عمار بن ياسر ومع قيس بن سعد ومع عبدالله بن بديل»[١].

وطال مكث الجيشين في صفين بلا حرب، وكان هدف علي (ع) من وراء ذلك الإمهال إقامة الحجة على الجهلة والمغرَّر بهم من أتباع معاوية لعلهم برعوون ويندمون، فلما امتدَّ أجل الانتظار دخل عبدالله ـ وبصحبته أخوه عبدالرحمن ـ على عليّ (ع) فقالا:

«حتى متى لا تقاتل القوم»؟.

«فقال عليٌّ: لا تعجلا».

«فقال عبدالله بن بديل: ما تنتظر بهم ومعك أهل البصائر والقرآن»؟.

«فقال: اهدأْ أبا علقمة».

قال: إني أرى أن تقاتل القوم وتتركنا نبيِّتهم».

«فقال: «يا أبا علقمة؛ لا تبيِّت القوم ولا تدفِّف على جريحهم ولا تطلب هاربهم»[٢].

ثم لاح في الأفق ما يشعر بأن الحرب على وشك الوقوع فقام عبدالله في أصحابه فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي (ص)، ثم قال:

«إن معاوية أدَّعى ما ليس له، ونازع الأمرَ أهلَه ومَنْ ليس مثلَه، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزيَّن لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حبَّ الفتنة، ولبَّس عليهم الأمر،

---

(١) وقعة صفين: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥١ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٧٨.

(٢) أنساب الأشراف ٢/ ٣٣١.

وزادهم رجساً إلى رجسهم، وأنتم ـ واللهِ ـ على نورٍ من ربكم وبرهانٍ مبين. قاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشونهم، وكيف تخشونهم وفي أيدكم كتاب من ربكم ظاهر مبروز. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وقد قاتلتُهم معه النبي (ص)، واللهِ ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبَرّ، قوموا إلى عدوِّ الله وعدوِّكم»[(١)].

ولما بدأت الحرب واستعر أُوارها «زحف عبدالله بن بديل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة وهو على ميسرة أهل الشام، فلم يزل يحوزه ويكشف خيله من الميسرة؛ حتى اضطرهم إلى قبة معاوية عند الظهر»[(٢)].

وكان على عبدالله يومئذٍ «سيفانِ ودرعان، فجعل يضرب الناسَ بسيفه قُدُماً وهو يقول:

لم يبقَ إلاّ الصبر والتوكُّلْ   وأَخْذُكَ الترسَ وسيفاً مِقْصَلْ
ثم التمشّي في الرعيل الأوَّلْ   مشيَ الجمال في حياض المنهلْ
والله يقضي ما يشا ويفعلْ

«فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية والذين بايعوه على الموت، فأمرهم أن يصمدوا لعبدالله بن بديل، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفهري وهو في الميسرة أن يحمل عليه بجميع مَنْ معه، واختلط الناس واضطرم الفيلقان: ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام».

«وأقبل عبدالله بن بديل يضرب الناس بسيفه قدماً حتى أزال

(١) وقعة صفين: ٢٣٤ والاستيعاب: ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥١ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٨٦ ـ ١٨٧. وصدر الخطابة في الإصابة: ٢/ ٢٧٢.
(٢) وقعة صفين: ٢٣٤ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥١.

معاوية عن موقفه، وجعل ينادي: يا لثاراتِ عثمان ـ يعني أخاً كان له قد قُتِل ـ، فظن معاوية وأصحابه أنه إنما يعني عثمان بن عفان»[1].

«وتراجع معاوية عن مكانه القهقرى كثيراً، وأشفق على نفسه، وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية وثالثة يستنجده ويستصرخه. وحمل حبيبٌ حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق... ولجَّج ابن بديل في الناس وصمَّم على قتل معاوية، وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه، حتى انتهى إليه ومعه عبدالله بن عامر واقفاً. فنادى معاوية بالناس: ويلكم! الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح، فأقبل أصحاب معاوية على عبدالله بن بديل يرضخونه بالصخر حتى أثخنوه، وقُتِل الرجل».

وفي لفظ الطبري:

«فمضى نحو معاوية وحوله كأمثال الجبال، وفي يده سيفان، وقد خرج فهو إمام أصحابه، فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله، حتى قتل سبعة، ودنا من معاوية، فهض إليه الناس من كل جانب، وأُحيط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتى قُتِل».

«فلما قُتِل أرسل إليه فقال: انظروا مَنْ هو؟، فنظر إليه ناس من أهل الشام فقالوا: لا نعرفه»، فأقبل معاوية إليه حتى وقف عليه «فقال: بلى؛ هذا عبدالله بن بديل. واللهِ لو استطاعت نساءُ خزاعة أن تقاتلنا فضلاً على رجالها لفعلتْ... هذا واللهِ كما قال الشاعر:

أخو الحربِ إن عضَّتْ به الحربُ عضَّها
وإن شمَّرتْ يوماً به الحربُ شَمَّرا

(١) وقعة صفين: ٢٤٥ وشرح نهج البلاغة: ٥/١٩٦، والمشاطير الثلاثة الأولى من الرجز في مروج الذهب: ٢/٢٦٦.

ويقول نصرٌ في روايته:

«وأقبل إليه معاوية وعبدالله بن عامر حتى وقفا عليه، فأما عبدالله بن عامر فألقى عمامته على وجهه، وترحَّم عليه، وكان له من قبل أخاً وصديقاً. فقال معاوية: أكشف عن وجهه، فقال: لا واللهِ؛ لا يُمَثِّل به وفيَّ روح. فقال معاوية: اكشف عن وجهه فإنّا لا نمثّل به؛ فقد وهبتُه لك. فكشف ابن عامر عن وجهه فقال معاوية: هذا كبش القوم وربِّ الكعبة... واللهِ ما مَثَلُ هذا إلاّ كما قال الشاعر:

أخو الحربِ إن عضَّتْ به الحربُ عضَّها
وإن شمَّرتْ عن ساقِها الحربُ شَمَّرا
ويحمي إذا ما الموت كان لقاؤه
قِدى الشِّبر؛ يحمي الأنفَ أن يتأخَّرا
كليثٍ هزبرٍ كان يحمي ذِماره
رَمَتْه المنايا قصدَها فتقطّرا

«مع أن نساء خزاعة لو قدرتْ على أن تقاتلني فضلاً عن رجالها فَعَلَتْ»[1].

وفي نصِّ المسعودي في الخبر:

«أراد معاوية أن يمثِّل به، فقال عبدالله بن عامر ـ وكان صديقاً لابن بديل ـ: لا واللهِ؛ لا تركتُك وإياه. فوهبه له، فغطّاه بعمامته فواراه، فقال له معاوية: قد واللهِ وارَيْتَ كبشاً من كباش القوم وسيداً

(١) يراجع في النص المتقدم: وقعة صفين: ٢٤٦ ـ ٢٤٧ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧، وبعضه في أنساب الأشراف: ٢/ ٣١٠ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٥ و١٨ و٢١ و٢٣ و٢٤ والاستيعاب: ٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠ وأسد الغابة: ٣/ ١٢٤ والكامل في التاريخ: ٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤ والإصابة: ٢/ ٢٧٢.

من سادات خزاعة غير مدافع، لو ظفرتْ بنا خزاعة لأكلونا»[١].

و«لمّا قُتِل عبدالله بن بديل مرَّ به الأسود بن طَهْمان الخزاعي ـ وهو بآخر رمق ـ فقال له: عَزَّ عليَّ ـ واللهِ ـ مصرعك، أمَا واللهِ لو شهدتُك لآسيتك ولدافعتُ عنك، ولو رأيتُ الذي أشعرك لأحببتُ أن لا أزايله ولا يزايلني حتى أقتله؛ أو يُلحقني بك».

«ثم نزل إليه فقال: رحمك الله يا عبدالله، واللهِ إن كان جارُك ليأْمن بوائقَك، وإن كنتَ لمن الذاكرين الله كثيراً. أوصِني رحمك الله».

فقال له عبدالله بن بديل: «أُوصيك بتقوى الله؛ وأن تناصح أمير المؤمنين؛ وتقاتل معه حتى يظهر الحقُّ أو تلحق بالله، وأبلغْ أمير المؤمنين عني السلام».

«ثم لم يلبث أنْ مات» فأقبل الرجل على علي (ع) فأخبره بشهادته[٢].

❀ ❀ ❀

وهكذا ذهب ابن بديلٍ إلى ربِّه؛ شهيداً بسيف البغي والغدر، ومضمخاً بدمه الغالي الكريم الذي أراقه صاحبه في سبيل الله؛ وهو يجاهد المنافقين المنحرفين ويجالد القاسطين الخارجين على إمام زمانهم المنصوص بلسان الناطق بالحق؛ والمنتخب من الأمة وفي مقدمتها أهل الحل والعقد فيها من صحب النبي الأخيار الأبرار؛ وحملة راية العقيدة السابقين إلى الإيمان والتابعين لهم بإحسان.

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٩٢ ـ ٩٣.

وسيجتمع الطوفان ـ القاتل والمقتول ـ بين يدي الله عز وجل، ليأخذ كلٌّ ذي حقّ حقَّه، ولينال الجناة الأشرار جزاء ما اقترفت أيديهم، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون، والعاقبة للمتقين.

من المؤمنين رجال

[١٩]

هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص

هَاشِمُ بْنُ عُتْبَةَ ابْنِ أَبِي وَقَّاصٍ

هاشم بن عُتْبَة بن أبي وقّاص - واسمه مالك - بن أُهَيْب (أو: وُهَيْب) بن عبد مَناف بن زُهْرَة بن كلاب بن مُرَّة بن كعْب ابن لُؤيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان[1]: فارس مغوار، وبطل معروف.

كان أبوه عُتْبة أخو سعد بن أبي وقّاص من متحمّسي المشركين، وهو الذي جرح رسولَ الله (ص) وكسر رباعيته يوم أُحُد[2].

وأمّا أُمُّه فهي «بنت خالد بن عبيدة بن سُوَيْد؛ من بني الحارث بن عبد مَنَاة حليف بني زُهرة»[3].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ١٢٩ والمقتضب: ٤٥.

(٢) جمهرة النسب: ٧٧ وجمهرة أنساب العرب: ١٢٩.

وكان حسان بن ثابت قد ذكر سيئة عتبة هذه في أبيات له بتلك المناسبة سمّى عتبة فيها «عبد عذرة». وقال ابن معصوم المدني شارحاً ذلك: «إنما قال عبد عذرة لأن عتبة بن أبي وقاص وإخوته وأقاربه في نسبهم كلام، وذكر أهل النسب إنهم من عُذْرَة وأنهم أدعياء في قريش، ولهم خبر معروف وقصة مذكورة في كتب النسب» [الدرجات الرفيعة: ٣٧٥]، ولكن رواية المسعودي في هذا الموضوع قد خصّت سعد بن أبي وقاص بالطعن بالنسب، وقالت: إنه كان لرجل من بني عذرة وليس زهرياً، كما روى عن السيد الحميري هجاء سعد بالذات والطعن في نسبه [مروج الذهب: ٢/٣١٨].

(٣) نسب قريش: ٢٦٤ وتاريخ بغداد: ١/١٩٦.

وشهد نافعٌ بن عتبة ـ أخو هاشم ـ أُحداً مع أبيه كافراً؛ ثم أسلم[١].

كما كان من أخوة هاشم أيضاً: البطل الشهيد المجاهد حمزة ابن عتبة، وقد تردَّد ذكره في أخبار صفين، وحدَّث نصر بن مزاحم بسنده: أن عمرو بن العاص كان قد تقدَّم في يوم صفين في خيلٍ عظيمة، «فلقيه حمزة بن عتبة بن أبي قاص، فقاتله حمزة، وجعل حمزة يطعن بالرمح ويقول:

ماذا يُرجَّى من رئيس مَلاَّ لستُ بفَرّارٍ ولا زُمَّيلا
في قومه مُستبدَلاً مُدِلاَّ قد سئم الحياة واستملاَّ
وكُلَّ أغراضٍ له تَمَلاَّ

«وذلك عند غروب الشمس. وقال حمزة:

دعانيَ عمرو للِّقاء فلم أُقِل
وأي جوادٍ لا يُقال له هَني
وولّى على طِرفٍ يجول بشِكَّةٍ
مقلَّصة أحشاؤه ليس ينثني
فلو أدركَتْهُ البِيضُ تحت لوائه
لغُودِر مجدولاً تَعَاوَرُه القُني
عليه نجيع من دماءٍ تنوشُهُ
قشاعمُ شهبٌ في السَّباسب تجتني[٢]

وقُتل حمزة يوم التُّلَيْل المنفرد، ومن شعره:

بلِّغا عنِّي السَّكون وهل لي من رسولٍ إليهم غير آنِ

(١) جمهرة النسب: ٧٧.
(٢) وقعة صفين: ٣٧٧.

لـم أَصـد السِّـنـانَ عـن سُـبَّـق الـخيـ ـل ولـم أتَّـقِ هُـذَامَ الـسِّـنـانِ
حين ضجَّ الشَّعاعُ من نَدَب الخيـ ـل لحربٍ وهَرَّ الكماة وقع اللِّدانِ
ومشى القومُ بالسيوف إلى القو مِ كمشي الجِمال بين الأرانِ[1]

٭ ٭ ٭

ولد هاشم بن عتبة في حياة النبي (ص)[2]، وهو معدود من الصحابة كما صرَّح بذلك غير واحد من المؤرخين[3]، وذكر الذهبي أن «عدَّه في الصحابة باعتبار إدراك زمن النبوة»[4]، ونصَّ بعضهم على إسلامه يوم الفتح[5]، ويبدو أنه كان يومذاك في عنفوان الشباب؛ لورود النص على كونه «حدث السن» في حروب فتوح الشام كما يأتي.

وكان هاشم يكنى أبا عمرو[6].

واشتهر بلقبه المِرْقال شهرة عظيمة[7]، والمِرقال ـ مِفعال ـ من قولهم: أرقل البعير فهو مُرْقِل؛ وهو مَشيٌ فوق الخَبب[8]، وقد لُقِّب

(١) المصدر نفسه: ٣٧٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٦ والشعور بالعور: ٢٣٣.
(٣) المحبر: ٢٩١ والعبر: ١/ ٢٨ والإصابة: ٣/ ٦٢ وشذرات الذهب: ١/ ٤٦.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٦.
(٥) المحبر: ٢٩١ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٩٦ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والإصابة: ٣/ ٥٦٢ والشعور بالعور: ٢٣٣ وتاج العروس/ رقل.
(٦) الاستيعاب: ٣/ ٥٨٣ والتبيين: ٢٥٥ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والإصابة: ٣/ ٥٦٢ والشعور بالعور: ٢٣٣ والدرجات الرفيعة: ٣٧٥.
(٧) وقعة صفين: ٣٢٨ ونسب قريش: ٢٦٣ وجمهرة النسب: ٧٧ والاشتقاق: ١٥٣ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٣ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والعبر: ١/ ٢٨ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٦ ومرآة الجنان: ١/ ١٠١ والشعور بالعور: ٢٣٣ وتركيب رقل في لسان العرب وتاج العروس.
(٨) الاشتقاق: ١٥٤.

بذلك لإرقاله ـ أي إسراعه ـ الذي عُرف به في الحروب[١]، وفي رواية ابن عبد ربّه الأندلسي عن العتبي: إنه «يقال له المرقال؛ لقول النبي (ص): أرْقَلَ لَيمُون»[٢].

وتزوَّج في مطلع شبابه شريكة عمره أمَّ إسحاق بنت سعد[٣].

وعرفنا له من الأولاد:

١ ـ عتبة بن هاشم:

ذكره ابن أعثم الكوفي في أخبار صفين بعد ذكر استشهاد هاشم فقال: «وتقدَّم عتبة بن هاشم المقتول؛ فرفع الراية، وجعل يقول:

يا هاشم بن عتبة بن مالكْ أعزِز بشيخٍ من قريش هالكْ
تخبطه الخَيْلان بالسنابكْ في أسود من نقعهنَّ حالكْ
أبشرْ بحور العين في الأرائكْ والرَّوح والريحان عند ذلكْ

ثم حمل فقاتل حتى قُتِل»[٤]، ومثل ذلك روى المسعودي ولكنه لم يسمِّه[٥]، وورد في بعض الأخبار أن عماراً نادى هاشماً يوماً: «أبا عتبة»[٦].

---

(١) المقاييس: ٢/ ٤٢٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٦ والإصابة: ٣/ ٥٦٢ والدرجات الرفيعة: ٣٧٥ وتاج العروس/ رقل.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٣٤٠.
(٣) المحبَّر: ٦٩.
(٤) فتوح ابن أعثم: ٣/ ١٩٨.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٥، وفيه المشاطير المتقدمة عدا الرابع. ووردت المشاطير الستة أيضاً معزوة لابن هاشم ـ بلا تسمية له ـ في وقعة صفين: ٣٤٨ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٩.
(٦) العقد الفريد: ٤/ ٣٤١.

٢ ـ هاشم بن هاشم[١].

٣ ـ عبدالله بن هاشم ـ وهو أشهر أولاده ـ:

روى نصر بن مزاحم في أخبار صفين بعد شهادة هاشم: أن ابنه عبدالله تقدَّم فأخذ الراية بعد أبيه، وخطب في الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

«يا أيها الناس؛ إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدَّر أرزاقهم وكتب آثارهم؛ وأحصى أعمالهم وقضى آجالهم، فدعاه ربُّه الذي لا يُعصى فأجابه، وسلَّم الأمر لله، وجاهد في طاعة ابن عمِّ رسول الله وأول من آمن به؛ وأفقههم في دين الله؛ المخالف لأعداء الله المستحلِّين ما حرَّم الله؛ الذين عملوا في البلاد بالجود والفساد، واستحوذ عليهم جهادُ من خالف سنَّة رسول الله؛ وعطَّل حدودَ الله؛ وخالف أولياء الله، فجودوا بمُهَج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى والمُلك الذي لا يَبْلى، فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علّيٍ أفضلَ من القتال مع معاوية ابن أكّالة الأكباد، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون»[٢].

ثم تقدَّم عبدُ الله وجاهد في سبيل الله حقَّ الجهاد، ولكن الله لم يكتب له الشهادة في ذلك اليوم، فسلم من الموت، والتحق بالبصرة مقيماً هناك.

ولما استعمل معاوية زياد ابن أبيه عاملاً على البصرة كتب إليه يوماً: «أمّا بعد: فانظر عبدالله بن هاشم بن عتبة؛ فشُدَّ يَدَه إلى عنقه ثم

(١) المحبَّر: ٦٩ وجمهرة أنساب العرب: ١٢٩.

(٢) وقعة صفين: ٣٥٦ ـ ٣٥٧ وشرح نهج البلاغة ٨/ ٢٩ ـ ٣٠.

ابعث به إليّ. فحمله زياد من البصرة مقيَّداً مغلولاً إلى دمشق»[١]، «فوصل إليه يوم الجمعة وقد لاقى نَصَباً كثيراً ومن الهجير ما غيَّر جسمه.. فلم يشعر معاوية إلا وعبدالله بين يديه؛ وقد ذبل وسهم وجهُه، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص، فقال معاوية: يا أبا عبدالله؛ أتعرف هذا الفتى؟ قال: لا، قال: هذا ابن الذي كان يقول في صفين: أعور يبغي أهله محلاً ـ إلى آخر الرجز ـ. قال عمرو: إنه لهو، دونك الضب المُضِب فاشخب أوداجه... فوالذي نفسي بيده؛ لئن أفلت من حبائلك ليجهزنَّ إليك جيشاً تكثر صواهله».

«فقال عبدالله ـ وهو في القيد ـ: يا ابن الأبتر؛ هلاَّ كانت هذه الحماسة عندك يوم صفين، ونحن ندعوك إلى البراز، وتلوذ بشمائل الخيل كالأَمَة السوداء والنعجة القوداء. أَمَا أنه إنْ قتلني قتل رجلاً كريم المخبرة حميد المقدرة، ليس بالجِبس المنكوس ولا الثِّلب المركوس».

«فقال عمرو: دع كيتَ وكيت، فقد وقعتَ بين لَحْيَي لَهْزَم فروسٍ للأعداء».

«قال عبدالله: أكثر إكثارك، فإني أعلمك بَطِراً في الرخاء، جباناً في اللقاء، هيّابة عند كفاحِ الأعداء، ترى أن تَقِي مهجتك بأن تُبدي سوءتك. أنسيت صفين وأنت تُدْعى إلى النزال؛ فتحيد عن التقال، خوفاً أن يغمرك رجال لهم أبدان شداد؛ وأسنَّة حداد. ينهبون السَّرح ويذلون العزيز».

«فقال معاوية: ألا تسكت لا أُمَّ لك».

«فقال: يا ابن هند؛ أتقول لي هذا!، والله لئن شئتُ لأُعرقنَّ

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣١٢.

جبينك، ولأُقيمنَّك وبين عينيك وَسْمٌ يلين له أخدعاك، أبأكثر من الموت تخوِّفني».

«فقال معاوية: أو تكفّ يا ابن أخي!!. وأمر به إلى السجن»[١].

وفي لفظ المسعودي:

أن معاوية قال لعمرو بن العاص: «هل تعرف هذا؟، قال: لا، قال: هذا الذي يقول أبوه يوم صفين ـ وأنشد رجز هاشم ـ، فقال عمرو متمثلاً:

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هِيا

«دونك يا أمير المؤمنين الضبَّ المُضب فاشخب أوداجه على أسباجه، ولا ترده إلى أهل العراق؛ فإنه لا يصبر على النفاق، وهم أهل غدرٍ وشقاق، وحزب ابليس ليوم هيجانه، وإن له هوى سيوديه، ورأياً سيُطغيه، وبطانة ستقويه، وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها».

«فقال عبدالله: إن أُقْتل فرجل أسلمه قومه، وأدركه يومه، أفلا كان هذا منك إذ تحيد عن القتال؛ ونحن ندعوك إلى النزال، وأنت تلوذ بشمال النطاف وعقائق الرصاف، كالأمة السوداء؛ والنعجة القوداء؛ لا تردُّ يَدَ لامس».

«فقال عمرو: أمَا والله لقد وقعتَ في لهاذم شدقم للأقران ذي لبد، ولا أحسبك منفلتاً من مخاليب أمير المؤمنين».

«فقال عبدالله: أما والله يا ابن العاص؛ أنك لبَطِرٌ في الرخاء، جبان عند اللقاء، غشوم إذا وَليتَ، هيّاب إذا لقيت.. أفلا كان هذا منك إذ غمرك أقوام لم يُعنَّفوا صغاراً، ولم يمرقوا كباراً، لهم أيدٍ

(١) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٣٢ ـ ٣٣.

شداد؛ وألسنة حداد، يدعمون العوج؛ ويذهبون الحرج، يكثِّرون القليل؛ ويشفون الغليل؛ ويعزون الذليل».

«فقال معاوية: ايهاً عنكما. وأمر بإطلاق عبدالله»[١].

وفي لفظ نصر بن مزاحم: أن عبدالله بن هاشم قال لعمرو في هذا المجلس:

«فهلاّ كانت هذه الشجاعة منك يا ابن العاص أيام صفين، حين ندعوك إلى النزال، وقد ابتلت أقدام الرجال من نقيع الجريال، وقد تضايقت بك المسالك. وأشرفتَ فيها على المهالك. وأيم الله لولا مكانك منه لنشبتْ لك مني خافية أرميك من خلالها أحَدَّ من الأشافي، فإنك لا تزال تكثر في هَوَسِك، وتخبط في دَهَشِك، وتنشب في مَرَسِك، تخبُّط العشواء في الليلة الحندس الظلماء»[٢].

ويروي المبرد: إن معاوية قد شاور عمراً في أمر عبدالله هذا، فقال عمرو: «أرى أن تقتله، فقال له معاوية: إني لم أرَ في العفو إلا خيراً. فمضى عمرو مغضباً وكتب إليه:

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتني ... وكان من التوفيق قتلُ ابنِ هاشمِ
أليس أبوه يا معاوية الذي ... أعان عليّاً يوم حزَّ الغلاصمِ
فقتَّلنا حتى جرى من دمائنا ... بصفين أمثالُ البحور الخضارمِ
وهذا ابنه والمرءُ يُشبه عِيصَهُ ... ويُوشك أن تُلفى به جِدَّ نادمِ

«فبعث معاوية بأبياته إلى عبدالله بن هاشم، فكتب إليه عبدالله:

معاوي أن المرءَ عَمْراً أبَتْ له ... ضغينةُ خبّ غشُّها غير نائمِ

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣.
(٢) وقعة صفين: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

يرى لك قتلي يا ابن هندٍ وإنما يَرى ما يَرى عمرو ملوكُ الأعاجمِ
على أنهم لا يقتلون أسيرهم إذا كان منه بيعةٌ للمسالمِ
فإنْ تعفُ عني تعفُ عن طي قرابةٍ وإنْ تَرَ قتلي تستحل محارمي

فصفح عنه»[1].

❀ ❀ ❀

وشبَّ هاشم كما يشب لداته المؤمَّلون من فتيان قريش؛ ونشأ نشأةً جيدة الإعداد والتأهيل، حتى أصبح ـ على مرِّ الزمن ـ أحد رجال قومه البارزين؛ وأبطالهم المعدودين؛ وفرسانهم الممتازين، واشتهر بهذه المزايا شهرة واسعة لم تقتصر على عصره وحده بل تعدت ذلك إلى العصور التالية؛ فقال مترجموه فيه:

«كان من الشجعان الأبطال» و«الفضلاء الأخيار» و«البُهَم»[2] الموصوفين بالشجاعة والبسالة والأقدام[3].

---

(١) كامل المبرد: ١/ ٢٦٦.
(٢) البُهْمَة: الصخرة التي لا خرْق فيها، وجمعها البُهم، وبها شُبِّه الرجل الشجاع الذي لا يُقْدَر عليه من أيِّ ناحيةٍ طُلِبَ.
(٣) الاستيعاب: ٣/ ٥٨٣ و٥٨٤ والتبيين: ٢٥٥ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٦ والشعور بالعور: ٢٣٣.

كانت ولادة هاشم في العهد النبوي؛ وما ترتَّب على ذلك من تأخر إسلامه حتى بلغ مبالغ الرجال في عام الفتح؛ من أهم الأسباب التي أدَّت إلى عدم مشاركته في معارك الرسالة تحت راية النبي الأعظم (ص)، إذ توفي رسول الله (ص) قبل أن تتاح الفرصة لهاشم أن يضرب بين يديه بسيف أو يطعن برمح، وهكذا هو شأن معظم المولودين بعد البعثة الشريفة في عدم نيلهم شرف الإسهام في تلك المعارك المقدسة، بسبب صغر السن وميعة الصبا وفتاء العمر.

ويبدو من النصوص التاريخية أن هاشماً سرعان ما استطاع أن يلفت أنظار الناس إلى شجاعته وكفايته وهو في بدايات شبابه المتفتح، وأن يختاره الخليفة بانتقاءٍ فاحص ليكون على رأس المدد الخارج إلى ساحات الوغى؛ لإعلاء كلمة الله في الأرض؛ ونشر رسالة الإسلام في غرب المعمورة وشرقها. وكانت استجابة هاشم لذلك الاختيار منسجمة مع عمق مشاعر الإيمان الديني المتغلغل في قلبه؛ وعناصر الشجاعة والنخوة المهيمنة على نفسه، فلبّى الطلب وخاض الغمرات، وشارك في معارك الفتوح مشاركة فعّالة مؤثرة؛ بما أسفرت عنه من نجاح ونصر، وبما ظلَّ يتردَّد من أصداء بطولته فيها في مصادر التاريخ على كرِّ السنين ومرِّ القرون.

وكانت بداية تلك المشاركات فيما جاءت به الروايات؛ إسهامه في

حروب فتوح الشام والروم ودوره الفاعل فيها كما حدَّث ابن أعثم الكوفي فقال:

«دعا أبو بكر بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ـ وهو ابن أخي سعيد بن أبي وقاص ـ فقال: يا هاشم؛ إن من سعادة جَدِّك ووفاء حظِّك؛ إنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوِّها، وممن يثق الوالي بوفائه وصدقه ونصحه؛ وبأسه وشجاعته. وقد بعث أبو عبيدة بن الجراح والمسلمون يخبرونني باجتماع الكفار عليهم، فاخرجْ فعَسْكِر حتى أندب إليك الناس إن شاء الله...»،

«قال هاشم بن عتبة: أفعل ذلك إن شاء الله. فعندها قام أبو بكر في الناس خطيباً، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس... قد جاءني كتاب أبي عبيدة يخبرني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم؛ ونزوله مدينة أنطاكية، وقد اجتمع عليه خلق كثير من النصرانية. وقد رأيتُ أن أمدَّ إخوانكم بجندٍ منكم؛ فيشد الله عز وجل بكم ظهورهم.. فانتدبوا ـ رحمكم الله ـ مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر العظيم»[1].

«وجعل الناس يجتمعون إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص؛ حتى صار في قريب من ثلاثة آلاف».

فلما هَمَّ بالمسير أقبل عليه عمه سعد بن أبي وقاص فأوصاه بوصاياه في القيادة وإدارة الحرب، فقال له هاشم فيما أجابه به: «أتراني يا عم، ارتحالي إلى عدوي؛ ورواحي وبكوري؛ وسعيي وجلادي؛ وضربي بسيفي وطعني برمحي؛ رياءً للناس! كلا يا عم؛ لا تظن بي هذا».

ثم أقبل إليه الخليفة مودِّعاً، وأوصاه وعهد إليه، ثم قال:

(١) فتوح ابن أعثم: ١/١٠٣ ـ ١٠٤.

«يا هاشم؛ إنّا كنّا فيما مضى ننتفع من الشيخ الكبير بمشورته ورأيه وحسن تدبيره، وننتفع من الشاب الحدث ببأسه وصبره وبنجدته، وقد جمع الله لك هذه الخصال كلها، فأنت ـ بحمد الله ـ حدث السن شجاع القلب مستقبل الخير».

«فقال هاشم: إن يرد اللهُ بي خيراً يجعلني كذلك»...

«ثم سار هاشم في ثلاثة آلاف مجهَّز حتى قدم على أبي عبيدة ابن الجرّاح، فسُرَّ أبو عبيدة وجميع المسلمين بقدوم هاشم بن عتبة ومَنْ معه سروراً شديداً»[١]. ووَلاّه أبو عبيدة مسؤولية قيادة الرجّالة[٢].

وبدأت المعارك، والتحمت الجيوش، وحمل هاشم بن عتبة ومعه بعض القادة «في زهاء ألف رجل من أهل الصبر واليقين، فنقضوا تعبية الكفار وكسروا صفوفهم بعضها على بعض»[٣].

واستمرت الحرب طاحنة على أعنف وجوهها، ثم «جال المسلمون في الروم جولة منكرة... حتى قربوا من سرادق ماهان وخيامه»[٤].

وهكذا تم النصر للمسلمين، وفتح الله لهم الفتح المبين، بعد أن أبلوا في تلك الوقائع بلاء حسناً؛ وقدَّموا أغلى التضحيات وأزكى الدماء، كما قدَّم هاشم إحدى عينيه تقرباً إلى الله في بعض تلك المواقف[٥].

❀ ❀ ❀

(١) المصدر نفسه: ١/ ١١٤ ـ ١١٦.

(٢) فتوح الشام: ١/ ١١٨.

(٣) فتوح ابن أعثم: ١/ ١٩١.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤. ويراجع في مواقف هاشم في تلك الحروب: كتاب فتوح الشام: ١/ ٨٢ و٨٧ و٨٩ و٩٣ و٩٩ و١٠٦ و١٠٧ و١١٣ و١٣٣ و١٤٤.

(٥) نسب قريش: ٢٦٣ وجمهرة النسب: ٧٧ والمحبَّر: ٢٩١ و٣٠٢ والأخبار الطوال: ١٢٠ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٣ والتبيين: ٢٥٥ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٦ والشعور بالعور: ٢٣٣.

وكذلك كانت الحال في حروب الفتح في العراق؛ حينما اشتد القتال وبلغت المعارك ذروتها، «حتى قتل من الفريقين مقتلة عظيمة، واثخنوا بالجراحات، وإذا بعكسرٍ لجب قد أقبل من ناحية الشام، فلما نظر المسلمون إليه فزعوا وظنوا إنه كمين للفرس، وإذا هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص قد جاء من الشام بكتاب عمر بن الخطاب ـ رض ـ، وجَّه به أبو عبيدة بن الجراح في عشرة آلاف. فلما أشرف هاشم بن عتبة على عسكر عمه سعد بن أبي وقاص عبّى من كان معه عشرة كراديس في كل كردوس ألف فارس، وأقبل هاشم في الكردوس الأول، وجعلت الكراديس تأتي كردوساً بعد كردوس ويختلطون بالمسلمين. فلما نظرت الفرس إلى ذلك فزعوا وامتلأت قلوبهم خوفاً وفزعاً ورعباً»[١].

وفي نص المسعودي قال:

«أشرفت على الناس خيول المسلمين من الشام، والأمداد سائرة قد غطَّت بأسنتها الشمس، عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في خمسة آلاف فارس من بني ربيعة ومضر؛ وألف من اليمن»[٢].

وبهذا المعدد العظيم قويت العزائم واطمأنت النفوس، فكتَّب سعد كتائبه وعبَّأ أصحابه، «وولى الميسرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص»[٣]، فكان له دور كبير في إحراز النصر في حروب القادسية وفتح المدائن باتفاق المؤرخين[٤]، وقال الحافظ ابن عبدالبر: أنه «أُبْلي فيها بلاء

(١) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢١٠ ـ ٢١١، ويراجع في ذلك تاريخ الطبري: ٣/ ٤٤١.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٠٥.
(٣) الأخبار الطوال: ١٢١.
(٤) نسب قريش: ٢٦٤ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٤٠ و٤٩٧ و٥٥١ ـ ٥٥٤ وتاريخ بغداد: ١/ ١٩٦ والتبيين: ٢٥٥ والشعور بالعور: ٢٣٣٣. ويراجع في مواقفه في القادسية وفتوح العراق: كتاب فتوح الشام: ٢/ ١٢٠ ـ ١٢٢ و١٢٥ و١٢٧ و١٣١ و١٣٢ و١٣٨ و١٣٩ و١٤٦ و١٤٩ و١٥٥ و١٥٦.

حسناً، وقام منه في ذلك ما لم يقم من أحدٍ، وكان سبب الفتح على المسلمين»[١]، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وله بها آثار مذكور»[٢].

❀ ❀ ❀

وحدَّث الطبري أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى سعد ابن أبي وقاص بعد فتح المدائن واستتباب الأمر فيها: «أنْ سَرِّحْ هاشم بن عتبة إلى جلولاء في أثنى عشر ألفاً»[٣] وكان قد بلغه أن الفرس يتجمعون هناك عازمين على المسير لمقاتلة سعد[٤].

«ففصل هاشم بن عتبة بالناس من المدائن في صفر سنة ست عشرة في أثني عشر ألفاً؛ منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب... فسار من المدائن إلى جلولاء أربعاً، حتى قدم عليهم وأحاط بهم فحاصرهم. وطاولهم أهلُ فارس... وزاحفهم المسلمون... ونزل هاشم على مهران بجلولاء وحصرهم في خندقهم»[٥] وجعل هاشم يدور في جيشه ـ وهو «أمير المقاتلين المسلمين» يومذاك ـ[٦]، ويقول: «إن هذا المنزل منزل له ما بعده. وجعل سعد يمده بالفرسان... فخرجوا عليهم، فقام هاشم في الناس فقال: ابلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم، واعملوا لله»[٧].

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٥٨٤.
(٢) الاصابة: ٣/ ٥٦٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤ ـ ٢٥ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٣.
(٤) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢٧١.
(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥.
(٦) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢٧٢ ومعجم ما استعجم: ٢/ ٣٩٠.
(٧) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥.

ثم عبّى أصحابه ونظّم صفوفهم، و«التقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة»، ثم التحموا واقتتلوا «قتالاً شديداً... وأخذ المشركون في هزيمةٍ يُمنةً ويُسرة... واتبعهم المسلمون... وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف، فجلَّلت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسُمِّيت جلولاء بما جلَّلها من قتلاهم»[١]، وأُطلق على فتحها اسم فتح الفتوح[٢].

وكان مما أُثر عن هاشم من الرجز في ذلك اليوم قوله:

يوم جَلولاء ويوم رُستمْ ... ويوم زحفِ الكوفة المقدَّمْ
ويوم عرض النَّهَر المحرَّمْ ... من بين أيامٍ خلونَ صُرَّمْ
شيَّبن أصداغي فهُنَّ هُرَّمْ ... مثل ثغام البلد المحرَّمْ[٣]

وأقام هاشم بجلولاء بعد فتحها برهة من الزمن[٤]، ثم رجع منها إلى المدائن[٥]، بعد أن أمر بعض جنده، بعد استتباب الحال بجلولاء، أن يطاردوا الأعداء، فطلبوهم حتى بلغوا خانقين، وبعثوا إلى هاشم بعض غنائمهم، ثم رجع هاشم بالأخماس إلى سعد[٦].

وتقول الروايات التاريخية: أن سعداً ولّى هاشماً على أثر ذلك،

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥ ـ ٢٦. ويراجع أيضاً: تاريخ خليفة: ١/ ١٢٧ وفتوح ابن أعثم ١/ ٢٧٣ و٢٧٧ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٧ وفتوح البلدان: ٢٦٤ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٤.

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥ ومعجم ما استعجم: ٢/ ٣٩٠ والشعور بالعور: ٢٣٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣ ـ ٣٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧.

(٦) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨ ـ ٢٩ وفتوح ابن أعثم: ١/ ٢٧٨.

خلافته في قيادة الجيش؛ تقديراً لمواقفه الباهرة وخططه البارعة، فتابع هاشم فلول الأعداء وتجمعاتهم وهم يتقهقرون أمامه نحو نهاوند(١)، كما كان منها أيضاً حروبه معهم يوم بابل؛ ويوم بهرسير؛ ويوم أغواث، وفيما تخلل ذلك من معارك ومناوشات ومطاردات(٢).

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٧٨.

(٢) تاريخ خليفة: ١/ ١٣٢ وتاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٣ و٥٤٩ و٦١٩ ـ ٦٢٣ وفتوح البلدان: ٢٦٥.

وأدرك هاشم بعد هذه السنين الطوال الحافلة بالجهد والجهاد الديني الدؤوب؛ أن دعائم الرسالة قد توطدت، وأن الأخطار المحدقة بالتراب الإسلامي قد خفت حدتها إلى درجة كبيرة؛ وأصبحت داخلة ضمن نطاق السيطرة المتوفرة لجند الثغور وحرس الحدود.

وفي ضوء هذه الحقائق قرر الرجل الاستقرار في مقامه وسكناه، فاختار نزول الكوفة للإقامة والاطمئنان، بعيداً عن مركز الخلافة في المدينة المنورة وعن غمرات الصراعات السياسية والاجتماعية الدائرة هناك، وأصبح على مرِّ الأيام معدوداً من سكانها الدائمين[1]، بل من بارزي أهلها الذين تشخص إليهم الأبصار وتشير الأنامل.

واستقامت الحال على هذه الوتيرة الهادئة حيناً من الزمن، حتى اضطر الخليفة عثمان إلى عزل الوليد بن عقبة بن أبي معيط عن ولاية الكوفة؛ بعد أفاعيله النكراء وأعماله الشوهاء، واختيار أموي آخر هو سعيد بن العاص والياً عليها، «فبينا هو عشيةً في مسجد الكوفة، وذلك في آخر يوم من شهر رمضان، والناس يقول بعضهم لبعض: غداً الفطر، إذ سمع سعيد بن العاص ذلك فقال لمن حوله من الناس: مَنْ رأى منكم

(١) طبقات خليفة: ١/ ٢٨٢ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٣ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والشعور بالعور: ٢٣٣.

الهلال؟، فقال قوم: ما رأيناه، فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقال: بلى قد رأيته والحمد لله، فقال سعيد بن العاص: كيف رأيته بعينك هذه العوراء من بين الناس!، فقال له هاشم: تُعيِّرني بعيني العوراء وقد فقئت في سبيل الله يوم اليرموك في جيش المسلمين؛ وأنت مع أمك بتهامة في رعي البهم».

«ثم وثب هاشم من المجلس فصار إلى منزله، فلما كان من الغد لم يأمر سعيدٌ الناسَ بالإفطار، وأصبح هاشم في داره مفطراً؛ فتغدى عنده خلق كثير من الناس. وبلغ ذلك سعيد بن العاص فأرسل إليه وأحضره، ثم أمر به فضُرِب، وأمر بداره فأُحرقت».

«وبلغ ذلك سعدَ بن أبي وقاص وهو بالمدينة، فغضب وأقبل إلى عثمان بن عفان ومعه وجوه المهاجرين، فقال: يا أمير المؤمنين!؛ لما وثب عاملك سعيد بن العاص على ابن أخي هاشم فضربه وأحرق داره بالكوفة؟، والله لا برحتُ أو انتصفت منه أو لتكونن هاهنا أشياء. فقال عثمان: أصنع ما بدا لك يا سعد، فوالله إنك لتعلم إنه مالي في ذلك من ذنب. فوثب عمر بن سعد بن أبي وقاص ـ وهو يومئذ غلام حدث ـ حتى أتى إلى دار سعيد بن العاص بالمدينة فأشعل فيها النار»[(١)].

والمستفاد من سياق هذه الحادثة ومجموع ملابساتها أن لها ما وراءها من كوامن وجذور في نفس كلّ من هاشم والوالي الأموي، بل قد يستفاد منها أن هاشماً كان من أقطاب الجناح المعارض للأمويين خليفة وأعواناً، وإن الوالي قد فهم من التجاهر بالفطر وطعام الغداء إعلاناً واضحاً لتلك المعارضة المبطنة؛ وإن تكن مغلَّفة بغلافها الديني

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠ وطبقات ابن سعد: ٥/ ٢١. ووردت الإشارة إلى هذه الحادثة في الاستيعاب: ٣/ ٥٨٥ والشعور بالعور: ٢٣٤.

الخاص، ولكنها لا تخرج من كونها معارضة صريحة بالمعنى السياسي العام، ولذلك وقف منها ذلك الموقف الفظ العنيف.

❀ ❀ ❀

ثم تتابعت الأحداث في العالم الإسلامي سريعة متلاحقة، بعد أن تجاوزت أعمال الحكام والولاة وتصرفاتهم الخرقاء حدَّ السكوت والصبر والإمهال، فثار المسلمون على عثمان، وتجمعت الجماهير أفراداً وقبائل وهم ينكرون تلك الأفعال الفظيعة والانحرافات الشنيعة؛ وذلك الخروج الصارخ على الكتاب والسنة النبوية؛ بل حتى على سيرة الشيخين أيضاً، ثم ازدادت المشاعر توقداً والتهاباً على مرِّ الأيام؛ إلى أن بلغت ذروتها في خاتمة المطاف، بما أسفرت عنه من خليفة قتيل ونظام منهار وأمة بلا والٍ، مما لا مجال لبيانه بالتفصيل.

وتسارع المسلمون على اختلاف أفكارهم وأقطارهم نحو أملهم الأكبر وموئلهم الأمين علي أمير المؤمنين، لينقذ الموقف وينتشل الأمة من فراغها الخطير، فبايعوه على السمع والطاعة بيعة الرِّضا والاختيار، في المدينة المنورة أولاً، وفي سائر أقاليم المسلمين على أثر ذلك، ولم يتخلف عن البيعة إلا من لم تكن له رابطة بالتزام أو دين.

ويروي الحافظ ابن حجر العسقلاني: أنه «لما جاء [خبر] قتل عثمان إلى أهل الكوفة، قال هاشم لأبي موسى الأشعري [وكان والي الكوفة من قبل عثمان]: تعالى يا أبا موسى بايع لخير هذه الأمة عليّ، فقال: لا تعجل. فوضع هاشم يده على الأخرى فقال: هذه لعليّ وهذه لي، وقد بايعتُ علياً، وأنشد:

أُبايع غير مكترثٍ عليّا ... ولا أخشى أميراً أشعريّا

أُبايعه وأعلم أنْ سأُرضي بذاك الله حقاً والنبيا[١]

وفي رواية المؤرخ ابن أعثم الكوفي لأخبار بيعة الكوفة لعلي (ع): إن هاشم بن عتبة أقبل «إلى أبي موسى الأشعري [وكان قد تلكأ في البيعة] فقال: يا أبا موسى؛ ما الذي يمنعك أن تبايع علياً؟ فقال: أنتظر الخبر. قال: وأي خبر تنتظر وقد قُتِل عثمان؟ أتظن أنه يرجع إلى الدنيا!، إن كنتَ مبايعاً لأمير المؤمنين وإلا فاعتزل أمرنا، ثم أنشأ أبياتاً مطلعها:

إن ابن عفان إذ أودى بشقوته طغى فحلَّ به من ذلكم غِيَرُ

«إلى آخره، ثم ضرب هاشم بن عتبة بيده على الأخرى وقال: لي شمالي؛ ويميني لعلي بن أبي طالب. فلما قال هاشم ذلك وثب أبو موسى الأشعري فبايع، ولم يجد بداً من ذلك. وبايعت أهل الكوفة علياً ـ رض ـ بأجمعهم، وأنشأ هاشم بن عتبة أبياتاً مطلعها:

أُبايعه في الله حقاً وما أنا أبايعه مني اعتذاراً ولا بطلاً

إلى آخره»[٢].

❁ ❁ ❁

وكما كان المتوقَّع لذوي الخبرة بنفوس بعض الرموز البارزة يومذاك، فقد تجمعت الأحقاد الجاهلية والترات القبلية والمصالح الذاتية في حلفٍ غير مقدَّس، للتمرد على هذه الخلافة الوليدة الراشدة والخروج لحرب أمير المؤمنين، بحجة المطالبة بدم عثمان وملاحقة قاتلية.

---

(١) الإصابة: ٣/ ٥٦٢.
(٢) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

ولم يجد علي (ع) بدّاً وقد بلغه نبأ هذا التجمع المشؤوم ومَنْ كان على قمة هرمه، من التصدي لهذا البغي المفضوح الذي لا يقره شرع ولا منطق، فزحف بنفسه من المدينة المنورة قاصداً بؤرة التمرد في البصرة، ليردع هؤلاء البغاة الناكثين بالموعظة الحسنة إن نفع التذكير، أو اللجوء إلى السيف إن لم ينفع التنبيه، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

ويروي البلاذري عن أبي مخنف: أن علياً (ع) لما بلغ الربذة ونزلها؛ بعث من هناك هاشم بن عتبة الزهري إلى الكوفة يستنهض أهلها، وبعث معه كتاباً إلى أبي موسى الأشعري ـ وكان عامله عليها ـ «يأمره فيه بدعاء الناس واستنفارهم إليه، فجعل أبو موسى يخذلهم ويأمرهم بالمقام عنه»، و«لم يُنْهِض معه أحداً، وتوعد هاشماً بالحبس. فلما قدم هاشم على عليّ دعا عبدالله بن عباس ومحمد بن أبي بكر فبعثهما إليه وأمرهما بعزله، وكتب إليه معهما كتاباً... فعزلاه وصيَّرا مكانه قرظة بن كعب الأنصاري»[١].

وفي نصّ الطبري: إن علياً (ع) كان قد كتب إلى أبي موسى كتاباً مع هاشم يقول فيه: «إني وجهتُ هاشم بن عتبة ليُنْهِض مَنْ قبلك من المسلمين إليّ، فأشخِصِ الناس، فإني لم أُوَلِّك الذي أنت به إلا لتكون من أعواني على الحق».

«فكتب هاشم إلى عليّ: إني قد قدمتُ على رجلٍ غالّ مُشاقّ ظاهر الغلِّ والشنآنَ»[٢].

وفي لفظ ابن أبي الحديد: أن هاشماً كتب إلى علي (ع): «العبدالله

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٣٣.

علي أمير المؤمنين من هاشم بن عتبة: أما بعد يا أمير المؤمنين؛ فإني قدمتُ بكتابك على امرىء مشاق بعيد الودِّ؛ ظاهر الغلِّ والشنآن، فتهدَّدَني بالسجن، وخوَّفني بالقتل. وقد كتبتُ إليك هذا الكتاب مع المُحلِّ بن خليفة أخي طيِّىء ـ وهو من شيعتك وأنصارك، وعنده عِلْمُ ما قِبَلنا ـ فاسأله عما بدا لك، وأكتب إليَّ برأيك. والسلام»[1].

وذكر بعض المؤرخين: إن علياً (ع) أردف هؤلاء الرسل لدعم موقفهم بابنه الحسن (ع) وعمار بن ياسر[2]؛ يستنفران الناس ويستنهضان الهمم.

وبدأ الناس ومنهم أهل الكوفة في الخروج إلى البصرة، تنفيذاً لحكم الله تعالى، وتلبية لنداء إمامهم الشرعي المفترض الطاعة، وتناشَد الشعراء الشعر الحماسي في ذلك، وكان منه ما قال «هاشم بن عتبة المرقال يذكر نفورهم إلى علي (ع):

وسرنا إلى خير البرية كلها ... على عِلْمِنا أنَّا إلى الله نرجعُ
نوقِّره في فضله ونجلُّه ... وفي اللهِ ما نرجو وما نتوقَّعُ
ونخصف أخفاف المطيّ على الوجا ... وفي الله ما نزجي وفي الله نُوضعُ
دلفنا بجمعٍ آثروا الحقَّ والهدى ... إلى ذي تقىً في نصره نتسرَّعُ
نكافح عنه والسيوف شهيرة ... تصافح أعناقَ الرجال فتقطع[3]

والتقى الجمعان على صعيد البصرة واصطف الفريقان، وكان على ميمنة جيش الحق مالك بن الحارث الأشتر؛ وعلى ميسرته هاشم بن عتبة[4]، ثم التحم الطرفان ودارت الحرب دورتها فأسفرت المعركة عن

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٩.
(٢) الأخبار الطوال: ١٤٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٣٣.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٨٨.

انتصار معسكر الإيمان والجهاد؛ واندحار عصابة النكث والبغي والعدوان.

❀ ❀ ❀

ولم يكف الخارجون على إمام زمانهم من الطلقاء والقاسطين ما أصاب إخوانهم في البغي درساً نافعاً وعظة رادعة؛ تصدهم عن السير في طريق الشر والتمرد؛ وتمنعهم من الإصرار على ما هم فيه من انحراف وضلال، فبدأوا بجمعون فلولهم ويحزِّبون أتباعهم لحرب اخرى تحمل الشعار نفسه ـ وهو الأخذ بثأر عثمان ـ ولكن بقيادة جديدة هي قيادة معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما وتابعهما وانجرف معهما من جهلة وبسطاء وموتورين سابقين.

وبلغ خبر هذا التجمع مسامع علي (ع) وكان قد اتخذ الكوفة مقراً مؤقتاً له ليكون قريباً من مواقع الأحداث؛ فجمع نخبة أصحابه وذوي الرأي منهم للإستشارة وبحث الموقف، فأدلوا بآرائهم التي أجمعت على ضرورة التصدي لهؤلاء القاسطين بلا هوادة ورحمة، وكان من جملة أولئك المستشارين صاحبنا المقدام هاشم بن عتبة الذي قام خطيباً في هذا الاجتماع؛ فكان مما قال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله:

أما بعد يا أمير المؤمنين؛ فأنا بالقوم جدُّ خبير، هم لك ولأشياعك أعداء، وهم لمن يطلب حرثَ الدنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجاهدوك لا يُبْقُون جهداً، مُشاحَّة على الدنيا وضَنّاً بما في أيديهم منها، وليس لهم أربة غيرها إلا ما يخدعون به الجهّال من الطلب بدم

(١) العقد الفريد: ٤/ ٣٢٥.

عثمان بن عفان، كذبوا ليسوا بدمه يثأرون ولكن الدنيا يطلبون. فسِرْ بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، وأن أبَوا إلا الشقاق فذلك الظن بهم»(١).

ثم كان مما قاله هاشم أيضاً بمناسبة الإعداد للحرب في جلسة أخرى:

«سِرْ بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله؛ فأحلُّوا حرامه وحرَّموا حلاله، واستولاهم الشيطان ووعدهم بالأباطيل ومنّاهم الأمانيَّ، حتى أزاغهم عن الهدى، وقصد بهم قصد الردى، وحبَّب إليهم الدنيا، فهم يقاتلون على دنياهم رغبةً فيها؛ كرغبتنا في الآخرة وانجاز موعود ربنا. وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله (ص) رحماً، وأفضل الناس سابقة وقدماً، وهم يا أمير المؤمنين منك مثل الذي عَلِمْنا، ولكن كُتِب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء، وكانوا ظالمين. فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة، وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة، وأنفسنا تنصرك جَذِلةً على من خالفك وتولى الأمر دونك. والله ما أُحبُّ أن لي ما في الأرض مما أقلَّت وما تحت السماء مما أظلَّت؛ وأني واليتُ عدواً لك أو عاديتُ ولياً لك»(٢).

ومهما يكن من أمر، فلم يعد من محيص بعد إصرار معاوية وأتباعه على البغي والخروج؛ إلا أن يزحف الطرفان إلى صفين بين الكوفة والشام؛ وأن تجتمع الجموع هناك لتكشِّر الحرب عن أنيابها، ولم يبق إلا الإلتحام ومباشرة القتال.

---

(١) وقعة صفين: ٩٢ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٢.

(٢) وقعة صفين: ١١٢ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٨٤.

وبدأ علي (ع) إعداد جيشه لذلك، فعقد الألوية، وأمَّر الأمراء، ودفع اللواء الأعظم إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص[١]؛ ومعه أصحاب الحُذْل ـ وهي ضرب من القسيّ الحربية ـ[٢]، وجعله قائد الرَّجّالة أيضاً[٣].

وتسلَّم صاحبنا البطل هاشم بن عتبة مسؤولية «الراية العظمى» من يد أمير المؤمنين (ع)، وقال له عليٌّ موجّهاً ومشجّعاً: «تقدَّم إلى أعداء القرآن وحزب الشيطان»[٤]، فتقدم هذاالشجاع وقد ارتدى درعين يحمي بهما نفسه من أعدائه، وقال لعلي (ع): «ستعلم يا أمير المؤمنين، والله لألفنَّ بين جماجم القوة لفَّ رجل ينوي الآخرة»، ثم «أخذ رمحاً فهزَّه فانكسر، ثم آخَرَ فوجده جاسياً فألقاه، ثم دعا برمح ليِّن فشدَّ به لواءه»، «ثم قال لأصحابه: شدُّوا شسوع نعالكم، وشدُّوا أُزُرَكم، فإذا رأيتموني قد هززت الراية ثلاثاً فأعلموا أن أحداً منكم لا يسبقني إليها».

«ثم نظر هاشم إلى عسكر معاوية... وأخذ الراية فهزَّها، فقال له رجل من أصحابه: أمكث قليلاً ولا تعجل»[٥]، فقال هاشم مرتجزاً:

قد أكثروا لومي وما أقلاّ أني شريتُ النفس لن أعتلاّ

(١) وقعة صفين: ٢٠٥ وتاريخ خليفة: ١/ ٢١٩ و٢٢١ والأخبار الطوال: ١٧١ و١٨٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٨٥ و١٨٦ وتاريخ الطبري: ٥/ ١ والاشتقاق: ١٥٤ والاستيعاب: ٣/ ٦٨٦ والعقد الفريد: ٤/ ٣٤٠ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٦ ـ ٢٧ والعبر: ١/ ٢٨ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٦ وتركيب رقل في لسان العرب وتاج العروس والإصابة: ٣/ ٥٦٢ وشذرات الذهب: ١/ ٤٦.

(٢) وقعة صفين: ١٩٣.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ٥٨٥ والتبيين: ٢٥٥ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والشعور بالعور: ٢٣٤.

(٤) فتوح ابن أعثم: / ١٩٥.

(٥) وقعة صفين: ٣٢٦ ـ ٣٢٧ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ١٠ ـ ١١.

أعور يبغي أهله محلاّ لا بد أن يَفلَّ أو يُفَلاّ
قد عالج الحياة حتى ملاّ أشُلُّهم بذي الكعوب شلاّ
مع ابن عمٍّ أحمد المُعلّى فيه الرسول بالهدى استهلاّ
أوّل مَنْ صدَّقه وصلّى فجاهد الكفارَ حتى أبْلى[1]

ولما تقدم هاشم باللواء سأل معاوية: «مَنْ هذا المُقبل؟ فقيل: هاشم المرقال، فقال: أعور بني زهرة قاتله الله»[2].

ثم التفت إلى ابن العاص وقال: «يا عمرو هذا المرقال، والله لئن زحف بالراية زحفاً إنه ليَوم أهل الشام الأطول»[3].

ويبدو أن تحذير معاوية قد أرعب ابن العاص وأثار كوامن خوفه، فقد حدَّث عبيدالله بن أبي رافع قال: «نظرتُ إلى عمرو بن العاص يوم صفين... يصفُّ الناس بنفسه صفوفاً... وأسمعه ـ وأنا منه قريب ـ يقول: عليكم بالشيخ الأزدي أو الدجال! يعني هاشم بن عتبة»[4].

وأقبل هاشم على جيش الضلال وهو يقول مرتجزاً:

(١) وردت المشاطير العشرة في وقعة صفين: ٣٢٧ والدرجات الرفيعة: ٣٧٨، وهي ما عدا الثامن والعاشر في شرح نهج البلاغة: ٨/ ١١ ـ ١٢، والمشاطير ١ و٣ ـ ٦ في أنساب الأشراف: ٢/ ٣١٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٤، وورد ٣ ـ ٦ منها في الاشتقاق: ١٥٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٧ و١٥٩، والمشاطير ٣ ـ ٥ في جمهرة النسب: ٧٧ ونسب قريش: ٢٦٤ والمعارف: ٢٤١ والاستيعاب: ٣/ ٥٨٥ والتبيين: ٢٥٥ والعقد الفريد: ٤/ ٣٤٠ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والإصابة: ٣/ ٥٦٢ والشعور بالعور: ٢٣٤، والمشاطير ٦ و٧ و٩ في الفصول المختارة: ٢/ ٧٠ وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٧٧، والثالث بمفرده في المحبر: ٢٩١.

(٢) وقعة صفين: ٣٤٦.

(٣) وقعة صفين: ٣٤٠ والعقد الفريد: ٤/ ٣٤١ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ ق ٢/ ٣.

أعور يبغي نفسه خلاصاً مثل الفنيق لابساً دلاصا
قد جرَّب الحرب ولا أناصا لا دية يخشى ولا قصاصا
كلُّ امرىءٍ وإنْ كبا وحاصا ليس يرى من موته مناصا[1]

ثم دعا أصحابه إلى الصبر والثبات، وكان مما قال لهم:

لا يهولنَّكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون منهم إلا حميَّة العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها، وأنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق. يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا، وامشوا بنا إلى عدونا على تؤدةٍ رويداً، ثم تآسوا وتصابروا واذكروا الله، ولا يُسْلِم رجل أخاه، ولا تكثروا الالتفات، واصمدوا صمدهم، وجالدوهم محتسبين، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

و«مضى في عصابة من القراء فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه، حتى رأى بعضَ ما يُسَرُّون به»[2].

وحدَّث الرواة: «إنهم لكذلك إذ خرج عليهم فتى شاب... فقال له هاشم بن عتبة: يا عبدالله؛ اتق الله فإنك راجع إلى الله فسائلك عن هذا الموقف وما أردتَ به. قال: فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يُصلّي... وأنتم لا تصلُّون أيضاً، وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم أردتموه على قتله».

«فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان! إنما قتله أصحابُ محمد

---

(١) وقعة صفين: ٣٤٧، والمشاطير سبعة في فتوح ابن أعثم: ٣/١٩٥ ـ ١٩٦ مع كثير من التحريف والتصحيف، ووردت المشاطير ١ ـ ٢ و٤ ـ ٦في شرح نهج البلاغة: ٨/٢٨ ـ ٢٩ والدرجات الرفيعة: ٣٨٠.

(٢) وقعة صفين: ٣٥٤ وتاريخ الطبري: ٥/٤٢ ـ ٤٣ وكامل ابن الأثير: ٣/١٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٣٤.

وأبناء الصحابة وقرّاء الناس؛ حين أحدث الأحداث؛ وخالف حكم الكتاب، وهم أهل الدين وأوْلى بالنظر في أمور الناس منك ومن أصحابك، وما أظن أمر هذه الأمة وأمر هذا الدين أُهمِل طرفة عين... وأما قولك: إن صاحبنا لا يصلّي؛ فهو أول من صلى مع رسول الله؛ وأفقه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول. وأما كل من ترى معي فكلهم قارىء لكتاب الله؛ لا ينام الليل تهجداً، فلا يغوينَّك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون».

فقال الفتى: «يا عبدالله؛ إني أظنك امرءاً صالحاً فتُخْبرني هل تجد لي من توبة؟، فقال: نعم يا عبدالله؛ تُبْ إلى الله يتب عليك... فجَشَرَ واللهِ الفتى الناسَ راجعاً، فقال له رجل من أهل الشام: خدعك العراقي»[1].

ثم تقدَّم هاشم بالراية نحو القوم، و«حمل على صفوف أهل الشام، فجُرِح منهم خَلقٌ كثير وقُتِل منهم جماعة. ثم وقف ساعة ليستريح، وهو في ذلك يقول شعراً»[2]، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السلمي، «وكانت بينهم الحرب سجالاً، وانصرفوا في آخر يومهم عن قتلى كثير»[3]، «فلما كان وجه السحر انهزم أبو الأعور في أصحابه حتى سار إلى معاوية فأخبره بما كان من أمره»[4].

واشتد أوار الحرب وعلا ضرامها، «وزحف هاشم بالراية...

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٣ ـ ٤٤ وفتوح ابن أعثم: ٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٣/ ١٩٧.
(٣) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٠. ويراجع في ذلك: وقعة صفين: ٢١٤ والأخبار الطوال: ١٧٤ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٠٣ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٦٧ و٥/ ١٢ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٤ و١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٣٠.
(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٩٣.

وزحف الناس بعضهم إلى بعض، والتقى الزحفان فاقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع الناس بمثله، وكثرت القتلى في الفريقين كليهما»[١].

وحمل هاشم على كتيبة عمرو بن العاص وهو يقول:

لا عَيْشَ إن لم ألق يومي عَمْرا ... ذاك الذي أحدث فينا الغدرا
أو يُحدِثَ الله لأمرٍ أمراً ... لا تجزعي يا نفس صبراً صبرا
ضرباً هذاذيك وطعناً شزرا ... يا ليت ما تجني يكون قبرا[٢]

«وقاتل هاشم قتالاً شديداً هو وأصحابه... حتى أبرُّوا على من يليهم وحتى رأوا الظفر، فقاتلهم... حتى قتل تسعة نفر أو عشرة، وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوهي فطعنه»[٣]، «وحمل هاشم المرقال ذو الكلاع، ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو يفتحوا أو يُقْتَلوا، فاجتلد الناس»[٤]، «وقُطِعت رجله يومئذ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك، ويقول:

الفحل يحمي شَوْلَة معقولا[٥]

ووافاه رسول علّي يأمره أن يقدِّم رايته، فقال للرسول: انظر ما بي. فنظر إلى بطنه فرآه منشقاً، فرجع إلى علّي فأخبره»[٦]، وكان هاشم قد عصب جرحه بعمامةٍ «ولم يزل يقاتل حتى قُتِل في آخر النهار»[٧]، ثم

(١) وقعة صفين: ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ١٢.
(٢) وقعة صفين: ٤٢٨ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٧٠.
(٣) وقعة صفين: ٣٥٥ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٩.
(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٥.
(٥) الاستيعاب: ٣/ ٥٨٦ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩ والشعور بالعور: ٢٣٤.
(٦) الأخبار الطوال: ١٨٣ ووقعة صفين: ٣٥٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٣٥.
(٧) الاشتقاق: ١٥٤.

قال في تلك الساعة يخاطب أصحابه وهو مشرف على الموت وجراحاته تشخب دماً:

«أيها الناس؛ إني رجل ضخم، فلا يهولنَّكم مسقطي إن أنا سقطتُ، فإنه لا يُفْرَغ مني أقلُّ من نحو جزور حتى يفرغ الجزّار من جزرها».

ومرَّ عليه أحد رجاله «وهو صريع بين القتلى، فقال له: اقرأ أمير المؤمنين السلام ورحمة الله. وقل له: أُنشِدك الله إلا أصبحتَ وقد ربطتَ مقاود خيلك بأرجل القتلى، فإن الدَّبرة تصبح غداً لمن غلب على القتلى. فأخبر الرجل عليّاً بذلك فسار عليٌّ في بعض الليل حتى جعل القتلى خلف ظهره وكانت الدَّبرة له عليهم»[1].

❀ ❀ ❀

«ووقف علي (ع) عند مصرع المرقال ومن صرع حوله من الأسلميين وغيرهم؛ فدعا لهم وترحَّم عليهم»[2].

وكان عمار بن ياسر ـ رضوان الله عليه ـ قد استشهد في ذلك اليوم أيضاً، فجمع أمير المؤمنين (ع) جثمانيهما فجعل عماراً مما يليه وهاشما أمام ذلك وصلى عليهما، «وكبَّر عليهما تكبيراً واحداً»[3].

ولما نُعي هاشم إلى السيدة عائشة قالت: «ذاك الذي لم تُرَدَّ رايته قط»[4].

(١) وقعة صفين: ٣٥٣ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٣٤.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٥.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣١٨.
(٤) التبيين: ٢٥٦،

ورثاه رفيقه في الجهاد أبو الطفيل عامر بن واثلة، «وهو من الصحابة، وقيل إنه آخر من بقي من صحب رسول الله (ص)» وكان من شهود صفين مع علي (ع)، فقال:

يا هاشم الخير جُزيتَ الجنَّهْ قاتلتَ في الله عدوَّ السُّنَّهْ
والتاركي الحقَّ وأهلَ الظِّنَّهْ أعظِمْ بما فزتَ به من منَّه
صيَّرني الدهر كأني شَنَّهْ يا ليت أهلي قد علوني رَنَّهْ
من حوْبةٍ وعمَّةٍ وكَنَّهْ[1]

(١) وقعة صفين: ٣٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٨/٣٨. ووردت المشاطير ١ و٢ و٤ في الاستيعاب: ٣/٥٨٦ والشعور بالعور: ٢٣٤، والأولان بمفردهما في أسد الغابة: ٥/٤٩.

مِنَ المؤمنين رجال

[٢٠]

عمار بن ياسر

عمّار بن ياسر

عمّار بن ياسر بن عامِر بن مالك بن كِنانة بن قيس بن الوَذيم ـ وقيل بين قيس والوَذيم: حُصَين بن الوَذيم ـ بن ثعلبة بن عوف بن حارثة ابن عامر الأكبر بن يام بن عَنْس ـ وعَنْس هو زيد ـ بن مالك بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَريب بن زيد بن كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، وبنو مالك بن أدَد من مَذْحِج[1]: صحابي معروف، من أوائل المبادرين إلى الإسلام والمعذَّبين على يد أعداء الله في سبيله.

كان أبوه ياسر من المتقدمين في الإيمان والصحبة، وذكر الواقدي وطائفة من أهل العلم أن ياسراً «عربي قحطاني من عَنْس؛ من مَذْحِج، إلا أن ابنه عماراً مولى لبني مخزوم، لأن أباه ياسراً تزوَّج أَمَةً لبعض بني مخزوم فأولدها عماراً. وذلك أن ياسراً قدم مكة مع أَخَوَيْن له يقال لهما الحارث ومالك؛ في طلب أخٍ لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، فحالَف أبا حذيفة بن المغيرة. . . فزوَّجه أبو حذيفة أَمَةً له يقال لها سُمَيَّة بنت خياط (أو خباط)، فولدت له عماراً،

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٦، وقال الذهبي بعد إيراد النسب: «قرأت هذا النسب على شيخنا الدمياطي ونقلته من خطه». ويراجع في هذا النسب أيضاً: طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٦ و٤/ ق١/ ١٠٠ وطبقات خليفة: ١/ ١٤٧ و١٧١ والمعارف: ٢٥٦ والاستيعاب: ٣/ ٦٣٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ وجمهرة أنساب العرب: ٤٠٦ وأسد الغابة: ٤/ ٤٣ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٥ والإصابة: ٢/ ٥٠٥ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨.

فأعتقه أبو حذيفة، فصار ولاؤه لبني مخزوم»[١]، ولهذا الحلف والولاء الذي بين بني مخزوم وعمار بن ياسر «كان اجتماع بني مخزوم إلى عثمان حين نال من عمارٍ غلمانُ عثمان ما نالوا من الضرب؛ حتى انفتق له فتقٌ في بطنه وكسروا ضلعاً من أضلاعه، فاجتمعت بنو مخزوم وقالوا: واللهِ لئن مات لا قَتَلْنا به أحداً غير عثمان»[٢].

«ولم يزل ياسر وعمار مع أبي حذيفة إلى أن مات، وجاء الله بالإسلام فأسلم ياسر»[٣] وزوجته وولداه، فـ «كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأُمِّه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله (ص) فيقول: صبراً آل ياسر؛ موعدكم الجنة»[٤]، وفي لفظ أبي نعيم: «فإن مصيركم إلى الجنة»[٥]، وفي رواية أخرى: إن النبي (ص) كان يمر بعمار وبأبيه وأُمِّه وهم يعذَّبون بالبطحاء فيقول: «أصبروا آل عمار فإنَّ موعدكم الجنة»[٦]، ويخاطب

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٦ و٤/ ق١/ ١٠٠ والمعارف: ٢٥٦ والاستيعاب: ٣/ ٦٤٠ و٤/ ٣٢٤ وأسد الغابة: ٤/ ٤٣ ـ ٤٤ و٥/ ٩٨ و٤٨١ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٢ و٢٠/ ٣٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٧ والإصابة: ٣/ ٦١٠ و٤/ ٣٢٧ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٤٧٠ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٦.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٦ وباقي المصادر المتقدمة في الهامش ذي الرقم (٢).

(٤) السير والمغازي: ١٩٢ وسيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٢ ودلائل النبوة: ٢/ ٢٨٢ والاستيعاب: ٣/ ٦٤١ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ وأسد الغابة: ٤/ ٤٤ و٥/ ٩٨ و٤٨١ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٥٥ و٢٠/ ٣٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٩ والإصابة: ٢/ ٥٠٥ و٣/ ٦١٠ ـ ٦١١ و٤/ ٣٢٧.

(٥) حلية الأولياء: ١/ ١٤٠.

(٦) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٠ وطبقات ابن سعد: ٤/ ق١/ ١٠١ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٣. وبلفظ: أبشروا آل عمار.. الخ في طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٨.

ياسراً فيقول: «إصبر؛ اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلتَ»[١]، وفي لفظ آخر إنه (ص) قال: «اللهم لا تعذِّب أحداً من آل ياسر ـ أو: آل عمار ـ بالنار»[٢].

وقد مات ياسر في العذاب[٣]، وكان هو وزوجته سمية أول شهيدَيْن قُتلا من المسلمين[٤].

أمّا أُمُّ عمار فهي المسلمة الصابرة الشهيدة سُميَّة بنت خُبّاطٍ ـ بمعجمةٍ مضمومة وموحَّدة ثقيلة، ويقال بمثنّاةٍ تحتانية. وعند الفاكهي: سمية بنت خَبط؛ بفتح أوله بغير ألف ـ[٥]، مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، وكانت من لخم[٦]، وقد أعتقها أبو حذيفة[٧] بعد ولادتها عماراً كما أعتق ولدها أيضاً.

وكانت هذه السيدة من الصحابيات الخيِّرات الفاضلات اللواتي سبقن إلى الإسلام، بل عدَّها بعضهم «سابع سبعةٍ في الإسلام»[٨]، وقد

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٧١ ومسند أحمد: ١/ ٦٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٨ و٤/ ق١/ ١٠١ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٣ والسيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧.

(٢) الاستيعاب: ٤/ ٣٢٥ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٧ والروض الأنف: ٢/ ٧٨ والسيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٠ والإصابة: ٣/ ٦١١ والسيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧.

(٤) وقعة صفين: ٣٢٥.

(٥) الإصابة: ٤/ ٣٢٧. وقال ابن الأثير في أسد الغابة: ٥/ ٤٨٢: «خباط بالخاء المعجمة وبالباء الموحَّدة؛ قاله ابن ماكولا. وقيل بالياء تحتها نقطتان، وكذا ضبطه أبو نعيم». وورد «حناط» مرة و«خباط» مرة في المطبوع من طبقات خليفة: ١/ ٤٨ و١٧١، ولعل الأول من أغلاط الطبع.

(٦) تهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨.

(٧) السير والمغازي: ١٩٢ وأسد الغابة: ٥/ ٩٨.

(٨) أسد الغابة: ٥/ ٤٨١ والإصابة: ٤/ ٣٢٧.

عُذِّبتْ بسبب ذلك أشدَّ العذاب، وصبرت على الأذى في ذات الله، حتى نالت شرف الشهادة فكانت أول شهيدة في الإسلام بإجماع المؤرخين؛ وذلك لمّا أجهز عليها أبو جهل بحَرْبته فماتت صابرة محتسبة، «ولما قُتِل أبو جهل يوم بدرٍ قال رسول الله (ص) لعمار بن ياسر: قد قتل الله قاتل أُمّك»[١].

وفي رواية ابن سعد: أن أبا جهل جاءها يوماً فجعل يشتمها «ويرفث، ثم طعنها فقتلها، فهي أول شهيد استشهد في الإسلام»[٢]، وفي نصِّ البلاذري: إن سمية «أغلظت لأبي جهل، فطعنها في قُبُلها فماتت»[٣].

أمّا ما رواه بعض المؤرخين: من أن ياسراً كان قد فارق سمية فخلف عليها الأزرقُ غلام الحارث بن كلدة، فولدتْ له قبل الإسلام عمراً وسلمة ابني الأزرق؛ أو سلمة فقط، «فهو أخو عمار لأُمه»[٤]، فكلُّه عارٍ عن الصحة ومما لا أساس له مطلقاً، لأن ياسراً وسمية توفيا شهيدين تحت التعذيب في صدر البعثة النبوية، ولم ترد أية إشارة يستشف منها انفصال هذين الزوجين عن بعضهما قبل الإسلام، بل لا يلتئم ذلك بأي وجهٍ من الوجوه مع ما توحي به نصوصُ إسلام هذه العائلة في مبادرتها إلى الإيمان؛ وتماسكها في الثبات على الإقرار

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٩٣ والاستيعاب: ٤/ ٣٢٥ والإصابة: ٤/ ٣٢٢٧،

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٦٦ والمعارف: ٢٥٦ ودلائل النبوة: ٢/ ٢٨٢ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٧ وأسد الغابة: ٥/ ٤٨١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٩ والإصابة: ٣/ ٦١١ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٠.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٧ والمنمق: ٣١٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٧.

بالرسالة؛ وتحملها لألوان الأذى والعذاب في هذه السبيل حتى الشهادة ولقاء الله.

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد التبس عليهم الأمر، فخلَّطوا فيما سمعوا ورووا، فافترضوا مفارقة ياسر لسمية وزواج الأزرق بها؛ لتصحيح تلك الأوهام المسموعة. والصواب أن هذه الأخوَّة كانت بين عمارٍ وأُمِّ المؤمنين أُمِّ سلمة كما صرح أحمد بن حنبل وابن سعد[ط]، وكانت أخوَّةً من الرضاعة كما نصَّ على ذلك السهيلي[١]، ولا علاقة لها بجميع ما وهموا وادَّعوا في هذا الموضوع.

❀ ❀ ❀

وكان لعمار من الأخوة:

١ ـ حُرَيث: ـ وهو أكبر أخوته ـ، وقد قتله بنو الديل في الجاهلية[٢].

٢ ـ عبدالله: وهو من السابقين إلى الإسلام، وقد أسلم مع أبويه وأخيه عمار[٣]، وكان يُعَذَّب بمكة في الله، ومات فيها قبل الهجرة[٤]، وفي روايةٍ للبلاذري: أنه قد رُمِيَ أثناء التعذيب فسقط[٥].

(ط) طبقات ابن سعد: ٨/ ٦٣ ومسند أحمد: ٦/ ٣١٤.

(١) الروض الأنف: ١/ ١٨٧.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٧٦ و٤/ ق١/ ١٠١.

(٣) طبقات ابن سعد: الجزءان والصفحتان المتقدمتان والمعارف: ٢٥٦ وأسد الغابة: ٣/ ٢٧٣ و٥/ ٩٨ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٦.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٧ والاستيعاب: ٢/ ٣٨٣ و٣/ ٦٤٠ وأسد الغابة: ٣/ ٢٧٤ والإصابة: ٢/ ٣٧٤ و٣/ ٦١١.

(٥) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٠.

وعرفنا لعمارٍ من الذريَّة:

١ ـ محمد بن عمار: رَوى عن أبيه ورُوي عنه[١]. ولمحمدٍ هذا ولدٌ اسمه سلمة[٢]، وآخر اسمه أبو عبيدة[٣]، وقد وصفه ابن حزم بكونه «من العلماء بالنسب».

٢ ـ سعد بن عمار: ومن ذريته «بنو عبدالله بن سعد بن الحسن بن عثمان بن الحسن بن عبدالله بن سعد بن عمار بن ياسر»[٤]، وعبدالله بن سعد بن الحسن «هو المقتول بالأندلس، قتله عبدالرحمن بن معاوية»[٥].

٣ ـ مطهَّر بن عمار بن ياسر: وقد شارك في إحدى الانتفاضات الإسلامية ضد الحجاج[٦].

٤ ـ أمّ الحكم بنت عمار[٧].

❀ ❀ ❀

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٨١ والمعارف: ٢٥٨ وجمهرة أنساب العرب: ٤٠٦ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٠٦. وورد اسمه في سند بعض الروايات في طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٧. كما ورد ذكر أبي عبيدة بن عمار بن ياسر في الأغاني: ١٥/ ٣٨، وربما سقط اسم أبيه محمد. كذلك ورد في سند بعض روايات أبي الفرج ذكر عبدالله بن عبدة بن محمد بن عمار (الأغاني: ٢١/ ١٣٢) ولعل عبدة تصحيف لأبي عبيدة حيث ورد على الصواب في أسانيد بعض روايات الطبري في تاريخه: ٨/ ١٧٨. وورد ذكر أبي عبيدة عبيدالله بن عمار بن ياسر في معجم البلدان: ٨/ ١٦٨، كما ورد ذكر أبي دكين بن زكريا بن محمد ابن عمار في الأغاني: ٢١/ ١١٢.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ٤٠٦.

(٥) الروض الأُنُف: ٢/ ٧٨.

(٦) نثر الدر: ٥/ ٢٦٤.

(٧) ورد ذكرها في مسند بعض الروايات في سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٨.

وُلِد عمار ـ رضوان الله عليه ـ قبل البعثة الشريفة بأربعين عاماً تقريباً، وهو مفاد قوله فيما رُويَ عنه: «كنتُ تِرْباً لرسول الله (ص)» وقوله: «لم يكن أحدٌ أقرب إليه سنّاً مني»[١]، كما إنه مفاد قول بعض المؤرخين: «كان لدة النبي (ص)»[٢]، وإن جاء في بعض الروايات أنه «كان أقدم في الميلاد من رسول الله (ص)»[٣]، ويؤكد هذا التاريخ التقريبي لميلاده كونه يوم شهادته في عام ٣٧هـ قد تجاوز التسعين، واتفاق أكثر المؤرخين على كونه ابن ثلاث وتسعين[٤].

واشتهر عمار منذ بدء صلته بمجتمع مكة ومجامعها بـ «أبي اليقظان»[٥]، ولم يتضح لنا منشأ هذه الكنية، إذ لم نعرف له ولداً بهذا الإسم.

ووصفه واصفوه لما أكتمل شبابه فقالوا:

كان رجلاً آدم طُوالاً؛ أشهل العينين؛ بعيد ما بين المنكبين[٦].

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٤٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣ و٢٠/ ٣٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٧.

(٢) نثر الدر: ٢/ ١٠٢.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٥.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٤ و٢/ ٣١٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٥ و١٨٩ والمعارف: ٢٥٨ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٧ و٢٠/ ٣٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢٦ والإصابة: ٢/ ٥٠٦ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤١٠.

(٥) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٧ وطبقات خليفة: ١/ ٤٨ و١٧١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٦ والمعارف: ٢٥٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٦٩ وحلية الأولياء: ١/ ١٣٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٢ و٢٠/ ٣٥ وأسد الغابة: ٤/ ٤٣ والإصابة: ٢/ ٥٠٥ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٨ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩١.

(٦) أنساب الأشراف ١/ ١٧٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٩ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٠ والمعارف: ٢٥٨ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٢ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣ و٢٠/ ٣٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٨.

كما ذكروا أنه كان «من أطول الناس سكوتاً وأقلهم كلاماً»[١]، وأنه كان «طويل الصمت طويل الحزن والكآبة»[٢].

❀ ❀ ❀

وهكذا ينتهي العهد الجاهلي من حياة عمار؛ وليس لدينا من المعلومات عنه ما يزيد على ما تقدَّم ذكره، وهذا هو شأن المغمورين من عامة الناس في المجتمعات القَبَلِيَّة ونظرتها الطَّبقية التي كانت يومذاك هي الأول والأخير في تحديد أقدار الرجال وتمييز موازينهم.

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٣.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ١٤٢.

وبعث الله تعالى محمداً برسالة الإسلام فأشرقت الأرض بنور ربِّها، ودوّى في أرجائها نداء الحق وهتاف الإيمان، وهو يدعو الناس إلى الخير والعدل والهدى، ويحثهم على نبذ ما هم عليه من جهل وغي وشرور، ويأمرهم بالتمرد على وثنيتهم العمياء وصنميتهم الصمّاء وجاهليتهم الجهلاء.

وسرعان ما استجاب ياسر وسمية وولداهما عمار وعبدالله لهذا النداء السماوي المجلجل، وأعانهم على هذه التلبية السريعة كونهم يومذاك من قاطني مكة المكرمة، فنالوا بذلك شرف السبق إلى الإيمان، وأصبحوا من جملة الرعيل الأول المتفق على سبقه وتقدمه في هذا الميدان[1]، وروى البلاذري أن عماراً «خامس من أظهر الإسلام»[2]، ونصَّ ابن الأثير على أنه أسلم يوم كان رسول الله (ص) في دار الأرقم[3]، وذكر الذهبي وغيره أن «أول مَنْ أظهر إسلامه سبعة، وعدَّ منهم عماراً وأمَّه سمية»[4]، ويؤيد ذلك كله ما تقدم في ترجمة سمية من كونها «سابع سبعة في الإسلام».

---

(١) أنساب الأشراف: ١/١١٦ ومجمع الزوائد: ٩/٢٩١.

(٢) أنساب الأشراف: ١/١٥٨.

(٣) أسد الغابة: ٤/٤٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١/٤٠٩ والإصابة: ٢/٥٠٦ وتهذيب التهذيب: ٧/٤٠٩.

ولقي عمار وأبوه وأمه وأخوه في سبيل الله ما لقوا من ضروب العذاب وألوان الأذى، وذهب أبواه ـ كما مرَّ ـ شهيدين بحراب طواغيت قريش وتحت وطأة أذاهم وتعذيبهم، وجاء في روايات تعذيب عمار: أنه كان «يُعَذَّب حتى لا يدري ما يقول»[١]، وجاء في رواية أخرى: إن المشركين عذَّبوا عماراً بالنار، «فكان النبي (ص) يَمرُّ به ويُمِرُّ يده على رأسه فيقول: «يا نار كوني بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم»[٢]، وفي لفظ أبي نعيم وغيره قالوا: «أخذ المشركون عماراً فلم يتركوه حتى نال من رسول الله (ص) وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبيَّ (ص) قال: ما وراءك؟ قال: شرٌّ يا رسول الله، واللهِ ما تُرِكتُ حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير. قال: فكيف تجد قلبك؟، قال: مطمئن بالإيمان، قال: فإن عادوا فعُدْ»[٣].

ونزلت في عمار بسبب هذا التعذيب وملابساته عدة آيات من القرآن الكريم، منها:

١ ـ روى أكثر من راوٍ ومحدِّث: «إن المشركين أخذوه وعذَّبوه حتى سبَّ النبيَّ (ص)، ثم جاءه وذكر ذلك له، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]»[٤]، ونصَّ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٧٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٩ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٠.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٨ وحلية الأولياء: ١/ ١٤٠ وأسد الغابة: ٤/ ٤٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١١.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٩ و١٦٠ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ ـ ١٥١ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١١ والإصابة: ٢/ ٥٠٦.

الحافظ ابن عبد البر القرطبي على أن نزول هذه الآية في عمّار «مما اجتمع أهل التفسير عليه»(١).

٢ ـ وروي السهيلي: إنه «نزل في عمار وأبيه: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال: «لما كان الإيمان أصله في القلب رُخِّص للمؤمن في حال الإكراه أن يقول بلسانه إذا خاف على نفسه حتى يأمن»(٢).

٣ ـ و«عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] قال: عمار بن ياسر»(٣).

٤ ـ وروى البلاذري وابن سعد عن ابن عباس: إن قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ـ إلى آخر الآية ـ [الزمر: ٩] «نزلتْ في عمار بن ياسر»(٤).

٥ ـ ويروى: «أن عظماء قريش اجتمعوا إلى أبي طالب فقالوا له: لو أن ابن أخيك طرد موالينا وحلفاءنا كان أطوع له عندنا وأعظم في صدورنا ـ وأشاروا إلى عمار وبلال ابن مسعود ـ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾(٥) [الأنعام: ٥٢].

٦ ـ ورُوِيَ أيضاً: إن أبا جهلٍ كان «يُعذِّب عمار بن ياسر وأُمَّه؛ ويجعل لعمارٍ درعاً من حديد في اليوم الصائف، فنزل قوله تعالى:

(١) الاستيعاب: ٢/ ٤٧٠.
(٢) الروض الأنف: ٢/ ٧٧.
(٣) الاستيعاب: ٢/ ٢٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٨.
(٥) تاريخ بغداد: ١/ ١٥١.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[١] [العنكبوت: ٢].

وبقيت آثار هذا التعذيب وندوبه أوسمة فخار ومجد؛ تتلألأ في جسم عمار مدى حياته، فقد روى محمد بن كعب القرظي قال: «أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجرداً في سراويل، قال: فنظرتُ إلى ظهره فيه حَبَطٌ كثير، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مما كانت تعذبني به قريش في رمضاء مكة»[٢].

❁ ❁ ❁

هكذا كان عمار في بدء البعثة النبوية حينما تحدّى أصنام قريش بالسبق إلى الإسلام والمبادرة إلى الإقرار بهذا الدين المنزل والرسالة الخاتمة، وهكذا كان عُبّاد الأوثان في أساليبهم الإرهابية النكراء لصدِّ هذا المدِّ السماوي الزاحف؛ الذي يوشك أن يجرفهم إلى مزبلة التاريخ؛ ويقضي على جميع إمتيازاتهم القبلية ومكاسبهم الاجتماعية؛ وعلى ما كانوا يعبدون ويقدِّسون من دون الله تعالى.

ولم يكن للمعذبين في الأرض ـ والحال هذه ـ من سبيل التخلص من أذى السياط والتعذيب والرمضاء؛ سوى الفرار من أيدي هؤلاء الطواغيت، فهاجر عدد من المسلمين إلى الحبشة نجاة بأنفسهم ودينهم، ريثما تنكشف الغمة وتخف الضغوط ويكف أتباع الشيطان عمّا يقترفون.

وكان عمار بن ياسر أحد هؤلاء المهاجرين الفارين بدينهم، كما روى عددٌ من المؤرخين[٣]، وشك بعضهم في كونه ممن خرج إلى

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/١٧٨ والسيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٥٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٧٧.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٢١١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٧٩ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣ و٢٠/ ٣٧.

الحبشة[١]، ويستفاد من الجمع بين مجموع الروايات التاريخية الواردة في هذا الموضوع إن منشأ الشك إنما هو في كونه من المجموعة الأولى أو الثانية، وليس في أصل الهجرة وتحققها.

ثم عاد عمار من رحلة اغترابه بعد لأيٍ من الزمن؛ أسوةً بغيره من العائدين. ولم تستمر به أيام مكثه طويلاً في مكة المكرمة حتى أذن الله عز وجل لنبيه بالهجرة إلى المدينة المنورة، فأوعز النبي (ص) لأصحابه بالانتقال إلى هناك، فخرجوا زرافات ووحدانا، وكان من أوائل أولئك المهاجرين إلى المدينة عمار بن ياسر[٢]، وتعده بعض الروايات التاريخية ثالثَ مَنْ قدم المدينة منهم[٣]، ونزل هناك على مبشِّر بن عبدالمنذر[٤].

ثم هاجر النبي (ص) على أثر ذلك إلى حيث استقر أصحابه وأنصاره في مدينتهم المنورة الزاهرة، وكان أول عملٍ بادر إليه لتدعيم الروابط وخلق الوشائج الصميمية بين المهاجرين والأنصار هو إعلان التآخي بين هؤلاء الضيوف الوافدين وأهل البلد الأصليين، ليشعر الجميع بالاستقرار والاطمئنان والمسؤولية المشتركة، وكان من ذلك مؤاخاة عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وقيل: بين عمار وثابت بن قيس بن الشمّاس[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦ وأسد الغابة: ٤/ ٤٤ والإصابة: ٢/ ٥٠٥.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٢٥٩ وطبقات ابن سعد: ١/ق١/ ١٥٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٠ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣ والإصابة: ٢/ ٥٠٥ج

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٨٤ و٦/ ٢٠٨ ومسند أحمد: ٤/ ٢٨٤ و٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٤/ ق٢/ ٨٢.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٩ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩.

ثم كان من بواكير الأعمال النبوية في المدينة المنورة بعد المؤاخاة وضمان وحدة الكلمة والمشاعر والتوجهات؛ أَمْرُ النبي (ص) ببناء مسجده الأعظم هناك؛ ليكون المركز الجامع لشؤون العبادة والدين وإدارة الدولة والمجتمع، فـ «أَمَرَ باللَّبِن يُضرب وما يحتاج إليه، ثم قام رسول الله (ص) فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم وأكسيتهم؛ يرتجزون ويقولون ويعملون:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ ذاك إذاً لَعَمَلٌ مضلَّلٌ

قالت أُمُّ سلمة: «وكان عثمان بن عفان رجلاً نظيفاً متنظفاً، فكان يحمل اللَّبِنة ويجافي بها عن ثوبه، فإذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه، فإذا أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه ـ رض ـ فأنشده:

لا يستوي مَنْ يعمر المساجدا يدأب فيها راكعاً وساجدا
وقائماً طوراً وطوراً قاعدا ومَنْ يُرى عن التراب حائدا

«فسمعها عمار بن ياسر فجعل يرتجزها وهو لا يدري مَنْ يعني. فسمعه عثمان فقال: يا ابن سمية؛ ما أَعْرَفَني بمن تُعرِّض ـ ومعه جريدة فقال: ـ لتكُفَّنَّ أو لأعترضنَّ بها وجهك. فسمعه النبي (ص) وهو جالس في ظل حائط فقال: عمار جلدة ما بين عينيَّ وأنفي، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ مني ـ وأشار بيده فوضعها بين عينيه ـ. فكفَّ الناس عن ذلك، وقالوا لعمار: إن رسول الله (ص) قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن»[(١)].

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٣٤٢. ويراجع في هذا الخبر سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣ حيث رواه ابن إسحاق بتمامه، ولكن ابن هشام حذف اسم الشخص المعني بالرجز معترفاً بوروده في نص ابن اسحاق وتعمده حذفه، كذلك رواه برهان الدين الحلبي في السيرة الحلبية: ٢/ ٧٧ غير أنه جعله عثمان ابن مظعون!!!.

وجاء في خبر السيهلي في بناء المسجد «إن عماراً كان ينقل من بنيان المسجد لَبِنَتَيْن: لَبِنَة عنه ولَبِنَة عن رسول الله (ص)، والناس ينقلون لَبِنَة واحدة، فقال له النبي (ص): للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن، وتقتلك الفئة الباغية»[١].

وفي رواية أخرى: إن عماراً كان يحمل لبنتين لبنتين «فجعل رسول الله (ص) ينفض التراب عن رأس عمار ويقول: يا عمار؛ ألا تحمل كما يحمل أصحابك؟ قال: إني أريد الأجر من الله تعالى»[٢].

وهكذا اتفقت الروايات على أن عماراً منذ لمست قدماه أرض المدينة؛ قد نذر نفسه للعمل الدؤوب في نشر الدعوة وبناء الكيان الجديد وتشييد المؤسسات العامة النفع لجماهير المسلمين، وروى المؤرخون فيما يرتبط بذلك: إنه كانْ «أوْل مَنْ بنى مسجداً يُصَلّى فيه»[٣]، وذكر بعضهم إنه مسجد قُبَا[٤]، وقال السهيلي معقباً على ما رواه ابن إسحاق في ذلك فقال:

«ذكر ابنُ إسحاق الحديثَ الوارد في عمار وهو: أول من بنى لله مسجداً عمار بن ياسر. فيقال: كيف أضاف إلى عمار بنيان المسجد وقد بناه معه الناس؟ فنقول: إنما عنى بهذا الحديث مسجد قُبَاء، لأن عماراً

---

(١) الروض الأُنُف: ٢/ ٢٤٨. ويأتي مزيد من البيان والتفصيل في سرد المصادر وذكر الأسانيد في تخريج الحديث النبوي الشريف: «عمار تقتله الفئة الباغية».

(٢) السيرة الحلبية: ٢/ ٧٦.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٣ وأنساب الأشراف: ١/ ١٦٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٧٩ والمعجم الكبير: ٩/ ٢٢١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١١ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩.

(٤) الدرجات الرفيعة: ٢٦٠.

هو الذي أشار على النبي (ص) ببنيانه؛ وهو جَمَعَ الحجارة له، فلما أسَّسه رسول الله (ص) استتم بنيانه عمار»[١].

وروى السمهودي عن الحكم بن عتيبة قال «لما قدم النبي (ص) فنزل بقُباء، قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله (ص) بُدٌّ من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه. فجمع حجارة فبنى مسجد قباء، فهو أول مسجد بُنِيَ يعني لعامة المسلمين وللنبي (ص) بالمدينة، وهو في التحقيق أولَ مسجد صلّى فيه بأصحابه جماعة»[٢].

وربما كان هذا النشاط وتلك الجهود المبذولة من قِبَل هذا الصحابي الصادق الإيمان؛ هي التي حملت النبي (ص) على أن يُقْطع عماراً موضع داره[٣]، ليشعره بالمزيد من الارتباط والاستقرار في موطنه الجديد.

۞ ۞ ۞

وما إن مرت شهور على مقام النبي (ص) في مستقره الذي اختاره الله تعالى له في المدينة المنورة، حتى كانت قريش في مكة ـ وهي ترى محمداً وصحبه وقد أصبحوا في منجاة من بطشها وأذاها وإرهابها ـ تفعل الأفاعيل بأموال المهاجرين ومساكنهم وتصادر سائر ما تركوه هناك حين هجرتهم. وقدَّر النبي (ص) بثاقب نظرته إنها سوف لا تكتفي بذلك؛ بل ستعدّ العدة لحربه ومهاجمته في عقر داره تحسباً من نمو قدرته وخطره وازدياد اتباعه وأنصاره، وستجند معها لهذا الغرض كل من تستطيع إثارته

(١) الروض الآنف: ٢/ ٢٤٨.
(٢) وفاء الوفا: ١/ ٢٥٠.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٧٩.

وتجنيده من القبائل والبطون في البلاد الحجازية، ولهذا كان لا بدَّ له من أن يُري قريشاً بعض القوة من جهة، وأن يهادن ويوادع من يستطيع مهادنته وتحييده من سكان تلك الديار المنتشرة بين مكة والمدينة والمحيطة بها من جهة أخرى، عسى أن يكون في ذلك ما يردع قريشاً عن غيها؛ ويخفف من عنجهيتها وغلوائها وكبريائها المتغطرسة.

وتنفيذاً لهذه الخطة غزا النبي (ص) على رأس جمع من أصحابه عير قريش في السنة الثانية من الهجرة قبل معركة بدر، وأخذ في امتداد طريق قوافل التجارة المكية، فأحست قريش بذلك فأسرعت السير وأفلتت من هذا الكمين، فلم تقع مجابهة بين الطرفين، ونزل النبي (ص) وأصحابُه العُشَيْرة من بطن ينبع، ووادع فيها بني مُدْلج وحلفاءهم، ثم رجع إلى المدينة.

وذكر المحدثون والمؤرخون: إن عمار بن ياسر كان مِن جملة مَن خرج من الصحب مع النبي (ص) في هذه الغزوة، ورووا بأسانيدهم عن عمار بعض مشاهداته ومسموعاته فيها، ومنها قوله ـ واللفظ لابن إسحاق ـ:

«كنتُ أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العُشَيرة، فلما نزلها رسول الله (ص) وأقام بها؛ رأينا أناساً من بني مُدْلج يعملون في عين لهم وفي نخل، فقال لي علي بن أبي طالب: يا أبا اليقظان؛ هل لك في أن نأتي هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون؟، قال: قلتُ: إن شئتَ، قال: فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غَشِيَنَا النوم، فانطلقتُ أنا وعلي حتى اضطجعنا في صَوْرٍ من النخل وفي دقعاء من التراب فنمنا، فواللهِ ما أهبَّنا إلا رسول الله (ص)... فيومئذ قال رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب: مالك يا أبا تراب، لِمَا يرى عليه من التراب. ثم قال: ألا

أُحدِّثكما بأشقى الناسْ رَجُلَيْن؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه ـ ووضع يده على قَرْنه ـ حتى يبلَّ منها هذه ـ وأخذ بلحيته ـ»[١].

ثم كان بعد ذلك الخروج إلى بدر ـ وهي كما يعلم الجميع من معارك الإسلام الكبرى الفاصلة ـ، وشهدها عمار فيمن شهدها من الأصحاب[٢]. وكان هو وعبدالله بن مسعود على بعير واحد يشتركان فيه[٣]. وقد أُبلى عمار في هذه المعركة بلاء حسناً[٤]؛ كما يدل عليه ذلك العدد من قتلاه وأسراه من المشركين[٥]، وكما يشعر به اختيار رسول الله (ص) عماراً وابن مسعود ليقوما بمراقبة تحركات المشركين بعد هزيمتهم خوفاً من الخديعة ومعاودة الكرَّة، فذهبا «فأطافا بالقوم ثم رجعا إليه فقالا له: يا رسول الله؛ القوم مذعورون فَزِعون، أن الفَرَسَ ليريد أن يصهل فيضرب وجهه، مع أن السماء تسحُّ عليهم»[٦].

ثم وقعت بعد ذلك معركة أُحُد، وقد شهدها عمار شهوداً فاعلاً، وكانت له فيها مواقف خالدة، وحسبنا دليلاً على مجمل ذلك ما رواه

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠. وورد بألفاظ قريبة من هذا النص في مسند أحمد: ٤/ ٢٦٣ و٢٦٤ وكامل المبرد: ٣/ ٢٤٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩ ودلائل النبوة: ٣/ ١٢ ـ ١٣ والتاريخ الكبير: ١/ ٨٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٣٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٧٩ وحلية الأولياء: ١/ ١٣٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٠ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٦ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٨٨.

(٤) الاستيعاب: ٢/ ٤٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣ و٢٠/ ٣٧.

(٥) يراجع في الوقوف على أسمائهم: سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٦٥ و٣٦٦ و٣٦٨ و٣٦٩ و٣٧٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٩٧ و٣٠٠ و٣٠٢ والمعارف: ١٥٧ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٣٦ و١٣٨ و٢٠١ و٢٠٨ و٢١٢.

(٦) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ١١٧.

الزمخشري في خلال حديث طويل يخص وقائع هذه المعركة: إن جبرئيل هبط على رسول الله (ص) ذلك اليوم، فكان مما قال له: «مَنْ هذا الذي بين يديك ينفي عنك؟، قال: عمار، قال: بَشِّر عماراً بالجنة، حرمت النار على عمار، مُلىءَ عمارٌ إيماناً إلى مشاشه»(١).

وجاء في النصوص التاريخية مما يتعلق بذيول هذه المعركة ومواقف عمار فيها: ما رواه البلاذري إن «معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ـ الذي جدع أنف حمزة ومثَّل به فيمن مثَّل ـ قد انهزم يوم أُحد فمضى على وجهه، فبات قريباً من المدينة، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص فضرب بابه، فقالت له امرأته أم كلثوم... ليس هو هاهنا، فقال: أبعثي إليه فإن له عندي ثمن بعير ابتعتُه عام أول... فأرسلت إليه... فلما جاء قال لمعاوية: أهلكتَني ونفسَك، ما جاء بك؟، قال: يا ابن عم؛ لم يكن أحد أقرب إليَّ ولا أمسَّ رحماً بي منك، فجئتُك لتجيرني، فأدخله عثمان داره وصيره في ناحية منها، ثم خرج إلى النبي (ص) ليأخذ له منه أماناً، فسمع رسولَ الله (ص) يقول: إن معاوية بالمدينة وقد أصبح بها فأطلبوه، فقال بعضهم: ما كان ليعدو منزل عثمان فاطلبوه فيه. فدخلوا منزل عثمان فأشارت أم كثوم إلى الموضع الذي صيَّره عثمان فيه، فاستخرجوه... فانطلقوا به إلى النبي (ص)، فقال عثمان حين رآه: والذي بعثك بالحق ما جئتُ إلا لأطلب له الأمان منك؛ فهبه لي؛ فوهبه له وأجَّله ثلاثاً وأقسم لئن وُجِد بعدها بشيء من أرض المدينة وما حولها ليُقتلنَّ...».

«وصار رسول الله (ص) إلى حمراء الأسد. وأقام معاوية إلى اليوم

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٣٣ ـ ٨٣٤. ويأتي الاستشهاد بذيل هذه الرواية وتخريجها على مصادر الحديث والتاريخ في موضع آخر من هذا البحث.

الثالث ليتعرَّف أخبار النبي (ص) ويأتي بها قريشاً، فلما كان في اليوم الرابع قال رسول الله (ص): إن معاوية أصبح قريباً لم ينفذ فأطلبوه واقتلوه. . . ، فأدركوه، وكان اللذان أسرعا في طلبه زيد بن حارثة. . . وعمار بن ياسر. . . فقتلاه، ثم انصرفا إلى النبي (ص) بخبره»[١]، ومعاوية هذا «هو جدُّ عبد الملك بن مروان أبو أُمِّه عائشة بنت معاوية»[٢].

ثم شارك عمار بعد ذلك في السريَّة التي أرسلها النبي (ص) إلى بطن نخلة فقتلت وغنمت وعادت إلى المدينة[٣].

وروى المؤرخون في تفاصيل خروج النبي (ص) إلى غزوة ذات الرقاع في السنة الرابعة من الهجرة: أنه «بينا رسول الله (ص) في مسيره عشيةً ذات ريح، فنزل في شِعبٍ استقبله، فقال: مَنْ رجل يكلؤنا الليلة؟، فقام رجلان: عمار بن ياسر وعبّاد بن بشر فقالا: نحن يا رسول الله نكلؤك. وجعلت الريح لا تسكن، وجلس الرجلان على فم الشِّعب»[٤].

ثم شهد عمار الخندق، وشارك في حفر خندقها، وحدثت أُمُّ المؤمنين أم سلمة فقالت: «ما نسيتُ قوله [أي النبي (ص)] يوم الخندق وهو يعاطيهم اللَّبِن، وقد اغبَّر شعر صدره، وهو يقول: اللهم إن الخير خير الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة. فرأى عماراً فقال: ويحه ابن سمية؛ تقتله الفئة الباغية»[٥].

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨. ومختصر منه في سيرة ابن هشام: ٣/ ١١١ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤٧.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١١٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٨ ودلائل النبوة: ٣/ ٣٧٨.
(٥) مسند أحمد: ٦/ ٢٨٩ و٣١٥.

وحدَّث أبو سعيد الخدري أن عماراً حينما كان يعمل في حفر الخندق «جعل النبي (ص) يمسح رأسه ويقول: بُؤْس ابن سمية؛ تقتلك فئة باغية»[١].

وفي السنة السادسة من الهجرة شهد عمار بيعة الرضوان[٢]، وهي البيعة التي بايع فيها المسلمون رسول الله (ص) على عدم الفرار من الزحف حين يشتعل أوار الحرب؛ وعلى الثبات في الموقف حتى الشهادة أو النصر.

ثم شهد عمار بعد ذلك غزوة تبوك، كما شهد مشاهد النبي (ص) ومعاركه وغزواته كلها بلا استثناء باتفاق المحدثين والمؤرخين[٣].

ويبدو من سياق الأخبار المعنيَّة بهذه الغزوة أن عماراً كان مرافقاً لرسول الله (ص) في رحلة تبوك؛ وقريباً منه في حلِّه وترحاله؛ لسماع أوامره وتنفيذ توجيهاته أولاً بأول. ونكتفي في الاستشهاد على ذلك والدلالة عليه بهذين المثالين الآتيين:

١ ـ روى الطبري بسنده عن ابن إسحاق قال

«كان رهط من المنافقين... يسيرون مع رسول الله (ص) وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم!، والله لكأني بكم غداً مقرَّنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين... وقال رسول الله (ص) فيما بلغني لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا [أي هلكوا] فسَلْهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل:

(١) صحيح مسلم: ٨/ ١٨٥ و١٨٦.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٧١ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣٧ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥ والإصابة: ٢/ ٥٠٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩١.

بلى قد قلتم وكذا وكذا. فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه»[١].

٢ ـ روى أحمد بن حنبل بسنده عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال:

«لما أقبل رسول الله (ص) من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى أن رسول الله (ص) أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله (ص) يقوده حذيفة ويسوق به عمار؛ إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله (ص)، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله (ص) لحذيفة: قُدْ قُدْ، حتى هبط رسول الله (ص)، فلما هبط رسول الله (ص) نزل ورجع عمار، فقال: يا عمار هل عرفتَ القوم؟، فقال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: هل تدري ما أرادوا؟، قال: الله ورسوله أعلم، قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله (ص) فيطرحوه».

«قال: فسابَّ عمار رجلاً من أصحاب رسول الله (ص) فقال: نشدتُك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ فقال: أربعة عشر، فقال: إن كنتَ فيهم فقد كانوا خمسة عشر. فعدَّد رسولُ الله (ص) منهم ثلاثة قالوا: واللهِ ما سمعنا منادي رسول الله (ص) وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الأثنى عشر الباقين حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[٢].

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ الطبري: ١٠٨/٣.
(٢) مسند أحمد: ٤٥٣/٥ ـ ٤٥٤.

وما إن أطلَّ العام الحادي عشر من الهجرة الشريفة حتى أشرف العهد النبوي الزاهر على الانتهاء، ودخلت الأمة الإسلامية عهداً جديداً فقد فيه الناسُ ذلك الحَكَمَ السماوي العادل؛ والفرقان الإلهي الفاصل؛ والملاذ الروحي الآمن، فكان الاختلاف، وكانت الفتن، وكان ما أخبر الله تعالى به من الإنقلاب على الأعقاب.

وعندما نتحدث عن عمار في ظلال ذلك العهد المشرق الوضّاء؛ نجد أن حصيلة هذا الصحابي المجاهد خلال تلك السنوات الرسالية المباركة قد فاقت كل حصائل الدنيا ومكاسبها الزائفة، وسمت على جميع ما يتنافس فيه المتنافسون من أموال ونفائس وثمرات، فقد أُثِر عن النبي (ص) في عمار من الأحاديث والتصريحات ما دل بصريح اللفظ على سمو شأن هذا المسلم الصادق الإيمان وعلو درجته، وما نبَّه المسلمين على ما يتمتع به من مقام كبير عند الله وعند رسوله (ص). وكانت تلك الأحاديث ـ مع كثرة عددها وصحة سندها ـ متواترة المعنى والدلالة ومتحدة المفهوم والمضمون، وإن اختلفت الألفاظ وتنوعت العبارات؛ تبعاً لاختلاف الظروف وتنوع المناسبات.

ونورد فيما يأتي بعضاً من تلك الأحاديث النبوية المباركة، للاطلاع والتأمل في أعماق معانيها السامية وأهدافها الكبرى المعنيَّة بقراءة الغيب واستشراف المستقبل المجهول:

أ ـ قال النبي (ص): «عمار مُلِيء إيماناً إلى مشاشه» أو «إلى أخمص قدميه»، وفي لفظٍ: «عمار مُلِيء إيماناً من قرنه إلى قدمه»، وفي لفظ آخر: «إن عمار بن ياسر حُشي ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيماناً»، وفي لفظ آخر أيضاً: «عمار مُلِيء إيماناً وعلماً»[1].

(١) ورد الحديث بألفاظه المختلفة في سنن ابن ماجه: ١/ ٥٢ ومسند أحمد: ١/ ٣٨٩=

ب ـ وقال النبي (ص): «عمار خلط الإيمان بلحمه ودمه»(١).

ج ـ وقال (ص) أيضاً: «أبو اليقظان على الفطرة»(٢).

د ـ وقال (ص) أيضاً: «اهتدوا بهدى عمار»(٣).

هـ ـ وقال (ص): «ثلاثة تشتاق إليهم الجنة: علي وسلمان وعمار»، وفي لفظ آخر: «إن الجنة تشتاق إلى أربعة: إلى عمار وعلي وسلمان والمقداد»(٤).

و ـ وجاء في الرواية: إن عماراً استأذن على النبي (ص)، «فقال: مَنْ هذا؟، قال: عمار، قال (ص): مرحباً بالطيِّب المطيَّب» أو «مرحباً بالطيِّب ابن الطيِّب»(٥).

ز ـ وقال النبي (ص) أيضاً: «عمار جلدة ما بين العين والأنف»(٦).

ح ـ قال خالد بن الوليد: «كان بيني وبين عمارٍ كلامٌ فأغلظتُ له في

= و٤٤٥ ووقعة صفين: ٣٢٣ وحلية الأولياء: ١/ ١٣٩ والجمل: ٥٠ والاستيعاب: ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٣ و١٠٤ و٢٠/ ٣٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٣ والإصابة: ٢/ ٥٠٦ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٥.

(١) السيرة الحلبية: ٢/ ٧٨.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٥.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٧٢ ومسند أحمد: ٥/ ٣٩٩ وأنساب الأشراف: ١/ ١٦٢ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٥.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٧ ووقعة صفين: ٣٢٣ وأنساب الأشراف: ٢/ ١٢٢ والجمل: ٥٠ وحلية الأولياء: ١/ ١٤٢ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٩ ـ ١٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٣.

(٥) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٢ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٦٨ ومسند أحمد: ١/ ١٠٠ و١٢٣ و١٢٦ و١٣٠ و١٣٨ ووقعة صفين: ٣٢٣ وحلية الأولياء: ١/ ١٣٩ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ وتاريخ بغداد: ١/ب١٥ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٣ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥ والإصابة: ٣/ ٥٠٦ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٩.

(٦) الجمل: ٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٢.

القول، فشكاني إلى رسول الله (ص) فقال: مَنْ عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله»، وفي لفظٍ آخر: «يا خالد؛ لا تسب عماراً فإنه من سبَّ عماراً سبَّه الله، ومن يبغض عماراً أبغضه الله، ومن سفَّه عماراً سفَّهه الله»[١].

ط - وقال النبي (ص): «عمار ما عُرِض عليه أمران إلا اختار الأرشد منهما»، وفي لفظ أحمد بن حنبل: «لا يخيَّر بين أمرين إلا اختار أرشدهما»، وفي لفظ الترمذي: «إلا اختار أسدَّهما»[٢].

ي - وفي الحديث النبوي المشهور: «عمار تقتله الفئة الباغية»[٣] وزاد

(١) الحديث بألفاظه المتعددة في مسند أحمد: ٥٤/٨٩ و٩٠ والمعجم الكبير: ٤/ ١٣١ و١٣٢ و١٣٣ و١٣٤ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٢ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٢ و١٠/ ١٠٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٥ والإصابة: ٢/ ٥٠٦ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٣ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٨.

(٢) ورد الحديث بألفاظه المختلفة في سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٨ وسنن ابن ماجه: ١/ ٥٢ ومسند أحمد: ١/ ٣٨٩ و٤٤٥ و٦/ ١١٣ وأنساب الأشراف: ١/ ١٦٩ وأسد الغابة: ٤/ ٤٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٦ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٦ و٧٨.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ١١٥ و٤/ ٢٥ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٦٩ ومسند أحمد: ٢/ ١٦١ و٣/ ٥ و٩١ و٥/ ٣٠٦ و٣٠٧ و٦/ ٣٠٠ و٣١١ وأنساب الأشراف: ١/ ١٦٨ وطبقات ابن سعد: ١/ ق٢/ ٣ و٣/ ق١/ ١٧٩ ـ ١٨٠ والمعجم الكبير: ٤/ ٩٨ و٢٠٠ و١٩/ ١٧١ و٣٣١ و٩٦ ودلائل النبوة: ٢/ ٥٤٦ و٥٤٧ و٥٤٨ و٥٤٩ و٥٥٠ و٥٥١ و٦/ ٤٢٠ ووقعة صفين: ٣٢٣ و٣٢٦ و٣٣٥ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٤ (وقال الحافظ ابن عبد البرِّ فيه: تواترت الآثار عن النبي (ص) إنه قال تقتل عماراً الفئة الباغية. وهذا من أخباره بالغيب وأعلام نبوته (ص)، وهو من أصح الأحاديث). كذلك ورد الحديث في العقد الفريد: ٤/ ٣٤٣ والروض الأُنُف: ٢/ ٢٤٨ وأسد الغابة: ٤/ ٤٦ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٢ و٨/ ٤١٨ ـ ٤١٩ و١٠/ ١٠٦ و٢٠/ ٣٨ والتاريخ الكبير: ١/ ٨٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٨ ـ ٤١٩ و٤٢٠ و٤٢١ (وقال الذهبي: إنه حديث متواتر)، وورد أيضاً في الإصابة: ٢/ ٥٠٦ (وقال الحافظ ابن حجر فيها: تواترت الأحاديث عن النبي (ص) إن عماراً=

بعضهم روايةً عن رسول الله (ص): «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[(١)]، وفي لفظ حذيفة قال: «سمعتُ رسول الله (ص) يقول ـ وضرب جنب عمار ـ: إنك لن تموت حتى تقتلك الفئة الباغية الناكبة عن الحق»[(٢)].

ك ـ وقال النبي (ص): «دم عمار ولحمه حرام على النار»[(٣)].

ل ـ وقال النبي (ص) «قاتل عمار وسالبه في النار»[(٤)].

م ـ وروى المحدّثون عن أبي الدرداء وأبي هريرة سماعهما من النبي (ص) إعلانه بأن عماراً قد «أعاذه الله ـ أو: أجاره الله ـ من الشيطان»[(٥)].

❀ ❀ ❀

وهكذا جزى اللهُ ورسولُه عماراً الجزاء الأوفى؛ فكان بهذه المثابة العليا من الشأن والمقام في السماء والأرض.

وهكذا كوفىء هذا المسلم الصابر الصادق بأسمى ما عرفت البشرية من مكافآت التكريم؛ فكان من الأفذاذ الثلاثة أو الأربعة الذين تشتاق إليهم الجنة.

وهكذا ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

= تقتله الفئة الباغية). كما ورد الحديث في تهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩ (ونص فيه على تواتر الحديث) ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٦ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٦.

(١) ورد ذلك في معظم المصادر المذكورة في الهامش (٥٦).

(٢) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٥.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٣ و٢/ ٣١٥ والجمل: ٥٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٧.

(٥) صحيح البخاري: ٤/ ١٥١ ـ ١٥٢ و٥/ ٣٢ و٨/ ٧٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤١٧ و٤١٨.

وفُجع المسلمون فجيعتهم الكبرى بوفاة رسول الله (ص) وانقطاع صلة الأرض بالسماء، فصدمتهم هذه الفاجعة أعنف ما تكون الصدمة، فكانوا فيها سكارى المصاب وما هم بسكارى، وحيارى المجهول وما هم بحيارى، ولكن وقع الحزن شديد، وخطر الانقلاب عاصف، وظلام المستقبل مخيف هائل.

وانقسم المسلمون منذ ذلك اليوم شيعاً وأحزاباً وطوائف، تتجاذبهم الأهواء، وتمزقهم العصبيات، وتعصف بوحدتهم أعاصير الدسائس والفتن والمحن.

وحصل ما حصل في تلك الأيام الأولى من هذه المصيبة العظمى، مما لا مجال للاستطراد في ذكره واستعراضه في هذه الصفحات، ثم أسفر هذا الصراع الرهيب عن خلافة وصولجان؛ وخليفة وسلطان.

وكانت لتلك النخبة من الصحابة المخلصين ـ الذين عُرِفوا بصدق الإيمان ونزاهة النفس؛ وتميَّزوا بنقاء العقيدة وطهارة الضمير ـ مواقف صريحة محدَّدة أعلنوا فيها رأيهم فيما وقع يومذاك، رفضاً وإنكاراً تارة، ونصيحة وإرشاداً تارة أخرى، مستلهمين في كل ذلك ما عاهدوا الله تعالى عليه من إذعان وطاعةٍ لما سمعوا من النبي (ص) وهو المبلِّغ للوحي والناطق عن الغيب؛ وما فهموا من مراد رسول الله (ص) في أقواله ونصوصه بحكم معايشتهم لظروف تلك النصوص والأقوال.

وانطلاقاً من هذه النظرة البصيرة بالأمر؛ والمجرَّدة عن الهوى؛ والمنزَّهة عن دوافع العصبيات، قام عمار بن ياسر خطيباً حين تولّى أبو بكر الخلافة إثر الإجتماع الصاخب في سقيفة بني ساعدة، فقال:

«يا معاشر قريش ويا معاشر المسلمين، إن كنتم علمتم وإلا فأعلموا أن أهل بيت نبيكم أَوْلى به وأحقُّ بإرثه؛ وأقْوَم بأمور الدين؛ وآمَنُ على المؤمنين؛ وأحْفَظ لملَّته؛ وأنصح لأُمته. فمروا صاحبكم فليرد الحق إلى أهله، قبل أن يضطرب حبلكم، ويضعف أمركم، ويظهر شتاتكم، وتعظم الفتنة بكم، وتختلفون فيما بينكم، ويطمع فيكم عدوكم. فقد علمتم أن بني هاشم أَوْلى بهذا الأمر منكم، وعليٌّ أقرب منكم إلى نبيكم، وهو من بينهم وليكم بعهد الله ورسوله».

«وفرق ظاهر قد عرفتموه في حالٍ بعد حال، عند سدِّ النبي (ص) أبوابكم التي كانت إلى المسجد كلها غير بابه، وإيثاره إياه بكريمته فاطمة دون من خطبها إليه منكم، وقوله (ص): (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها)، وإنكم جميعاً مضطرون فيما أشكل عليكم من أمور دينكم إليه، وهو مستغن عن كل أحدٍ منكم. إلى ما له من السوابق التي ليست لأفضلكم عن نفسه، فما لكم تحيدون عنه وتبتزون حقه، وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، بئس للظالمين بدلاً. أعطوه ما جعله الله له ولا تتولوا عنه مدبرين، ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسئين»[١].

وكان من الطبيعي لعمار وقد حدَّد موقفه من الخلافة والخليفة بهذا الجلاء والوضوح، أن يكون بعيداً عن دائرة أحداث الساخنة التي

(١) الاحتجاج ٥٠ والدرجات الرفيعة: ٢٦٠ ـ ٢٦١.

شهدتها الإدارة الجديدة منذ أيامها الأولى؛ وأنْ لا يشارك فيها من قريب أو بعيد.

ومن هنا يقف المؤرخ موقف الشك والتردد مما رواه بعض الرواة من إسهام عمار في حروب اليمامة ومن قطع أذنه فيها[١]، وإن كنا لا نشك في قطع أذنه في إحدى الحروب. وكان طارق بن شهاب قد نصَّ على أن أذنه «جُدِعتْ مع رسول الله (ص)»[٢]، ورُوِي مثل ذلك عن شعبة أيضاً[٣]، وذكر الآبي أنها أُصيبت في سبيل الله»[٤] من دون أن يعيِّن حرباً باسمها.

❀ ❀ ❀

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة، أولى عماراً ما يستحقه من الرعاية والاهتمام، لِما كان يعرف له من مقام رفيع وشأن كبير عند الله ورسوله (ص)، وجاء في الرواية: إن خبّاب بن الأرتِّ دخل على عمر، فقال له عمر: ادْنُ ادْنُ؛ فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار بن ياسر[٥].

والمستفاد من هذا الخبر ومن غيره من الأخبار وجود علاقةٍ ما بين الخليفة وعمار، وإن عماراً كان يتردَّد على الخليفة زائراً، وتشير بعض

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٦١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨١ والمعارف: ٢٥٨ والإصابة: ٢/ ٥٠٥.
(٢) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٢.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨١.
(٤) نثر الدر: ٢/ ١٠٣.
(٥) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١١٧ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٧٢.

الروايات إلى ما كان يحدث بينهما أحياناً من مطارحات ومساجلات فقهية في التعقيب على أسئلة السائلين، وجاء من أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد وأسنده إلى عبدالرحمن بن أبزى، قال:

«كنّا عند عمر فأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنّا نمكث الشهر والشهرين لا نجد الماء. فقال عمر: أمّا أنا فلم أكن لأُصلّي حتى أجد الماء. فقال عمار: يا أمير المؤمنين؛ تذكر حيث كنّا بمكان كذا ونحن نرعى الإبل؛ فنعلم أنّا أجنبنا؟ قال: نعم. قال فإني تمرغتُ في التراب، فأتيتُ النبي (ص) فحدَّثتُه، فضحك وقال: كان الصعيد الطيب كافيك، وضرب بكفَّيه الأرض ثم نفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وبعض ذراعَيْه»[١]، وفي لفظ ابن ماجة: أن عمر قال للسائل: «لا تصلِّ، فقال عمار بن ياسر: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سريَّة، فأجنبنا فلم نجد الماء، فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكت في التراب فصلّيت ـ إلى آخر النص المتقدم ـ»[٢]، وأورد الذهبي الخبر بنص ابن ماجه، وجاء في آخره: «فقال عمر: اتق الله يا عمار، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن شئتَ لما جعل الله عليّ من حقك لا أُحدِّث به أحداً»[٣]، كذلك أورده البخاري أيضاً بعد حذف جواب عمر للسائل بأنه لم يكن يصلي وهو جنب إذا لم يجد الماء[٤]!.

وفي سنة ٢١هـ شكا أهل الكوفة سعداً وكان والياً عليهم، فعزله

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٣١٩.
(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ١٨٨.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٥٠٠.
(٤) صحيح البخاري: ١/ ٨٨. وورد الخبر بألفاظ قريبة مما أثبتناه في صحيح مسلم: ١/ ١٩٣ وسنن النسائي ١/ ١٦٦ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٠ ومسند أحمد: ٤/ ٢٦٥ و٣١٩ و٣٢٠.

عمر بن الخطاب وولّى عمار بن ياسر الكوفة[١]، وكتب الخليفة إليهم في ذلك قائلاً:

«أما بعد: فإني قد بعثتُ إليكم عماراً أميراً وعبدالله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله (ص)؛ من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقتدوا بهما»[٢]، ووجَّه عمر مع الوالي الجديد عشرة من الأنصار منهم عُبَيْد بن عازب أخو البراء بن عازب[٣]؛ يعينونه على هذه المسؤولية الواسعة الأطراف في ذلك الظرف الشاق الذي كانت تدور فيه معارك الفتوح في عدد من الجبهات.

ورُوي أن عمر قال معلِّلاً سبب اختياره لعمار: «إنما ولَّيْتُ عماراً لقول الله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٤] [القصص: ٥]، كما رُوِي أنه جعل عطاءه ستة آلاف[٥].

وكان عمار خلال أيام إمارته على الكوفة يمثّل ـ بحقّ وصدق ـ تواضع الإسلام وأخلاقَ الشريعة وعفَّة المؤمنين الصالحين، فلم يتكبر ولم يتجبر؛ ولم يبذخ ولم يسرف، ولم يأخذ الناس بالغلظة والقسوة، ولم يعرف الغرور سبيلاً إلى نفسه.

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣ وطبقات خليفة: ١/ ٢٨٣ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٣٩ وحلية الأولياء: ١/ ١٣٩ والإصابة: ٢/ ٥٠٦.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٢ و٦/ ٣ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٣٩ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٣ وحلية الأولياء: ١/ ١٣٩ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢١ ـ ٤٢٢ والإصابة: ٢/ ٥٠٦.
(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ ق٢/ ٨٣ و٦/ ١٠.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢٢.

ولعل من أبرز أمثلة ذلك ما رواه ابن أبي الهذيل قال: رأيتُ عمار ابن ياسر اشترى قتّاً بدرهم؛ وحمله على ظهره إلى منزله ـ أو قال القصر ـ، وهو أمير الكوفة[١].

وبعد عام وعدة أشهر من هذه الولاية «كتب أهل الكوفة إلى عمر ابن الخطاب ـ رض ـ يشكون من عمار بن ياسر ويسألونه أن يعزله عنهم. فقال عمر: مَنْ يعذرني من أهل الكوفة ومن تجنّيهم على أمرائهم، إن استعملتُ عليهم عفيفاً استضعفوه، وإن استعملتُ عليهم قوياً فجّروه»[٢]، وفي لفظ الطبري: إن أهل الكوفة شكوا عماراً «فاستعفى عمارٌ عمر بن الخطاب»[٣]، فعزله عمر، وكان ذلك في سنة ٢٢هـ[٤].

وربما كان السبب في شكوى أهل الكوفة من عمار ما رواه الطبري: من أن عمر بن سراقة ـ وكان يومئذ على البصرة ـ كتب إلى عمر بن الخطاب «يذكر له كثرة أهل البصرة وعَجْزَ خراجهم عنهم، ويسأله أن يزيدهم أحد الماهَيْن أو ما سَبَذان. وبلغ ذلك أهلَ الكوفة فقالوا لعمار: اكتب لنا إلى عمر أنَّ رامهرمز وايذَج لنا دونهم، لم يعينونا عليهما بشيء ولم يلحقوا بنا حتى افتتحناهما. فقال عمار: ما لي ولما هاهنا... ولم يكتب في ذلك، فأبغضوه»[٥].

ولما التقى عمر عماراً بعد عزله قال عمر لعمار أساءك عزلُنا إياك؟ قال: لئن قلتَ ذاك، لقد ساءني حين استعملتني، وساءني حين

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٨٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢٣.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٨١ وفتوح البلدان: ٢٧٨.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ١٤٤.
(٤) تاريخ خليفة: ١/ ١٤٩ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٦٣.
(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ١٦١.

عزلَتني»[١]، وفي لفظ ابن أعثم: «والله ما فرحتُ حين وليتَني، ولا حزنت حين عزلتَني»[٢].

وكانت أيام عمار خلال تولّيه الكوفة أيام جهاد وفتوح، وروى الرواة: إن عمر بن الخطاب كتب إليه طالباً إمداد أبي موسى الأشعري بالجند لدعم موقفه وهو متوجّه إلى تستر بعد فراغه من فتح الأهواز، «فكتب عمار إلى جرير بن عبدالله وهو بحلوان أنْ سِرْ إلى أبي موسى، فسار جرير في ألفٍ فأقاموا أشهراً، ثم كتب أبو موسى إلى عمر أنهم لم يغنوا شيئاً، فكتب عمر إلى عمار أنْ سِرْ إلى تستر»[٣]، فدعا عمارٌ عبدالله بن مسعود فجعله خليفته على أهل الكوفة إلى حين قدومه، ثم نادى في أهل الكوفة «فاستنهضهم إلى الجهاد، فأجابه الناس إلى ذلك سراعاً، فخرج عمار من الكوفة في ستة آلاف فارس... وسار حتى قدم على أبي موسى... فوثب أبو موسى يعبّي أصحابه، فكان... على أعنة الخيل عمار بن ياسر»، ثم التحم الطرفان وتمَّ الفتح للمسلمين، «ورجع أهل الكوفة مع أميرهم عمار بن ياسر»[٤] إلى بلدهم.

ولما «تحركت الأعاجم بأرض نهاوند واجتمعوا بها... بلغ ذلك أهل الكوفة، فاجتمعوا إلى أميرهم عمار بن ياسر فقالوا: أيها الأمير؛ هل بلغك ما كان من جموع هؤلاء الأعاجم بأرض نهاوند؟، قال عمار: قد بلغني ذلك فهاتوا ما عندكم من الرأي».

وبعد مكاتبة الخليفة وإعداد العدَّة رحل المقاتلون إلى هناك فكان

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٨٣.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٨١.

(٣) تاريخ خليفة: ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٠ و١٣ و٢٧.

الفتح على أيديهم، وكتب الخليفة إلى عمار يهنئه وعموم المسلمين بالنصر، ويطلب منه أن يختار من أجناد أهل الكوفة عشرة آلاف من أخلاط القبائل؛ فيضمهم إلى عروة بن زيد الخيل الطائي، وأن يتقدم عروة بهم إلى الري ودستى وما والاهما لفتح تلك البلدان[١].

كذلك بعث عمار أيام إمارته جيشاً «يستغزي ما فوق الأنبار، عليه سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري، وقد أتاه أهل هذه الحصون فطلبوا الأمان؛ فآمنهم»[٢].

وكان عمار قد شارك بنفسه في حروب الفتوح الإسلامية في مختلف جبهاتها: شارك في فتح مصر[٣]، وفي حروب ديار بكر وأرض ربيعة في سنة ٢٦هـ[٤]، وفي فتوح متعددة أخرى[٥]، كما شارك في فتوح السوس أيضاً[٦]، وكان أميراً للجيش الذي انساح فاتحاً في بلاد فارس[٧].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٢ ـ ٣٣ و٦٢ ـ ٦٣.
(٢) فتوح البلدان: ١٨٣.
(٣) فتوح الشام: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.
(٤) فتوح الشام أيضاً: ٢/ ٥٩ ـ ٦٠.
(٥) فتوح الشام أيضاً: ٢/ ١٠٣ و١٤١ و١٦٤.
(٦) تاريخ الطبري: ٤/ ٩٠.
(٧) تاريخ الطبري أيضاً: ٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩.

ولما قُتِل عمر بن الخطاب وقرَّر مَنْ أُطلق عليهم اسمُ «أهل الشورى» الاجتماع لتعيين الخليفة، صارح عمارٌ عبدالرحمن بن عوف فقال له:

«إنْ أردتَ أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً (ع)، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار، وإن بايعت علياً سمعنا وأطعنا»[1].

ثم قال عمار مخاطباً جمهور المسلمين: «أيها الناس؛ إن الله اكرمكم بنبيه وأعزكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم»، و«إن وليتموها علياً سمعنا وأطعنا،، وإن وليتموها عثمان سمعنا وعصينا. فقام الوليد بن عقبة وقال: يا معشر الناس أهل الشورى، إن وليتموها عثمان سمعنا وأطعنا، وإن وليتموها علياً سمعنا وعصينا. فانتهره عمار وقال له: متى كان مثلك يا فاسق يعترض في أمور المسلمين وشتات جمعها. وتسابّا جميعاً وتناوشا حتى حيل بينهما»[2].

وبعد كثير من الأخذ والردِّ والجدل الحادِّ والنقاش العنيف؛ رأى ثلاثة من المجتمعين اختيار عثمان بن عفان لهذه المهمة، فكان لهم ما

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٢ والجمل: ٦٠ والعقد الفريد: ٤/ ٢٧٩ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٣.

(٢) الجمل: ٦٠ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤، وصدره في تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٣.

أرادوا، وأصبح عثمان هو القائم بأمر الحكم والسلطة وشؤون الخلافة، فبادر عمار إلى إعلان رأيه في هذه النتيجة؛ مع الإشارة إلى ثابت رأيه فيما تقدَّم ذلك وفيمن تقدَّم، فقام فنادى:

«يا معشر المسلمين؛ إنّا قد كنّا؛ وما كنا نستطيع الكلام قلَّة وذلَّة، فأعزَّنا الله بدينه؛ وأكرمنا برسوله، فالحمد لله رب العالمين»، «يا معشر قريش؛ إلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم، تحوِّلونه ها هنا مرة وها هنا مرة، وما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم؛ كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله».

«فقال له هشام بن المغيرة: يا ابن سمية؛ لقد عدوتَ طورك، وما عرفتَ قدرك. ما أنت وما رأت قريش لأنفسها، إنك لستَ في شيء من أمرها وإمارتها، فتنحَّ عنها».

فقال عمار بعد سماع هذا الرد من هشام وسكوت الحضّار المشعر برضاهم به: «الحمد لله، ما زال أعوان الحق قليلاً»، ثم قام منصرفاً وهو يردِّد:

يا ناعي الإسلام قم فانعَهُ قد مات عُرْفٌ وأتى منكرُ

وقال: «أما واللهِ لو أن لي أعواناً لقاتلتُهم، والله لئن قاتلهم واحدٌ لأكوننَّ له ثانياً»(١).

وعندما نقرأ اليوم هذه النصوص من وراء القرون؛ ونتأمل ملياً فيما قال عمار وما ردَّ به هشام عليه؛ تتجلى لنا بوضوح معالم تينك المدرستين أو الجبهتين المتصارعتين، ويتأكد على وجه القطع واليقين تباين الأسس والمنطلقات عند هذين الطرفين. فعمار يتكلم بلغة الدين؛

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٥٥ و٥٨ و١٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ والدرجات الرفيعة: ٢٦١ ـ ٢٦٢.

ويلتزم بتطبيق ما سمع من نبي السماء؛ ويفكر في ضوء منظور الإسلام وحدوده، في قبال هشام بن المغيرة وأضرابه ممن لا يزالون ينظرون إلى الحكم والإمارة تلك النظرة الجاهلية الأولى القائمة على التعصب الطبقي والقبلي؛ والمانعة لابن سمية وأمثاله من المستضعفين في الأرض أن يُدْخلوا أنوفهم في شؤون قريش ومجالات الحكم والإمارة، مع أن ابن سمية هذا في نظر الرسالة السماوية الجديدة التي يزعم الجميع إنهم من أتباعها؛ مسلمٌ له ما للمسلمين وعليه ما عليهم؛ بلا تفريق أو تمييز فيما بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، مضافاً إلى كونه من قبل ذلك ومن بعده قد أمتاز على الكثرة الكاثرة من المهاجرين والأنصار بأنه أحد ثلاثة أو أربعة تشتاق إليهم الجنة كما حدَّث الصادق المصدَّق (ص).

أما تسمية عمار بابن سمية وابن السوداء على لسان عدد من جبابرة قريش وذوي السطوة فيها؛ فهي الدليل الآخر على أن الإيمان لم يدخل قلوب هؤلاء؛ فلم يكن لأول شهيدة وشهيد في الإسلام أي احترام أو مقام في حساباتهم الدنيوية الزائفة وتصنيفاتهم العشائرية المرفوضة.

❀ ❀ ❀

ومهما يكن من أمر، فقد أصبح عثمان الخليفة الذي يحكم في الناس، وأخذت المشاكل والخصومات بينه وبين جماهير المسلمين تتعالى صعداً على مرور الأيام، وكان لتلك النخبة التي صدقت ما عاهدت الله عليه موقف صريح من مخالفات الخليفة للشرع في مجمل تصرفاته ومنكرات أفعاله. ونكتفي هنا ـ طلباً للاختصار والاقتصار على ما يختص منه بصاحبنا عمار ـ برواية مقتطفات من تلك المنكرات، معتمدين في أكثر ذلك على ما رواه البلاذري[1] لأنه أقدم من أرَّخ لهذه

(١) أنساب الأشراف: ٥/٢٦ ـ ٦٨ باختصار وتلخيص.

الحقبة المظلمة، وإن رجعنا في بعض الأحيان إلى غيره من قدامى المؤرخين ومشاهيرهم لزيادة الإيضاح والبيان، قال البلاذري:

«لما ولي عثمان كَرِهَ ولايته نفرٌ من أصحاب رسول الله (ص)، لأن عثمان كان يحب قومه... وكان كثيراً ما يُوَلّي من بني أميّة مَنْ لم يكن له مع النبي (ص) صحبة، فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد (ص)، وكان يُسْتَعْتَب فيهم فلا يعزلهم»، و«جاء أهلُ مصر يشكون ابنَ أبي سرح... فأبى... وضرب [ابنُ أبي سرح] بعضَ من كان شكاه إلى عثمان من أهل مصر حتى قتله».

و«أن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة، فأُنكر ذلك من فعله وقالوا: قال رسول الله (ص): عفوتُ عن صدقة الخيل والرقيق».

و«إن الحكم بن أبي العاص بن أمية ـ عمَّ عثمان بن عفان ـ... كان جاراً لرسول الله (ص) في الجاهلية، وكان أشد جيرانه أذىً له في الإسلام... وكان مغموصاً عليه في دينه... وكان يمرُّ خلف رسول الله (ص) فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه... فقال (ص): لا يساكنني ولا ولده، فغرَّبهم جميعاً إلى الطائف. فلما قُبِض رسول الله (ص) كلَّم عثمانُ أبا بكر فيهم وسأله رَدَّهم، فأبى ذلك وقال: ما كنتُ لآوي طرداء رسول الله (ص)، ثم لما استخلف عمر كلَّمه فيهم فقال مثل قول أبي بكر، فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة».

ولما غزا المسلمون أفريقية «أصاب عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح غنائم جليلة، فأعطى عثمانُ مروانَ بن الحكم خُمْس الغنائم... فأنكر الناسُ ذلك على عثمان».

و«قدمتْ إبلُ الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص».

و«وَلّى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له».

و«أنكر الناسُ على عثمان إعطاءه سعيد بن العاص مائة ألف درهم».

«ولّى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن» الوليد بن عقبة بن أبي معيط الكوفة، «وعزل أبا موسى عن البصرة وأعمالها ووَلّى ذلك عبدالله بن عامر بن كريز، وهو ابن خاله».

وكان ابن مسعود خازناً على بيت المال بالكوفة، فاستقرضه الوليد أيام إمارته مالاً؛ ثم أبى أن يؤدي دينه، فكتب ابن مسعود إلى الخليفة شاكياً، فكتب عثمان إلى عبدالله بن مسعود: إنما أنت خازن لنا فلا تَعَرَّضْ للوليد فيما أخذ من المال. فطرح ابنُ مسعود المفاتيح وقال: كنتُ أظن أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنتُ خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك».

و«خرج الوليد بن عقبة لصلاة الصبح وهو يميل، فصلى ركعتين ثم التفت إلى الناس فقال: أزيدكم... فقال له عتّاب بن علاّق: لا زادك الله مزيد الخير، ثم تناول حفنة من حصى فضرب بها وجه الوليد، وحَصَبَه الناسُ وقالوا: واللهِ ما العجب إلا ممن ولاّك».

ولما قدم ابن مسعود المدينة بعد استعفائه من مسؤولية بيت مال الكوفة «أمرَ عثمان به فأُخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً، وضَرَبَ به عبدُ الله بن زمعة الأرضَ، ويقال: بل احتمله يحمومُ غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدُقَّ ضلعُه» انتقاماً من سخطه وتمرُّده على الوالي السكّير الوليد، ثم فُرضت الإقامة الجبرية على ابن مسعود في المدينة، ولذلك أوصى هذا الصحابي لمّا أشرف على الموت «أنْ لا يصلي عليه عثمان» و«أن يصلي عليه عمار بن ياسر».

وجاء في رواية اليعقوبي مما يتعلق بهذه الصلاة قوله:

إن ابن مسعود لمّا توفي «صلى عليه عمار بن ياسر، وكان عثمان غائباً، فستر أمره، فلما انصرف رأى عثمان القبر فقال: قبر مَنْ هذا؟، فقيل: قبر عبدالله بن مسعود، قال: فكيف دُفِن قبل أن أعلم؟، فقالوا: وَلِي أمره عمار بن ياسر وذكر أنه أوصى أن لا يُخْبر به. ولم يلبث إلا يسيراً حتى مات المقداد، فصلى عليه عمار وكان أوصى إليه، ولم يؤذن عثمان به. فاشتد غضب عثمان على عمار وقال: ويلي على ابن السوداء»[١].

وروى ابن أبي الحديد المعتزلي: إن ابن مسعود لمَّا حضره الموت قال: «مَنْ يتقبَّل مني وصية أُوصيه بها على ما فيها؟، فسكت القومُ وعرفوا الذي يريد، فأعادها، فقال عمار بن ياسر: أنا أقبلها. فقال ابن مسعود: أن لا يصلي عليَّ عثمان، قال: ذلك لك. فيقال: أنه لما دُفن جاء عثمان مُنْكِراً لذلك، فقال له قائل: إن عماراً وَلِي الأمر، فقال لعمار: ما حملك على أن لا تُؤذنّي، فقال: عَهِدَ إليَّ أن لا أُوذنك»[٢].

وجاء في روايات البلاذري بشأن مخالفات عثمان التي أنكرها المسلمون:

صلّى عثمان في منى أربع ركعات خلافاً لسنة رسول الله (ص)، «فتكلَّم الناس في ذلك فأكثروا، وسئل أن يرجع عن ذلك فلم يرجع».

ولمَّا ولي سعيد بن العاص الكوفة ـ بعد الوليد السكّير ـ اصطدم بوجوه أهلها، فنفى جماعة منهم بأمر عثمان إلى الشام، «فكتب جماعة من القرّاء إلى عثمان. . . أن سعيداً كثَّر على قوم من أهل الورع والفضل

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٢.

والعفاف؛ فحملك في أمرهم على ما لا يحل في دين؛ ولا يحسن في سماع. وأنّا نذكّرك الله في أمة محمد، فقد خفنا أن يكون فساد أمرهم على يديك»، وكتب كعبُ بن عَبَدَة باسمه كتاباً أيضاً في هذا الموضوع، فلما وصلت الكتب إلى عثمان كتب إلى سعيد بن العاص أن يشخص كعباً إليه، فلما قدم على عثمان قال لكعب: «أأنت تعلّمني الحق وقد قرأتُ كتاب الله وأنت في صلب رجل مشرك، فقال له كعب: يا عثمان؛ إن كتاب الله... متى لم يعمل القارىء بما فيه كان حجة عليه، فقال عثمان: واللهِ ما أظنك تدري أين ربك، فقال: هو بالمرصاد... فأمر عثمان بكعب فجُرِّد وضُرب عشرين سوطاً وسيَّره إلى دُبَاوَنْد؛ ويقال: إلى جبل الدخان».

و«كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك وكلَّموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه، فخطب فقال: لنأخذنَّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمتْ أنوف أقوام، فقال له عليٌّ: إذنْ تُمْنَع من ذلك ويُحال بينك وبينه، وقال عمار بن ياسر: أُشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أَعَلَيَّ يا ابن المتكاء تجترىء؟!، خذوه. فأُخِذ ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غُشي عليه، ثم أُخرج فحُمل حتى أُتِي به منزل أم سلمة زوج رسول الله (ص)، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توضأ وصلّى وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أُوذينا فيه في الله. وقام هشام ابن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان عمار حليفاً لبني مخزوم ـ فقال: يا عثمان؛ أمّا عليٌّ فاتقيته وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا حتى أشفيتَ به على التلف، أما والله لئن مات لأقتلنَّ به رجلاً من بني أمية عظيم السُّرَّة... فشتمه عثمان وأمر به فأُخرج. فأتى أمُّ سلمة فإذا هي قد غضبت لعمار، وبلغ عائشة

ما صنع بعمار فغضبت... واستقبح الناس فعله بعمار وشاع فيهم فاشتد إنكارهم له».

«ويقال: إن المقداد بن عمرو وعمار بن ياسر وطلحة والزبير في عدَّة من أصحاب رسول الله (ص) كتبوا كتاباً عدَّدوا فيه أحداث عثمان، وخوَّفوه ربَّه، وأعلموه أنهم مواثبوه إن لم يقلع. فأخذ عمار الكتاب وأتاه به، فقرأ صدراً منه؛ فقال له عثمان: أعَلَيَّ تُقْدِم من بينهم، فقال عمار: لأني أنْصَحُهم لك، فقال: كذبتَ يا ابن سمية، فقال: أنا والله ابن سمية وابن ياسر. فأمر غلمانه فمدوا بيديه ورجليه؛ ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخُفَّيْن على مذاكيره فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً. فغُشي عليه».

وفي لفظ ابن قتيبة ـ وفيه بعض الاختلاف عن رواية البلاذري المتقدمة ـ قال:

إن عماراً لمّا دفع الكتاب إلى عثمان قال له عثمان: «أنت كتبتَ هذا الكتاب؟ قال: نعم، قال: ومَنْ كان معك؟ قال: معي نفرٌ تفرَّقوا فَرَقاً منك، قال: ومَنْ هم؟، قال: لا أُخبرك بهم، قال: فلِمَ اجترأتَ عَلَيَّ من بينهم. فقال مروان: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا العبد الأسود ـ يعني عماراً ـ قد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلتَه نكلت به مَنْ وراءه. قال عثمان: اضربوه، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغُشي عليه، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار، فأمرتْ به أُمُّ سلمة زوج النبي (ع) فأُدخِل منزلها»[1].

وروى ابن أعثم الكوفي في أمر هذا الكتاب الذي وجهه الصحابة إلى عثمان ما نصه:

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٣١، ومختصر منه في الجمل: ٩٩.

كانت من أحداث عثمان التي أنكرها الناس أُمور «عاتبه المسلمون عليها فلم ينزع عنها. واجتمع نفرٌ من أصحاب النبي (ص) ثم أنهم كتبوا كتاباً؛ وذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان منذ يوم ولي الخلافة إلى ذلك اليوم، ثم أنهم خوَّفوه في الكتاب وأعلموه أنه إن لم ينزع عما هو عليه خلعوه واستبدلوا به غيره، فكتبوا هذا الكتاب ثم قالوا ننطلق به جميعاً حتى نضعه في يده... ثم أقبلوا على عمار بن ياسر وقالوا له: يا أبا اليقظان؛ هل لك أن تكفينا هذا الأمر وتنطلق بالكتاب إلى عثمان؟، فقال عمار: أفعله. ثم أخذ الكتاب وانطلق إلى عثمان؛ فإذا عثمان وقد لبس ثيابه وخُفَّيْه في رجليه، فلما خرج من باب منزله نظر إلى عمار واقفاً والكتاب في يده، فقال له: حاجة يا أبا اليقظان؟، فقال عمار: مالي حاجة؛ ولكنَّا اجتمعنا فكتبنا كتاباً نذكر فيه أموراً من أمورك لا نرضاها لك. ثم دفع إليه الكتاب، فأخذه عثمان فنظر فيه حتى قرأ سطراً منه، ثم غضب ورمى به من يده، فقال له عمار: لا ترم بالكتاب وأنظر فيه حسناً فإنه كتاب أصحاب رسول الله (ص)، فقال عمار: أنا واللهِ لك ناصح، فقال له عثمان: كذبت يا ابن سمية، فقال عمار: أنا والله ابن سمية وابن ياسر. فأمر عثمان غلمانه فضربوه ضرباً شديداً حتى وقع لجنبه، ثم تقدَّم إليه عثمان فوطىء بطنه ومذاكيره حتى غُشي عليه وأصابه الفتق، فسقط لِمَا به لا يعقل من أمرٍ شيئاً. واتصل الخبر ببني مخزوم، فأقبل هشام بن الوليد بن المغيرة في نفر من بني مخزوم فاحتملوا عماراً من موضعه ذلك، وجعلوا يقولون: واللهِ لئن مات الآن لنقتلنَّ به شيخاً عظيماً من بني أمية، ثم انطلقوا بعمار إلى منزله مغشياً عليه»[1].

ويروي الزبير بن بكار ـ وهو يتحدث عن توتر العلاقة بين عثمان وعمار قبل حادث الضرب والفتق ـ: إن عثمان قال يوماً لعمار بحضور

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/١٥٣ ـ ١٥٤.

عبدالله بن عباس: «أمَا إنك من شُنّائنا وأتباعهم، وأيم الله إن اليد عليك لمنبسطة، وإن السبيل إليك لسهلة. ولولا إيثار العافية وَلمُّ الشعث لزجرتُك زجرةً تكفي ما مضى وتمنع ما بقي. فقال عمار: والله ما أعتذر من حبي علياً، وما اليد بمنبسطة ولا السبيل بسهلة، إني لازمٌ حجةً ومقيمٌ على سُنَّة، وأما إيثارك العافية ولَمَّ الشمل فلازمٌ ذلك، وأما زَجْري فأمسِكْ عنه فقد كفاك معلِّمي تعليمي. فقال عثمان: أمَا واللهِ إنك ما علمتُ من أعوان الشرِّ الحاضِّين عليه؛ الخذلة عند الخير والمثبطين عنه. فقال عمار: مهلاً يا عثمان فقد سمعتَ رسول الله (ص) يصفني بغير ذلك. قال عثمان: ومتى؟. قال: يوم دخلتُ عليه مُنصَرَفَه عن الجمعة وليس عنده غيرك؛ وقد ألقى ثيابه وقعد في فُضُله، فقبَّلتُ صدره ونحره وجبهته، فقال: يا عمار؛ إنك لتحبُّنا وأنّا لنحبك، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبطين عن الشر. فقال عثمان: أجلْ؛ ولكنك غيَّرتَ وبدَّلتَ. فرفع عمار يده يدعو ـ وقال: أمِّنْ يا ابن عباس ـ: اللهم مَنْ غَيَّرَ فغَيِّرْ به، ثلاث مرات»(١).

ويبدو من مجموع النصوص التي أوردها البلاذري أن عثمان قد تقدم بالإعتذار إلى عمار مما فعل به بعد أن رأى الإنكار العام لتلك الأفعال الشنيعة، ثم طلب الخليفة منه بعد طيٍّ تلك الصفحة أن يشخص إلى مصر ليوافيه بعموم أخبارها وأخبار واليها محمد بن أبي حذيفة خاصة، فلما ورد عمار مصر ورأى غليان الناس هناك وثورتهم على عثمان لم يجد من تكليفه الشرعي إلا التحريض عليه والدعوة إلى خلعه. فكتب الوالي ابن أبي سرح إلى عثمان «يعلمه ما كان من عمار، ويستأذنه في عقوبته، فكتب إليه: بئس الرأي رأيتَ يا ابن أبي سرح، فأحْسِنْ جهاز عمار وأحمله إليَّ»، فعاد عمار إلى المدينة.

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ١١.

وعلى أثر ذلك «جاء سعد وعمار ومعهما مَنْ معهما إلى باب عثمان، فأرسلوا إلى عثمان: إنّا نريد أن نذاكرك أشياء أحدثتها، فأرسل إليهم إني مشغول عنكم اليوم، فانصَرِفوا يومكم وعودوا يوم كذا. فانصرف سعد ولم ينصرف عمار وأعاد الرسول إلى عثمان، فردَّ عليْه مثل القول الأول، فأبى أن ينصرف، فتناوله رسولُ عثمان [بالضرب]، فلما اجتمعوا للميعاد قال لهم عثمان: ما تنقمون عَلَيَّ؟ مثل عليه القول، فأبى أن ينصرف، فتناوله رسول عثمان، قالوا: أول ذلك ضربك عماراً، فقال: تناوله رسولي بغير رضائي وأمري، وذكر كلاماً بعد ذلك».

وروى البلاذري أيضاً: أن أبا ذرّ الغفاري قال يوماً مخاطباً عثمان: «تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى، وتقرّب أولاد الطلقاء. فبعث إليه عثمان: إلحقْ بأي أرضٍ شئتَ، فقال: بمكة، قال: لا، قال: فبيت المقدس، قال: لا، قال: فبأحد المِصْرَيْن [يعني الكوفة والبصرة]، قال: لا ولكنّي مسيِّرك إلى الربذة. فسيَّره إليها، فلم يزل بها حتى مات».

«وشيَّع عليٌّ أبا ذر، فأراد مروان منعه منه، فضرب عليٌّ بسوطه بين اذنَيْ راحلته. وجرى بين علي وعثمان في ذلك كلام حتى قال عثمان: ما أنت بأفضل عندي منه، وتغالظا. فأنكر الناس قول عثمان».

ويروي المسعودي: إن الخليفة كان قد أمر بأن يتجافى الناس أبا ذر ولا يشيِّعوه، فتحدّى أمرَ الخليفةَ كلٌّ من عليّ وابنيه الحسن والحسين (ع) وأخيه عقيل وابن أخيه عبدالله بن جعفر وعمار بن ياسر[1].

وروي الكليني أنه كان مما قال عمار لأبي ذرّ وهو يودِّعه:

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٩.

«يا أبا ذر، أوحش الله مَنْ أوحشك، وأخاف من أخافك. إنه والله ما منع الناس أن يقولوا الحق إلا الركون إلى الدنيا والحب لها، ألا إنما الطاعة مع الجماعة والملك لمن غلب عليه، وإن هؤلاء القوم دعوا الناس إلى دنياهم فأجابوهم إليها ووهبوا لهم دينهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين»[١].

وقال البلاذري: «وقد رُوِي أيضاً: أنه لما بلغ عثمانَ موتُ أبي ذر بالربذة قال: رحمه الله، فقال عمار بن ياسر: نعم، فرحمه الله من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاضَّ أير أبيه[٢]؛ أتراني ندمتُ على تسييره. وأمر فُدفع في قفاه، وقال: إلحَقْ بمكانه. فلما تهيأ للخروج جاءت بنو مخزوم إلى علّي فسألوه أن يكلِّم عثمان فيه، فقال له علي يا عثمان؛ اتَّق الله؛ فإنك سيَّرتَ رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره. وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان: أنت أحقُّ بالنفي منه، فقال عليّ: رُمْ ذلك إن شئتَ. واجتمع المهاجرون فقالوا: إن كنت كلما كلَّمك رجل سيَّرته ونفيته فإذا هذا شيء لا يسوغ. فكفَّ عن عمار».

وجاء في نصِّ ابن أعثم الكوفي وهو يروي هذه الحادثة:

إن عمار بن ياسر قال تعقيباً على ترحُّم الخليفة على أبي ذر: رحم الله أبا ذر من كل قلوبنا، فغضب عثمان وخاطب عماراً قائلاً: «يا كذا وكذا؛ أتظن أني ندمتُ على تسييره إلى الربذة؟، قال عمار: لا والله ما

---

(١) الكافي: ٨/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨، والنص مع بعض الاختلاف في الألفاظ في شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٤.

(٢) روينا ذلك بألفاظه البذيئة لنكون على معرفة تامة بلغة الخليفة وألفاظه المنتقاة في التخاطب.

أرى ذلك. قال عثمان: ادفعوا في قفاه، وأنت فالحق بالمكان الذي كان فيه أبو ذر ولا تبرحه أبداً ما بقيتَ وأنا حي، فقال عمار: والله إن جوار السباع لأحبُّ إليَّ من جوارك، ثم قام عمار فخرج من عنده. وعزم عثمان على نفي عمار، وأقبلت بنو مخزوم إلى علي بن أبي طالب (ع) فقالوا: إنه يا أبا الحسن قد علمتَ بأنّا أخوال أبيك أبي طالب، وهذا عمثان بن عفان قد أمر بتسيير عمار، وقد أحببنا أن نلقاه فنكلمه في ذلك ونسأله أن يكفَّ عنه ولا يؤذينا فيه، فقد وثب عليه مرة ففعل به ما فعل، وهذه ثانية، ونخاف أن يخرج معه إلى أمرٍ يندم ونندم نحن عليه.. ثم أقبل علي (ع) حتى دخل على عثمان فسلَّم وجلس، فقال: اتق الله أيها الرجل؛ وكُفَّ عن عمار وغير عمار من الصحابة، فإنك قد سيَّرتَ رجلاً من صلحاء المسلمين وخيار المهاجرين الأولين حتى هلك في تسييرك إياه غريباً، ثم إنك الآن تريد أن تنفي نظيره من أصحاب رسول الله (ص). فقال عثمان: لأنت أحقُّ بالمسير منه، فوالله ما أفسد عَلَيَّ عماراً وغيره سواك. فقال علي (ع): والله يا عثمان ما أنت بقادر على ذلك ولا إليه بواصل، فروِّم ذلك إن شئتَ، وأما قولك: أني أُفسدهم عليك، فوالله ما يفسدهم عليك إلا نفسك، لأنهم يرون ما ينكرون؛ فلا يسعهم إلا تغيير ما يرون. ثم وثب عليٌّ (ع) فخرج، واستقبله الناس فقالوا: ما صنعتَ يا أبا الحسن؟، فقال: إنه قال لي كذا وكذا وقلتُ له كذا وكذا، فقالوا له: أحسنتَ واللهِ وأصبتَ... ثم أقبل علي (ع) على عمار فقال له: إجلس في بيتك ولا تبرح منه، فإن الله مانعك من عثمان»[1].

وتقول الروايات: أنه «لم يبق بالمدينة أحدٌ إلا حنق على عثمان، واشتد حنق بني هذيل خاصة عليه لأجل صاحبهم عبدالله بن مسعود،

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٤.

وهاجت بنو مخزوم لأجل صاحبهم عمار بن ياسر، وكذلك غفار لأجل صاحبهم أبي ذر»[١].

ثم تفاقم الوضع سوءاً وازدادت المشاعر حنقاً وغلياناً على مرِّ الأيام، وتراكمت في آثارها السلبية باستمرار الحاكم وجلاوزته في اعتداءاتهم وتجاوزاتهم على أرواح الناس وأموالهم وكراماتهم، فاجتمع لفيف من الصحابة الأخيار الذين يمثلون الأمصار الإسلامية الكبرى الثلاثة: الكوفة والبصرة ومصر؛ في المسجد الحرام في مكة المكرمة وذلك قبل مقتل عثمان بعام، فبحثوا الأوضاع الراهنة عامة وأعمال الخليفة على وجه الخصوص، وذكر البلاذري أنه «اجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء إلى مصره فيكون رسول مَنْ شهد مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى مَنْ كان على مثل رأيهم من أهل بلده، وأن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره فيستعتبوه، فإن أعتب وإلا رأوا رأيهم فيه».

ولما حلَّ الموعد المتفق عليه في السنة القادمة خرج هؤلاء الثائرون ومعهم جمهور أصحابهم من تلك الأمصار الثلاثة، فانتهوا إلى المدينة المنورة، و«أتوا دار عثمان، ووثب معهم رجال من أهل المدينة منهم عمار بن ياسر العنسي ورفاعة بن رافع الأنصاري [وآخرون]، فحصروا عثمان الحصار الأول».

واضطرَّ الخليفة بعد كثيرٍ من الحوار والجدل والأخذ والردِّ؛ وبعد التدخل الفعّال من علي (ع) بينه وبين الثائرين عليه؛ إلى الإقرار على رؤوس الأشهاد بجميع أخطائه السابقة وإعلان تصميمه القاطع على عدم تكرارها؛ وإعطائه العهود والمواثيق بالسير على منهج الدين والالتزام

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢١٢.

بالكتاب والسنة. فانسحب الثوار من حصار الدار، وبدأوا رحلة العودة إلى أمصارهم.

ثم سرعان ما استجدت أحداث وملابسات؛ وظهرت في الأفق أدلة وإمارات على تراجع الخليفة وجهازه الحاكم عما تم التفاوض بشأنه والاتفاق عليه، فلم يجد الثوار بداً ـ وما زالوا في طريق العودة إلى بلدانهم ـ من الاتجاه مرة أخرى نحو المدينة؛ ومن حصر الخليفة في داره الحصار الثاني الذي كان الأخير.

«ودخل عليٌّ وطلحة والزبير وسعد وعمار في نفرٍ من أصحاب محمد (ص) كلهم بَدْريٌّ؛ على عثمان، ومع علي الكتاب والغلام والبعير [وقد ألقى الثوار القبض على كل ذلك في الصحراء]، فقال له عليٌّ: هذا الغلام غلامك؟، قال: نعم، قال: والبعير بعيرك؟، قال: نعم، قال: وأنت كتبتَ هذا الكتاب؟، قال: لا؛ وحلف بالله ما كتبتُ هذا الكتاب ولا أمرتُ به ولا علمتُ شأنه. فقال له عليٌّ: أفالخاتم خاتمك؟، قال: نعم، قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به؟!، فحلف بالله ما كتبتُ الكتاب ولا أمرتُ به ولا وجَّهتُ هذا الغلام إلى مصر قط. وعرفوا أن الخطَّ خطُّ مروان، فسألوه أن يدفع إليهم مروان، فأبى، وكان مروان عنده في الدار. فخرج أصحاب محمد (ص) من عنده غضاباً».

ثم كان ما كان، وقُتِل عثمان.

وما إن فرغت الجماهير من مهمة التخلص من الخليفة؛ حتى اجتمع الأنصار والمهاجرون في مسجد رسول الله (ص) «لينظروا مَنْ يولُونه أمرهم؛ حتى غصَّ المسجد بأهله، فاتفق رأي عمار وأبي الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيوب خالد بن يزيد؛ على إقعاد أمير المؤمنين (ع) في الخلافة»، ووقف عمار فيهم خطيباً فقال: «أيها الأنصار؛ قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه، وأنتم على شَرَفٍ من الوقوف في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم، وإن علياً أَوْلى الناس بهذا الأمر لفضله وسابقته، فقالوا: رضينا به»[1].

وفي رواية أخرى: أنه «لمّا اجتمعت الصحابة في مسجد رسول الله (ص) بعد قتل عثمان للنظر في أمر الإمامة، أشاد أبو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر؛ بعليّ (ع) وذكروا فضله وسابقته وجهاده وقرابته، فأجابهم الناس إليه... ثم بُويع»[2]، فـ «بايعه طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل وعمار بن ياسر... وجميع مَنْ كان بالمدينة من أصحاب رسول الله (ص)»[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٣٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٢٠.

وكان علي (ع) قد تردَّد في الرضا بالبيعة وتلكأ في قبولها، فقام «عمار بن ياسر وأبو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبو أيوب خالد بن يزيد فقالوا لعليّ (ع): إن هذا الأمر قد فسد، وقد رأيتَ ما صنع عثمان وما أتاه من خلاف الكتاب والسنة، فأبسط يدك لنبايعك، لتصلح من أمر الأمة ما قد فسد. فاستقال عليٌّ (ع)»[١] بادىء بدءٍ، ثم نزل بعد ذلك على إرادة الجماهير وإصرارها، فتقدم لتحمل المسؤولية في تلك الظروف المضطربة المتموجة بالفتن؛ والحافلة بأعنف الصراعات وأخطر الانقسامات.

وتمت البيعة لعلي (ع) على رؤوس الأشهاد، فأصبح خليفة العصر ورأس الدولة ووليّ الأمر بالانتخاب والطواعية المطلقة، مضافاً إلى كونه الإمام الشرعيّ بالنصّ النبوي الثابت وإن لم يكن بيده قبل ذلك من شؤون الحكم شيء.

وتمرد المتمردون من أهل الدنيا وذوي الأطماع فامتنعوا من البيعة، «وأقبل عمار بن ياسر إلى علي بن أبي طالب (ع) فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الناس قد بايعوك طائعين غير كارهين، فلو بعثتَ إلى أسامة بن زيد وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك فدعوتهم ليدخلوا فيما دخل فيه الناس من المهاجرين والأنصار. فقال علي (ع): إنه لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا»[٢].

«وأقبل سعد بن أبي وقاص إلى علي بن أبي طالب (ع) فقال: يا أبا الحسن؛ واللهِ ما أشك فيك إنك على الحق، ولكني أعلم أنك تُنازَعِ في هذا الأمر، والذي ينازعك فيه هم أهل الصلاة، فإنْ أحببتَ أني

---

(١) الجمل: ٦٤.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/٢٥٦.

أبايعك فأعطني سيفاً له لسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، حتى أقاتل معك مَنْ خالفك بعد هذا اليوم. فقال علي (ع): يا سعد: أترى لو أن سيفاً نطق بخلاف ما نزل به جبريل هل كان إلا شيطاناً، ليس هكذا يشترط الناس على واليهم، بايع وأجلس في بيتك، فإني لا أُكرهك على شيء. فقال سعد: حتى أنظر في ذلك يا أبا الحسن!!. فوثب عمار بن ياسر فقال: ويحك يا سعد، أما تتَّقي الله الذي إليه معادك، أيدعوك أمير المؤمنين إلى البيعة فتسأله أن يعطيك سيفاً له لسان وشفتان!، أما والله إن فيك لهنات»[1].

أقول: يبدو أن كثرة الحروب التي خاضها سعد؛ وطول مدة بقائه في المعسكرات بعيداً عن أهل الذكر؛ وامتداد مكثه في الأقاليم الإسلامية متنقلاً هنا وهناك أيام قيادته الجيوش؛ قد حَرَمَتْه نعمةَ قراءة القرآن الكريم واستحضارَ أحكامه ومعانيه، فنسي إن الله تعالى قد قال فيه بأوضح الكلام وأصرح القول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩]، وهذه الآية قد دلت بكل جلاء على وجوب مقاتلة البغاة الذين هم بحسب الحكم القرآني طائفة من المؤمنين لا من الكافرين، ولكن غفلة سعد عن هذه الآية قد حملته على أن يقول ما قال. وإلى الله المشتكى وعليه المعوَّل.

❁ ❁ ❁

وجاء في الروايات المعنية بالبيعة: إن مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير والوليد بن عقبة وأضرابهم من أمويين وحاقدين

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

قد تخلفوا عن بيعة علي (ع) واتفقوا على إظهار العداء وإشاعة الخلاف، فـ «قام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم؛ فدخلوا على عليّ (ع) فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ انظر في أمرك، وعاتب قومك... فإنهم قد نقضوا عهدك وأخفوا وعدك... واستشاروا عدوَّك وعظَّموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان، فرقةً للجماعة، وتألُّفاً لأهل الضلالة، فرأيك».

فخرج علي (ع) إلى المسجد، وصعد المنبر فخطب الناس، وكان مما قال لهم: «ليس لأحدٍ عندنا فضلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول»، ثم صاح بأعلى صوته: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول... فأما هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحدٍ فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله». ثم نزل عن المنبر فصلّى ركعتين، ثم بعث عمار بن ياسر وعبد الرحمن بن حسل القرشي إلى طلحة والزبير وهما في ناحية المسجد، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه (ع)، فقال لهما: نشدتكما الله هل جئتماني طائعَيْن للبيعة ودعوتماني إليها وأنا كاره لها؟، قالا نعم. فقال: غير مجبورَيْن ولا مقسورَيْن؛ فأسلمتما لي ببيعتكما وأعطيتماني عهدكما؟، قالا: نعم. قال: فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى؟، قالا: أعطيناك بيعتنا على أن لا تَقْضي الأمور ولا تقطعها دوننا؛ وأن تستشيرنا في كل أمر!!».

فقال لهما أمير المؤمنين (ع) «ألا تخبرانني؛ أدفعُتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما إياه؟، قالا: معاذ الله. قال: فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسي بشيء؟، قالا: معاذ الله... قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟، قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القَسْم، إنك جعلتَ حقنا في القَسْم كحق غيرنا وسوَّيت بيننا وبين مَنْ لا يماثلنا».

فأفهمهما خطأ نظرتهما في قسمة الأموال وصوابَ ما فعل في ذلك، وقال لهما فيما قال: «لو وقع حكمٌ ليس في كتاب الله بيانهُ ولا في السنة برهانه؛ واحتيج إلى المشاورة فيه لشاوَرْتُكما فيه. وأما القَسْم والأسوة فإن ذلك أمرٌ لم أحكم فيه باديء بدءٍ، وقد وجدتُ أنا وأنتما رسولَ الله (ص) يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به... وقديماً سبق إلى الإسلام قومٌ ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضِّلْهم رسولُ الله (ص) في القَسْم؛ ولا آثرهم بالسبق»(١).

ويعلِّق الباحث ابن أبي الحديد المعتزلي على هذه المحاورة فيقول:

«فإنْ قلتَ: فإن أبا بكر قسم بالسواء كما قسمه أمير المؤمنين (ع)؛ ولم ينكروا ذلك كما أنكروه أيام أمير المؤمنين (ع)، فما الفرق بين الحالتين؟».

«قلتُ: إن أبا بكر قسم محتذياً لقَسْم رسول الله (ص)، فلما وَلِيَ عمر الخلافة وفَضَّل قوماً على قوم؛ ألِفوا ذلك ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأُشْرِبت قلوبهم حبَّ المال وكثرة العطاء... فلما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه... ومَنْ ألف أمراً شقَّ عليه فراقه وتغيير العادة فيه. فلما ولي أمير المؤمنين (ع) أراد أن يردَّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله (ص).. فشقَّ ذلك عليهم وأنكروه»(٢).

❀ ❀ ❀

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٣٩ ـ ٤٢.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٤٢ ـ ٤٣.

وتجمعت أحقاد الجاهلية وترات حروب النبوة ومصالح الأرستقراطية القرشية المهدَّدة بعدل علي (ع) وصرامته في تطبيق أحكام الله وسنن رسوله؛ في كتلة واحدة متراصة الأطراف، يلم شملَها العداءُ المتفجر لهذه الخلافة الجديدة الراشدة؛ والسعيُ الحثيث في إفشال خططها المرسومة في الإصلاح الاقتصادي والعدالة الاجتماعية والمساواة الحقيقية في الحقوق والواجبات كما شرع الله وقرَّر؛ وفعل رسول الله (ص) ونفَّذ.

واختار هؤلاء الأعداء مدينة البصرة مركزاً لتجمعهم المشؤوم ونقطة أشياعهم وأتباعهم نحو تحقيق أهدافهم الشيطانية الخرقاء، وجعلوا شعار خروجهم هذا هو المطالبة بدم عثمان، واستطاعوا إقناع أم المؤمنين عائشة لتكون الرمز الخادع أو المخدوع لحركتهم الضالة البائسة.

ولم يجد عليٌّ (ع) وقد جُوبه بذلك مناصاً من التصدي لهذا النكث المحرَّم والخروج الذي لا يقره الدين، تنفيذاً لحكم الله الصريح في كتابه المجيد في وجوب مقاتلة البغاة حتى يفيئوا لأمر الله.

وزحف من مقره في المدينة المنورة؛ ومعه جمع غفير من المقاتلين والمجاهدين وعدد غير قليل من صحابة الرسول الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ويروي المسعودي أنهم كانوا «سبعمائة راكب، منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار، منهم سبعون بدرياً وباقيهم من الصحابة»[١].

وفي خلال طريقه إلى البصرة أرسل الرسل إلى الكوفة لاستنفار واليها وأهلها للمشاركة في مكافحة هذا البغي وردع هؤلاء الخارجين

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٣.

على أحكام دينهم وإمام زمانهم الواجب الطاعة والاتِّباع، وكان أبرز أولئك الرسل ابنه الحسن (ع) وعمار بن ياسر[(١)].

ويقول ابن أعثم الكوفي: إنهما لمّا قَدِما الكوفة عارضهما أبو موسى الأشعري وهو يومئذ عامل عليها... فغضب عمار بن ياسر فأسكته. فقام رجلٌ من بني تميم إلى عمار بن ياسر فقال: اسكت أيها الرجل الأجدع، بالأمس كنت مع غوغاء مصر على عثمان، واليوم تُسْكِت أميرنا. فوثب زيد بن صوحان وأصحابه مع شيعة عليّ بالسيوف وقالوا: مَنْ لم يطع أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب فما له عندنا إلا السيف. فقال أبو موسى: أيها الناس؛ اسكتوا واسمعوا كلامي، هذا كتاب عائشة إليَّ تأمرني فيه أن أقر الناس في منازلهم إلى أن يأتيهم ما يحبون من صلاح أمر المسلمين. فقال له عمار بن ياسر: يا أبا موسى؛ إن عائشة أُمِرَتْ بأمرٍ وأُمِرْنا بغيره، أُمِرَتْ أن تقرَّ في بيتها وأُمِرْنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمَرَتنا هي بما أُمِرْت،. وركبتْ ما أُمِرْنا به. ثم قال: أيها الناس، إنه لا بد لهذا الأمر ولهؤلاء الناس من والٍ يدفع الظالم ويعين المظلوم، وهذا ابن عم رسول الله (ص) يستنفركم إلى

(١) تاريخ خليفة: ١/ ١٩٩ و٢٠٢ وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٤ و٢٦٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٢٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٨ و٤٩٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٤٤ والعقد الفريد: ٤/ ٣١٣ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٦.

وجاء في بعض روايات الطبري: أن علياً (ع) أرسلهما بعد رجوع عبدالله ابن عباس من الكوفة بخبر تخاذل الوالي أبي موسى وموقفه السلبي من الحرب (تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٢)، وفي رواية نصر بن مزاحم: أن الوفد كان يضم الحسن (ع) وعبدالله بن عباس وعماراً وقيس بن سعد (وقعة صفين: ١٥، ومثله في الإمامة والسياسة: ١/ ٦٢ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٧٠)، وفي رواية المفيد: أنه كان يضم الحسن (ع) وعماراً وقيس بن سعد (الجمل: ١٣١).

زوجة رسول الله (ص) وإلى طلحة والزبير، فاخرجوا وأنظروا في الحق، فمن كان الحق معه فاتبعوه»[١].

وفي لفظ خليفة: إن عماراً قال: «أما والله إني لأعلم إنها زوجته... ولكن الله ابتلاكم بها لتتبعوه أو إياها»[٢].

وفي لفظ ابن قتيبة: إن عماراً قال في الردّ على أبي موسى: «أيها الناس؛ إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين، وما صدق فيما قال وفيما رضي الله من عباده، قال الله عز وجل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ وقال: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾، فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا في بيوتهم؛ ويخلو الناس فيسفك بعضهم دماء بعض. فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين، واسمعوا من حججهم، وانظروا مَنْ أَوْلى بالنصرة فاتبعوه. فإن صلح أمرهم رجعتم مأجورين»[٣].

وجاء فيما رواه ابن أبي الحديد: إن الحسن (ع) خطب في الناس عند وصوله الكوفة واجتماع أهلها إليه، ثم قام بعده عمار فخاطبهم بعد حمد الله والصلاة على نبيه قائلاً: «أيها الناس؛ أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله، وقد بلاكم الله بحق دينكم وحرمة أمكم، فحقُّ دينكم أوجب وحرمته أعظم. أيها الناس؛ عليكم بإمام لا يؤدَّب؛ وفقيه

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٧.
(٢) تاريخ خليفة: ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ٦١ ـ ٦٢.

لا يُعلَّم؛ وصاحب بأس لا ينكل؛ وذي سابقة في الإسلام ليست لأحد. وإنكم لو قد حضرتموه بيَّن لكم أمركم إن شاء الله».

فقام أبو موسى فخطب خطبة مخذلة معادية لعلي (ع). فنهض إليه عمار فكان مما قال له «أمَا إني أشهد أن رسول الله (ص) أمر علياً بقتال الناكثين وسمّى له فيهم مَنَ سمّى، وأمره بقتال القاسطين»[١].

ثم كانت لعمار أثناء أيام رحلته إلى الكوفة خطب أخرى في هذا الموضوع، قال في إحداها:

«يا أهل الكوفة؛ إن كانت هانت عندكم الدنيا فقد انتهت إليكم أمورنا وأخبارنا. إن قاتلي عثمان لا يعتذرون إلى الناس من قتله، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجِّيهم فيه. وقد كان طلحة والزبير أول مَنْ طعن عليه؛ وأول مَنْ أمر بقتله وسعى في دمه، فلما قُتِل بايَعا علياً طوعاً واختياراً ثم نكثا على غير حدث كان منه. وهذا ابن رسول الله [يعني الإمام الحسن] وقد عرفتم إنه أنفذه إليكم يستنفركم»[٢].

وقال في خطبة أخرى:

«أيها الناس؛ إنّا لما خشينا على هذا الدين أن تُهْدَم جوانبه؛ وأن يتعرّى أديمه، نظرنا لأنفسنا ولديننا، فاخترنا علياً خليفة ورضيناه إماماً، فنعم الخليفة ونعم المؤدِّب، مؤدِّبٌ لا يؤدَّب؛ وفقيه لا يعلَّم؛ وصاحب بأسٍ لا ينكر؛ وذو سابقةٍ في الإسلام ليست لأحد من الناس غيره. وقد خالفه قوم من أصحابه حاسدون له وباغون عليه، وقد توجهوا إلى البصرة فاخرجوا إليهم رحمكم الله، فإنكم لو شاهدتموهم وحاججتموهم تبيَّن لكن إنهم ظالمون»[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/١٤ ـ ١٥.
(٢) الجمل: ١٣٣.
(٣) الجمل أيضاً: ١٣٧.

وخطب خطبة أخرى بهذه المناسبة قال فيها بعد الحمد والثناء:

«ثم إن أمير المؤمنين (ع) حفظه الله ونصره نصراً عزيزاً؛ وأبرم له أمراً رشيداً، بعثني إليكم وابنه يأمركم بالنَّفْر إليه، فانفروا إليه واتقوا وأطيعوا الله. واللهِ لو علمتُ أن على وجه الأرض بشراً أعلم بكتاب الله وسنة نبيه منه ما استنفرتكم إليه ولا بايعته على الموت. يا معشر أهل الكوفة؛ الله الله في الجهاد، فوالله لئن صارت الأمور إلى غير عليّ لتصيرنَّ إلى البلاء العظيم، واللهُ يعلم إني قد نصحتُ لكم وأمرْتُكم بما أخذتُ بيقيني، وما أريد أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أُريد إلا الإصلاح... وأستغفر الله لي ولكم»[1].

وقال في خطاب آخر في الكوفة بهذه المناسبة أيضاً:

«أيها الناس؛ هذا ابن عم رسول الله نبيكم قد بعثني إليكم استنصركم. ألاَ إن طلحة والزبير قد سارا نحو البصرة وأخرجا عائشة معهما للفتنة، ألا وإن الله قد ابتلاكم بحق أُمكُم وحق أبيكم، وحقُّ ربكم أَوْلى وأعظم عليكم من حق أمكم وأبيكم، ولكن الله قد ابتلاكم لينظر كيف تعملون، فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا في سبيل الله، وانفروا إلى خليفتكم وصهر نبيكم»[2].

❀ ❀ ❀

واجتمع الفريقان على صعيد البصرة، ولم يفلح الوعظ والتنبيه في ردع البغاة عن نيّاتهم السوداء، فلم يكن بدٌّ من الاستعداد للحرب.

وعبّى عليٌّ (ع) أصحابه وكانوا «اثنى عشر ألفاً» في تقدير

(١) الجمل ١٤١.
(٢) الجمل: ١٤٢.

بعضهم[١]، وأعدَّ جيشه للمعركة فـ «أمَّر الأمراء وعقد الألوية»، وجعل «على الخيل» عامة أو «على خيل ميمنته» خاصة أو «الميسرة» عمار بن ياسر[٢].

وروى الطبري أن الزبير قد ذُعِر لمّا علم أن عماراً قد أقبل في جيش علي (ع) وقال: «يا جَدْعَ أنْفَاه ـ أو: يا قَطْعَ ظهراه ـ، ثم أخذه أفكل فجعل السلاح ينتفض. فقال جَوْنُ [بن قتادة وكان مع الزبير]: والذي نفسي بيده؛ ما أَخَذَ هذا ما أرى إلا لشيء قد سمعه أو رآه من رسول الله (ص)... فانصرف جَوْنٌ»[٣] من الساحة واعتزل الحرب.

و«قام عمار بن ياسر بين الصفَّيْن فقال: أيها الناس؛ ما أنصفتم نبيكم حيث كففتم عتقاء تلك الخدور، وأبرزتم عقيلته للسيوف»[٤]، فردَّ عليه أتباع الجمل قائلين: «مكِّنونا من قتلة عثمان ونرجع عنكم» فناداهم عمار: «قد فعلنا، هذه عائشة وطلحة والزبير قتلوه عطشاً، فابدأوا بهم، فإذا فرغتم منهم تعالوا إلينا نبذل لكم الحق»[٥].

وكانت عائشة حينذاك «على جملٍ في هودج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح... فدنا عمار من موضعها فنادى: إلى ماذا تدعينني؟ قالت: إلى الطلب بدم عثمان، فقال: قتل الله في هذا اليوم الباغيَ والطالبَ بغير الحق. ثم قال: أيها الناس؛ إنكم لتعلمون أينا الممالىء

(١) الجمل: ١٥٨.
(٢) تاريخ خليفة: ١/ ٢٠٣ وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٩ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٠٨ والجمل: ١٥٨ و١٧١ و١٧٩ و١٩١ والعقد الفريد: ٤/ ٣١٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٥١٠ ـ ٥١١.
(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٦.
(٥) الجمل: ١٩٥.

في قتل عثمان». فلم يجد القوم جواباً له إلا رَمْي السهام متواتراً متصلاً، «فحرَّك فرسه وزال عن موضعه وقال: ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلا الحرب»(١).

ثم قامت الحرب على قدم وساق، وخرج «محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر حتى وقفا قدّام الجمل... فخرج عثمان الضبي وهو ينشد شعراً، فخرج إليه عمار بن ياسر فأجابه على شعره، ثم حمل عليه عمار فقتله... وخرج عمرو بن يثربي من أصحاب الجمل... ثم جال وطلب البراز... فبدر إليه عمار بن ياسر .... بضربةٍ فأرداه عن فرسه، ثم نزل إليه عمار سريعاً فأخذ برجله وجعل يجره حتى ألقاه بين يدي علي (ع)... وخرج بشر بن عمرو الضبي وهو يقول شعراً، فحمل عليه عمار بن ياسر فقتله»(٢).

«وحمل عمار بن ياسر على الزبير فجعل يحوزه بالرمح، فقال أتريد أن تقتلني يا أبا اليقظان؟، فقال: لا يا أبا عبدالله انصَرِفْ. فانصرف»(٣).

وارتجز عميرة بن يثربي وهو في داخل كتيبته، «فناداه عمار: لقد لعمري لُذْتَ بحريز... فإن كنتَ صادقاً فاخرجْ من هذه الكتيبة إليَّ، فترك الزمام.. حتى إذا كان بين الصفين تقدم عمار؛ وهو ابن تسعين سنة وقيل أكثر من ذلك، عليه فروٌ، قد شدَّ وسطه بحبل ليف، أضعف من مُبارزة. واسترجع الناس... وضربه ابن يثربي فاتقاه عمار بدرقته

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٦.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٢٢ ـ ٣٢٩.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٥١٢ وكل ابن الأثير: ٣/ ١٣٤.

فنشب سيفه فيه فعالجه فلم يخرج، وأسفَّ عمار لرجليه فضربه فقطعهما، فوقع على استه، وأُخِذ أسيراً»[(١)].

كذلك حمل عمار على عمرو بن سبرة قاتل الشهيد زيد بن صُوحان؛ فقتله[(٢)].

قال المؤرخون: واحمرَّت الأرض بالدماء، ولم يجد عليٌّ (ع) وسيلة لإنهاء الحرب إلا عقر الجمل، فأمر بذلك، فشدَّ عليه الحسن والحسين (ع)؛ وقيل: الأشتر وعمار، فقطعا يديه وعارضة الرَّحل، فأقعى وله رغاء، ثم وقع لجنبه، وفرَّ الناس من حوله، وتقدَّم منه محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فاحتملا أمَّ المؤمنين من هودجها[(٣)]، وأدخلاها دار عبدالله بن خلف الخزاعي في البصرة[(٤)]. ثم صارحها عمار قائلاً: «يا أُم المؤمنين؛ ما أبْعَدَ هذا المسير من العهد الذي عُهِد إليك!، قالت: أبو اليقظان؟، قال: نعم، قالت: واللهِ إنك ـ ما علمتُ ـ قوّال بالحق. قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك»[(٥)]، كما رُوي فيما يقابل ذلك أن عماراً سألها يومذاك: «يا أُمَّه؛ كيف رأيتِ ضَرْبَ بنيكِ اليوم؟، قالت: لستُ لك بأُمّ، قال: بل وإن كرهتِ»[(٦)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٥١٧ و٥١٩ و٥٣١ ووقعة الجمل: ٤٣ ـ ٤٤ وكامل ابن الأثير: ٣/١٢٦ ـ ١٢٧ وشرح نهج البلاغة: ١/٢٥٩.

(٢) مروج الذهب: ٢/٢٥٣.

(٣) وقعة الجمل: ٤٤ ـ ٤٥ وتاريخ خليفة: ١/٢١٣ ـ ٢١٤ وأنساب الأشراف: ٢/٢٤٨ وفتوح ابن أعثم: ٢/٣٣٣ والعقد الفريد: ٤/٣٢٧ ـ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/٥٣٣.

(٥) أنساب الأشراف: ١/١٦٧ وتاريخ الطبري: ٤/٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٦) مسند أحمد: ٦/٢٠٥ وتاريخ الطبري: ٤/٥٣٣ والجمل: ١٩٧ وكامل ابن الأثير: ٣/١٣٠.

وهكذا وضعت الحرب أوزارها؛ وهُزم الناكثون شر هزيمة، وأسفرت هذه الوقعة في جانبها المدحور عن امرأة كسيرة الجناح؛ وزعيمين بارزين مضرَّجين بالدماء؛ وعدد كبير من عشاق الجمل والمتقربين إلى الشيطان باتِّباعه مجدَّلين على أرض المعركة.

وأمر عليٌّ (ع) على أثر ذلك جميع كتائب جيشه بدخول مدينة البصرة على هيئة عرضٍ عسكري منظَّم، يشد أزر الصديق بما يمنح من طاقات ومعنويات، ويرهب قلب العدو بما يخلق من عامل ردع نفسي عن التفكير مجدداً بالتآمر والتمرد. ويقول أحد مشاهدي هذا الاستعراض واصفاً كتيبة عمار بين تلك الكتائب المقاتلة وقادتها المغاوير:

«ثم مرَّ بنا فارس آخر على فرس أشهب، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه ومن خلفه، شديد الأدمة، عليه سكينة ووقار، رافع صوته بقراءة القرآن، متقلِّد سيفاً، متنكب قوساً، معه راية بيضاء، في ألفٍ من الناس حوله مشيخة وكهول وشباب كأنْ قد أُوقفوا للحساب؛ أثر السجود قد أثَّر في جباهم. فقلتُ: مَنْ هذا؟، فقيل: عمار بن ياسر؛ في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم»(١).

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٤، ومختصر منه في وقعة الجمل: ٣٣.

ثم تجمَّع الجاهليون الذين قالوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ لحربٍ أخرى يقاتلون فيها إمام زمانهم؛ ويعلنون على الملأ جهاراً، خروجهم وبغيهم، من دون أن يستوعبوا من درس (الجمل) عظة توقظ ضمائرهم الهامدة، أو عبرة تعيد نفوسهم المنحرفة إلى منهج الحق وسواء السبيل.

وكان عمار بن ياسر قد اقترح على عليّ (ع) لما فرغ من أمر البصرة معاجلة طاغية الشام ومبادرته الحرب، فقال له في أثناء حديث طويل: «قد علمتَ أن بالشام الداء العضال معاوية بن أبي سفيان، وهو رجل لا يُسلِم ما في يديه أبداً إلا مغلوباً أو مغلولاً أو مسلوباً أو مقتولاً، فعاجله قبل الفكر، وانهض إليه قبل الحذر»[1].

ولكن علياً (ع) كعادته المعروفة لا يفاجىء ولا يباغت، قبل استنفاد كل الوسائل المتاحة لإقامة الحجة وتوضيح المبهم والمجهول، أملاً في أن يسفر ذلك عن سلم يعمر الديار، واتفاقٍ يحقن الدماء، ووئامٍ يمنع التمزق ويقي أخطار الانقسام والتفرق.

وبلغت أنباء هذا التحشد الأموي الحاقد ـ وقد تسرَّب خبره فلم يعد سراً ـ أسماع أمير المؤمنين (ع)، فجمع نخبة أصحابه وذوي الرأي

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٣٤٦/٢.

منهم مستشيراً ومستنصحاً، وكان مما قال لهم: «إن معاوية بن أبي سفيان قد وادع ملك الروم، وسار إلى صفين في أهل الشام عازماً على حربكم... فخذوا في أهبة الحرب فقد تقارب إهراق دماء القاسطين. ألا وأن المشورة فيها البركة؛ فهاتوا ـ رحمكم الله ـ ما عندكم»[١].

وتكلَّم الحاضرون فأدلوا بآرائهم وأفكارهم، ومنهم عمار بن ياسر الذي قال في جملة كلامه:

«يا أمير المؤمنين، إن استطعتَ أنْ لا تقيم يوماً واحداً فافعلْ. اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة. فإذا وافيتَ القوم فادعُهم إلى رشدهم وحظِّهم، فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا حربنا فواللهِ إن سَفْكَ دمائهم والجدَّ في جهادهم لَقُرْبَةٌ إلى الله وكرامة منه»[٢].

وصمم علي (ع) وقد أخذ أعداؤه أهبّة الحرب ـ على التصدي لهذا البغي، والزحف بجيشه نحو صفين للقاء عدوِّه. وخطب أصحابه شارحاً لهم الموقف وحاثّاً على الجهاد، ثم بدأ التحرك وسارت الحشود، وأثِرَ عن عمار أنه كان يرتجز في تلك الجموع الزاحفة قائلاً:

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبيْ ... سيروا فخير الناس أتباع عليْ
هذا أوان طاب سَلُّ المشرفي ... وقَوْدُنا الخيل وهَزُّ السمهري[٣]

كما سُمِع عمار خلال هذا التوجُّه إلى صفين يناجي ربه وهو يسير على شاطىء الفرات قائلاً:

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤٢.
(٢) وقعة صفين: ٩٢ ـ ٩٣ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤٢ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٢.
(٣) وردت المشاطير الأربعة في شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٩، والأولان في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٦٠.

«اللهم إنه لو أعلم أنه أرْضى لك عني أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردّى فأسقط لفعلتُ، ولو أعلم أنه أرْضى لك عني أن أُوقد ناراً عظيمة فأقع فيها فعلتُ. اللهم لو أعلم أنه أرْضى لك عني أن أُلقي نفسي في الماء أغرق فعلتُ، فإني لا أُقاتل إلا أُريد وجهك، وأنا أرجو أن لا تخيِّبني وأنا أريد وجهك»(١).

وفي لفظ عددٍ من المؤرخين: إن عماراً كان يقول في دعائه:

«اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلتُ. اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أنْ أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى يخرج من ظهري لفعلتُ، اللهم وإني أعلم مما أعلمتَني أن لا أعمل اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلتُه»(٢).

ولم يكن غريباً من عمارٍ أن يناجي ربه هذه المناجاة الطافحة بالصدق والإخلاص؛ وهو تلميذ محمدٍ (ص) وصاحبه المقرَّب الحبيب، وقد علَّمه رسول الله (ص) ألفاظاً يدعو بها ربَّه كلما ألَمَّ به أمر صعب فيقول:

«اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا يبيد، وقرة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك النظر إلى

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٤.
(٢) وقعة صفين: ٣٢٠ وتاريخ الطبري: ٥/ ٣٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٧ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٥٣ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٧.

وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضرّاء مضرَّة. اللهم زَيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[١].

❀ ❀ ❀

وانتهى ركب الجهاد إلى مواقع المعركة، وكان في مقدمة من ضمَّ هذا الركب العلوي المجاهد:

١ ـ سبعة وثمانون رجلاً من البدريين: منهم سبعة عشر من المهاجرين والسبعون الباقون من الأنصار[٢]، وقيل: إن البدريين جميعاً كانوا سبعين[٣].

٢ ـ ثمانمائة ممن بايع رسول الله (ص) بيعة الرضوان، وقيل: تسعمائة، وقيل: سبعمائة، وقد قتل منهم في هذه الحرب بسيوف البغي ثلاثة وستون[٤].

٣ ـ قرّاء العراق، يقودهم ثلاثة نفرٍ هم: عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبدالله بن بُدَيل[٥].

وجاء في رواية المسعودي: إن مَنْ شهد صفين مع علي (ع) من الصحابة كانوا ألفين وثمانمائة[٦]، وقيل: سبعون ومائة وألف[٧].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٢٣٥.

(٢) مروج الذهبي: ٢/ ٢٣٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٦٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٦٤ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٤ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٨.

(٥) وقعة صفين: ٢٣٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٥ و٢٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥١ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٧٨.

(٦) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٨.

(٧) تاريخ اليعقوب ٢/ ١٦٤.

وبهذا الحضور المشهود للصحابة عامة وللبدريين وأهل بيعة الرضوان منهم خاصة، تتجلى لنا القراءة الغيبية المجسَّدة في الحديث النبوي الشريف القائل: «يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحقُّ وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر»[١].

كما يتجلى لنا بعد هذه النصوص كلِّها صلفُ شُعبة في كذبه وتلفيقه إذ زعم قائلاً: «ما وجدنا أحداً شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت»[٢].

ومهما يكن من أمر؛ فقد تقابل الفريقان على صعيد صفين، وصفَّ عليٌّ (ع) رجاله استعداداً للقتال، وعقد الألوية وأمَّر الأمراء، وجعل على الرجّالة عامةً أو رجّالة أهل الكوفة بالخصوص عمار بن ياسر[٣].

وانتشر المؤمنون الواعدون من أصحاب علي (ع) بين عناصر جيشهم وبين من يستطيعون لقاءه من أتباع خصمهم، شارحين أبعاد الموقف وملابسات الأمر، ومبينين الحكم الشرعي الذي يجب على كل مسلم أن يلتزم به ولا يحيد عنه في مثل هذه الحال، وداحضين بالدليل والبرهان فساد مزاعم الأعداء وزيف إدعاءاتهم الكاذبة.

وكان لعمار بن ياسر من هذه العملية الإعلامية الذكية الحظُّ الأوفى والنصيب الأوفر، وروى الرواة عنه في هذا المضمار من الخطب والأشعار والمحاججات ما لم يدع عذراً لمعتذر أو زيادة لمستزيد.

وجاء مما أورده المؤرخون في جملة ذلك أنه قام في صفين خطيباً فقال:

---

(١) وقعة صفين: ٣٣٣ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ١٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٢١.

(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٠٣ ووقعة صفين: ٢٠٨ وطبقات ابن سعد: ٥/ ٦٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ١١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٩.

«امضوا معي عباد الله إلى قومٍ يطلبون فيما يزعمون بدم الظالمِ لنفسه الحاكمِ على عباد الله بغير ما في كتاب الله. إنما قتله الصالحون المُنكرون للعدوان الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمتْ لهم دنياهم ولو درَسَ هذا الدينُ: لِمَ قتلتموه؟، فقلنا: لأحداثه، فقالوا: إنه ما أحدث شيئاً، وذلك لأنه مكَّنهم من الدنيا فهم يأكلونها ويرعَوْنها ولا يبالون لو انهدَّتْ عليهم الجبال. واللهِ ما أظنهم يطلبون دمه، وإنهم ليعلمون إنه لظالم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبُّوها واستَمْرَوْها، وعلموا لو أن صاحب الحق لزمهم لحال بينهم وما بين ما يأكلون ويَرْعَوْن فيه منها. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا قُتِل إمامُنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما بايعهم من الناس رجلان. اللهم إن تنصرنا فطالما نَصَرْتَ، وإن تجعل لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا لعبادك العذابَ الأليم»[1].

ثم التفت إلى أحد أصحابه فقال له:

«هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتي فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتُها مع رسول الله (ص) ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهنَّ ولا أبرِّهنَّ، بل هي شرُّهنَّ وأفجرهنَّ... إن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله (ص) يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وأن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب»[2].

وفي لفظ أحمد بن حنبل وآخرين: «والذي نفسي بيده لقد قاتلت

---

(١) وقعة صفين: ٣١٩ وشرح نهج البلاغة: ٥/٢٥٢ ـ ٢٥٣، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٥/٣٩.

(٢) وقعة صفين: ٣٢١ و٣٤٠ وشرح نهج البلاغة: ٥/٢٥٧ ـ ٢٥٨.

بهذه الراية مع رسول الله (ص) ثلاث مرات، وهذه الرابعة» وزاد البلاذري وابن سعد: «وما هذه المرة بأبرِّهنَّ ولا أنقاهنَّ»[١].

ثم قال عمار:

«والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفتُ أنّا على حقّ هم على باطل»[٢].

وسُمِع خلال ذلك يردِّد هذه الأبيات:

صدق الله وهو للصدق أهلٌ ... وتعالى ربي وكان جليلا
رَبِّ عجِّلْ شهادةً لي بقتلٍ ... في الذي قد أُحبُّ قتلاً جميلا
مُقبلاً غير مدبر إن للقتـ ... ـل على كل ميتةٍ تفضيلا
إنهم عند ربهم في جنانٍ ... يشربون الرحيق والسلسبيلا
من شراب الأبرار خالطه المِسْـ ... ـكُ وكأساً مزاجها زنجبيلا[٣]

ومضى عمار يتجول في ميدان الوغى ومعه بعض أصحابه، فتقابل مع عمرو بن العاص، فما كان من عمار إلا أن يبادره قائلاً: «يا عمرو؛ بعتَ دينك بمصر، تبّاً لك، وطالما بغيتَ الإسلام عِوَجاً»[٤].

(١) مسند أحمد: ٤/ ٣١٩ وأنساب الأشراف: ١/ ١٧١ و٢/ ٣١٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٨٣ و١٨٤ والعقد الفريد: ٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٨.

(٢) مسند أحمد: ٤/ ٣١٩ ووقعة صفين: ٣٢٢ وأنساب الأشراف: ١/ ١٧١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٨٣ و١٨٤ وتاريخ الطبري: ٥/ ٣٨ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٣ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ ونثر الدر: ٢/ ١٠٣ والعقد الفريد: ٤/ ٣٤٢ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٥٨ و١٠/ ١٠٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٨.

(٣) وردت الأبيات معزوّة لعمار في وقعة صفين: ٣١٩ ـ ٣٢٠. وورد رابعها بمفرده معزواً لعبدالله بن رواحة في تهذيب الأزهري: ١٣/ ١٥١ وتركيب سلسل في لسان العرب.

(٤) وقعة صفين: ٣١٩ وتاريخ الطبري: ٥/ ٣٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٧ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ٢٥٣.

وروى بعض الرواة: إن حواراً صريحاً قد دار بين هذين الرجلين في هذا اللقاء لم يكتم فيه عمار شيئاً مما كان يريد قوله لعمرو، ونورد فيما يأتي أهم فقرات ذلك الحوار:

قال عمرو لعمار: «أُذكِّرك الله إلا كففتَ سلاحهم وحقنتَ دماءهم وحرَّضتَ على ذلك، فعلامَ تقاتلنا؟».

قل عمار: «سأُخبرك علامَ قاتلتُك عليه أنت وأصحابك: أمرني رسول الله (ص) أن أقاتل الناكثين وقد فعلتُ، وأمرني أن أقاتل القاسطين فأنتم هم، وأما المارقون فما أدري أُدْرِكهم أم لا[1]. أيها الأبتر ألستَ تعلم أن رسول الله (ص) قال لعلّي: (مَنْ كنتُ مولاه فعلّي مولاه، اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه)، وأنا مولى اللهِ ورسولهِ وعليّ بعده. وليس لك مولى».

فقال له عمرو: «لِمَ تشتمني يا أبا اليقظان ولستُ أشتمك؟».

قال عمار: «وبِمَ تشتمني؟، أتستطيع أن تقول إني عصيتُ الله ورسوله يوماً قط؟».

فقال عمرو: «إن فيك لَمسبَّاتٍ سوى ذلك».

فقال عمار: «إن الكريم من أكرمه الله. كنتُ وضيعاً فرفعني الله؛ ومملوكاً فأعتقني الله؛ وضعيفاً فقوّاني الله؛ وفقيراً فأغناني الله».

---

(١) يشير عمار بذلك إلى الحديث النبوي المتسالم عليه، وقد أخرجه ـ فيمن أخرجه ـ الطبراني بسنده عن أبي أيوب الأنصاري في قوله بعد مشاركته في مقاتلة البغاة في صفين:
«إن رسول الله (ص) أمرني بقتال ثلاثة: الناكثين والقاسطين والمارقين، فقد قاتلت الناكثين وقاتلت القاسطين، وأنا مقاتل ـ إن شاء الله ـ المارقين» المعجم الكبير: ٤/٢٠٦.

قال عمرو: «فما ترى في قَتْل عثمان؟».

فقال عمار: «فتح لكم بابَ كلِّ سوء».

قال عمرو: «فعلّيٌ قتله؟».

قال عمار: «بل الله ربُّ علّي قتله؛ وعليٌّ معه».

فقال عمرو: «أنتَ فيمن قتله؟».

قال عمار: «كنتُ مع مَنْ قتله وأنا اليوم أُقاتل معهم».

فقال عمرو: «فلِمَ قتلتموه؟».

قال عمار: «أراد أن يغيِّر ديننا فقتلناه».

فقال عمرو لمن كان معه من أصحابه: «ألا تسمعون!، قد اعترف بقتل عثمان».

قال عمار: «وقد قالها فرعونُ قبلك لقومه: (ألاَ تستمعون)».

«فقام أهلُ الشام ولهم زجلٌ فركبوا خيولهم فرجعوا، وقام عمار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا»(١).

ثم التقى عمار هناك أيضاً عبيدالله بن عمر بن الخطاب ـ وكان قد انضمَّ إلى جماعة القاسطين الخارجين على إمام زمانهم ـ، فقال له عمار: «صرعك الله، بعتَ دينك من عدو الإسلام وابن عدوه؟، قال: لا؛ ولكن أطلب بدم عثمان بن عفان ـ رض ـ. قال له: أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجهَ الله عز وجل، وإنك إن لم تُقْتَل اليوم تَمُتْ غداً، فانظر إذا أُعْطِيَ الناسُ على قدر نيّاتهم ما نيَّتُك؟»(٢).

❀ ❀ ❀

(١) وقعة صفين: ٣٣٨ ـ ٣٣٩ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢١ ـ ٢٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩ ـ ٤٠.

وبدأت الحرب، والتحم الطرفان، وكان القتال في اليوم الثالث بعد انتهاء شهر المحرَّم «بين عمرو بن العاص وعمار بن ياسر»[١]، «فاقتتل الناس كأشد القتال»، وخطب عمار في أصحابه فقال لهم:

«يا أهل الإسلام؛ أتريدون أن تنظروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؛ فلمّا أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبيَّ (ص) فأسلم وهو واللهِ فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسوله (ص).. وإنّا واللهِ لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم.. ألاَ وأنَّه معاوية، فالعنوه لعنه الله، وقاتلوه فإنه ممن يُطفىء نور الله ويظاهر أعداء الله».

«وكان مع عمار زيادُ بن النَّضْر على الخيل، فأمره أن يحمل... وشدَّ عمار في الرجّالة فأزال عمرو بن العاص عن موقفه»[٢].

ويقول المسعودي: إن عماراً حمل في عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار على عمرو بن العاص وهو يقود تنوخ ونهداً وغيرهما من أهل الشام، وكانت الحرب بينهم سجالاً إلى الظهر، «ثم حمل عمار بن ياسر فيمن ذكرنا فأزال عمراً عن موضعه وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت عن قتلى كثيرة من أهل الشام ودونهم من أهل العراق»[٣].

وكان مما أُثر عن عمارٍ خلال هذا القتال الضاري قوله:

نحن ضربناكم على تنزيلِهِ ثم ضربناكم على تأويلِهِ

---

(١) أنساب الأشراف: ٢/٣٠٣.

(٢) وقعة صفين: ٢١٤ وتاريخ الطبري: ٥/١٢ وكامل ابن الأثير: ٣/١٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٤/٣٠.

(٣) مروج الذهب: ٢/٢٦٠.

ضرباً يزيل الهام عن مقيلِهِ ويذهل الخليل عن خليلِهِ
أو يرجع الحق إلى سبيلِهِ[١]

وقد أشار عمار في رجزه هذا إلى ما سمعه من النبي (ص) وحدَّث به ابن الأثير «عن عبد الرحمن بن بشير قال: كنّا جلوساً عند النبي (ص) إذ قال ليضربنكم رجل على تأويل القرآن كما ضربتُكم على تنزيله. فقال أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل ـ وكان علي يخصف نعل رسول الله (ص). أخرجه الثلاثة»[٢].

وتقدَّم رجل من عمار وقد استحرَّ القتل واشتد الضرب فقال له: «يا أبا اليقظان؛ ألم يقل رسول الله (ص): قاتلوا الناس حتى يُسْلموا؛ فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم؟. قال: بلى ولكن واللهِ ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرُّوا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً»[٣].

وتقول الروايات: إن عماراً لما تقدَّم للقاء عمرو بن العاص «صُفَّت الخيول بعضها إلى بعض، وزحف الناس، وعلى عمار درعٌ بيضاء، وهو يقول: أيها الناس؛ الرواح إلى الجنة... فاقتتل الناسُ قتالاً شديداً لم يسمع الناسُ بمثله»[٤].

وروى المؤرخون عن أبي عبد الرحمن السلمي ـ وهو من شهود صفين ـ قال: «رأيت عمار بن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ من أودية

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٣١٠، وقريب من لفظه في سيرة ابن هشام: ٤/ ١٣ ووقعة صفين: ٣٤١ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٣ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٣ ـ ٢٤ و١٠/ ١٠٥.
(٢) أسد الغابة: ٣/ ٢٨٢.
(٣) وقعة صفين: ٢١٥ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٣١.
(٤) وقعة صفين: ٣٣٩ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٢.

صفين إلا رأيتُ أصحاب محمد (ص) يتبعونه كأنه عَلَمٌ لهم»[١].

وتقدَّم عمار وهو يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف ـ أو: تحت البارقة ـ، والموت في أطراف الأسل، وقد فُتحت أبوابُ السماء، وتزيَّنت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة: محمداً وحزبه»[٢].

ثم نادى هاشمَ بن عتبة المرقال ـ وهو صاحب الراية ـ: «أحمل فداك أبي وأمي. فقال هاشم: يا عمار؛ إنك رجل تستخفك الحرب، وإني إنما أزحف باللواء زحفاً رجاء أن أبلغ بذلك ما أريد، وإني إن خففتُ لم آمن الهلكة... فنهض عمار في كتيبته»[٣]، وحمي الوطيس. ودعا عمارٌ غلاماً له في أثناء ذلك فطلب منه شراباً يشربه، «فأتاه بقدح من لبن، فشربه ثم قال: صدق الله ورسوله... إن رسول الله (ص) قال: إن آخر شيء أُزَوَّده من الدنيا ضيحة لبن»[٤].

ثم «أرسل معاوية خيلاً فاختطفوا عماراً»[٥]، «وحمل عليه ابن جَوْنٍ ـ أو ابنُ جزءٍ ـ (أو: حُوَيٌّ) السَّكوني ـ أو السَّكسكي ـ وأبو العادية (الغادية) الفزاري، فأما أبو العادية فطعنه، وأما ابن جون فاحتز

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ ـ واللفظ منه ـوشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٤.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٧١ و٢/ ٣١٧ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٧.

(٣) وقعة صفين: ٣٤٠ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣١٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٨٧.

(٤) النص بهذا اللفظ أو المضمون في مسند أحمد: ٤/ ٣١٩ ووقعة صفين: ٣٤١ ـ ٣٤٢ وأنساب الأشراف: ١/ ١٧٢ و٢/ ٣١٨ ـ ٣١٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٨٥ وتاريخ الطبري: ٥/ ٣٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٣ وحلية الأولياء: ١/ ١٤١ ـ ١٤٢ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٥) العقد الفريد: ٤/ ٣٤١.

رأسه»[١]، فانتقل عمار بهذه الشهادة السعيدة إلى جنان الله الخالدة ورضوانه المقيم، مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

❀ ❀ ❀

وأُبلِغ عليٌّ (ع) بشهادة عمار ومصرعه، فبادر إلى حيث هوى مضمخاً بدمه؛ فوقف عليه راثياً ومؤبِّناً، فقال:

«إن امرءاً من المسلمين لم يعظم عليه قتلُ عمار ولم يدخل عليه بقتله مصيبةٌ موجعة لَغَيْرُ رشيد. رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عماراً يوم قُتِل، ورحم الله عماراً يوم يبعث حيّاً. لقد رأيتُ عماراً ما يُذْكَرِ من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان الرابع؛ ولا خمسة إلا كان الخامس. وما كان أحد من أصحاب محمد يشك في أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين، فهنيئاً الجنة. عمار مع الحق أين دار، وقاتل عمار في النار»[٢].

ثم وضع أمامه جثمان عمار من دون أن يُغَسَّل[٣]، لأن الشهيد لا يغسَّل ولا يكفَّن، وصلى عليه وعلى هاشم بن عتبة «فجعل عماراً مما يليه وهاشماً أمام ذلك، وكبَّر عليهما تكبيراً واحداً»[٤].

---

(١) وقعة صفين: ٣٤١ وأنساب الأشراف. ٢/ ٣١٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٣ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٥.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٧.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٥ والمعارف: ٢٥٦ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٥٣ والاستيعاب: ٢/ ٤٧٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢٦.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٤ و٢/ ٣١٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

وسرعان ما انفجر في تلك الجموع الحاشدة خبر مقتل عمار فكان له الوقع الكبير والدوي العنيف في نفوس الأصحاب والأعداء، فقد فُجِع إخوان هذا الشهيد بفقده؛ وأصابهم أشدُّ الأسى والحزن لفراقه، ولم يكن ذلك بمستغرب منهم أو عجيب، فكلهم يعرف عماراً ومقامه حق المعرفة، وهم طلاّب محمد (ص) المخلصون؛ وتلاميذ الوحي المدركون؛ الذين سمعوا النصوص فوعوها؛ وعاصروا الوقائع فاستوعبوا دروسها، وتعلموا أحكام الإسلام فالتزموا بها ولم يحيدوا عنها قيد شعرة.

أما أعداء عمار البغاة القاسطون فقد أصابهم من الهلع والذعر بذلك ما تُحَدثّنا عنه الروايات التاريخية الآتية:

١ ـ روى ابن سعدٍ بسنده عن هُني مولى عمر بن الخطاب قال:

«كنتُ أول شيء مع معاوية على علّي، فكان أصحاب معاوية يقولون: لا واللهِ لا نقتل عماراً أبداً؛ إنْ قتلناه فنحن كما يقولون. فلما كان يوم صفين ذهبتُ أنظر في القتلى فإذا عمار بن ياسر مقتول، فقال هنيٌّ: فجئتُ إلى عمرو بن العاص وهو على سريره.... فقام إليَّ، فقلتُ: عمار بن ياسر ما سمعتَ فيه؟ فقال: قال رسول الله (ص): تقتله الفئة الباغية. فقلتُ: هو ذا واللهِ مقتول، فقال: هذا باطل، فقلتُ: بصر عيني به مقتول. قال: فانطلقْ فأرِنيه، فذهبتُ به فأوقفتُه عليه، فساعة رآه انتُقِع لونهُ، ثم أعرض في شقٍ وقال: إنما قتله الذي خرج به»[1].

٢ ـ وروى البلاذري وابن سعد قالا:

«كان الذي قتل عمار بن ياسر أبو غادية المزني؛ طعنه برمح فسقط... فلما وقع أكبَّ عليه رجلٌ آخر فاحتَزَّ رأسَه، فأقبلا يختصمان

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨١.

فيه؛ كلاهما يقل: أنا قتلتَه. فقال عمرو بن العاص: واللهِ إن يختصمان إلا في النار، فسمعها منه معاوية، فلما انصرف الرجلان قال معاوية لعمرو بن العاص: ما رأيتُ مثل ما صنعتَ؛ قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما: أنكما تختصمان في النار. فقال عمرو: هو واللهِ ذاك، وواللهِ إنك لتعلمه، ولوددتُ إني متُّ قبل هذه بعشرين سنة»[(١)].

٣ ـ وروى أحمد بن حنبل وغيره عن حنظلة بن خويلد قال:

بينما أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار؛ يقول كل واحد منهما: أنا قتلتُه، فقال عبدالله بن عمرو: ليَطِبْ به أحدُكما نفساً لصاحبه، فإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: تقتله الفئة الباغية. قال: فقال معاوية: فما بالك معنا؟، قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله (ص) فقال: أطع أباك حيّاً ولا تعصه، فأنا معكم ولستُ أُقاتل»[(٢)].

٤ ـ وروى الطبري عن أبي عبدالرحمن السلمي ـ وهو من حضّار صفين ـ قال:

«لما كان الليل قلتُ لأدخلنَ إليهم حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منّا ـ وكنّا إذا ترادَعْنا من القتال تحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم ـ، فركبتُ فرسي وقد هدأت الرِّجلُ، ثم دخلتُ فإذا أنا بأربعة يتسايرون: معاوية وأبو الأعور السلمي وعمرو بن العاص وعبدالله بن عمرو وهو خير الأربعة، فأدخلتُ فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول أحد الشِّقَّيْن. فقال عبدالله لأبيه: يا أبت قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٠ و٢/ ٣١٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٥.

(٢) مسند أحمد: ٢/ ١٦٤ و٢٠٦ وأنساب الأشراف: ١/ ١٦٨ و٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٨١ والعقد الفريد: ٤/ ٣٤١.

قال فيه رسول الله (ص)... تقتله الفئة الباغية. فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال: يا معاوية أما تسمع ما يقول عبدالله؟... فقال معاوية...: أو نحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عماراً مَنْ جاء به»[١].

٥ ـ وروى أحمد بن حنبل والبيهقي وغيرهما: إن عماراً لما قُتِل قام عمرو بن العاص فزعاً «يرتجع حتى دخل على معاوية، فقال معاوية: ما شأنك؟، فقال: قتل عمار، فقال معاوية: قُتِل عمار فماذا؟، قال عمرو: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: تقتله الفئة الباغية. فقال له معاوية: دَحَضْتَ في بولك؛ أنحن قتلناه!، إنما قتله عليٌّ وأصحابه؛ جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا؛ أو قال: سيوفنا»[٢]، فلما أُخبر عليٌّ (ع) بمقولة معاوية هذه قال: فرسول الله (ص) أذن قتل حمزة حين أخرجه[٣].

٦ ـ وروى نصر بن مزاحم إن ذا الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول: «قال رسول الله (ص) لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربةٍ تشربها ضَيَاحٌ من لبن. فقال ذو الكلاع لعمرو: ويحك ما هذا؟، قال عمرو إنه سيرجع إلينا ويفارق أبا تراب. وذلك قبل أن يصاب عمار، فأُصيب عمار مع عليّ، وأُصيب ذو الكلاع مع معاوية، فقال عمرو: والله يا معاوية ما أدري بقتل أيهما أنا أشدُّ فرحاً!!، واللهِ لو بقي ذو الكلاع حتى يقتل عمار لَمالَ بعامَّة قومه إلى علي ولأفسد علينا جندنا»[٤].

٧ ـ وزعم بعض الرواة: إن عبدالله بن عمر قد ندم ـ أثر مقتل

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١.

(٢) مسند أحمد: ٤/ ١٩٩ ودلائل النبوة: ٢/ ٥٥١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢٠ و٤٢٦.

(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣٤٣ والسيرة الحلبية: ٢/ ٧٨.

(٤) وقعة صفين: ٣٤١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٨ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٤.

عمار ـ «على عدم نصرة عليّ والمقاتلة معه، وقال عند موته: ما أسفي على شيء أسفي على ترك قتال الباغية»[١].

٨ ـ ونقل بعض الرواة عن الحجّاج إنه قال: «واللهِ لو أن عماراً قتله أهل الأرض كلهم لدخلوا كلهم النار»[٢]!!.

٩ ـ واستدلَّ أهلُ السنة والجماعة ـ على مرِّ الأجيال ـ «على ترجيح جانب عليّ بدلائل أظهرها وأثبتها قوله (ص) لعمار بن ياسر: (تقتلك الفئة الباغية)، وهو حديث ثابت. وممن قتل مع علي عمار بن ياسر ميزان العدل في تلك الحروب»[٣].

وعلّق ابن أبي الحديد المعتزلي على أقوال أولئك الذين رجَّحوا جانب علي (ع) بوجود عمار معه؛ فقال:

«واعجباه من قومٍ يعتريهم الشك في أمرهم لمكان عمار؛ ولا يعتريهم الشك لمكان علي (ع)، ويستدلون على أن الحق مع أهل العراق بكون عمار بين أظهرهم؛ ولا يعبأون بمكان علي (ع)، ويحذرون من قول النبي (ص): (تقتلك الفئة الباغية) ويرتاعون لذلك، ولا يرتاعون لقوله (ص) في علي (ع): (اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه) ولا لقوله (ص): (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق). وهذا يدلك على أن علياً (ع) اجتهدت قريش كلها من مبدإ الأمر في إخمال ذكره وستر فضائله وتغطية خصائصه»[٤].

---

(١) السيرة الحلبية: ٢/ ٧٨.

(٢) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٨ والدرجات الرفيعة: ٢٨٣.

(٣) شذرات الذهب: ١/ ٤٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٨/ ١٧ ـ ١٨.

وعلى كل حال؛ وأيّاً ما كانت ردود فعل هذا الحادث وأصداؤه، فمن الواضح الذي لا يدخله ريب أو تردد أن هؤلاء القوم قد قتلوا عماراً ـ مع التعمد وسبق الإصرار ـ وهم يعرفون مقامه عند الله ورسوله، ويعلمون على وجه القطع واليقين بأن قاتليه هم الفئة الباغية والجماعة الناكبة عن الحق. فهنيئاً لعمار خاتمته السعيدة المضمخة بأريج الجنان، وتبّاً لأعدائه فيما ارتكبوا بقتله وبخروجهم على إمامهم من عظيم الأوزار؛ وما استحقوا من عذاب النار وخزي الدنيا والآخرة، وبئس العقبى والمصير.

وفي ضوء ذلك كله؛ يصبح من أعجب العجب ما ورد في بعض المصادر من أن البغاة الفجرة أتباع حاكم الشام كانوا يسمون قتل عمار: «فتح الفتوح»[١]. وما روى المؤرخون من أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري «قال لأبي الغادية الجهني قاتل عمار بن ياسر: أأنت قتلت عمار بن ياسر؟، قال: نعم، قال: ناولني يدك، فقبَّلها وقال: لا تمسُّك النار أبداً!!»[٢]. كما يصبح من أطرف الطرائف في عالم الشذوذ والانحراف ما رواه البلاذري وابن سعد: من أن أبا الغادية قاتل عمار كان في مجلس أحدهم يوماً فاستسقى ماءً، فأُتي بماء في زجاج، فأبى أن يشرب تورُّعاً عن الشرب في إناء زجاجي، «فأُتي بماء في خزف فشرب. فقال رجل بالنَّبْطِيَّةِ: يتورَّع عن الشرب في زجاج ولم يتورع عن قتل عمار»[٣].

❀ ❀ ❀

(١) المحبر: ٢٩٦.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٩٩.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٣ و٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٦.

وانتقل عمار إلى فردوس الرضا والرضوان، فجزاه الله أمثل الجزاء وأوفى العطاء بما بذل وقدَّم من جهود وتضحيات؛ منذ مطلع البعثة حتى يوم الشهادة. ولقد كان من صميم العدل الإلهي أن يمنح هذا المسلم الثابت القدم أنفس ما عرفت البشرية من أوسمة التكريم وألفاظ التعظيم، فيصبح بهذه المنزلة من الشأن والرفعة في السماء والأرض، حتى عُدَّ أحد ثلاثة أو أربعة تشتاق إليهم الجنة بنصِّ الحديث الشريف، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ومن يقرأ روايات السلف المبثوثة في مصادر الحديث والتاريخ يجد كلمات الثناء على عمار ماثلة للعيان على نحوٍ مثير للانتباه ولافت للنظر، وقد شارك الطرفان المتضادان من أصحاب وأعداء في ذلك الإطراء والمديح والتمجيد، مما يوحي للقارىء بأنه لم يكن في إمكان الخصوم تجاهل مقام هذا الرجل أو غض النظر عنه. ونروي فيما يأتي شواهد من تلك الشهادات المروية عن بعض رموز جبهتي الصراع في تاريخ الإسلام بشأن عمار وعلو درجته وسمو رتبته

١ ـ سُئل حذيفة بن اليمان وهو على فراش الموت وقد ذكر الفتن وحذَّر الناس منها؛ فقالوا له: «إذا اختلف الناس بمن تأمرنا؟، قال: عليكم بابن سمية فإنه لن يفارق الحق حتى يموت. أو قال: فإنه يدور مع الحق حيث دار»(١).

٢ ـ جاء رجل إلى عبدالله بن مسعود فقال له: «أرأيت إذا أُنزلت فتنة كيف أصنع؟، فقال: عليك كتاب الله تعالى. قال: أفرأيت إن جاء قوم كلهم يدعو إلى كتاب الله تعالى؟، فقال ابن مسعود: سمعتُ رسول

(١) الاستيعاب: ٢/ ٤٧٢ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٧ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٥.

الله (ص) يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق ـ يعني عماراً ـ»[١].

٣ ـ قال عبدالله بن جعفر: «ما رأيتُ مثل عمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر، كانا لا يحبان أن يعصيا الله طرفة عين؛ ولا يخالفا الحق قيد شعرة»[٢].

٤ ـ قال عبدالله بن عمر: «ما أعرف أحداً خرج يبتغي وجه الله والدار الآخرة إلا عماراً»[٣]، وفي لفظ آخر له قال: «ما أعلم أحداً خرج في الفتنة يريد الله إلا عماراً»[٤].

٥ ـ قال عمرو بن العاص وهو يتحدث عن النبي (ص): «كنّا نراه يحب رجلاً، قيل له: فمن ذاك الرجل؟، قال: عمار بن ياسر. قالوا: فذاك قتيلكم يوم صفين، قال: قد والله قتلناه»[٥].

٦ ـ قال عثمان بن أبي العاص: «رجلان مات رسول الله (ص) وهو يحبهما ابن مسعود وعمار»[٦].

٧ ـ قال الأصبغ بن نباتة: «رحم الله أبا اليقظان، فإني أرى إنه لو شارك أيوب (ع) في بلائه صبر معه»[٧].

إن هذه الشواهد ـ ولها كثير من النظائر ـ صريحة كل الصراحة بما

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٩٨.
(٢) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٩٢.
(٣) حلية الأولياء: ١/ ١٤٢.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٢٤.
(٥) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٨٨.
(٦) تهذيب التهذيب: ٧/ ٤٠٩.
(٧) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٥.

كان لعمار من درجة سامية في نفوس هؤلاء المعاصرين له على اختلاف مشاربهم ومواقفهم. ولقد كان كذلك أيضاً لدى الأجيال التالية لهم جيلاً بعد جيل، وفي طليعتهم عدة من حفاظ الحديث المعروفين الذين ترجموا لعمار ودوَّنوا بعض أخباره وأحواله وأشاروا إلى مناقبه وفضائله، ومن أمثلة هؤلاء الحافظ أبو نعيم الذي قال فيه: «الممتلىء من الإيمان، المطمئن بالإيقان، والمتثبت حين المحنة والإفتتان... سبق إلى قتال الطغاة زمن النبي (ص)، وبقي إلى طعان البغاة مع الوصي.. كان له من النبي (ص) إذا استأذن البشاشة والترحيب؛ والبشارة بالتطييب»[١]، وقال الحافظ ابن عبد البَرِّ: «فضائله المرويَّة كثيرة يطول ذكرها»[٢]، وقال الحافظ الذهبي: «مناقبه جمة»[٣]، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وفضائله كثيرة جداً»[٤].

ولعل من خير ما نكمل به استعراض هذه النصوص المعنية بعمار أن نورد في سطور الختام مقتطفات مما أبَّنته به لما قُتِل السيدة الجليلة أُمُّ الخير بنت الحَريش بن سراقة البارقي؛ ـ وكانت ممن حضر صفين في رحال أهلها ـ، فقد روي أن معاوية استقبلها يوماً في بلاطه «فقال لها: كيف كان كلامُكِ يوم قُتِل عمار بن ياسر؟، قالت: لم أكن واللهِ رَوَّيتُه قبلُ ولا دوَّنتُه بعدُ، وإنما كانت كلمات نفثهنَّ لساني حين الصدمة... ثم التفت إلى أصحابه فقال: أيكم حفظ كلام أُمِّ الخير؟، قال رجل من القوم: أنا أحفظه... قال: هاته، قال: نعم؛ كأني بها... وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول:

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ١٣٩.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٤٧٢.

(٣) العبر: ١/ ٢٨.

(٤) تهذيب التهذيب: ٧/ ٤١٠.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. إن الله قد أوضح الحق؛ وأبان الدليل؛ ونوَّر السبيل؛ ورفع العَلَمَ، فلم يَدَعْكم في عمياء مبهمة؛ ولا سوداء مدلهمة. فإلى أين تريدون رحمكم الله، أفراراً عن أمير المؤمنين؛ أم فراراً من الزحف؛ أم رغبةً عن الإسلام؛ أم ارتداداً عن الحق؟. أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾».

قال الراوي: «ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمَّة القلوب، فأجمع إليه كلمة التقوى، وألِّف القلوب على الهدى، واردد الحقَّ إلى أهله. هلموا ـ رحمكم الله ـ إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصدِّيق الأكبر. إنها إحَنٌ بدريِّة، وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس. . . صبراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتِلوا على بصيرة من ربكم، وثباتٍ من دينكم، فكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كحُمُر مستنفرة فرَّتْ من قسورة، لا تدري أين يسْلَك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى».

«. . . واللهِ أيها الناس؛ لولا أن تبطل الحقوق؛ وتُعطَّل الحدود؛ ويظهر الظالمون؛ وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ عن ابن عم رسول الله (ص) وزوج ابنته وأبي ابنَيْه، خُلِق من طينته، وتفرَّع من نبعته، وخصَّه بسرِّه، وجعله باب مدينته. . . ها هو مفلِّق العام، ومكسِّر الأصنام، إذ صلّى والناس مشركون، وأطاعْ والناس مرتابون. . . . فيالها

من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً؛ وردَّة وشقاقا، قد اجتهدتُ في القول، وبالغتُ في النصيحة، وبالله التوفيق»(١).

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الشعراء: ٢٢٧]، «صدق الله العظيم».

(١) النصُّ بتمامه في نثر الدر: ٤/ ٨١ ـ ٨٣ والعقد الفريد: ٢/ ١١٥ ـ ١١٨.

[٢١]

محمد بن أبي بكر

محمد بن أبي بكر

محمد بن أبي بكر ـ واسمه عبدالله، وقيل: عتيق[1] ـ بن أبي قُحافة ـ واسمه عثمان ـ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم ابن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[2]، التيمي القرشي: مسلم صادق الإيمان، وناسك معروف بالعبادة، ومجاهد في سبيل الله أصدق الجهاد.

كان أبوه أبو بكر بن أبي قحافة من مشاهير الرجال وأعلام الصحابة، فهو أوضح من أن يعَّرف، وأجلى من أن يُتَحدَّث عنه، نسباً وشأناً ومقاماً ومنزلة، في مكة المكرمة أولاً، وفي المدينة المنورة فيما بعد، وحسبه من ذلك كله أنه كان الخليفة الأول في تاريخ المسلمين.

وأما أمه فهي الصحابية الجليلة «أسماء بنت عُمَيْس بن مَعْد[3] بن تيم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن نَسْر بن وَهْب الله بن شَهْران بن عِفْرس بن أفتل ـ وهو جماع خَثْعَم»[4]. وأمها «هند، وهي خولة بنت

---

(١) جمهرة النسب: ٨٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١١٩ وجمهرة أنساب العرب: ١٣٦ ـ ١٣٧ والاستيعاب: ٢/ ٢٣٤ والتبيين: ٢٧٩ وتاريخ دمشق: ٣٥/ ١٠٦ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٦ والإصابة: ٢/ ٣٣٣.

(٣) نص ابن حجر في الإصابة على كونه بوزن سعد.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٢٠ و٤/ق١/ ٢٣ و٨/ ٢٠٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٦ والاستيعاب: ٢/ ٢٣٠ والإصابة: ٤/ ٢٢٥، وفيما بينها بعض الاختلاف في الأسماء.

عوف بن زهير بن الحارث بن حَماطة، من جُرَش»[١].

بادرت هذه المؤمنة الصالحة إلى الإسلام في أوائل البعثة النبوية الشريفة فسبقت سيدات عصرها وبنات مصرها، وذلك «قبل دخول رسول الله (ص) دار الأرقم بمكة»[٢]، «وبايعت وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فولدت هناك عبدالله ومحمداً وعوناً»[٣].

وأسماء هذه هي التي قال لها عمر بن الخطاب لمَّا قدمت من أرض الحبشة: «يا حبشية، سبقناكم بالهجرة. فقالت: أي لعمري لقد صدقتَ، كنتم مع رسول الله (ص) يطعم جائعكم ويعلّم جاهلكم، وكنا البعداء الطرداء، أما والله لآتينَّ رسول الله (ص) فلأذكرن ذلك له. فأتت النبي (ص) فذكرت ذلك له فقال: للناس هجرة واحدة ولكم هجرتان»[٤].

ولما استشهد زوجها جعفر بن أبي طالب سنة ثمان من الهجرة تزوجها أبو بكر فولدت له محمداً[٥]. ثم تزوجها بعد وفاة أبي بكر عليُّ بن أبي طالب فولدت له يحيى وعوناً[٦].

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٥ والاستيعاب: ٤/ ٢٣٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٥ والإصابة: ٤/ ٢٢٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ق١/ ٢٢ و٨/ ٢٠٥ والمحبَّر: ١٠٧ والاستيعاب: ٤/ ٢٣١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٤٣ والإصابة: ٤/ ٢٢٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٥.

(٥) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٦ والمحبر: ١٠٨ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٦ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٤٣.

(٦) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٨ والمحبر: ١٠٨ ومروج الذهب: ٢/ ١٩٣ والإصابة: ٤/ ٢٢٥.

وكانت أسماء في تعلقها بمحمد وحنوّها عليه في أعلى المراتب المعروفة من حب الأمهات لأولادهن وشغفهن بهم، مع أنه لم يكن بكرها ولا ابنها الوحيد، وبلغ من عمق ذلك الود والتعلق ما رواه ابن حجر العسقلاني: «إنها لمّا بلغها قتل ولدها محمد بمصر قامت إلى مسجد بيتها وكظمت غيظها حتى شخب ثديها دماً»[١].

❀ ❀ ❀

ولد محمد بذي الحُليْفة ـ أو بالشجرة[٢] ـ سنة حجة الوداع، في عقب ذي القعدة أو لخمس بقين من الشهر، في حين تَوَجُّهِ رسول الله (ص) إلى حجته[٣]، في السنة العاشرة من الهجرة، وكان أبواه قد خرجا مع من خرج من المسلمين حجاجاً في تلك السنة المباركة.

ولما كان قد وُلِد في حياة رسول الله (ص) فقد عُدَّ ممن أدرك النبي (ص)[٤]، وأصبح بفضل هذا الإدراك داخلاً في مجموع الصحابة ومعدوداً منهم في الكتب المعنية بتراجمهم وتواريخهم كالاستيعاب وأسد الغابة والإصابة.

وعُرِف هذا الفتى منذ مطلع صباه بكنيته المشهورة: أبي

---

(١) الإصابة: ٤/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) هكذا أجمع المؤرخون، فما في تاريخ بغداد: ٤/ ١٦٥ من ولادته بالسراة معدودة من الأوهام، إن لم يكن تصحيف (الشجرة) أو تحريفها.

(٣) نسب قريش: ٢٧٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٤٥ و٨/ ٢٠٧ والاستيعاب: ٣/ ٣٢٨ والتبيين: ٢٧٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٤ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٧١ و١٦/ ١٤٣ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨٢ والإصابة: ٣/ ٤٥١ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٨٠ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٦.

(٤) تاريخ دمشق: ٣٥/ ١٠٧.

القاسم[١]، وقيل كان يكنى أبا عبدالرحمن أيضاً[٢].

وشاء له الحظ السعيد ـ وقد حُرِم الأبوة في طفولته ـ أن ينشأ في حجر أبيه الثاني علي بن أبي طالب وقد تزوج أمَّه أسماء بعد وفاة أبي بكر، فتولى علي تربيته ورعايته[٣]، فكان «محمد ربيبه وخرِّيجه وجارياً عنده مجرى أولاده»[٤] حباً وعطفاً ومودة وحناناً، حتى بلغت الحال بعلي (ع) أن يقول فيه: «محمد ابني من صلب أبي بكر»[٥].

وبفضل هذه التربية الصالحة والبيئة الطاهرة والرعاية الكريمة، أصبح منذ عنفوان الشباب أحد (نسّاك قريش)[٦]، بل كان «يُدْعَى عابد قريش لنسكه وزهده»[٧]، وكان علي (ع) «يثني عليه ويفضله لأنه كانت له عبادة واجتهاد»[٨].

وعرفنا له من الأزواج: السيدة عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، وهي التي قُتِل عنها بمصر[٩]، فقالت ترثيه:

---

(١) المعارف: ١٧٥ والاستيعاب: ٣/ ٣٢٨ والتبيين: ٢٧٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٤ وشرح نهج البلاغة ٦/ ٥٣ والنجوم الزاهرة ١/ ١٠٦.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٣ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٢.
(٣) نسب قريش: ٢٧٧ ومروج الذهب: ٢/ ١٩٤ والتبيين: ٢٧٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٤ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٤٣ والإصابة: ٣/ ٤٥١ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٦.
(٤) شرح نهج اللاغة: ٦/ ٥٣ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٢.
(٥) المصدران المتقدمان.
(٦) المعارف: ١٧٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٤ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٢.
(٧) مروج الذهب: ٢/ ١٩٤.
(٨) الاستيعاب: ٣/ ٣٢٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٥ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٤٣ والإصابة ٣/ ٤٥١ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٨١.
(٩) المحبر: ٤٣٧ والتبيين: ٣٨٤.

إن تـقـتـلـوا أو تـمـثـلـوا بـمـحـمـدٍ
فـمـا كـان مـن أجـل الـنـسـاء ولا الـخـمـرِ[١]

كما عرفنا له من الأولاد:

١ ـ القاسم ـ لأمّ ولد ـ وقد توفي سنة ١٠٨ هـ، وهو أبو عبدالرحمن بن القاسم وأم فروة[٢].

٢ ـ عبدالله: قُتِل يوم الحرة[٣].

٣ ـ أم فروة: ووهم بعضهم فظن أنها نفسها أمُّ الإمام جعفر الصادق (ع)[٤]. والصواب أن أم الإمام هي أم فروة بنت القاسم بن محمد[٥].

وروى أبو الفرج الأصبهاني: أن محمداً لمَّا استشهد بمصر «كان له هناك ابن ـ هو القاسم ـ وابنة. فذهب عبدالرحمن بن أبي بكر إلى مصر فاحتملهما وقدم بهما المدينة»[٦].

وما أن بلغ محمد سن الشباب الناضج والرجولة المتفتِّحة، وتجاوز العشرين من العمر، حتى أصبح معدوداً في مصاف ذوي الرأي من قريش، وفي واجهة جيلها الطالع المتحمِّس في الدعوة إلى الإصلاح والعمل على ضرورة العودة إلى لباب الإسلام المحمدي وجوهره الأصيل.

---

(١) التبيين: ٣٨٤.
(٢) المعارف: ١٧٥ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٢.
(٣) جمهرة أنساب العرب: ١٣٨.
(٤) المعارف ١٧٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٤ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٣.
(٥) نسب قريش: ٦٣ وطبقات ابن سعد: ٥/ ٢٣٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٦.
(٦) الأغاني: ٢٠/ ٣٣٠.

وكان ما أسفرت عنه نتائج (الشورى) ـ كما أريد منها يوم تم إعداد مخططها الرهيب، وبما أريد أن تتجه إليه فيما وُضِع لها من ضوابط وشروط ـ صدمة عنيفة لجميع المسلمين الغياري المتمسكين بما أمر الله ورسوله، وبتنفيذ ذلك بعيداً عن العصبيات القبلية الموؤدة، والثارات الجاهلية المقبورة، والأحقاد الذاتية التي لا يرضى بها الدين في مجتمعه الجديد.

ويبدو من مجموع النصوص التاريخية ـ إذا ما دمجنا بعضها ببعض، ووحَّدنا ما تفرق منها في إطار واحد شامل ـ أن عثمان بن عفان لمَّا وُلِّيَ الخلافة كان موضع رضا قلّةٍ ضئيلة من الناس هم بنو قرباه من الأمويين وأصهارهم وأتباعهم من ذوي الأطماع الشخصية والمصالح الدنيوية، وكانت الأكثرية العظمى من المسلمين على خلاف ذلك تماماً، سواء من أعلن إنكاره منهم من اليوم الأول ومن كتمه بانظار تفاقم الأحداث.

وكان من أكثر أعمال هذا الخليفة الجديد إثارة للاستهجان والاستنكار تعيين خاصته وأرحامه ولاة على رقاب المسلمين في حواضرهم وأقاليمهم وهم غير مؤهَّلين لذلك، مما لا مجال للخوض فيه بالشرح والتفصيل إلا في حدود موضوعنا الخاص الذي نعنى به في هذا الكتاب. ويأتي في جملة أولئك عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاه مصر، في الوقت الذي كان قد شخص إليها واستقر فيها كل من محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة في سنة ٣١هـ، وكانا «يحرضان على عثمان»[١] ويُظهران عيوبه «وما غيَّر وما خالف به أبا بكر وعمر» ويعلنان «أن دم عثمان حلال»[٢].

(١) كامل ابن الأثير: ٣/ ٧٩ و٨١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٤٣.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩٢.

وبعد حين لم يمتد طويلاً «كتب عبدالله بن أبي سرح إلى عثمان ابن عفان يشكوهما ويذكر أنهما قد أنغلا عليه المغرب وأفسداه» فكتب إليه عثمان جواباً قال فيه: «أما محمد بن أبي بكر فإنه يُوهَب لأبي بكر ولعائشة أم المؤمنين، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي، وهو فرخ قريش. فكتب إليه ابن أبي سرح: إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير».

«فبعث عثمان إلى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم، وأمر أن يحمل إليه كسوة. فأمر بذلك أجمع فوُضع في المسجد، ثم قال: يا معشر المسلمين، ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه. فازداد أهل مصر طعناً على عثمان».

«فلم يزل ابن أبي حذيفة يحرّض أهل مصر ويؤلبهم على عثمان، حتى سَرَّبهم إلى المدينة، فاجتمعوا عليه مع أهل المصرين «يعني الكوفة والبصرة»، وكانوا أشدهم في أمره، وشخص محمد ابن أبي بكر معهم»[1].

ثم تجمع المسلمون من أمصارهم في المدينة المنورة ينكرون أعمال الولاة ومظالمهم، ويشكون سكوت الخليفة عن كل ذلك وهو يعلم التفاصيل. وكان أهل مصر قد شكوا قبل ذلك من ابن أبي سرح، فكتب إليه عثمان كتاباً تظاهر فيه بإنكار أفعاله ونهاه عن الإتيان بمثلها، «فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه، وضرب رجلاً ممن أتى عثمان فقلته»[2].

---

(١) أنساب الأشراف: ٢/٣٨٨، وبعضه في تاريخ الطبري ٤/٣٥٧ ومروج الذهب: ٢/٢٣١.

(٢) العقد الفريد: ٤/٢٨٨.

فلما بلغ أهل مصر المدينة هذه المرة خافوا تكرار مأساتهم السابقة، فـ «نزلوا المسجد، وشكوا إلى أصحاب رسول الله (ص) في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح، فقام طلحة بن عبيدالله فكلم عثمان بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة: قد تقدم إليك أصحاب رسول الله (ص) وسألوك عزل هذا الرجل فأبيتَ أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك»[١].

ثم أقبلوا «إلى عثمان ـ ومعه وجوه القوم وأشرافهم ـ، فلما دخلوا عاتبوه فأعتبهم من كل ما كرهوا، فقالوا: أكتب لنا بذلك كتاباً؛ وأَدْخِلْ لنا في هذا الضمان عليّاً بالوفاء لنا بما في كتابنا، فقال عثمان: اكتبوا ما أحببتم وادخلوا في هذا الضمان من أردتم».

«فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله عثمان بن عفان أمير المؤمنين لجميع من نقم عليه من أهل البصرة والكوفة وأهل مصر: أن لكم عَلَيَّ أن أعمل فيكم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد (ص)، وإن المحروم يُعْطَى والخائف يؤمَّن والمنفي يُرَدُّ، وإن المال يرد على أهل الحقوق، وأن يُعزَل عبدالله بن سعد بن أبي سرح عن أهل مصر ويُوَلّى عليهم من يرضون».

«فقال أهل مصر: «نريد أن تولي علينا محمد بن أبي بكر. فقال عثمان: لك ذلك. ثم أثبتوا في الكتاب: وإن علي بن أبي طالب ضَمِن للمؤمنين بالوفاء لهم بما في هذا الكتاب».

و«شهد على ذلك: الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب خالد بن زيد. وكُتِب في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين».

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٢٨٨ والصواعق المحرقة: ٦٩.

«فأخذ أهل مصر كتابهم وانصرفوا، ومعهم محمد بن أبي بكر أميراً عليهم»(١)، وأخرج الخليفة معهم «عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح»(٢).

«حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، وإذا هم بغلام أسود على بعير له يخبط خبطاً عنيفاً، فقالوا: يا هذا أربع قليلاً، ما شأنك كأنك هارب أو طالب، من أنت؟ فقال: أنا غلام أمير المؤمنين عثمان وجهني إلى عامل مصر. فقال له رجل منهم: يا هذا فإن عامل مصر معنا، فقال: ليس هذا الذي أريد. فقال محمد بن أبي بكر: أنزِلوه عن البعير، فحطوه، فقال له محمد بن أبي بكر: أصدقني غلام مَنْ أنت؟، قال: أنا غلام أمير المؤمنين. قال: فإلى من أُرسِلتَ؟، قال: إلى عبدالله بن سعد عامل مصر، قال: وبماذا أرسِلتَ؟، قال: برسالة، قال محمد بن أبي بكر: أفمعك كتاب؟، قال: لا. فقال أهل مصر: لو فتشناه أيها الأمير فإنا نخاف أن يكون صاحبه قد كتب فينا بشيء، ففتشوا رحله ومتاعه ونزعوا ثيابه حتى عروه فلم يجدوا معه شيئاً، وكانت على راحلته إداوة فيها ماء، فحركوها فإذ فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج. فقال كنانة بن بشر التجيبي: والله أن نفسي لتحدثني أن في هذه الأداوة كتاباً، فقال أصحابه: ويحك ويكون كتاب في ماء؟! قال: إن الناس لهم حيل»(٣).

«فشقوا الإداوة فإذا فيها قارورة مختومة بشمع، وفي جوف القارورة كتاب، فكسروا القارورة وأخرجوا الكتاب، فقرأه محمد بن أبي بكر، فإذا فيه:

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/٢٠٩ ـ ٢١٠ والصواعق المحرقة: ٦٩.

(٢) العقد الفريد: ٤/٢٨٨ والصواعق المحرقة: ٧٩.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/٢١٠ ـ ٢١١ ومضمونه في العقد الفريد والصواعق المحرقة.

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله عثمان أمير المؤمنين إلى عبدالله بن سعد، أما بعد: فإذا قدم عليك عمرو بن يزيد بن ورقاء فأضرب عنقه صبراً، وأما علقمة بن عديس البلوي وكنانة بن بشر التجيبي وعروة بن سهم الليثي فاقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ودعهم يتشحطون في دمائهم حتى يموتوا، فإذا ماتوا فأصلبهم على جذوع النخل. وأما محمد بن أبي بكر فلا يُقْبَل منه كتابه، وشدَّ يدك واحتل في قتله. وقرَّ على عملك حتى يأتيك أمري»[١].

هكذا ورد نص كتاب الخليفة في رواية ابن أعدم الكوفي، ولكن ابن عبد ربه الأندلسي روى أن فيه: «إذا جاءك محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتابهم، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله»[٢].

قال الرواة:

«فلما قرأ محمد بن أبي بكر الكتاب رجع إلى المدينة هو ومَنْ معه. ثم جمع أصحاب النبي (ص) وقرأ عليهم الكتاب، وأخبرهم بقصة الكتاب، فلم يبق بالمدينة أحد إلا حنق على عثمان. واشتد حنق بني هذيل خاصة عليه لأجل صاحبهم عبدالله بن مسعود، وهاجت بنو مخزوم لأجل صاحبهم عمار بن ياسر، وكذلك غفار لأجل صاحبهم أبي ذر»[٣].

وهكذا بدأ حصار عثمان، «وأجلب عليه محمد بن أبي بكر بن تيم وغيرهم»[٤].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢١١.

(٢) العقد الفريد: ٤/ ٢٨٩ والصواعق المحرقة: ٧٠.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢١١ ـ ٢١٢ ـ واللفظ منه ـ والعقد الفريد: ٤/ ٢٨٩ والصواعق المحرقة: ٦٩ ـ ٧٠.

(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٢ والعقد الفريد: ٤/ ٢٨٩ والصواعق المحرقة: ٧٠.

ويقول الحافظ ابن حجر الهيتمي فيما أخرج من خبر ذلك:

إن علياً لمّا رأى تأزم الحال وانهيار الوضع القائم حاول انقاذ الموقف وإصلاح الأمر قبل فوات الأوان، فـ «بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة كلهم بدري، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام، فقال له: أهذا الغلام غلامك؟، قال: نعم، قال: والبعير بعيرك؟ قال: نعم، قال: فأنت كتبتَ هذا الكتاب؟، قال: لا، وحلف بالله ما كتبتُ هذا الكتاب ولا أمرتُ به ولا علم لي به. قال له علي: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم. قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟! فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا وجَّهتُ هذا الغلام إلى مصر قط».

«فعرفوا إنه خط مروان... وسألوه أن يدفع إليهم مروان، فأبى، وكان مروان عنده في الدار. فخرج أصحاب محمد (ص) من عنده غضاباً، وشكوا في أمره...، ولزموا بيوتهم».

«وحاصر الناس عثمان، ومنعوه الماء»[1].

ثم طالت أيام الحصار واشتد ضغط الثوار وحنقهم على عثمان، فتسور جماعة منهم عليه الدار يتقدمهم محمد بن أبي بكر، لأنه كان المستهدف الأول بكتاب الخليفة إلى ابن أبي سرح، «فأخذ بلحية عثمان فقال: قد أخزاك الله يا نعثل. فقال عثمان: لست بنعثل ولكن عبدالله وأمير المؤمنين. فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان. فقال عثمان: يا ابن أخي دع عنك لحيتي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضتَ عليه. فقال محمد: ما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك...

(١) الصواعق المحرقة: ٧٠.

ثم طعن جبينه بمشقص في يده، ورفع كنانةُ بن بشر بن عَتّاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف حتى قتله»[(١)].

وروى ابن عبد ربه: أن علياً (ع) كان قد قال للحسن والحسين لما حُصِر عثمان: «اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه»، فلما رأى محمد بن أبي بكر وقوف الحسنين (ع) عند باب عثمان لحمايته وعدم إمكان اقتحام الباب في هذه الحال، أخذ بيدي رجلين من أصحابه فقال لهما: لنتسور «عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد. فتسور محمد ابن أبي بكر وصاحباه من دار رجل من الأنصار... فدخلوا عليه... فتقدم إليه محمد وأخذ بلحيته، فقال له عثمان: أرسل لحيتي يا ابن أخي، فلو راك أبوك لساءه مكانك، فتراخت يده من لحيته، وغمز الرجلين فَوَجآه بمشاقص معهما حتى قتلاه»[(٢)].

وروى الطبري: أن الحصار بعثمان لما اشتد خرجت عائشة هاربة إلى مكة «واستتبعت أخاها فأبى»[(٣)]، ثم روى: إن آخر مَنْ دخل عليه محمد بن أبي بكر، «فقال له عثمان: ويلك! أعلى الله تغضب!، هل لي إليك جرم لا أحقه أخذتُه منك؟، فنكل ورجع»[(٤)]. وروى ابن أعثم الكوفي: إن عثمان قال لمحمد ومن معه: «هذا كتاب الله بيني وبينكم أني أعمل بما فيه ولكم العتبى مما تكرهون. فقال له محمد بن أبي بكر: الآن وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين. ثم جاءه بمشاقص

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٥١ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٣ وكامل ابن الأثير ٣/ ٨٩ ـ ٩٠ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٥٧.

(٢) العقد الفريد: ٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٥٧.

كانت في يده فأدماه ولم يقطع.... ثم تنحى محمد بن أبي بكر»[١]، فلما خرج محمد وعرف أصحابه انكساره وتراجعه ثار قُتَيْرة وسودان بن حمران السكونيان والغافقي، فضربه الغافقي»[٢].

وأَيّاً مَّا كانت التفاصيل فمن الثابت أن محمداً «كان ممن أعان في يوم الدار، واختُلِف هل باشر قتل عثمان أَوْ لا»[٣].

وقال الحافظ ابن عبدالبر:

كان محمد «ممن حضر قتل عثمان، وقيل: إنه شارك في دمه، وقد نفى جماعة من أهل العلم والخبر أنه شارك في دمه، وإنه لمَّا قال له عثمان: لو رآك أبوك لم يرض هذا المقام منك خرج عنه وتركه، ثم دخل عليه مَنْ قتله. وقيل أنه أشار على من كان معه فقتلوه»[٤].

وزعم نصر بن مزاحم في بعض رواياته: أن محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر هما اللذان وُلِّيَا قتل عثمان[٥].

وقال ابن عبد ربه: أن علياً (ع) جاء إلى امرأة عثمان لمّا بلغه قَتْله «فقال لها: مَنْ قتل عثمان؟، قالت: لا أدري، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما، وكان معهما محمد بن أبي بكر، وأخبرته بما صنع محمد بن أبي بكر. فدعا علي بمحمد فسأله عما ذكرتْ امرأة عثمان، فقال محمد: لم تكذب؛ وقد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله،

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩١.

(٣) المعارف: ١٧٥ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٤ والتبيين: ٢٧٩ وشرح النهج: ٢/ ١٥٥ و٦/ ٥٤ و١٦/ ١٤٣ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٦٢.

(٤) الاستيعاب: ٣/ ٣٢٩.

(٥) وقعة صفين: ٦٥.

فذكر لي أبي فقمت. . . فقالت امرأة عثمان: صدق ولكنه أدخلهما»(١)، وفي لفظ المسعودي: إن محمداً قال لعلي (ع): «والله لقد دخلتُ عليه وأنا أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت، ولا أعلم بتخلف الرجلين عني»(٢).

وكتبت نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان كتاباً إلى معاوية تخبره فيه بما جرى على زوجها، وكان مما جاء فيه:

«إن أهل المدينة حصروه في داره. . . حتى منعوه الماء. . . وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى علي ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، فأمروهم بقتله. . . ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته، ودعوه باللقب (أي نعثل). . . فضربوه على رأسه ثلاث ضربات وطعنوه في صدره ثلاث طعنات»(٣).

ودخل الحجاج بن خزيمة على معاوية يعزيه بعثمان، فقال له معاوية: «هل شهدتَ المدينة يوم قُتِل؟. فقال: نعم. . . فقال: أخبرني مَنْ تولّى قتله؟، فقال: على الخبير سقطت، حضره المكشوح المرادي، وحكم في دمه حكيم بن جبلة، وهجم عليه محمد بن أبي بكر والأشتر النخعي وعمار بن ياسر وعمرو بن الحمق الخزاعي وسودان بن حمران وكنانة بن بشر وجماعة لا أقف على أسمائهم»(٤).

ومهما يكن من أمر، فقد أسفرت هذه الثورة الشعبية الحمراء ـ وهي الأولى في تاريخ الإسلام ـ عن خليفة مقتول، ودم مطلول، وعاقبة لم يحمد ولا يحسد عليها عثمان، ولن يحسد أو يحمد في ذكرياتها المريرة على مدى التاريخ.

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٢٩٢.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٣.
(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٦٣.

كان من المنتظر ـ وقد قامت هذه الحركة التصحيحية على أسس صريحة من ضرورة العودة إلى لباب الإسلام والتمسك الدقيق بتنفيذ أحكامه وتعاليمه ـ أن تتجه نحو من يعتقد فيه المسلمون الالتزام بذلك، ويقطع الجميع وفي مقدمتهم الثوار القادمون من الأقاليم الإسلامية الكبرى، بكونه الأهل المقتدر على القيام بهذه المهمة الصعبة، لضمان المسيرة ـ كما أرادها الله ورسوله ـ عدلاً وإخلاصاً، ونزاهة واستقامة، وسلوكاً سليماً لا يعرف المحاباة والتمييز، ولا تأخذه في الحق لومة لائم.

ولم يكن مَنْ تجتمع فيه تلك الصفات يومذاك على وجه الاطمئنان واليقين غير علي بن أبي طالب، فاتجه الشعب المؤمن في المدينة المنورة، ومعهم قادة الثورة الممثلون لإخوانهم في شتى حواضرهم، نحو بيعته أفواجاً أفواجاً، وأصبح منذ اليوم خليفة المسلمين بالاختيار والانتخاب، بعد أن كان إمامهم الشرعي بالتعيين النبوي الذي تسالمت عليه النصوص الثابتة والأحاديث الصحيحة.

«وكان ممن بايعه من أهل الفضل في الدين والإيمان والعلم والفقه والقرآن، المنقطعين إلى الله تعالى بالعبادة والجهاد والتمسك بحقائق الإيمان: محمد بن أبي بكر ربيب أمير المؤمنين وحبيبه»[١].

---

(١) الجمل: ٥٢.

ولم يرق لجمع النفعيين والمصلحيين ومن كان على شاكلتهم من المنافقين والمذبذبين القائلين أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، هذا الاختيار الصائب الموفق والانتخاب البارع الحكيم، فتجمعوا من كل حدب وصوب ومعهم رواسب الجاهلية الدفينة وأحقادها الكامنة وثاراتها الدافقة بالشرور والضغائن، ليشكلوا بهذا التجمع المشؤوم جبهة النكث والتمرد على هذه الخلافة الطالعة الراشدة وخليفتها الإمام الشرعي المفترض الطاعة.

ولمّا علم علي (ع) بعزم طلحة والزبير وعائشة على الشقاق والخلاف وتأهبهم للمسير إلى البصرة «دعا ابن عباس ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وسهل بن حنيف وأخبرهم بذلك وبما عليه القوم من المسير. فقال محمد بن أبي بكر: ما يريدون يا أمير المؤمنين؟. فتبسم (ع) وقال: يطلبون بدم عثمان!، فقال محمد: والله ما قتله غيرهم». فطلب علي (ع) منهم المشورة، فأشاروا عليه بالصرامة والحزم مع هؤلاء الخارجين[1].

وروى ابن أعثم الكوفي: إن علياً (ع) قال يومذاك لمحمد بن أبي بكر: «ألا ترى إلى أختك عائشة كيف خرجتْ من بيتها الذي أمرها الله عز وجل أن تقرَّ فيه؛ وأخرجت معها طلحة والزبير يريدان البصرة لشقاقي وفراقي. فقال له محمد: يا أمير المؤمنين، لا عليك، فإن الله معك ولن يخذلك، والناس بعد ذلك ناصروك، والله تبارك وتعالى كافيك أمرهم إن شاء الله»[2].

ولم يجد علي (ع) بُدّاً، وقد بدأ أهل العدوان بعدواتهم، من التوجه

(١) الجمل: ١٢٨.
(٢) الفتوح: ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

إلى البصرة لدحر هذا التآمر الخسيس، وبعث محمد بن الحنيفة ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة لاستنفار الناس وحثِّهم على الالتحاق بإمامهم ـ وكان واليها حينذاك أبو موسى الأشعري ـ، «فلما قَدِما عليه أساء القول لهما وأغلظ... فقال محمد بن الحنفية لمحمد بن أبي بكر: يا أخي ما عند هذا خير، ارجع بنا إلى أمير المؤمنين نخبره الخبر»(١).

وجاء في رواية البلاذري: إن علياً بعث من الربذة «هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري إلى أبي موسى الأشعري ـ وكان عامله على الكوفة ـ بكتاب منه يأمره فيه بدعاء الناس واستنفارهم إليه. فجعل أبو موسى يخذلهم ويأمرهم بالمقام عنه ويحذرهم الفتنة».

«فلما قدم هاشم على عليّ دعا عبدالله بن عباس ومحمد بن أبي بكر، فبعثهما إليه وأمرهما بعزله... فعزلاه وصيَّرا مكانه قرظة بن كعب الأنصاري». ثم وجَّه ابنه الحسن بن علي (ع) وعمار بن ياسر على أثر ابن عباس وابن أبي بكر إلى الكوفة أيضاً للاطمئنان على سلامة وضعها الداخلي بعد عزل أبي موسى، «فلما قدما انصرف ابن عباس ومحمد بن أبي بكر الصديق. ويقال: بل أقاما حتى كان انصرافهم جميعاً»(٢).

وروى محمد بن إسحاق عن عمه عبدالرحمن بن يسار القرشي قال:

«لما نزل علي (ع) الربذة متوجهاً إلى البصرة؛ بعث إلى الكوفة محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق، وكتب إليهم هذا الكتاب:

---

(١) الجمل: ١٣٩.

(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

«من عبدالله عليّ أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب: أمّا بعد، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سَمعُه كعيانه، إن الناس طعنوا عليه، فكنتُ رجلاً من المهاجرين أكثِرُ استعتابَه وأقلُّ عتابَه، وكان طلحة والزبير أهْوَنُ سيرِهما فيه الوجيف؛ وأرْفَقُ حدائهما العنيف، وكان من عائشة فيه فلتةُ غضبٍ، فأتيح له قوم قتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخبرين. وأعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت جيش المرجل، وقامت الفتنة على القطب فأسرِعوا إلى أميركم، وبادروا جهاد عدوكم إن شاء الله»[١].

«فلما قدم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفة استنفرا الناس، فدخل قوم منهم على أبي موسى ليلاً فقالوا له: أشِرْ علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى علي... فمنع أهلَ الكوفة من الخروج، وبلغ ذلك المحمَّدَيْن فأغلظا لأبي موسى... وخرجا من عنده فلحقا بعلي (ع) فأخبراه الخبر»[٢].

واجتمع الطرفان على صعيد البصرة واستعدا للمواجهة الفاصلة، وصفَّ علي (ع) جيشه وكتَّب كتائبه، وجعل على رَجَّالته محمد بن أبي بكر[٣]، وقيل: إنه كان «على خيل القلب»[٤]. ثم التحم الفريقان.

«وخرج محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر حتى وقفا قدام

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٦ و٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٩ ـ واللفظ منه ـ، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧٧.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ٣٢٨ والعقد الفريد: ٤/ ٣١٤ والجمل: ١٧١ والتبيين: ٢٧٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٤ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٨١ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٦.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٠٨.

الجمل... وتبعهما الأشتر ووقف معهما... ودعوا إلى البراز»[١]، فبرز إليهم من أتباع الجمل ثور بن عدي الضبي «وهو ينشد شعراً، فخرج إليه محمد بن أبي بكر مجيباً له وهو يقول شعراً، ثم شد عليه محمد بن أبي بكر فضربه ضربةً رمى بيمينه، ثم ضربه ثانية فقتله»[٢]، وبرز جابر بن مزيد الأزدي ـ وهو من أتباع الجمل أيضاً ـ «فحمل عليه محمد بن أبي بكر فقتله»[٣].

واشتد سعار الحرب واحتدم الموقف، واحمرت الأرض بالدماء، فأمر علي (ع) بعرقبة الجمل لأنه مصدر الفتنة ورمز البغي، «ثم التفت إلى محمد بن أبي بكر وقال له: انظر إذا عُرْقِب الجمل فأدرك أختك»[٤].

وانتهى المسلمون «إلى الجمل وحوله أربعة آلاف مقاتل» فصاح علي (ع): «اقطعوا البطان. فأسرع محمد بن أبي بكر فقطعه وأطّلع الهودج، فقالت عائشة: من أنت؟، قال: أبغض أهلكِ إليك. قالت: ابن الخثعمية؟، قال: نعم ولم تكن دون أمهاتك. قالت: لعمري بل هي شريفة، دع عنك هذا، الحمد لله الذي سلمك. قال: قد كان ذلك ما تكرهين. قالت: يا أخي لو كرهتُه ما قلتُ ما قلتُ. قال: قد كنتِ تحبين الظفر وأني قُتِلتُ. قالت: قد كنت أحبُّ ذلك، لكن لِمَا صرنا إلى ما صرنا إليه أحببت سلامتك لقرابتي منك، فاكفف ولا تعقب الأمور، وخذ الظاهر ولا تكن لُوَمَةً ولا عذلة»[٥].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣.
(٢) الفتوح نفسه: ٢/ ٣٢٥.
(٣) الفتوح أيضاً: ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٤) فتوح أبن أعثم: ٢/ ٣٣٣.
(٥) الجمل ١٩٦ ـ ١٩٧، ومختصر منه في تاريخ الطبري: ٤/ ٥١٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٣٠.

وفي لفظ الطبري: إن محمداً لمّا أدخل يده في الهودج بعد قطع الأنساع قال لها: أنا أخوك محمد «فقالت: مُذَمِّم!. قال: يا أخيه هل أصابك شيء؟، قالت: وما أنت من ذاك»[١].

وفي لفظ محمد بن زكريا الغلابي: إن الهودج لمّا مال إثر عقر الجمل «قال علي: المرأة المرأة. فبادر إليها الحسن والحسين ومحمد ابن أبي بكر وعمار، وأطافوا بالهودج وكانت عليه السهام كشوك القتاد. وقال علي لمحمد بن أبي بكر: انظر هل أصابها شيء؟ فأدخل محمد يده في الهودج، فقالت: يَدُ مَنْ هذه؟، فقال: يد أقرب الناس إليك وأبغض الناس إليك، يد محمد أخيك، يقول لكِ أمير المؤمنين: هل أصابك شيء؟، قالت: لا»[٢].

وفي لفظ ابن أعثم الكوفي: أن علياً (ع) قال لمحمد بعد عرقبة الجمل: «شأنك بأختك فلا يدنو منها أحد سواك. فأدخل محمد يده إلى عائشة فاحتضنها، ثم قال: أصابك شيء؟ فقالت: لا ما أصابني شيء، ولكن من أنت ويحك! فقد مسست مني ما لا يحل لك. فقال محمد: أسكتي فأنا أخوك محمد، فعلتِ بنفسك ما فعلتِ، وعصيت ربك، وهتكت سترك، وأبَحْتِ حرمتك، وتعرضت للقتل»[٣].

و«قال لها عمار بن ياسر: كيف رأيتِ ضرب بنيكِ اليوم يا أُمَّه؟، قالت: من أنت؟، قال: أنا ابنك البار عمار. قالت: لست لك بأم، قال: بلى وإن كرهتِ»[٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٤.
(٢) وقعة الجمل: ٤٥.
(٣) الفتوح: ٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٣.

«وانتهى إليها علي فقال: كيف أنت يا أمه؟، قالت: بخير»[١]، ثم قال لها: «استفززت الناس وقد أقروا حتى قتل بعضهم بعضاً بتأليبك. فقالت: يا ابن أبي طالب، ملكتَ فاسجح»[٢].

ثم التفت إلى محمد بن أبي بكر فقال له: «انطلق بأختك فأدخلها البصرة. فأنزلها محمد في دار صفية بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة العبدري»[٣]، وقيل: في دار عبدالله بن خلف الخزاعي[٤].

وبعد أن استقر المقام بأم المؤمنين دعت أخاها محمداً فجاءها، فقالت له «يا أخي، ما تراك فاعلاً في أمرٍ آمرك به؟، قال: ما هو؟ قالت: انطلق إلى عبدالله بن الزبير فجئني به»، فذهب إليه محمد ودخل عليه، «فلما رآه خافه... قال له محمد: لا تعجل، ثم أخبره الخبر، قال ابن الزبير: فخرجت معه، فتأخر لي عن الفرس، فركبت بين يديه... ولم يزل يسير بي حتى أتينا عائشة»[٥].

وفي نص ابن أعثم الكوفي: إن محمداً جاء إليه فوجده جريحاً، «فقال له محمد: أجلس يا مشؤوم أهل بيته، أجلس لا أجلسك الله، فجلس ابن الزبير، وحمله محمد بين يديه وركب من خلفه، وجعل يمسكه وهو يميل من الجراح التي به، حتى أدخله على عائشة. فلما نظرت إليه على تلك الحالة بكت، ثم قالت لأخيها محمد: يا أخي،

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٤.
(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٥٠ وتاريخ الطبري: ٤/٥٠٩ ـ ٥١٠.
(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٤٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٥١.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٣ و٥٣٤ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٣٤ والجمل: ١٩٧ ـ ١٩٨ وكامل بن الأثير: ٣/ ١٣٠ وشرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٥) الجمل: ١٩٣ ـ ١٩٤.

استأمن له علياً وتمم إحسانك، فقال لها محمد: لا بارك الله لكِ فيه. ثم سار إلى علي وسأله ذلك، فقال علي: قد آمنته»[١].

«ثم جهز عليٌّ عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام. واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر»[٢].

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٣٤.
(٢) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٣٢.

وغادر علي (ع) البصرة بعد الفراغ من حرب البغاة الناكثين، فحط رحاله موقتاً في الكوفة، متخذاً منها مقراً للإمامة وعاصمة للخلافة، لقربها من مواقع الأحداث المنتظرة، وفي مقدمتها ما يترقب أن يكون بينه وبين حاكم الشام المتمرد من مجابهة وحرب.

وكان من جديد الطوارىء بعد استقرار علي (ع) في الكوفة ما أشاعه معاوية والمشاؤون بالنميم من رجاله ضد قيس به سعد بن عبادة أمير مصر وواليها من قِبَل أمير المؤمنين (ع)، وما أثاروه دسّاً واختلافاً من شكوك فيه وشبهات تحوم حوله.

ومع أن علياً (ع) لم يصدق ما تردد على الألسن بشأن قيسٍ ولم يقتنع بصحته، لثقته بهذا الرجل ومعرفته بإيمانه وإخلاصه، فإن الناس، وفيهم بعض المقربين لعلي (ع)، قد انكروا ما سمعوا أشد الإنكار وغضبوا من ذلك أعنف الغضب، فأشاروا على علي (ع) بعزل قيس عن مصر وتولية أمرها محمد بن أبي بكر، إزالة للأوهام، وإسكاتاً للقال والقيل، وربما كان اختيار محمد بالذات دون غيره ناشئاً من كونه مرشح أهل مصر لإمارتهم لما طلبوا من عثمان عزل عبدالله بن سعد بن أبي سرح.

وروى البلاذري: أن علياً (ع) لمّا بعث قيس بن سعد بن عبادة أميراً على مصر «كتب إليه معاوية وعمرو بن العاص كتاباً أغلظا فيه وشتماه. فكتب إليهما بكتاب لطيف قاربهما فيه. فكتبا إليه يذكران شرفه

وفضله، فكتب إليهما بمثل جوابه كتابهما الأول. فقالا: إنّا لا نطيق مكر قيس بن سعد، ولكّنا نمكر به عند علي (ع)، فبعثا بكتابه الأول إلى علي (ع)، فلما قرأه قال أهل الكوفة: غَدَر والله قيسٌ فاعزله. فقال علي: ويحكم أنا أعلم بقيس، إنه والله ما غدر، ولكنها إحدى فعلاته. قالوا: فإنا لا نرضى حتى تعزله. فعزله وبعث مكانه محمد بن أبي بكر»[١].

وروى ابن الأثير: إن معاوية افتعل كتاباً وضعه على لسان قيس ابن سعد يعلن فيه قيس «الطلب بدم عثمان، والدخول معه في ذلك. وقرأه على أهل الشام، فبلغ ذلك علياً (ع) ـ أبلغه ذلك محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب، وأعلمته عيونه بالشام ـ فأعظمه وأكبره، فدعا ابنيْه وعبدالله بن جعفر فأعلمهم ذلك، فقال ابن جعفر اعزل قيساً عن مصر... وابعث محمد بن أبي بكر... فبعث علي (ع) محمد بن أبي بكر إلى مصر... فقدم محمد على قيس... فلما قدم قيس على علي (ع) وأخبره الخبر علم أنه كان يقاسي أموراً عظاماً من المكايدة»[٢].

وروى ابن تغرى بردى: إن معاوية لمّا أيس من قيس بن سعد «شق عليه، لِمَا يعرف من حزمه وبأسه، فأظهر للناس أن قيساً قد بايعه، واختلق معاوية كتاباً فقرأه على أهل الشام... وبلغ علياً (ع) ذلك فأكبره وأعظمه، فقال له عبدالله بن جعفر: دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك، اعزل قيساً عن مصر. فقال علي (ع): والله ما أُصدِّق هذا على قيس»[٣].

---

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٤٠٥.

(٢) الكامل: ٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ واللفظ منه ـ، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٤/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥.

(٣) النجوم الزاهرة: ١/ ١٠٠ ـ ١٠١.

وجاء في روايتي الثقفي والطبري في سبب عزل قيس عن مصر: إن قيساً كتب إلي علي (ع) كتاباً جاء فيه:

«أما بعد: فإني أخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ إن قبلي رجالاً معتزلين سألوني أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا. وقد رأيت أن أكفَّ عنهم وألا أعجل، وأن أتألَّفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يُقبِل بقلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم، إن شاء الله».

«فقال له عبدالله بن جعفر: ما أخوفني يا أمير المؤمنين أن يكون هذا ممالأة لهم منه، فمُرْه بقتالهم..» ثم قال عبدالله: «يا أمير المؤمنين، ابعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفك أمرها... فبعث علي بن أبي طالب (ع) محمد بن أبي بكر إلى مصر وعزل قيساً»[1].

وجاء المتفلسفون من أعداء علي (ع) بعد حين بعيد من هذه الوقائع، ليستغلوا حادثة عزل قيس وتأمير محمد للطعن في سياسة علي (ع) وكفايته في إدارة الدولة واختيار الأمراء والولاة، حتى آلت الأمور إلى ما آلت إليه من قتل محمد واستيلاء معاوية على مصر.

وقال الباحث المعتزلي ابن أبي الحديد رداً على هؤلاء المشككين المتخرصين:

«ليس يمكن أن يقال: أن محمداً ـ رحمه الله ـ لم يكن بأهل لولاية مصر، لأنه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً صحيح العقل والرأي، وكان مع ذلك من المخلصين في محبة أمير المؤمنين (ع) والمجتهدين في طاعته، وممن لا يُتّهم عليه ولا يُرّتاب بنصحه، وهو ربيبه وخريجه ويجري مجرى أحد أولاده (ع) لتربيته له وإشفاقه عليه».

---

(١) الغارات: ١/٢١٨ ـ ٢١٩ وتاريخ الطبري: ٤/٥٥٤ ـ ٥٥٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/٦٢ ـ ٦٣.

«ثم كان المصريون على غاية المحبة له والإيثار لولايته، ولما حاصروا عثمان وطالبوه بعزل عبدالله بن سعد بن أبي سرح عنهم اقترحوا تأمير محمد بن أبي بكر عليهم، فكتب له عثمان بالعهد على مصر وسار مع المصريين، حتى تعقَّبه كتابُ عثمان إلى عبدالله بن سعد في أمره وأمر المصريين بما هو معروف، فعادوا جميعاً، وكان من قتل عثمان ما كان».

«فلم يكن ظاهر الرأي ووجه التدبير إلا تولية محمد بن أبي بكر على مصر، لِمَا ظهر من ميل المصريين إليه وإيثارهم له، واستحقاقه لذلك بتكامل خِصال الفضل فيه، فكان الظن قوياً باتفاق الرعية على طاعته وانقيادهم إلى نصرته واجتماعهم على محبته... وليس ذلك بعيب على أمير المؤمنين (ع)، فإن الأمور إنما يعتمدها الإمام على حسب ما يظن فيها من المصلحة، ولا يعلم الغيبَ إلا الله تعالى. وقد ولّى رسولُ الله (ص) في مؤتة جعفراً فقُتِل، وولى زيداً فقتل، وولى عبدالله بن رواحة فقتل، وهُزِم الجيش... فهل لأحدٍ أنْ يعيب رسول الله (ص) بهذا ويطعن في تدبيره»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد أصبح محمد بن أبي بكر أميراً على مصر، وكان ذلك ـ كما يستفاد من النصوص التاريخية ـ بعد انتهاء حرب الجمل وقبل معركة صفين[2]، وذكر البلاذري: إن قيس بن سعد انصرف إلى المدينة بعد عزله عن مصر، ثم «خرج وسهل بن حنيف جميعاً حتى قدم على علي (ع) بالكوفة، فخبَّره الخبر، وصدّقه علي (ع)، وشهد معه صفين»[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) الغارات: ١/ ٢٥٤ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٥٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٠ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٣ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٧.

(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٩٢.

ويبدو أن محمداً بعد تحمله هذه المسؤولية الكبرى لم يستطع حضور صفين وإن ذكرت بعض الروايات مشاركته في هذه المعركة[١]، وربما ورد اسمه في حضورها سهواً وتوهماً، لأنه كان في نظر الجميع من طلائع أنصار علي (ع) البارزين الذين يفترض وجودهم الفاعل في جميع مجالات نضاله وميادين حروبه، ولكننا لم نجد في مطاوي أخبار صفين ما يحملنا على تصديق أخبار إسهامه فيها، ولم نقف له على ذكر في مجمل وقائعها الدامية، ولم نقرأ اسمه بين أسماء قادة الجيش وأمراء الكتائب. وظني أن مصلحة الحفاظ على سلامة الوضع في مصر قد منعته من المشاركة وأجبرته على البقاء في مقر ولايته، لئلا يحدث بفعل دسائس الأعداء ومكائد (الطابور) الخامس الموجود في مصر، ما يُخل بالأمن العام ويمس استقرار الجبهة الداخلية خلال الحرب.

وعلى كل حال، فقد توجه محمد إلى مصر لتنفيذ الأمر وتسلم الإمارة والبدء بإدارة هذا الثغر الكبير الخطير من ثغور المسلمين.

وتردد بعض المؤرخين في كون محمد هو الذي وُلِّي مصر بعد عزل قيس أو أن الأشتر قد تولاها قبل محمد ثم كان محمد هو الوالي بعد مقتل الأشتر. ويروي الطبري: إن «الزهري يذكر أن علياً (ع) بعث محمد بن أبي بكر أميراً على مصر بعد مهلك الأشتر بقلزم. وأما هشام بن محمد فإنه ذكر في خبره إن علياً (ع) بعث بالأشتر أميراً على مصر بعد مَهْلَك محمد»[٢].

---

(١) الاستيعاب: ٣/٣٢٨ والتبيين: ٢٧٩ وأسد الغابة: ٤/٣٢٤ والنجوم الزاهرة: ١/١٠٦ والإصابة: ٣/٤٥١.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٥٣.

وقال ابن تغرى بردى:

«في ولاية الأشتر على مصر قبل محمد بن أبي بكر الصديق اختلاف كثير: حكى جماعات كثيرة من المؤرخين وذكروا ما يدل على أن ولاية محمد بن أبي بكر كانت هي السابقة بعد عزل قيس بن سعد بن عبادة... وجماعة قدّموا ولاية الأشتر. ولكل منهما استدلال قوي».

ثم روى عن أبي المظفر في مرآة الزمان قوله: «قال علماء السيرة كابن إسحاق وهشام والواقدي، قالوا: لمّا اختل أمر مصر على محمد بن أبي بكر الصديق، وبلغ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: ما لمصر إلا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها ـ يعني قيس بن سعد بن عبادة ـ أو مالك بن الحارث ـ يعني الأشتر ـ».

ثم علق ابن تغرى بردى على كلام أبي المظفر فقال: «قلت: وهذا مما يدل على أن ولاية محمد بن أبي بكر الصديق كانت هي السابقة»[١].

❁ ❁ ❁

وروى المؤرخون أن محمداً لمّا قدم مصر تجمع الناس للترحيب به والسلام عليه، فقرأ عليهم عهده، وكان هذا نصه:

«هذا ما عهد عبدُ الله علي أمير المؤنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر: أمره بتقوى الله والطاعة له في السر والعلانية، وخوف الله ومراقبته في المغيب والمشهد، وأمره باللين على المسلم وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبالإنصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس، وبالإحسان ما استطاع. والله يجزي المحسنين ويثيب المصلحين».

---

(١) النجوم الزاهر ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

«وأمره أن يدعو مَنْ قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة، فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة ما لا يقدّرون قدره ولا يعرفون كنهه. وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبي عليه من قبل ولا ينتقص ولا يبتدع، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل. وأن يلين لهم جناحه، وأن يساوي بينهم في مجلسه ووجهه، وليكن القريب والبعيد عنده في الحق سواء. وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتبع الهوى، ولا يخاف في الله لومة لائم، فإن الله مع من اتقاه، وآثر طاعته على ما سواه».

«وكتبه عبيدالله بن أبي رافع مولى رسول الله (ص) لغرة شهر رمضان سنة ست وثلاثين»(١).

ثم قام محمد بعد قراءة عهده خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«أما بعد: فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختُلِف فيه من الحق، وبصّرنا وإياكم كثيراً مما عَمِيَ عنه الجاهلون. ألا إن أمير المؤمنين (ع) ولاني أموركم، وعهد إليّ بما سمعتم، وأوصاني بكثير منه مشافهة، ولن آلوكم خيراً ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمالي طاعة وتقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك، فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم من ذلك عملاً بغير حق فادفعوه إليّ وعاتبوني عليه، فإني بذلك أسعد، وأنتم بذلك جديرون. وفقنا الله وإياكم لصالح العمل برحمته»(٢).

---

(١) الغارات: ١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣ وتاريخ الطبري: ٥٥٦/٤ وتحف العقول: ١١٨ ـ ١١٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٥.

(٢) الغارات: ١/ ٢٢٦ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٦.

وبعد أن استقرت الدار بمحمد في مصر، وانتهت المراسيم الأولى للمقابلات واللقاءات والتعرف بشؤون البلد ومشاكل الناس، كتب كتاباً إلى أمير المؤمنين (ع) جاء فيه:

«لعبدالله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن رأى أمير المؤمنين ـ أرانا الله وجماعة المسلمين فيه أفضل سرورنا وأملنا ـ أن يكتب لنا كتاباً فيه فرائض وأشياء مما يُبتَلَى به مثلي من القضاء بين الناس فعل، فإن الله يعظم لأمير المؤمنين الأجر، ويحسن له الذخر».

فكتب إليه علي (ع) كتاباً مفصلاً تضمّن مجموعة من التوجيهات المعنية بأمور الناس ومصالحهم وشؤون الإدارلاة ومقتضياتها، وكتب إليه في الجواب أيضاً عما سأله من القضاء وجوامع الحلال والحرام والسنن والمواعظ، وعن ذكر الموت والحساب وصفة الجنة والنار، وفي الإمامة، وفي الوضوء ومواقيت لاصلاة والركوع والسجود، وفي الأدب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي بعض أحكام الصوم والاعتكاف، «وكتب إليه في أشياء كثيرة لم يُحْفَظ منها غير هذه الخصال»[١].

وكان مما جاء في هذا الكتاب:

«من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر: سلام عليكم، أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك وفهمتُ ما سألتَ عنه، وأعجبني اهتمامك بما لا بد لك منه وما لا يُصْلِح المسلمين غيره، وظننتُ أن الذي أخرج ذلك منك نية صالحة ورأي غير مدخول».

(١) الغارات: ١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

«أما بعد: فعليك بتقوى الله في مقامك ومقعدك؛ وسرك وعلانيتك. وإذا أنت قضيتَ بين الناس فاخفض لهم جناحك، ولَيِّنْ لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظ والنظر، حتى لا يطمع العظماء في جنفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، وأن تسأل المُدَّعي البَيِّنة، وعلى المدَّعى عليه اليمين. ومن صالح أخاه على صلح فأجِزْ صلحه إلا أن يكون صلحاً يُحرِّم حلالاً أو يحلل حراماً. وآثِر الفقهاء وأهل الصدق والوفاء والحياء والورع على أهل الفجور والكذب والغدر. وليكن الصالحون الأبرار إخوانك، والفاجرون الغادرون أعداءك، فإن أحبّ إخواني إليّ أكثرهم لله ذكراً، وأشدّهم منه خوفاً، وأنا أرجو أن تكون منهم إن شاء الله».

«وإني أوصيكم بتقوى الله فيما أنتم عنه مسؤولون، وعما أنتم إليه صائرون، فإن الله قال في كتابه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢]، فعليكم بتقوى الله فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها، ويُدْرَك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها، من خير الدنيا وخير الآخرة، قال الله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

«اعلموا عبادالله أن المتقين ذهبوا بعاجل الخير وآجله، شَارَكوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، سكنوا الدنيا بأحسن ما سُكِنت، وأكلوها بأحسن ما أكلت».

وجاء في هذا الكتاب أيضاً:

«واحذروا عباد الله الموت وقربه وكربه وسكراته وأعدوا له عُدَّته، فإنه يأتي بأمر عظيم، بخير لا يكون معه شر، وبِشَرٍ لا يكون معه خير أبداً، فمن أقرب إلى الجنة من عاملها؟ ومن أقرب إلى النار من أهلها؟ فأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم. فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: «أكثروا ذكر هادم اللذات». واعلموا أن ما بعد الموت لمن لم يغفر الله له ويرحمه أشد من الموت».

«واعلم يا محمد أنني ولّيْتُكَ أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر، وأنت محقوق أن تخاف على نفسك، وأن تحذر فيه على دينك، وإن لم تكن إلا ساعة من النهار، فإن استطعتَ أن لا تسخط ربك برضا أحدٍ من خلقه فافعل، فإن في الله خلفاً من غيره، ولا في شيء خلف من الله. أشدد على الظالم وخذ على يديه، ولِنْ لأهل الخير وقرِّبهم منك واجعلهم بطانتك وأخوانك».

«ثم انظر صلاتك كيف هي فإنك إمام، وليس من إمام يصلي بقوم فيكون في صلاتهم تقصير إلا كان عليه أوزارهم، ولا ينتقص من صلاتهم بشيء ولا يتممها إلا كان له مثل أجورهم ولا ينتقص من أجورهم شيء. وانظر الوضوء فإنه تمام الصلاة، ولا صلاة لمن لا وضوء له. وأعلم أن كل شيء من عملك تابع لصلاتك، وأعلم إنه من ضيع الصلاة فإنه لغير الصلاة من شرايع الإسلام أضيع».

«وإن استطعتم يا أهل مصر أن يصدق قولَكم فعلُكم، وسركم علانيتكم، ولا تخالف ألسنتَكم أفعالُكم، فافعلوا، وقال رسول الله (ص): «إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيخزيه الله ويقمعه بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق حلو اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون»...

وقد قال النبي (ص): «من سرَّته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن حقاً»، وكان يقول (ص): «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حُسنُ سَمْتٍ وفقه في سُنّة».

«وأعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع في دين الله، والعمل بطاعة الله، أعاننا الله وإياك على شكره وذكره وأداء حقه والعمل بطاعته، إنه سميع قريب».

«وأعلم أن الدنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار بقاء وجزاء، فإن استطعتَ أن تزيد ما يبقى على ما يفنى فافعل. رزقنا الله بصر ما بصَّرنا وفهم ما فهَّمنا. حتى لا نقصر عمَّا أمرنا به، ولا نتعدى إلى ما نهاها عنه، فإنه لا بد لك من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فابدأ بأمر الآخرة. وإن استطعت أن تعظم رغبتك في الخير وتحسن فيه نيتك فافعل، فإن الله يعطي العبد على قدر نيته إذا أحب الخير وأهله، وإن لم يفعله كان ـ إن شاء الله ـ كمن فعله».

وجاء في ختام هذا الكتاب الجامع مما خاطب به أمير المؤمنين (ع) محمداً قوله:

«ثم إني أوصيك بتقوى الله، ثم بسبع خصال هن جوامع الإسلام: تخشى الله ولا تخشى الناس في الله، فإن خير القول ما صدقه الفعل. ولا تقض في أمرٍ واحدٍ بقضاءين فيختلف عليك أمرك وتزل عن الحق. واحبب لعامة رعيتك ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وأكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، والزم الحجة عند الله، وأصلح للرعية، وخض الغمرات إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم. وأقم وجهك وانصح للمرء المسلم إذا استشارك. وأجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين

وبعيدهم. «وأْمُرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور». والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

وروى أبو إسحاق الثقفي: «إن علياً (ع) لما أجاب محمد بن أبي بكر بهذا الجواب كان ينظر فيه ويتعلمه ويقضي به، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه. فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية لما رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق. فقال له معاوية: مه يا ابن أبي معيط، إنه لا رأي لك، فقال الوليد: إنه لا رأي لك، أفمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك، تتعلم منها وتقضي بقضائه، فعلام تقاتله؟. فقال معاوية: ويحك، أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا؟، والله ما سمعتُ بعلم أجمع منه ولا أحْكَم... ثم نظر إلى جلسائه فقال: أنّا لا نقول أن هذه من كتب علي بن أبي طالب (ع)، ولكن نقول: أن هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن نقضي بها ونفتي».

«فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى وُلِّيَ عمر بن عبدالعزيز، فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب (ع)»(٢).

❀ ❀ ❀

(١) تحف العقول: ١١٩ ـ ١٢١ وصرح مؤلفه أنه قد أورد مختصراً من أصل الكتاب. ووردت فقرات مطولة من هذا الكتاب مما أوردنا وما لم نورد في الغارات: ١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠ و٢٣٣ ـ ٢٤٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٦ ـ ٧٢ و١٥/ ١٦٣ ـ ١٦٤ و١٧٠.

(٢) الغارات: ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٢.

ولما حدثت معركة صفين وانتهت تلك النهاية المثيرة للأسف والألم، تحرك «الرتل الخامس» المدعوم من قبل معاوية في مصر للشغب وإعلان التمرد، وبدأت الأحداث هناك تتجه صعداً نحو المجابهة بين الطرفين، ثم «خرج معاوية بن خُدَيْج الكندي ثم السكوني، فدعا إلى الطلب بدم عثمان، وذلك إن معاوية دس إليه في ذلك وكاتبه فيما يقال وأرغبه، فأجاب ابن خديج بشر كثيرٍ، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر»(١).

وبلغ علياً (ع) فساد الأمر هناك وخطورة الوضع، فكتب إلى الأشتر وهو يومذاك بنصيبين، وكان قد عاد إلى عمله بالجزيرة بعد صفين، يطلب حضوره إليه للمشاورة والمذاكرة، وقال في كتابه:

«أما بعد: فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأسد به الثغر المخوف. وكنتُ ولَّيتُ محمد بن أبي بكر مصر فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلام حدث ليس بذي تجربة للحرب، ولا بمجرِّب للأشياء. فاقدم عليَّ لننظر في ذلك فيما ينبغي»(٢).

ثم دارت بين محمد بن أبي بكر وملك الشام معاوية بن أبي سفيان مكاتبات عديدة خلال تلك الأيام الحبلى بالمفاجآت الخطيرة، أراد بها محمد إقامة الحجة وتنوير الموقف وإيضاح الحقائق، وكان من بعض تلك المكاتبات ما رواه البلاذري فقال:

«كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية: من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر ـ وبعضهم يقول: العاوي، والغاوي أثبت ـ، سلام على أهل طاعة الله ممن هو سلم لأهل ولاية الله، أما بعد:

(١) أنساب الأشراف: ٢/٣٩٨ وتاريخ الطبري: ٥/٩٥ والنجوم الزاهرة: ١/١٠٨.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/٩٥.

«فإن الله بجلاله وقدرته وعظمته خلق خلقاً، بلا ضعفٍ كان منه ولا حاجةٍ به إلى خلقه، ولكنه خلقهم عبيداً، وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغوياً ورشيداً، ثم اختارهم بعلمه واصطفاهم بقدرته، فانتخب منهم وانتجب محمداً (ص)، فبعثه رسولاً وهادياً ودليلاً، ونذيراً وبشيراً، وسراجاً منيراً، فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان أول من أجاب وأناب ووافق وأسلم وسلَّم، أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب، فصدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل حال، وحارب حربه وسالم سلمه، حتى برز سابقاً لا نظير له ممن اتبعه، ولا مشارك له في فضله. وقد أُراك تساميه وأنت أنت، وهو السابق المبرز في كل خير، أطيب الناس ذرية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم، أخوه الشاري نفسه يوم مؤتة، وعمه سيد الشهداء يوم أحد، وأبوه الذاب عن رسول الله (ص). وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله ورسوله الغوائل، وتحالفان عليه القبائل، وتبذلان فيه المال، وتحالفان فيه الرجال، على ذلك مات أبوك، وعليه خلفته أنت. والشاهد عليه مَنْ تؤوي وتلجيء من رؤوس أهل النفاق، وبقية الأحزاب وذوي الشناءة لرسول الله (ص) وأهل بيته. والشاهد لعلي سبقه القديم وفضله المبين وأنصار الدين الذين ذُكِروا في القرآن، فهو حوله عصائب، وبجنبيه كتائب، يرجون الفضل في اتباعه، ويخافون الشقاء في خلافه، فكيف تعدل نفسك بعلي وهو كان أول الناس لرسول الله (ص) اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يشركه في أمره، ويطلعه على سره، وأنت عدوه وابن عدوه. فتمتع بباطلك، وليمدد لك عمرو في غوايتك، فكأنْ قد انقضى أجلك ووهى كيدك، فتستبين لمن تكون العاقبة، وأعلم إنك يا معاوية إنما تكايد ربك الذي قد أمنتَ كيده ومكره، ويئستَ من رَوْحه وهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرور،

وبالله ورسوله وأهل بيته عنك الغنى. والسلام على من تاب وأناب»[١].

فأجابه معاوية على كتابه بما لفظه:

«من معاوية بن أبي سفيان إلى محمد بن أبي بكر الزاري على أبيه: سلام على من اتبع الهدى وتزود بالتقوى».

«أما بعد: فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما اللهُ أهله، وما اصطفى له رسوله، مع كلام لفقتَه وصنعتَه، لرأيك فيه تضعيف ولك فيه تعنيف، ذكرتَ حق ابن أبي طالب وسوابقه وقرابته من رسول الله ونصرته إياه، واحتججتَ عليَّ بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد إلهاً صرف عنك ذلك الفضل وجعله لغيرك، فقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا نرى حق ابن أبي طالب لنا لازماً وفضله علينا مبرزاً، فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له وعده، وأفلح حجته، وأظهر دعوته، قبضه الله إليه، فكان أبوك ـ وهو صديقه ـ وعمر ـ وهو فاروقه ـ أول من أنزله منزلته عندهما، فدعواه إلى أنفسهما «كذا في رواية البلاذري، وفي روايَتْي نصر بنم مزاحم والمسعودي: فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره، على ذلك اتفقا واتسقا»، حتى مضيا وانقضى أمرهما. ثم قام عثمان ثالثاً يسير بسيرتهما ويهتدي بهديهما، فعبتَه أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، وظهرتما له بالسوء وبطنتما، حتى بلغتما فيه مُناكما».

«فخذ يا ابن أبي بكر حذرك، وقس شبرك بفترك، تقصر عن أن تسامي أو توازي من يزن الجبال حلمه!، ويفصل بين أهل الشك علمه! ولا تلين على قسرٍ قناته... فإن كان ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله،

(١) أنساب الأشراف ٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٥، وقريب منه في وقعة صفين: ١١٨ ـ ١١٩ ومروج الذهب: ٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

وإن كان خطأ فأبوك أسَّسه ونحن شركاؤه، برأيه اقتدينا، وبفعله احتذينا، ولولا ما سَبَقَنا إليه أبوك وأنه لم يره موضعاً للأمر ما خالَفْنا علي بن أبي طالب (ع) ولسلَّمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل أمراً فاتبعناه واقتفونا أثره، فعِبْ أباك ما بدا لك أودَعْ. والسلام على من أجاب، ورد غوايته وأناب»[(١)].

ثم تكررت تلك المكاتبات بين محمد ومعاوية وازدادت صراحة وعنفاً، ولكن المؤرخين لم تعجبهم مضامينها فأعرضوا عن ذكرها في موسوعاتهم، ويقول الطبري وهو يعتذر عن ذلك: إن مكاتبات جرت بين محمد بن أبي بكر ومعاوية «كرهتُ ذكرها مما لا يحتمل سماعها العامة!»[(٢)].

وهكذا تأزم الموقف واحتدم الصراع، فجنَّد معاوية جيشاً كان عدده ستة الآف رجل، وأمَّر عليهم عمرو بن العاص، وسيَّره نحو عدوه، حتى إذا دنا من مصر ونزل أداني أرضها تجمع حوله العثمانيون، فأقام عمرو هناك وكتب إلى محمد بن أبي بكر:

«أما بعد: فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر. وإن الناس بهذه قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان، فاخرج منها فإني لك من الناصحين»[(٣)].

---

(١) أنساب الأشراف: ٢/٣٩٦ ـ ٣٩٧، وقريب منه في وقعة صفين: ١٢٠ ـ ١٢١ ومروج الذهب ٢/٣١٥ ـ ٣١٦ وشرح نهج البلاغة: ٣/١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٥٥٧.

(٣) الغارات: ١/٢٧٧ وأنساب الأشراف: ٢/٤٠٢ وتاريخ الطبري: ٥/١٠١ وكامل ابن الأثير: ٣/١٧٩ والنجوم الزاهرة: ١/١٠٩.

وبعث عمرو مع كتابه هذا كتاباً من معاوية إلى محمد جاء فيه: «أما بعد: فإن غبَّ البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا والتبعة لموبقة في الآخرة، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً، ولا أسوأ له عيباً، ولا أشد عليه خلافاً منك، سعيت عليه في الساعين، وساعدت عليه مع المساعدين، وسفكت دمه مع السافكين، ثم أنت تظن أني عنك نائم، ثم تأتي بلدة فتأمن فيها وجُلُّ أهلها أنصاري، يرون رأيي، ويرقبون قولي، ويستصرخوني عليك. وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك، يسفكون دمك ويتقربون إلى الله بجهادك، قد أعطوا الله عهداً ليقتلنك، ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه، فأُحذِّرك وأنذرك بظلمك ووقيعتك وعدوانك على عثمان يوم الدار، يُطعَن بمشاقصك فيما بين أحشائه وأوداجه. ولكني أكره أن تُقْتَل، ولن يسلمك الله من القصاص أين كنت»[١].

فطوى محمد بن أبي بكر كتابي معاوية وعمرو وبعث بهما إلى علي (ع)، وكتب معهما كتاباً إليه جاء فيه:

«أما بعد: فإن العاصي ابن العاص قد نزل أداني مصر، واجتمع إليه من أهل البلد مَنْ كان يرى رأيهم، وقد جاء في جيش جرار، وقد رأيتُ ممن قبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامدني بالأموال والرجال»[٢].

فكتب إليه علي (ع) جواباً على كتابه قال فيه:

«أما بعد: فقد جاءني رسولك بكتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل

---

(١) الغارات: ١/ ٢٧٧ ـ ٢٨٩ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٩.
(٢) الغارات: ١/ ٢٧٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠١.

أداني مصر في جيش جرار، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه. وخروج من كان يرى رأيه خير لك من إقامته عندك. وذكرت إنك قد رأيت ممن قِبَلَك فشلاً، فلا تفشل وإن فشلوا، حَصِّن قريتك، واضمم إليك شيعتك، وأذك الحرس في عسكرك، واندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس. وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول، فاصبر لعدوك، وامض على بصيرتك، وقاتلهم على نيتك، وجاهدهم محتسباً لله، وإن كانت فئتك أقل الفئتين فإن الله يعز القليل ويخذل الكثير».

«وقد قرأتُ كتاب الفاجرَيْن المتحابين على المعصية، والمتلائمين على الضلالة، والمرتشيين الذين استمتعا بخلاقهما، فلا يَهُدَّنَّكَ ارعادهما وابراقهما، وأجبهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله فإنك تجد مقالاً ما شئت»[١].

فكتب محمد إلى معاوية جواب كتابه المتقدم، وقال له فيه:

«أما بعد: فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه، وتأمرني بالتنحّي عنك كأنك لي ناصح، وتخوفني بالمثلة كأنك عَليّ شفيق. وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم، وأن يهلككم الله في الوقعة، وأن ينزل بكم الذل، وأن تولوا الدبر. فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لعمري من ظالم قد نصرتم، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به، وإلى الله المصير، وإليه ترد الأمور، وهو أرحم الراحمين، وهو المستعان على ما تصفون»[٢].

وكتب محمد إلى عمرو بن العاص جواب كتابه، وجاء فيه: «أما

(١) الغارات: ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، ومختصر منه في أنساب الأشراف: ٢/ ٤٠١.
(٢) الغارات: ١/ ٢٨٠ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠٢.

بعد: فقد فهمتُ كتابك وعلمتُ ما ذكرتَ، وزعمتَ إنك لا تحب أن يصيبني منك ظفْرٌ، وأشهد بالله أنك لمن المبطلين، وزعمتَ إنك لي ناصح، واقسم إنك عندي ظنين، وزعمتَ أن أهل البلد قد رفضوني وندموا على اتباعي، فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم، وحسبنا الله رب العالمين، وتوكلنا على الله العزيز الرحيم رب العرش العظيم»[1].

❀ ❀ ❀

وكان لا مناص لمحمد ـ وقد انتهك المعتدون حرمة بلده وصمموا على قتاله ـ من الإعداد للحرب والتأهب للمجابهة واستقبال الأيام الحاسمة، فقام خطيباً في الناس فقال:

«أما بعد: فإن القوم الذين ينتهكون الحرمة ويشبون نار الفتنة، قد نصبوا لكم العداوة، وساروا إليكم بجيوشهم، فمن أراد الجنة فليخرج إليهم فليجاهدهم في الله. انتدبوا مع كنانة بن بشر»، «فانتدب مع كنانة نحو من ألفي رجل، ثم خرج محمد بن أبي بكر في ألفي رجل».

«واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد، وكنانة يسرِّح لعمرو الكتائب... ولما رأى عمرو كنانة وقد سرح إليه الكتائب من أهل الشام كتيبة بعد كتيبة وكنانة يهزمها، استنجد عمرو بمعاوية بن خديج السكوني»، «فجاء في الدُّهم، فأحيط بكنانة ومن معه من خلفهم وأمامهم، فأصيبوا»[2].

---

(١) الغارات: ١/ ٢٩١ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠٢ ـ ١٠٣ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) الغارات: ١/ ٢٨١ وأنساب الأشراف: ٢/ ٤٠٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠٣ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٩.

«فلما رأى كنانة ذلك ترجل عن فرس وترجل أصحابه، وقرأ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] فقاتل حتى قُتِل، بعد أن قتل من أهل الشام مقتلة عظيمة»(١).

وجاء في روايات التاريخ:

إن عمرو بن العاص تقدم بجيشه نحو محمد بن أبي بكر، بعد شهادة كنانة وتفرق أصحاب محمد عنه «حتى بقي وما معه أحد، فلما رأى ذلك خرج متعجلاً فمضى على الطريق حتى انتهى إلى خربة فأوى إليها. وجاء عمرو فدخل القصر، وخرج ابن خديج في طلب ابن أبي بكر، فانتهى إلى أعلاج من القبط على قارعة الطريق، فسألهم هل مر بهم أحد ينكرونه ويستريبون به، فقال أحدهم: لا والله، لكني دخلت تلك الخربة فوجدت فيها رجلاً جالساً، فقال ابن خديج: هو هو ورب الكعبة. فانطلقوا يركضون دوابهم حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به نحو الفسطاط، ووثب أخوه عبدالرحمن بن أبي بكر إلى عمرو ـ وكان معه ـ فقال: أيقتل أخي صبراً؟!، إبعث إلى ابن خديج فانهه عن قتله. فبعث إليه عمرو أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر، فقال: قتلتم كنانة بن بشر ـ وهو ابن عمي ـ وأخلّي عن محمد، هيهات هيهات»(٢).

وجاء في تلك الروايات أيضاً:

«واستسقى محمد ماءً، فقال له ابن خديج: منعتم عثمان أن يشرب

---

(١) الغارات: ١/ ٢٨٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠٣ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٨٥ ـ ٨٦ والنجوم الزاهرة: ١/ ١١٠.

(٢) الغارات: ١/ ٢٨٢ وأنساب الأشراف: ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٩ والنجوم الزاهرة: ١/ ١١٠.

حتى قتلتموه... والله لأقتلنك ظمآن حتى يلقاك الله بالحميم والغساق. فقال له: ليس هذا إليك لا أم لك، أما والله لو أن سيفي في يدي ما بلغتم بي هذا... فقال معاوية بن خديج: إني قاتلك بعثمان الخليفة المظلوم. فقال محمد: إن عثمان عمل بالجور وترك حكم الكتاب فنقمنا ذلك عليه».

«فقدمه فقتله، وجعله في جوف حمار وحرَّقه بالنار»[١]، «وقيل: إنه فُعِل به ذلك وبه شيء من حياة»[٢].

هكذا جاءت نصوص المؤرخين، ويبدو جلياً للمتأمل فيها أنها غير متكاملة وغير متناسقة وغير منسجمة، وأن هناك فيما بين السطور من تفاصيل الموقف وملابساته ما تعمَّد الرواة من رجال الإعلام الأموي حذفه، بل ما تعمَّدوا دسَّه وتلفيقه أيضاً، ولم يتضح لنا ماذا يريد محمد بن أبي بكر بقوله:

«لو أن سيفي في يدي ما بلغتم بي هذا» بعد إغفال تلك الروايات الإشارة إلى انتزاع السيف منه وكيفية ذلك الانتزاع.

وجاء في بعض الروايات: إن محمداً «اختبأ عند جبلة بن مسروق، فدُلَّ عليه معاوية بن خديج، فأحاط به، فخرج محمد فقاتل حتى قتل»[٣]. وهذا مما ينافي كل المنافاة ما ورد في أسطورة الخربة المتقدمة!!.

---

(١) الغارات: ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤ وأنساب الأشراف: ٢/ ٤٠٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٠٤ ـ ١٠٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٨٦ ـ ٨٨ والنجوم الزاهرة: ١/ ١١٠.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٨٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ١٠٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٠٨.

وروى بعض الرواة: إن محمداً «اختفى لما انهزم في بيت امرأة، فأُخِذ من بيتها، فقتل»[١].

وهذا مما يفنِّد زعم لجوئه إلى الخربة واستخراجه منها.

وادعى بعض الرواة: إن محمداً أتي به أسيراً إلى عمرو بن العاص فقتله، أو: إن عمراً قتل محمداً صبراً[٢]. ومع غض النظر عن عدم جواز ذلك في الشرع ـ لعلمنا بأن ابن هند وابن النابغة غير ملتزمَيْن بشرع أو دين ـ فإنه مما يتناقض مع النصوص السابقة كل التناقض.

ثم كانت خاتمة مطاف هذه الجريمة الأموية النكراء ـ أيّاماً افترضت التفاصيل ـ ما روته المصادر من إرسال ابن «النابغة» المدعو عمرو بن العاص برأس محمد بن أبي بكر إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق، حيث طيف به هناك، فـ «كان أول رأس طيف به في الإسلام»[٣].

❀ ❀ ❀

وهكذا وقعت الواقعة وحلت الفاجعة، وذهب محمد إلى الجنان مضمخاً بدمه الزكي، وهو يشكو لربه ظلم الظالمين وجور الجائرين وعدوان المعتدين. ودوى نبأ شهادته في الشام والعراق دوياً عنيفاً هز الأرجاء، وتقول الروايات التاريخية: إن معاوية لما بلغه قتل محمد وأصحابه «أظهر الفرح والسرور»[٤]، ثم زاد فرحه وابتهاجه لما تسلم كتاب البشرى!! من قائده عمرو بن العاص، وقد جاء فيه:

---

(١) الإصابة: ٣/ ٤٥١ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٨٠ وشذرات الذهب: ١/ ٤٨.
(٢) الاستيعاب: ٣/ ٣٢٩ والتبيين: ٢٧٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٢٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨١ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٨١ وشذرات الذهب: ١/ ٤٨.
(٣) العقد الفريد: ١/ ١٣٧ والنجوم الزاهرة: ١/ ١١٠.
(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٨٧.

أما بعد: فإنا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع من أهل مصر، فدعوناهم إلى الكتاب والسنة (كذا)، فعصوا الحق وتهوّكوا في الضلال!! . . . فقُتِل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر، والحمد لله رب العالمين»[١].

ولما انتهى الخبر الأليم إلى علي (ع) حزن أشد الحزن على محمد «حتى رُئي ذلك فيه وتبين في وجهه، وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«ألا وإن مصر قد افتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم، الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الإسلام عِوَجاً. ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد ـ رحمه الله ـ فعند الله نحتسبه، أما والله لقد كان ما علمتُ لمن ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب هدي المؤمن. وإني والله ما ألوم نفسي على تقصير ولا عجز»[٢].

وكان علي (ع) قبل ذلك قد دعا أهل الكوفة إلى نجدة محمد وأصحابه، وحضَّهم على الخروج إلى مصر لهذا الغرض بقيادة مالك بن كعب الهمداني الأحربي، فعسكر مالك بمن خرج معه بظاهر الكوفة، ثم تحرك بهم صوب مصر. فقدم الحجاج بن غُزيَّة الأنصاري ـ وكان مع محمد ـ على علي (ع) فحدثه بما وقع وبشهادة محمد وكنانة وبقية الشهداء، فسرَّح عليّ (ع) عبدالرحمن بن شريح الشامي إلى مالك بن كعب فرده من الطريق[٣].

---

(١) الغارات: ١/٢٨٨ ـ ٢٨٩ وأنساب الأشراف: ٢/٤٠٣ وتاريخ الطبري: ٥/١٠٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/٨٩.

(٢) الغارات: ١/٢٩٥ ـ ٢٩٦ وتاريخ الطبري: ٥/١٠٨ وشرح نهج البلاغة: ٦/٩١ ـ ٩٢، ومضمونه في أنساب الأشراف: ٢/٤٠٤ وكامل ابن الأثير: ٣/١٨١.

(٣) الغارات: ١/٢٩٤ ـ ٢٩٥ وكامل ابن الأثير: ٣/١٨١ وشرح نهج البلاغة: ٦/٩١ والنجوم الزاهرة: ١/١١١.

وروى المدائني والثقفيُ والمسعودي: أنه قيل لعلي (ع) وقد رُئي شدة حزنة على محمد: «لقد جزعتَ على محمد بن أبي بكر جزعاً شديداً يا أمير المؤمنين. فقال: وما يمنعني، إنه كان لي ربيباً، وكان لبَنيَّ أخاً، وكنت له والداً أعده ولداً»[1].

كما أُثِر عن علي (ع) قوله أيضاً في هذه الفاجعة: «إن حزننا عليه على قدر سرورهم به، ألا إنهم نُقِصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً»[2].

ورُوي «أن أسماء بنت عميس لما أتاها نعي محمد بن أبي بكر وما صُنع به، كظمت حزنها وقامت إلى مسجدها حتى تشخبت دماً»[3].

كذلك روي أن عائشة لما بلغها ذلك «جزعت عليه جزعاً شديداً، وقنتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج»[4].

❀ ❀ ❀

وعند الله عز وجل سيجتمع الخصوم، ويقف الجميع للحساب العادل، وينال المجرمون جزاء سيئاتهم وكفاء جناياتهم وموبقاتهم، حيث لا ينقذهم مال ولا بنون، ولا تجديهم شفاعة الشافعين، «ولا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار».

(١) الغارات: ١/ ٣٠١ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٩٤، ومضمونة في مروج الذهب: ٢/ ٢٨٧.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٢٣٧.
(٣) الغارات: ١/ ٢٨٧ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٨٨.
(٤) الغارات: ١/ ٢٨٥، وقريب من بعضه في كامل ابن الأثير: ٣/ ١٨٠.

[٢٢]

مالك بن الحارث الأشتر

مالك بن الحارث الأشتر

مالك بن الحارث بن عبد يَغُوث بن سَلَمَة (أو: مَسْلَمَة) بن ربيعة بن الحارث بن جَذِيمة بن سعد بن مالك[١] بن النَّخَع بن عمرو ابن عُلَة بن خالد (أو: جَلْد) بن مالك بن أُدَد[٢] بن زيد بن يَشْجُب ابن عَرِيب بن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ[٣]: فارس معروف وشجاع مشهور.

ولد في الجاهلية[٤] في مستقر قبيلته من البلاد اليمنية: وأدرك عصر الرسالة فأسلم[٥]، ولذلك ترجم له المؤلفون المعنيون بتاريخ الصحابة وأخبارهم. وذكر الواقدي إنه شارك في بعض الحروب الإسلامية الأولى في العهد النبوي[٦]، ولكننا لم نقف على تفاصيل ذلك.

ونشأ في ظلال الإسلام نشأة جيدة صالحة حتى أصبح بحقّ «رئيسَ قومه» و«سيدهم» و«خطيبهم وفارسهم»[٧]، واشتهر بالفروسية والشجاعة

---

(١) وفي طبقات خليفة: ١/ ٣٣٥ (ابن سعد بن قيس بن مالك).

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/١٤٨ والاشتقاق: ٤٠٤ والمؤتلف والمختلف: ٢٨ ومعجم الشعراء: ٣٦٢ وجمهرة أنساب العرب: ٤١٢ ـ ٤١٥ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٨ والإصابة: ٣/٤٥٩ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١١. وفيما بينها خلاف وزيادة ونقصان.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤١٢.

(٤) سمط اللآلي: ١/ ٢٧٧ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢.

(٥) سمط اللآلي: ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ والإصابة ٣/ ٤٥٩.

(٦) فتوح الشام: ١/ ٣٩.

(٧) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٨ والعبر: ٢/ ٣٣ والإصابة: ٣/ ٤٥٩.

بين العرب[١]، حتى عُدَّ أحد «الشجعان الأبطال المشهورين»[٢]، كما وُصِف بأنه «خطيب بل شريف كبير القدر»[٣]، وبلغ الأمر بالذهبي حدَّ نَعْتِه بأنه «ملك العرب» وأنه «كان ذا فصاحة وبلاغة»[٤].

وذكر الحفّاظ والمعنيون بالسنن وأخبارها: أنه كان ممن رَوَى الحديث[٥] وممن رُوِي عنه[٦]، وأنه «كان ثقة»[٧] في جميع ذلك.

وتحدَّث محمد بن حبيب عن شمائل الأشتر وملامحه الجسدية فذكر: أنه كان ممن يركب الفرس الجُسَام فتخط إبهاماه في الأرض[٨].

وحسبه من كل مزاياه وأمجاده الماديَّة والمعنوية ما أورد ابن أبي الحديد في خلال عرضه لفضائل الأشتر فقال:

«روى المحدِّثون حديثاً يدل على فضيلة عظيمة للأشتر ـ رحمه الله ـ، وهي شهادة قاطعة من النبي (ص) بأنه مؤمن، روى هذا الحديث أبو عمر ابن عبدالبر في كتاب الاستيعاب[٩].... قال أبو عمر:

«لما حضرت أبا ذرّ الوفاة وهو بالربذة بكت زوجته أم ذر، فقال لها: ما يبكيكِ؟ فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٨.
(٢) النجوم الزاهرة: ١/ ١٠٥.
(٣) الشعور بالعور: ١٩٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤.
(٥) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٤٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٨ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢.
(٦) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٨.
(٧) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٨ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢.
(٨) المحبر: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٩) الاستيعاب: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦.

وليس عندي ثوب يسعك كفناً... فقال: أبشري ولا تبكي... سمعتُ رسول الله (ص) يقول لنفر أنا فيهم: ليموتنَّ أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين. وليس من أولئك النفر أَحدٌ إلا وقد مات في قرية وجماعة، فأنا ـ لا أشك ـ ذلك الرجل... قالت أم ذر... فبينا أنا... إذا أنا برجال على ركابهم... فأسرعوا حتى وقفوا عليَّ وقال: يا أمَة الله مالكِ؟ فقلت: امرؤ من المسلمين يموت؛ تكفنونه. قالوا: ومَنْ هُوَ؟ قلتُ: أبو ذر... فكفنه الأنصاري: وغسله النفر الذين حضروه، وقاموا عليه ودفنوه»، و«كان النفر الذين حضروا موت أبي ذر بالربذة مصادفةً جماعة: منهم حجر بن الأدبر ومالك بن الحارث الأشتر»[١].

وجاء في تتمة هذا الخبر في رواية ابن أعثم الكوفي:

«فلما سوَّوا عليه التراب قام الأشتر على قبره فحمد الله وأثنى عليه، وذكر نبيه محمداً (ص)، ثم قال: اللهم هذا أبو ذر جندب بن جنادة بن سكن الغفاري صاحب رسولك محمد (ص)، اتَّبع ما أنزلتَ من آياتك، وجاهد في سبيلك، ولم يغيِّر ولم يبدِّل ولكن رأى منكراً فأنكره بلسانه وقلبه، فحُقر وحُرِم حتى افتقر، وضُيِّع حتى مات غريباً في أرض غربة. اللهم فأعطه من الجنة حتى يرضى، واقصم مَنْ طرده وحرمه ونهاه من مهاجرة حرم رسولك محمد (ص)»[٢].

❀ ❀ ❀

واشتهر من أولاده في مصادر التاريخ ابنه ابراهيم بن مالك الذي

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، وقريب منه في طبقات ابن سعد: ٤/ق١/ ١٧٢ ـ ١٧٣ وفتوح ابن أعثم.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢.

كان ـ كما ذكر الذهبي ـ «أحد الأبطال والأشراف كأبيه، وكان شيعياً فاضلاً، وهو الذي قتل عبيدالله بن زياد بن أبيه يوم وقعة الخازر، ثم أنه كان من أمراء مصعب بن الزبير. . . وقُتِل مع مصعب في سنة اثنتين وسبعين»[١].

وعُرِف من ذريته المتأخرين في العصور التالية «الأمير الزاهد أبو الحسين ورام بن أبي فراس بالحلة» وهو «فقيه صالح»[٢]، و«الأمير الزاهد صارم الدين اسكندر بن دربيس بن عكبر الورشيدي الخرقاني» وهو «صالح ورع ثقة»[٣].

وكان مالك ـ مع كل ما تقدَّم من مزاياه ومواهبه وخصائصه ـ شاعراً جيد الشعر، ولذلك أورد ذكره القدماء، في كتبهم المعنية بتراجم الشعراء[٤]، بل ربما نستطيع الزعم بأنه قد تجاوز في بعض شعره حدَّ النظم إلى درجة الإبداع،، ويقول أبو علي القالي تعليقاً على البيت الأول من مقطوعة الأشتر السينية: بأنه «من أحسن ما سمعتُ في القَسَم»[٥]، وقال أبو عبيد البكري معقباً على كلام القالي بشأن البيت المذكور: «اتفق العلماء أن هذا الاستفتاح أحسنُ قسمٍ أقسم به شاعر»[٦].

ونورد فيما يأتي مجموع ما وقفنا عليه من شعره مرتَّباً على تسلسل

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٥. ويراجع في تفاصيل أخبار إبراهيم ومعاركه الحربية: تاريخ الطبري: ٦/ ١٥ ـ ١٥٨ و٧/ ٤٤٢.
(٢) بحار الأنوار: ١٠٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٣) بحار الأنوار: ١٠٥/ ٢٠٨.
(٤) المؤتلف والمختلف: ٢٨ ومعجم الشعراء: : ٣٦٢.
(٥) أمالي القالي: ١/ ٨٥.
(٦) سمط اللآلي: ١/ ٢٧٨.

حروف القوافي، ليكون القارىء على علمٍ تام بحدود شاعرية هذا الرجل، ومدى صحة ما وُصِف به ذلك الشعرَ من جودة صياغةٍ وحسن تصوير:

١

١ ـ أظن جهلكم هذا وبطشكم
سيُلقيانكم[١] في مُزبدٍ لجبِ
٢ ـ لا تطلبوا الحرب ما دمتم على طرف
من السلامة واخشوا صولة الحقبِ[٢]

٢

وله في مطلع أبيات قالها في الأيام الأولى لبيعة علي (ع):

١ ـ منحتُ أمير المؤمنين نصيحة
فكان امرءاً تُهْدَى إليه النصائحُ[٣]

٣

وله في مطلع أبيات قالها مخاطباً بها علياً (ع) لما قدمت وفود أهل اليمن لبيعته:

١ ـ أتتك عصابة من خير قومٍ
بما ينوون من حضرٍ وبادِ[٤]

---

(١) في الأصل المنقول منه: سينقذانكم، وهو تحريف، ولعل الصواب ما أثبتنا.
(٢) حماسة البحتري: ١٤٨.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٥٧.
(٤) فتوح ابن أعثم أيضاً: ٢/ ٢٥٤.

٤

وقال في حماسية له:

١ ـ بقَّيتُ وفري وانحرفت عن العلا
ولقيتُ أضيافي بوجه عبوسِ
٢ ـ إنْ لم أشنَّ على ابن حرب غارةً
لم تخلُ يوماً من نهاب نفوسِ
٣ ـ خيلاً كأمثال السَّعالي شُزَّباً
تعدو ببيض في الكريهة شوسِ
٤ ـ حَمِيَ الحديدُ عليهم فكأنه
ومضانُ برقٍ أو شعاع شموسِ(١)

٥

وقال في مبارزته لابن الزبير يخاطب السيدة عائشة:

١ ـ أعائش لولا إنني كنتُ طاوياً
ثلاثاً لألفيتِ ابن أختك هالكا

(١) حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي: ١/ ١٤٩ ـ ١٥١ وأمالي القالي: ١/ ٨٥ والزهرة: ق٢/ ٢١٨ والمؤتلف والمختلف: ٢٨ ومعجم الشعراء: ٣٦٢ وسمط اللآلي: ١/ ٢٧٨ والتذكرة السعدية: ٥٣ ـ ٥٤ والمثل السائر: ٢/ ٢٣٢. وفي بعضها في الثاني: على ابن هند.
وورد الأولان معزوين للأشتر في شرح العكبري لديوان المتنبي: ٢/ ٩٥ و٤/ ٦٥ ـ ٦٦ وسمط اللآلي: ١/ ٢٧٧ وكفاية الطالب لابن الأثير: ١٨٥ والإصابة: ٣/ ٤٥٩.
والأول بمفرده للأشتر في الحماسة البصرية: ١/ ٧١ ومعاني أبيات الحماسة: ٤٢ ونظام الغريب للوحاظي: ١٥٣ والفائق: ١/ ٣٤ ومحاضرات الأدباء: ١/ ٤٨٦.
والرابع بمفرده له في أمالي ابن الشجري: ١/ ٨٢.

٢ ـ غداة ينادي والرجال تحوزه
بأضعف صوتٍ: اقتلوني ومالكا
٣ ـ فلم يعرفوه إذ دعاهم وغَمَّه
خِدَبٌّ عليه في العجاجة باركا
٤ ـ فنجّاه مني أكْلُه وشبابه
وأني شيخ لم أكن متماسكا
٥ ـ وقالت: علي أيّ الخصال صرعتَه
بقتلٍ أتى أم رِدَّةٍ لا أبالكا
٦ ـ أم المُحصَنَ الزاني الذي حلَّ قتلُه؟
فقلت لها: لا بدَّ من بعض ذلكا[1]

٦

وقال الأشتر في الحُدل ـ وهو ضَرْبٌ من الأقواس ـ:

١ ـ إنا إذا ما احتسبنا الوغى
أدَرْنا الرَّحى بصنوف الحُدُلْ
٢ ـ وضرباً لهاماتهم بالسيوف
وطعناً لهم بالقنا والأسَلْ
٣ ـ عرانين من مذحجٍ وسطها
يخوضون أغمارها بالهَبَلْ
٤ ـ ووائل تُسعِر نيرانَها
ينادونهم أمرُنا قد كملْ

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٦٣.
والأولان للأشتر أيضاً ومع بعض الإختر في الألفاظ في الجمل؛ ٣٧٠ والفائق: ٢/ ١٨٨. والأولان والرابع له ومع بعض الاختلاف أيضاً في النجوم الزاهرة: ١/ ١٠٦ وحياة الحيوان: ١/ ١٩٨ والشعور بالعور: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

٥ ـ أبو حسنٍ صوتُ خيشومها
بأسيافه كلُّ حامٍ بطلْ
٦ ـ على الحق فينا له منهج
على واضح القصد لا بالمَيَلْ[1]

٧

وقال لمّا سمع علياً (ع) في صفين يقول: إنني مناجز القوم إذا أصبحتُ:

١ ـ قد دنا الفصلُ في الصباح وللسَلْـ
ـمِ رجالٌ وللحروب رجالُ
٢ ـ فرجال الحروب كلُّ خِدَبٍ
مقحمٍ لا تهدُّه الأهوالُ
٣ ـ يضرب الفارسَ المدجَّج بالسَّيْـ
ـف إذا قلَّ في الوغى الأكفالُ
٤ ـ يا ابن هندٍ شدَّ الحيازيم للمو
تِ ولا يذهبنْ بك الآمالُ
٥ ـ إنَّ في الصبح إنْ بقيت لأمراً
تتفادى من هوله الأبطالُ
٦ ـ فيه عزُّ العراق أو ظَفَرُ الشا
م بأهل العراق والزلزالُ
٧ ـ فاصبروا للطعان بالأسل السُّمْـ
ـرِ وضَرْبٍ تجري به الأمثالُ

(١) وقعة صفين: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٨ ـ إن تكونوا قتلتم النفرَ البيـ
ضَ وغالت أولئك الآجالُ

٩ ـ فلنا مثلهم وإن عظم الخطـ
ـب قليلٌ أمثالهم أبدالُ[١]

١٠ ـ يخضبون الوشيج طعناً إذا جُرْ
رَتْ من الموت بينهم أذيالُ

١١ ـ طَلَبَ الفوزِ في المعاد وفي ذا
تُستهان النفوسُ والأموالُ

«فلما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشتر قال: شعرٌ منكر من شاعرٍ منكر، رأسِ أهل العراق وعظيمهم ومسعر حربهم»[٢].

٨

ومن شعره أيضاً:

١ ـ وسار ابنُ حربٍ بالغواية يبتغي
قتالَ عليٍّ والجيوش مع الحَفْلِ

٢ ـ فسرنا إليهم جهرة في بلادهم
فصُلْنا عليهم بالسيوف وبالنبلِ

٣ ـ فأهلكهم ربي وفرّق جمعهم
وكان لنا عوناً وذاقوا ردى الخَبْلِ[٣]

---

(١) لفظ هذا البيت في شرح نهج البلاغة:
فلنا منهم غداة التلاقي وقليل من مثلهم أبدال

(٢) وقعة صفين: ٤٦٩ ـ ٤٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) وقعة صفين: ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

٩

وقال في صفين بعد شهادة عمار بن ياسر:

١ ـ نحن قتلنا حوشباً
لما غدا قد أعْلَما

٢ ـ وذا الكلاع قبله
ومعبداً إذ أقدما

٣ ـ إن تقتلوا منّا أبا الـ
يقظان شيخاً مسلماً

٤ ـ فقد قتلنا منكم
سبعين رأساً مجرماً

٥ ـ أضحوا بصفين وقد
لاقوا نكالاً مؤثما[1]

١٠

«وقال الأشتر فيما كان من تخويف جرير البجلي إياه بعمرو وحوشب ذي ظُلَيْم وذي الكلام:

١ ـ لعمرك يا جرير لقَوْلُ عمرٍو
وصاحبه معاوية الشَّامي

٢ ـ وذي كَلَعٍ وحوشب ذي ظُليم
أخفُّ عليَّ من زِفّ النعامِ

٣ ـ إذا اجتمعوا عليَّ فخَلِّ عنهم
وعن بازٍ مخالبُهُ دَوامي

(١) وقعة صفين: ٣٦٤ ومروج الذهب: ٢/ ٢٧٠.

٤ ـ فلستُ بخائفٍ ما خوَّفوني
وكيف أخاف أحلام النيام

٥ ـ وهَمُّهم الذي حاموا عليه
من الدنيا وهَمّي ما أمامي

٦ ـ فإنْ أسلم أعمَّهم بحربٍ
يشيب لهولها رأسُ الغلام

٧ ـ وإنْ أهلك فقد قدَّمت أمراً
أفوز بفُلجِه يوم الخصامِ

٨ ـ وقد زأروا إليَّ وأوعدوني
ومن ذا مات من خوف الكلامِ(١)

١١

ومما نُسب له ولغيره، وقال ابن دريد: «لَما بوَّأ الأشتر النخعي لمحمد بن طلحة الرمحَ قال: حم، فطعنه الأشتر وقال:

١ ـ يذكّرني حم والرمح شاجرٌ
فهلا تلاحم قبل التقدمِ(٢)

(١) وقعة صفين: ٦١ وشرح نهج البلاغة: ٣/١١٧.
(٢) الاشتقاق: ١٤٥. وعزي البيت للأشتر أيضاً في كشف المشكل: ١/ ٢٢٢ و٥٧٠، وللأشتر أو شريح بن أوفى العبسي في لسان العرب /حمم. وعزاه أبو عبيدة لشريح العبسي في مجاز القرآن: ٢/١٩٣.
وورد البيت ـ بلا عزو ـ في المعارف: ٢٣١ وغريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٥٥ وغريب الحديث للخطابي: ١/ ٦٥٣ والفائق: ١/ ٣١٥.
وتردد المرزباني في قاتله بين عصام البصري أو كعب الأسدي أو الأشتر النخعي أو شداد العبسي ثم رجح عصاماً في نسبة الشعر إليه. يراجع معجم الشعراء: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

١٢

ومن شعره أيضاً:

١ ـ وما برحت مثل المهاة وسابح
وخطارة عبر السرى من عياليا
٢ ـ أقاسمهن العيش في الفقر والغنى
وندفع عنهن السنين احتباليا
٣ ـ فهذا لأيام الهياج وهذه
للهوى وهذي عدَّة لارتحاليا[1]

❁ ❁ ❁

وكان للأشتر ـ بالإضافة إلى ما روى الرواة له من الشعر وقد تقدم إيراد ما وقفنا عليه منه ـ رجز كثير يرجز به في حروبه وصولاته وجولاته، وقد عبَّر فيه عما يختلج في نفسه من مشاعر الشجاعة والحماسة والإقدام على خوض الغمرات، كما عبَّر في بعضه عن قوة إيمانه بربه؛ وثبات تمسكه بدينه؛ وصدق ولائه لقائده، وشدة بغضه لأعداء الحق الخارجي على إمامهم الشرعي الواجب الطاعة والاتِّباع، ونورد فيما يأتي ما وقفنا عليه من ذلك الرجز الثوري الخالد:

١

ارتجز الأشتر لما برز إلى صالح بن فيروز فقال:

١ ـ آليتُ لا أرجع حتى أضربا ٢ ـ بسيفيَ المصقول ضرباً معجبا
٣ ـ أنا ابن خير مذحجٍ مركّبا ٤ ـ من خيرها نفساً وأمّاً وأبا[2]

(١) المؤتلف والمختلف: ٢٨.

(٢) وقعة صفين: ٧٣ ـ ١٧٤ وشرح نهج البلاغة: ٣/٣٢٨.

٢

وقال مرتجزاً يوم الجمل:

١ ـ إني إذا ما الحرب أبدتْ نابها ٢ ـ وأغلقتْ يوم الوغى أبوابَها
٣ ـ ومزَّت من حنقٍ أقوابها ٤ ـ كنّا قُداماها ولا أذنابَها
٥ ـ ليس العدو دوننا أصحابها ٦ ـ مَنْ هابها اليوم فلن أهابَها
٧ ـ لا طعنَها أخشى ولا ضرابَها[1]

٣

أقبل الأشتر يضرب بسيفه أهل الشام حتى كشفهم عن الماء وهو يقول:

١ ـ لا تذكروا ما قد مضى وفاتا ٢ ـ والله ربي باعث أمواتا
٣ ـ من بعدما صاروا صدىً رفاتا ٤ ـ لأوردنَّ خيليَ الفراتا
٥ ـ شُعثَ النواصي أو يقال ماتا[2]

٤

ومن رجزه يوم صفين قوله:

١ ـ حربٌ بأسباب الردى تأجَّجُ ٢ ـ يهلك فيها البطل المدجَّجُ
٣ ـ يكفيكها همدانها ومذحجُ ٤ ـ قوم إذا ما أحمشوها أنضجوا
٥ ـ روحوا إلى الله ولا تعرِّجوا ٦ ـ دين قويم وسبيل منهجُ[3]

❀ ❀ ❀

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٦٠.
(٢) وقعة صفين: ١٧٩ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٣٠.
(٣) وقعة صفين: ٤٠٤، والأخيران في المناقب: ١/ ٦٢٧.

٥

وقال مخاطباً الأجلح وكان من الفرسان المعروفين:

١ ـ بُليتَ بالأشتر ذاك المذحجي ٢ ـ بفارسٍ في حلق مدجَّج
٣ ـ كالليث ليث الغابة المهيَّجِ ٤ ـ إذا دعاه القِرنُ لم يُعَرِّجِ[(١)]

٦

ومن رجزه:

١ ـ هذا عليٌّ في الدجى مصباحُ ٢ ـ نحن بذا في فضله فصاحُ[(٢)]

٧

ومن رجزه:

١ ـ ميعادنا الآن بياض الصبحِ ٢ ـ لا يصلح الزاد بغير ملحِ[(٣)]

٨

ومن رجزه في صفين:

١ ـ نعمْ نعمْ أطلبه شهيدا ٢ ـ معي حسام يقصم الحديدا
٣ ـ يترك هامات العدا حصيدا[(٤)]

❀ ❀ ❀

(١) وقعة صفين: ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) المناقب: ١/ ٦١٥.
(٣) المناقب: ١/ ٦١٩.
(٤) وقعة صفين: ١٧٦.

٩

ومن رجزه فيها مخاطباً أحد من برز له من الأعداء:

١ ـ رويد لا تجزعَ من جلادي ٢ ـ جلاد شخصٍ جامع الفؤادِ
٣ ـ يجيب في الروع دُعَا المنادي ٤ ـ يشد بالسيف على الأعادي(١)

١٠

وقال مرتجزاً:

١ ـ إني أنا الأشتر معروف السِّيَرْ ٢ ـ إني أنا الأفعى العراقي الذَّكَرْ
٣ ـ لستُ من الحيِّ ربيعٍ أو مُضَرْ ٤ ـ لكنني من مذحج الغُرِّ الغُرَرْ(٢)

١١

ومن رجزه في صفين:

١ ـ في كل يومٍ هامتي مقيَّرَهْ ٢ ـ بالضرب أبغي مِنَّةً مؤخَّرهْ
٣ ـ والدرع خير من برود حبرهْ ٤ ـ يا رب جنِّبْني سبيل الكفرهْ
٥ ـ واجعل وفاتي بأكفّ الفجرهْ ٦ ـ لا تعدل الدنيا جميعاً وَبَرَهْ
٧ ـ ولا بعوضاً في ثواب البَرَرَهْ(٣)

❀ ❀ ❀

---

(١) وقعة صفين: ١٧٥.
(٢) وقعة صفين: ٣٩٦ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٣ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٢٣.
(٣) وقعة صفين: ٤٢٩، والمشاطير ٢ و٤ و٥ و٧ ـ مع اختلاف في بعض الألفاظ ـ في المناقب: ١/ ٦٢١، والمشاطير ٣ ـ ٧ مع اختلاف أيضاً في بعض ألفاظها في شرح نهج البلاغة: ٨/ ٧١.

١٢

وقال معقباً على فرار بُسْرٍ من الميدان أثر إبدائه عورته:

١ ـ كلّ يومٍ رجُلُ شيخٍ شاغرَهْ ٢ ـ وعورة وسط العجاج ظاهرهْ
٣ ـ تُبرزها طعنةُ كفّ واترَهْ ٤ ـ عمرو وبسرٌ رُميا بالفاقره[١]

١٣

ومن رجزه يوم الجمل:

١ ـ اسمع ولا تعجل جواب الأشترِ ٢ ـ واقربْ تلاقِ كأس موتٍ أحمرِ
٣ ـ ينسيكَ ذكر الجمل المشهَّرِ[٢]

١٤

ومن رجزه يوم صفين:

١ ـ يا ليت شعري كيف لي بعمرو ٢ ـ ذاك الذي أوجبتُ فيه نذري
٣ ـ ذاك الذي أطلبه بوتري ٤ ـ ذاك الذي فيه شفاء صدري
٥ ـ ذاك الذي إن ألقه بعمري ٦ ـ تَغْلي به عند اللقاء قِدْري
٧ ـ أجعله فيه طعام النسرِ ٨ ـ أوْ لا فربي عاذري بعذري[٣]

١٥

ومن رجزه يخاطب عمرو بن العاص:

١ ـ ويحك يا ابن العاصِ ٢ ـ تنح في القواصي
٣ ـ أهرب إلى الصَّياصي ٤ ـ اليوم في عراصِ

---

(١) وقعة صفين: ٤٦١ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٩٦.
(٢) المناقب: ١/ ٦١٤.
(٣) وقعة صفين: ٤٤٠، كما وردت المشاطير ولفظ بعضها مختلف في شرح نهج البلاغة: ٨/ ٨٠.

٥ ـ نـأخـذ بـالـنـواصـي ٦ ـ لا نـحـذر الـتـنـاصـي
٧ ـ نـحـن ذوي الـخـمـاصِ ٨ ـ لا نـقـرب الـمـعـاصـي
٩ ـ فـي الأدرع الـدلاصِ ١٠ ـ في الموضع المُصاصِ[1]

١٦

وقال مرتجزاً في أحد أيام صفين:

١ ـ لستُ وإنْ يُكْرَه ذا الخلاط ٢ ـ لَيس أخو الحرب بذي اختلاطِ
٣ ـ لكنْ عبوس غير مستشاطِ ٤ ـ هذا عليٌّ جاء في الأسباطِ
٥ ـ وخلَّف النعيم بالإفراطِ ٦ ـ بعرصةٍ في وسط البلاطِ
٧ ـ منحَّل الجسم من الرباطِ ٨ يحكم حُكْمَ الحق لا اعتباط[2]

١٧

ومن رجزه أيضاً:

١ ـ اليوم يوم الحفاظْ ٢ ـ بين الكماة الغلاظْ
٣ ـ نحفزها والمظاظُ[3]

١٨

وقال مخاطباً حوشباً ذا ظُلَيْم أحد رجال معاوية:

١ ـ يا حوشب الجلف ويا شيخ كَلَعْ ٢ ـ أيكما أراد أشتر النخعْ
٣ ـ ها أنا ذا وقد يهولك الفَزَعْ ٤ ـ في حومةٍ وسط قرارٍ قد شرعْ
٥ ـ ثم تلاقي بطلاً غير جَزِعْ ٦ ـ سائل بنا طَلْحَ وأصحاب البدعْ

---

(١) وقعة صفين: ١٧٠.
(٢) وقعة صفين: ١٨١.
(٣) وقعة صفين: ١٧١.

٧ ـ وسل بنا ذات البعير المضطجعْ ٨ ـ كيف رأوا وقع الليوث في النَّقَعْ
٩ ـ تلق امرءاً كذاك ما فيه خَلَعْ ١٠ ـ وخالف الحقَّ بدينٍ وابتدعْ(١)

١٩

وقال مرتجزاً لما شدّ على زامل بن عتيك الحزامي وكان من أصحاب ألوية معاوية:

١ ـ لا بدَّ من قتليَ أو من قتلكا ٢ ـ قتلتُ منكم خمسةً من قبلكا
٣ ـ وكلهم كانوا حماة مثلكا(٢)

٢٠

وقال مخاطباً في رجز مالك بن أدهم وقد شدَّ عليه بالرمح:

١ ـ خانك رمحٌ لم يكن خوّانا ٢ ـ وكان قِدْماً يقتل الفرسانا
٣ ـ لويته لخير ذي قحطانا ٤ ـ لفارسٍ يخترم الأقرانا
٥ ـ أشهل لا وغلاً ولا جبانا(٣)

٢١

وقال لما حمل على محمد بن روضة:

١ ـ لا يبعد الله سوى عثمانا ٢ ـ وأنزل الله بكم هوانا
٣ ـ ولا يسلّي عنكم الأحزانا ٤ مخالفٌ قد خالف الرحمانا
٥ ـ نصرتموه عابداً شيطاناً(٤)

---

(١) وقعة صفين: ١٨٣، وقد نقلنا المشاطير كما وردت في المصدر المذكور.
(٢) وقعة صفين: ١٧٧.
(٣) وقعة صفين: ١٧٥.
(٤) وقعة صفين: ١٧٨.

٢٢

ومن الرجز المنسوب إليه في صفين:

١ ـ أضـربـهـم ولا أرى مـعـاويَـهْ ٢ ـ الأخزر العين العظيم الحاويَهْ
٣ ـ هـوث بـه فـي الـنـار أُمّ هـاويَـهْ ٤ ـ جـاوَرَهـا فـيـهـا كـلابٌ عـاوَيْـه
٥ ـ أغـوى طـغـامـاً لا هَـدَتْـه هـاديَـهْ[1]

---

(١) وقعة صفين: ٣٩٩.

وحينما بدأت حروب الفتح الإسلامي لإعلاء لكمة الله في الأرض ونشر رسالة الإسلام في أرجاء المعمورة؛ شارك مالك مشاركة فعالة في هذه الحروب، وكان له فيها وجود بارز وأثر مشهود.

ويأتي في طليعة تلك المعارك الكبرى الفاصلة يوم اليرموك ووقائعه الدامية، لما التحم الجيشان واشتد سعار الحرب، فصال مالك خلال ذلك صولاته المأثورة المشهورة. وروى الرواة وهم يتحدثون عن قائد جيش الكفر ماهان: أن «أول مَنْ برز إليه مالك النخعي، ثم جاوله في ميدان الحرب، فقال له ماهان: أنت خالد بن الوليد؟ قال: لا؛ أنا مالك النخعي صاحب رسول الله (ص)، فحمل على مالك وضربه بعموده على بيضته، فغاصت البيضة في جبهته فشترت عينه، فمن ذلك اليوم سُمِّي الأشتر وكان من فرسان العرب، فصبَّر نفسه وحمل على ماهان. . . قال مالك: فاستعنت عليه بالله عز وجل وصلّيتُ على محمد (ص)، وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن، فلما أحسَّ بحرارة الضربة ولّى منهزماً»[1].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ١/٢٦٨، ومختصر منه في المعارف: ٥٨٦ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٠١، ويراجع في فقدان مالك إحدى عينيه في ذلك اليوم: المحبر: ٢٦١ و٣٠٣ والمعارف: ٥٨٦ ومعجم الشعراء: ٣٦٢ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤ والإصابة: ٣/ ٤٥٩ وصبح الأعشى: ١/ ٤٤٩.

ثم شارك بعد اليرموك في كثير من تلك الحروب وفي جبهات متعددة، ومنها فتوح دمشق وسائر بلاد الشام(١)، وفتوح مصر وبلاد البهنسا(٢)، وكذلك فتوح العراق(٣) وبلاد الروم(٤).

وتدل المصادر التاريخية على أن مالكاً قد اختار الاستراحة والاستجمام لبعض الوقت؛ بعد ذلك الجهاد المضني الواسع الجبهات والمتعدد المواقع، وانتقى الكوفة من بين الحواضر الإسلامية مقراً له ومسكناً، حتى صار يعد «من الطبقة الأولى من أهل الكوفة»(٥).

وتشاء الأقدار أن تتسارع الأحداث والمفاجآت بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب وأن يصبح عثمان بن عفان هو الخليفة الجديد المتربع على كرسي إمارة المسلمين.

وكان في طليعة أعمال عثمان الإدارية ـ وقد أصبح الحاكم بأمره ـ تسليم ذوي قرباه الأمويين وأنسبائهم وأصهارهم وحتى الأخوة من الرضاعة أزِقَّة الحكم وولاية شؤون المراكز والأقاليم وصار سعيد بن العاص من بين أولئك الخاصّة والياً على الكوفة.

وروى ابن أعثم الكوفي وغيره من المؤرخين في خلاصة أخبار هذا الوالي ومجمل تصرفاته المتصلة بالأشتر ما جاء فيه ـ واللفظ لابن أعثم ـ:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٤١ وفتوح الشام: ١/ ٥٢ و٧٨ و٨٩ و١٤٠ و١٤١ و١٧٦ ـ ١٧٩.
(٢) فتوح الشام: ٢/ ٣٦ ـ ٣٨ و٤٠ و٤٢ و١٦٩ ـ ١٧٠ و١٧٨ و١٨٠ و١٩٠.
(٣) فتوح الشام: ٢/ ١١٩ و١٣٨ و١٤١.
(٤) فتوح البلدان: ١٦٨ وفتوح الشام: ٢/ ١٤٩ و١٥١ و١٥٧ ـ ١٥٨.
(٥) طبقات خليفة: ١/ ٣٣٥ والإصابة: ٣/ ٤٥٩ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢.

«بينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده وجوه أهل الكوفة، إذ تكلم حسان بن محدوج الذهلي فقال: والله إن سهلنا لخيرٌ من جبلنا. فقال عدي بن حاتم: أجل؛ السهل أكثر بُرّاً وخصباً وخيراً. فقال الأشتر: وغير هذا أيضاً؛ السهل أنهاره مطاردة ونخله باسقات... والجبل خورٌ وعرٌ يحفي الحافر؛ وصخره يعمي البصر ويحبس عن السفر، وبلدتنا هذه لا ترى فيها ثلجاً ولا قراً شديداً. فقال عبدالرحمن بن خنيس (أو: حبيش) الأسدي صاحب شرطة سعيد بن العاص: هو لعمري كما تذكرون، ولوددت أنه كله للأمير؛ ولكم أفضل منه. فقال الأشتر: يا هذا؛ يجب عليك أن تتمنى للأمير أفضل منه ولا تتمنى له أموالنا، فما أقدرك أن تتقرب بغير هذا. فقال عبد الرحمن بن خنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر!؛ فوالله إن شاء الأمير لكان هذا كله له. فقال له الأشتر: كذبتَ والله يا ابن خنيس، والله إن لو رام ذلك لما قدر عليه، ولو رمتَه أنت لفزعت دونه فزعاً يُذِلُّ ويجشع».

«فغضب سعيد بن العاص من ذلك ثم قال: لا تغضب يا أشتر، فإنما السواد كله لقريش، فما نشاء منه أخذنا وما نشاء تركنا، ولو أن رجلاً قدَّم فيه رِجْلاً لم يرجع إليه؛ أو قدَّم فيه يداً لقطعتُها. فقال له الأشتر: أنت تقول هذا أم غيرك؟!، فقال سعيد بن العاص: لا بل أنا أقوله. فقال الأشتر: أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستاناً لك ولقومك، والله ما يصيبك من العراق إلا كل ما يصيب رجلاً من المسلمين. ثم التفت الأشتر إلى عبدالرحمن ابن خنيس فقال: وأنت يا عدو الله ممن يزيّن له رأيه في ظلمنا والتعدي علينا لكونه ولاّك الشرطة».

«ثم مدَّ الأشتر يده فأخذ حمائل سيف ابن خنيس فجذبه إليه وقال:

دونكم يا أهل الكوفة هذا الفاسق فاقتلوه حتى لا يكون للمجرمين ظهير، فأخذته الأيدي حتى وقع لجنبه ثم جروا برجله. فوثب سعيد بن العاص مسرعاً حتى دخل إلى منزله، وقام الأشتر فخرج من المسجد، وخرج معه أصحابه وهم يقولون: وفقك الله فيما صنعتَ وقلتَ، فوالله لئن رخَّصنا لهؤلاء قليلاً لزعموا أن دورنا وموارثنا التي ورثناها عن آبائنا في بلادنا لهم من دوننا».

«فكتب سعيد بن العاص من ساعته بذلك إلى عثمان كتاباً في أوله: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدالله عثمان أمير المؤمنين من سعيد بن العاص، أما بعد: فإني أُخبر أمير المؤمنين أني ما أملك من الكوفة شيئاً مع الأشتر النخعي ومعه قوم يزعمون أنهم القراء؛ وهم السفهاء!!، فهم يردُّون عليَّ أمري ويعيبون عليَّ صالح أعمالي، وأن الأشتر كان بينه وبين صاحب شُرَطتي كلام ومراجعة في شيء لا أصل له، فأغرى به الأشتر سفهاء أصحابه وأشرار أهل المِصر حتى وثبوا عليه وأنا جالس، فضربوه حتى وقع لجنبه وهو لِمَا به. فليكتب إليَّ أمير المؤمنين برأيه أعمل به إن شاء الله».

«فكتب إليه عثمان كتاباً في أوله: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنك لا تملك من الكوفة شيئاً مع الأشتر، ولعمري إنك تملك منها العريض الطويل، وقد كتبتُ إلى الأشتر كتاباً وضمنتُه كتابك فادفعه إليه، وانظر أصحابه هؤلاء الذين ذكرتَهم فألحقهم به. والسلام».

«ثم كتب عثمان إلى الأشتر: أما بعد؛ فقد بلغني يا أشتر أنك تُفَقِّح وتريد أن تنبح، وأيم الله إني لأظن أنك تستر أمراً لو أنك أظهرتَه لحلّ به دمك، وما أراك منتهياً عن الفتنة أو يصيبك الله بقارعة ليس معها

بقيا. فانظر إذا أتاك كتابي هذا فقرأته ورأيت أن لي عليك طاعة فسِرْ إلى الشام فتكون بها مقيماً حتى يأتيك أمري، وأعلم أني إنما اسيِّرك إليها لا لشيء إلا لإفسادك على الناس، وذلك بأنك لا تألوهم خبالاً وضلالاً».

«فلما ورد كتاب عثمان على الأشتر وقرأه عزم على الخروج عن الكوفة. وأرسل إليه سعيد بن العاص: أن اخرج وأخرج من كان معك على رأيك. فأرسل إليه الأشتر: إنه ليس بالكوفة أحد إلا وهو يرى رأيي فيما أظن، إنهم لا يحبون أن تجعل بلادهم بستاناً لك ولقومك، وأنا خارج فيمن اتبعني فأنظر فيما يكون من بعد هذا».

«ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم: صعصعة بن صوحان العبدي، وأخوه، وعائذ بن حملة الظهري، وجندب بن زهير الأزدي، والحارث بن عبدالله الأعور الهَمْداني، وأصفر بن قيس الحارثي، ويزيد بن المكفف (كذا)، وثابت بن قيس بن منقع، وكميل بن زياد، ومَنْ أشبههم من أخوانهم، حتى صاروا [إلى دمشق] إلى كنيسة يقال لها كنيسة مريم. فأرسل إليهم معاوية فدعاهم، فجاؤوا حتى دخلوا ثم سلموا وجلسوا، فقال لهم معاوية: يا هؤلاء؛ اتقوا الله ولا تكونُنَّ كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات.. وتكلم الأشتر فقال:

«أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمة برسوله محمد (ص) فجمع به كلمتها وأظهرها على الناس، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث، ثم قبضه الله عز وجل إلى رضوانه ومحل جنانه... ثم حدثت بعد ذلك أحداث، فرأى المؤمنون من أهل طاعة الله أن ينكروا الظلم وأن يقولوا بالحق، فإن أعاننا ولاتنا أعفاهم الله من هذه الأعمال التي لا يحبها أهل الطاعة؛ ونحن معهم ولا نخالف عليهم، وإن أبوا

ذلك فإن الله تبارك وتعالى قد قال في كتابه وقوله الحق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾، فلسنا يا معاوية بكاتمي برهان الله عز وجل؛ ولا بتاركي أمر الله لمن جهله حتى يعلم مثل الذي علمنا، وإلا فقد غششنا أئمتنا وكنا كمن نبذ الكتاب وراء ظهره».

«فقال له معاوية: يا أشتر؛ إني أراك معلناً بخلافنا مرتضياً بالعداوة لنا، والله لأشدنَّ وثاقك ولأُطيلنَّ حبسك. فقال له عمرو ابن زرارة: يا معاوية؛ لئن حبستَه لتعلمنَّ إن له عشيرة كثيرة؛ عددها لا يضام، شدُّها شديدٌ على من خالفها ونبذها. فقال معاوية: وأنت يا عمرو تحب أن يُضرب عنقك ولا تُترك حياً، اذهبوا بهم إلى السجن».

«فقام زيد بن المكفكف (كذا) فقال: يا معاوية، إن القوم بعثوا بنا إليك ولم يكن بهم عجز في حبسنا في بلادنا لو أرادوا ذلك، فلا تؤذنا وأحسن مجاورتنا ما جاورناك، فما أقل ما نجاورك حتى نفارقك إن شاء الله تعالى. ثم وثب صعصعة بن صوحان فقال: يا معاوية، إن مالك بن الحارث الأشتر وعمرو بن زرارة رجلان لهما فضل في دينهم وحالة حسنة في عشيرتهم، وقد حبستَهم فأمُرْ بإخراجهم، فذلك أجمل في الرأي».

«فقال معاوية: عليَّ بهم. فأُتِي بهم من الحبس... فخرج القوم من عند معاوية وصاروا إلى منازلهم. فلم يزالوا مقيمين بالشام، وقد وُكِّل بهم قوم يحفظونهم أن لا يبرحوا».

وقدم على عثمان في تلك السنة قوم من الكوفة «فعاتبوه على تسييره الأشتر وأصحابه إلى الشام؛ ثم شكوا عاملهم سعيد بن العاص. وجاء أقوام آخرون من البصرة فشكوا عاملهم عبدالله بن عامر بن كريز.

وكثرت الشكايات إلى عثمان من عماله من جميع البلاد»[١].

وروى الطبري: إن هؤلاء المنفيين قد أُعيدوا إلى الكوفة بعد ذلك بأمر عثمان، «فلم يكونوا إلا أَطْلَق ألسنةً منهم حين رجعوا. وكتب سعيد إلى عثمان يضج منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أنْ سَيِّرْهم إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وكان أميراً على حمص».

وكتب عثمان «إلى الأشتر وأصحابه: أما بعد، فإني قد سَيَّرْتُكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فأخرجوا إليها، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شرّاً!، والسلام».

«فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: اللهم، أسوأنا نظراً للرعية وأعملنا فيهم بالمعصية فعَجِّلْ له النقمة. فكتب بذلك سعيد إلى عثمان، وسار الأشتر وأصحابه إلى حمص»[٢].

وتقول رواية الطبري: إن عبدالرحمن بن خالد قام بتسريح الأشتر إلى عثمان بعد حين من إقامته في حمص[٣]، ولكن رواية ابن أعثم تنص على أن الأشتر وأصحابه ظلوا هناك حتى ورد على الأشتر كتاب أهل الكوفة إليه[٤].

❀ ❀ ❀

ومع أن جميع ما أسلفنا ذكره من الحوادث المتبادلة بين الوالي

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٧٠ ـ ١٧٨. وبهذا المضمون مع بعض الزيادة والنقصان في تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣ والأغاني: ١٢/ ١٤١ ـ ١٤٢ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٧١ ـ ٧٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٠.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٩٠.

سعيد وجمهور أهل الكوفة؛ ومن أمر عثمان بنفي أولئك الجماعة إلى دمشق أولاً ثم إلى حمص بعد ذلك؛ ومن ارتفاع أصوات المسلمين بالتظلم والسخط على الخليفة وولاته، كان من المعلومية والشهرة بمكان؛ وهو المعروف والمسلَّم به لدى المؤرخين ونقلة الأحداث، فإن أحد مدَّعي رواية التاريخ ـ وهو الكذّاب الوضّاع المُلفِّق سيف بن عمر[1] ـ قد اختلق لتبرير هذه السيئات وتغطية أفعال الحاكمين الخارجة على الشرع والدين؛ قصةً متخيَّلة حاول فيها تنميق الكذب وتشويه الحقائق، بتوهم قدرته على التمويه في تغيير مسار الأمور عن واقعها الصارخ الواضح؛ وتبرئة ساحة الخليفة وحاشيته وولاته في الكوفة ودمشق وحمص من تحمُّل مسؤولية تلك المظالم، فقال في قصته المزعومة:

إن سعيد بن العاص جلس للناس يوماً فدخلوا عليه، فبينا هم جلوس يتحدثون إذ تمنى ابنُ صاحب الشرطة ـ وكان أحد الحضّار ـ أن يكون ما على جانب الفرات الذي يلي الكوفة من الزروع والبساتين للوالي سعيد، «فثار إليه الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل بن زياد وعمير بن ضابىء؛ فأخذوه، فذهب أبوه ليمنع منه فضربوهما حتى غُشِيِ عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويؤبون حتى قضوا منهما وطراً. فسمعت بذلك بنو أسد فجاؤوا.. وركبت القبائل، فعاذوا [ويعني بهم سيفٌ أولئك الذين ضربوا صاحب الشرطة وابنه] بسعيدٍ وقالوا: أفْلِتْنا وخلّصنا. فخرج سعيد إلى الناس فقال: أيها الناس؛ قوم تنازعوا وتهاووا، وقد رزق الله العافية».

«فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم،

---

(١) يراجع في الطعون بسيف بن عمر وبيان روايته الأكاذيب والموضوعات الملفقة وإتهامه بالزندقة: كتاب الاستيعاب: ٣/ ٢٥٢ والإصابة: ٣/ ٢٣٠ و٤/ ٣٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

فكتب: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية. فأخرجوهم، فذلوا وانقادوا حتى أتوه وهم بضعة عشر... وكتب عثمان إلى معاوية: إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خُلِقوا للفتنة فرُعْهم وقم عليهم، فإن آنستَ منهم رشداً فأقبل منهم، وإن أعيوك فارددهم عليهم».

«فلما قدموا على معاوية رحَّب بهم... وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق... فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم... وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلَّة كما كنتم، إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة فلا تشذوا عن جنتكم!... فقال رجل من القوم: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية؛ فتُخَوِّفنا، وأما ما ذكرتَ من الجُنَّة فإن الجنة إذا اختُرِقَتْ خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمتُ أن الذي أغراكم على هذا قلَّة العقول!!.... ثم قام وتركهم، فتذامروا فتقاصرت إليهم أنفسهم. فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذنتُ لكم فاذهبوا حيث شئتم».

«وخرج القوم من دمشق فقالوا: لا ترجعوا إلى الكوفة فإنهم يشتمون بكم... فأووا إلى الجزيرة... وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ وكان معاوية قد ولاّه حمص ـ... فدعا بهم فقال: يا آلة الشيطان!، لا مرحباً بكم ولا أهلاً... فأقامهم أشهراً... ثم سرَّح الأشتر إلى عثمان، وقال لهم: ما شئتم؛ إن شئتم فأخرجوا، وإن شئتم فأقيموا»[1].

وهكذا انتهت قصة نفي هؤلاء الصلحاء من الكوفة إلى دمشق

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣١٧ ـ ٣٢٢.

فحمص؛ كما وضعها سيف بن عمر فيما مسخ وحرَّف من وقائع تلك المأساة منذ يومها الأول حتى الخاتمة، وحسبنا في التعليق على كل ذلك أن نتلو بإيمانٍ وتصديق قوله تعالى في محكم كتابه المجيد وفرقانه الحميد: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وعلى كل حال، فقد أصبح هؤلاء المناضلون الأتقياء منذ اليوم مُطْلَقي السراح من قيودهم الجائرة؛ وبلا إلزامٍ بتحديد حركةٍ أو إقامةٍ جبرية في مكان معيَّن.

وفي خلال هذه الأيام ورد على الأشتر كتابٌ من أهل الكوفة جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من جماعة أهل الكوفة إلى مالك بن الحارث: سلام عليك، أما بعد، فأنَّا نخبرك بالصحيح من الأمر: إنه قد اجتمع الملأ من إخوانك فتذاكروا أعمال الظلمة وأحداث المبتدعة وما أتى إليك وإلى نظرائك من المسلمين، فرأوا أنهم لا يسعهم الإقرار على ذلك ولا الرضا به، وقد خرج عنّا سعيد بن العاص مرة وهذه ثانية إلى صاحبه عثمان، وقد أعطينا الله تبارك وتعالى عهودنا ومواثيقنا أن لا يدخل علينا سعيد بن العاص والياً أبداً، فالعجل العجل علينا إن كنتَ تريد أن تدركنا وتشد على أمورنا. والسلام».

«فلما قرأ الأشتر كتاب أهل الكوفة جعل يتمثل بهذا البيت لقيس بن الخطيم الأنصاري حيث يقول:

ولما رأيتُ الحرب قد جدَّ جدُّها
لبستُ مع البُردين ثوب المحاربِ[1]

وحدَّث ابن أعثم الكوفي:

أن الأشتر نادى في أصحابه بالرحيل، «فرحلوا حتى وافوا الكوفة

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٩٠.

لاثنتي عشرة ليلة من مسيرهم.. فدخل الأشتر الكوفة، وجاء حتى دخل المسجد الأعظم، فصعد المنبر وقد اجتمع إليه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى بعث فيكم رسوله محمداً (ص) بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً بيَّن فيه الحلال والحرام والفرائض والسنن، ثم قبضه إليه وقد أدى ما كان عليه... وهذا عثمان بن عفان قد علمتم ما كان منه من الأحداث المكروهة والأفعال القبيحة بأصحاب النبي (ص). والآن حين قرأنا كتاب الله عز وجل وتفقهنا في دين الله يريد أن نبدل دين الله أو نغير سنة نبينا محمد (ص)، كلا والله لا نفعل ذلك أبداً. ألا ولا يصبح أحدٌ منكم إلا بالجَرعة فإني معسكر هنالك إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله».

«فلما قضى الأشتر كلامه وثب إليه قبيصة بن جابر الأسدي وقال: يا أشتر؛ دام شترك، وعفا أثرك، شتر الله دينك كما شتر عينك، فلقد أطلتَ الغيبة وجئتَ بالخيبة، أتأمر بالفتنة ونكث البيعة وخلع الخليفة... ثم أخذ كفّاً من حصباء المسجد فحصبه، فضرب الناس يده فقصرت الحصباء ولم تبلغ الأشتر. فصاح به الأشتر وقال: وما أنت أيها العسير الخضوف والكلام في أمر العامة، والله ما أسلم قومك إلا كرهاً؛ ولا هاجروا إلا فقراً».

«ثم وثب الناس على قبيصة فضربوه وطردوه وأخرجوه، وقام رجل من أهل المسجد فناشدهم الله حتى كفوا عنه، واحتُمِل قبيصة إلى منزله. ونزل الأشتر عن المنبر ونادى في الناس فاجتمعوا إليه، واستقبل فصلى بالناس، فلما انفتل عن صلاته أمر بإخراج خليفة سعيد بن العاص من القصر فأخرجوه».

«ثم خرج الأشتر فعسكر بالجرعة بين الكوفة والحيرة، وبعث بعائذ بن حملة الظهري فعسكر في طريق البصرة في خمسمائة فارس، وبعث حمزة بن سنان الأسدي إلى عين التمر فعسكر هنالك ليكون مسلحةً فيما بينه وبين أهل الشام في خمسمائة فارس، وبعث بعمرو ابن أبي حنة الوداعي إلى حلوان وما والاها في ألف فارس، وبعث يزيد بن حجية التيمي إلى المدائن وكوخى وما والاها في سبعمائة فارس»[(١)].

ثم تسارعت الأحداث وتفاقمت المشاكل وتلاحقت الأزمات نتيجة تراكم أفعال السلطة وتصرفاتها السيئة، ولم يجد المسلمون بدّاً في هذه الحال من الزحف من حواضرهم إلى المدينة المنورة ليعيدوا مسيرة الخلافة إلى طريق الحق والعدل، بعد أن نفد الصبر ودبَّ اليأس إلى النفوس بفعل ذلك الانحراف الصارخ عن تعاليم الدين والخروج الفاضح على أحكام الشرع ومنهج الإسلام.

وكان في مقدمة الزاحفين من الكوفة وعلى رأسهم: الأشتر النخعي[(٢)].

وأطبق الثوار المسلمون على دار عثمان أثر فشل المفاوضات فحاصروا الخليفة فيه، فلم يكن لدى عثمان مناص من استدعاء الأشتر والاستعانة به في تلك اللحظات الحاسمة، فجاءه ـ فيما روى الطبري ـ فقال له عثمان: «يا أشتر؛ ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاثاً ليس من

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٩١ ـ ١٩٣، ومضمون بعضه في تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٥ ومروج الذهب: ٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧ والأغاني: ١٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٣٠ ـ ١٣٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٤٩ والمعارف: ١٩٦ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣١ والعقد الفريد: ٤/ ٢٨٦ و٢٩٣ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٧٩ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٤٠.

إحداهن بدٌّ. قال: ما هُنَّ؟. قال: يخيِّرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول: هذا أمركم فاختاروا له مَن شئتم، وبين أن تُقِصَّ من نفسك، فإن أبيتَ هاتين فإن القوم قاتِلوك. فقال: أما من إحداهنَّ بد؟. قال: ما من إحداهن بدٌّ»، فرفض عثمان هذه المطالب الثلاثة، «فقام الأشتر من عنده»[1].

ثم اشتد الحصار على عثمان وبدأت المواجهة تعنف وتتصاعد، وروى ابن أعثم: أن الأشتر قد اقتحم دار الخليفة في نهاية المطاف «وسيفه في يديه، فنظر إليه مولى لعثمان فحمل عليه يريد قتله، فالتفت إليه الأشتر فضربه فقتله. ثم شدَّ على عبدالله بن وهب ابن زمعة بن الأسود فقتله، ثم حمل على مولى لعثمان فضربه ضربةً فأتبَّ يده اليسرى ثم ضربه أخرى فقتله، وشدَّ على عبدالله بن ميسرة بن عوف فقتله، ثم أقبل الأشتر يريد عثمان ليقتله فلما نظر إليه وحيداً ليس عنده مانع تذمَّم واستحيا، فرجع عنه»[2].

ثم كان ما كان، وقُتِل عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢ والعقد الفريد: ٤/ ٢٩٣.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

واتجهت أنظار جماهير المسلمين عامةً ـ وهم يريدون العودة إلى حكم الله وسنة رسوله؛ وتطبيق الإسلام الصحيح؛ وتجسيد العدالة والمساواة في سلوك الحاكم وعمله ـ إلى من يعلمون علم اليقين بقيامه بذلك، ويثقون كل الثقة بتنفيذه تلك الطموحات على أفضل الوجوه؛ لاجتماع المؤهلات المطلوبة فيه، ولم يكن ذلك مضموناً ومقطوعاً به لديهم في غير علي بن أبي طالب (ع).

وقال الشيخ المفيد ملخِّصاً بيان ما وقع في ذلك اليوم:

«لما قُتِل عثمان مال الناس إلى علي بن أبي طالب (ع)، ولم يعدلوا به طلحة ولا غيره. وخرجوا في طلب عليّ يتقدمهم الأشتر ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر حتى أتوا علياً (ع) وهو في بيتٍ سكن فيه، فقالوا له: بايِعْنا على الطاعة لك. فتلكأ ساعة، فقال الأشتر: يا علي؛ إن الناس لا يعدلون بك غيرك، فبايع قبل أن تختلف الناس»[1].

ولم يجد عليٌّ (ع) بداً بعد اجتماع الناس إليه وانثيالهم عليه من الإذعان لذلك والقبول به على الرغم من جميع الصعاب المتوقعة والمشاكل المنتظرة[2].

---

(١) الجمل: ١٦٢.

(٢) يراجع في ذلك سيرة الإمام علي بن أبي طالب: ٥٣ ـ ٥٧ [الموسوعة ـ المجلد الثالث].

وتقول الروايات التاريخية: إن الأشتر كان من طلائع المبادرين إلى بيعة عليّ (ع)، بل قيل إنه أول المبايعين(١).

ثم تعاقب الناس على البيعة زرافات ووحدانا؛ حتى لم يبق بالمدينة من أهلها ومن الثوار القادمين إليها من لم يعلم البيعة والانقياد سوى نفر ضئيل اختار طريق التمرد والعناد وشذَّ عن الإجماع وسواء السبيل، فأقبل عمار بن ياسر إلى علي (ع) فقال له:

«يا أمير المؤمنين، إن الناس قد بايعوك طائعين غير كارهين، فلو بعثتَ إلى أسامة بن زيد وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك فدعوتهم ليدخلوا فيما دخل فيه الناس من المهاجرين والأنصار».

«فقال علي (ع): إنه لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا».

«فقال له الأشتر: يا أمير المؤمنين، إننا وإن لم يكن لنا في السابقة ما لهم، فإنهم ليسوا بشيء أَوْلى من أمور المسلمين منّا، وهذه بيعة عامة الخارج منها طاعن علينا، فلا تدعهم أو يبايعوا، فإن الناس اليوم إنما هم باللسان وغداً بالسنان، وليس كل مَنْ يتثاقل عليك كمن يخفُّ معك، وإنما أرادك القوم لأنفسهم فردهم لنفسك».

فقال له علي (ع): «إني أعرف بالناس منك»(٢).

ثم بدأ توافد المسلمين من البلدان والأقاليم البعيدة عن المدينة للبيعة، وخصوصاً تلك البلدان التي لم يكن لها إسهام مباشر في الثورة

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٤٤ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٣٣ والجمل: ١٠٨ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٧.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

على عثمان ولم يكن لها من أبنائها من شارك في إسقاط النظام المقبور، وفي مقدمة هؤلاء أهل اليمن الذين زحفت وفودهم وهي تحمل الطاعة لعلي (ع) وتعلن الموالاة له. وتقول الرواية: إنهم لما قربوا من المدينة المنورة «بلغ ذلك عليّ بن أبي طالب (ع) فدعا بالأشتر النخعي فأمره أن يخرج فيتلقاهم في أهل المدينة. فخرج الأشتر في تعبية حسنة حتى تلقاهم فرحَّب بهم وقال: قدمتم خير مقدم إلى قوم يحبونكم وتحبونهم، وإلى إمام عادل وخليفة فاضل قد رضي به المسلمون وبايعه الأنصار والمهاجرون. فدخل القوم المدينة فنزلوا، وجاء الأشتر حتى دخل على علي (ع) رافعاً صوته وهو يقول أبياتاً» بهذه المناسبة[١].

وكان من أوائل أعمال أمير المؤمنين (ع) وإنجازاته الإدارية اختيار العمال والولاة وتحديد أماكن عملهم وحواضر ولاياتهم، ويروي ابن أبي الحديد في هذا السياق: أن علياً (ع) لما ولّى أبناء عمه العباس أمور الحجاز واليمن والعراق أعلن الأشتر اعتراضه على هذا الاختيار لأن هؤلاء الثلاثة من أرحامه وذوي قرباه، وقال في استنكار ذلك: «فلماذا قتلنا الشيخ بالأمس!؟»، فما كان من علي (ع) لما بلغته هذه الكلمة إلا أن يُحضره ويقول له: «فهل وَلْيتُ حسناً أو حسيناً أو أحداً من ولد جعفر أخي أو عقيلاً أو واحداً من ولده، وإنما ولَّيتُ ولد عمي العباس.. ورأيتُ بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم إذا وُلْيَ غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يُوَلَّ أحدٌ منهم، فأحببتُ أن أصل رحمهم وأُزيل ما كان في أنفسهم... فخرج الأشتر وقد زال ما في نفسه»[٢].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٥٤.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٥/٩٨ ـ ٩٩.

ومع أن هذه الرواية غير سليمة سنداً من التأمل والنظر؛ فقد ذهب أحد مشايخنا ـ رضوان الله عليهم ـ فيما عقَّب به على مقولة الأشتر ـ إن صحَّت وثبتت حقاً ـ إلى أنه ربما تعمد المجاهرة في هذا الاعتراض على تولية أبناء العباس؛ ليسمع أولئك الذين في قلوبهم مرض والعامةُ الذين قد يدور في أذهانهم مثل هذا الهاجس الساذج؛ جوابَ أمير المؤمنين (ع) على ذلك، فيرتفع الشك وتصفو الضمائر وتزول العتمة عن أبصار البسطاء الجاهلين.

۞ ۞ ۞

وعلى كل حال، فما إن التقت لأول مرة في تاريخ المسلمين إمامةُ السماء والدين ـ الثابتة بالنص النبوي المتواتر ـ بخلافة الأرض والانتخاب ـ الثابتة بالرضا والبيعة العامة ـ في شخص علي بن أبي طالب (ع)، حتى بدأ المتمردون على هذا الكيان الجديد الفريد الإعداد للشغب والفتنة والخروج المشؤوم، وبدأت أخبار تآمرهم تصل أولاً بأول إلى المدينة المنورة، كما توالت متتابعةً أنباءُ اتصالاتهم بأُم المؤمنين عائشة في مكة وأنباء رضاها بأن تقود هذا التمرد وتكون (الرمز) الأكبر لذلك التجمع الباغي الخارج على شرع الله وأحكام القرآن، فلم يجد الأشتر بداً ـ وما زال بعدُ في المدينة ـ من تقديم النصح للسيدة عائشة قبل مغادرتها مكة على رأس البغاة، فكتب إليها قائلاً:

«أما بعد: فإنك ظعينة رسول الله (ص)، وقد أمركِ أن تقري في بيتكِ، فإن فعلتِ فهو خير لكِ، فإن أبيتِ إلا أن تأخذي منسأتكِ وتلقي جلبابكِ وتبدي للناس شُعيراتك، قاتلتُكِ حتى أردَّك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لكِ ربك».

«فكتبت إليه في الجواب: أما بعد، فإنك أول العرب شبَّ الفتنة ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة وسعى في قتل الخليفة... وقد جاءني كتابك وفهمتُ ما فيه، وسيكفينيك الله وكلَّ من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيِّك»(١).

ثم انطلق البغاة من هنا وهناك يتجمعون في البصرة، ولم يكن لعلي (ع) من سبيل لصدِّ هذا التجمع الجاهلي الحاقد سوى التصدي لردع شرِّه، تنفيذاً لقوله تعالى:

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، فقرر الزحف من المدينة إلى البصرة لتطبيق حكم الله وتأديب هؤلاء البغاة الخارجين على نهج الإسلام وتعاليمه، وأرسل ابنه الحسن (ع) وعمار بن ياسر وقيس بن سعد وآخرين إلى الكوفة لحمل أهلها على الخروج إلى البصرة للمشاركة في المعركة، فاصطدموا بمعارضة أبي موسى الأشعري ـ وكان والياً عليها منذ أواخر عهد عثمان ـ وبرفض التعاون معهم وتخذيل الناس عن الخروج.

وبلغ أمير المؤمنين (ع) ما كان من أمر أبي موسى في تخذيل أهل الكوفة، فأخبر أصحابه بذلك، فقام إليه مالك الأشتر فكان مما قال له: «إن رأيتَ ـ جُعِلت فداك ـ أن تبعثني في أثرهم فإن أهل الكوفة أحْسَنُ لي طاعةً، فإن قدمتُ عليهم رجوتُ أن لا يخالفني منهم أحد. فقال أمير المؤمنين (ع): الحق بهم على اسم الله عز وجل»(٢).

وأقبل الأشتر نحو الكوفة حتى دخلها فرأى الناس مجتمعين في المسجد الأعظم، «فجعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٢٥.
(٢) الجمل: ٢٥١.

مسجد إلّا دعاهم ويقول: اتبعوني إلى القصر. فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس، فاقتحم القصر فدخله وأبو موسى قائم في المسجد يخطب الناس ويثبطهم... وعمار يخاطبه، والحسن يقول له: اعتزل عملنا لا أُمَّ لك وتنحَّ عن منبرنا». وخرج غلمان لأبي موسى ينادون: يا أبا موسى، «هذا الأشتر قد دخل القصر فضَرَبنا واخْرَجَنا. فنزل أبو موسى فدخل القصر، فصاح به الأشتر: اخرج من قصرنا لا أُمَّ لك أخرج الله نفسك، فوالله إنك لمن المنافقين قديماً.... ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر... فكفَّ الناس»(١).

ثم خرج الأشتر من القصر فتوجه إلى المسجد الأعظم، «فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس؛ اصغوا إليّ بأسماعكم؛ وافهموا قولي بقلوبكم: إن الله عز وجل قد أنعم عليكم بالإسلام نعمة لا تقدِّرون قدرها ولا تؤدون شكرها، كنتم أعداء يأكل قويُّكم ضعيفَكم؛ وينتهب كثيرُكم قليلَكم؛ وتُنتهك حرمات الله بينكم؛ والسبيل مَخُوف؛ والشرك عندكم كثير؛ والأرحام عندكم مقطوعة؛ وكلُّ أهل دينٍ لكم قاهرون. فمَنَّ الله عليكم بمحمدٍ (ص) فجمع شمل هذه الفرقة، وألَّف بينكم بعد العداوة، وكثَّركم بعد أن كنتم قليلين، ثم قبضه الله عز وجل إليه، فحوى بعده رجلان، ثم وُلِيَ علينا بعدهما رجل نبذ كتابَ الله وراء ظهره، وعمل في أحكام الله بهوى نفسه، فسألناه أن يعتزلنا نفسَه فلم يفعل، وأقام على أحداثه، فاخترنا هلاكه على هلاك ديننا ودنيانا، ولا يُبْعِد الله إلا القومَ الظالمين.

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧ والجمل: ٢٥١ و٢٥٣ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٨.

وقد جاءكم الله بأعظم الناس مكاناً في الدين وحُرْمة، وأصْوَبهم في الإسلام سهماً، ابن عمِّ رسول الله (ص)، وأفقه الناس في الدين، وأقرئهم لكتاب الله، وأشجعهم عند اللقاء يوم البأس. وقد استنفركم فما تنتظرون؟ أسعيداً؟ أم الوليد الذي شرب الخمر وصلّى بكم على سكرٍ منها واستباح ما حرَّمه الله فيكم؟، أيّ هذين تريدون؟! قبح الله مَنْ له هذا الرأي. ألا فانفروا مع الحسن بن بنت نبيكم، ولا يتخلَّف رجل له قوة، فوالله ما يدري رجل منكم ما يضره مما ينفعه، ألا وإني لكم ناصح، شفيق عليكم إن كنتم تعقلون أو تبصرون، أصبِحوا ـ إن شاء الله ـ غداً عادِّين مستعدين؛ وهذا وجهي إلى ما هنالك بالوفاء»[1].

وتجاوبت جنبات الكوفة على سعتها مع دعوة علي (ع) إلى حرب البغاة وزحفت جموع المجاهدين من أهلها إلى حيث يعسكر مَنْ كان بصحبة علي (ع) في مركز التجمع في ذي قار على طريق البصرة. وخطب أمير المؤمنين (ع) هناك خطبة مفصَّلة شرح فيها الموقف بكل أبعاده ومن جميع جهاته، فقام إليه الأشتر بعد انتهاء خطبته فقال:

«الحمد لله الذي مَنَّ علينا فأفضل، وأحسن إلينا فأجمل. قد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين، ولقد أصبتَ ووُفّقْتَ، وأنت ابن عم نبينا وصهره ووصيه، وأول مصدِّق به ومُصَلٍ معه، شهدت مشاهده كلها فكان لك الفضل فيها على جميع الأمة، فمن اتبعك أصاب حظَّه واستبشر بفَلَجه، ومن عصاك ورغب عنك فإلى أُمِّه الهاوية. لعمري يا أمير المؤمنين ما امْرُ طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه وفارقا على غير حدثٍ أحدثتَ ولا جورٍ صنعتَ، فإن زعما أنهما يطلبان بدم عثمان فليُقيدا من أنفسهما، فإنهما أول من

(١) الجمل: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

ألّب عليه وأغرى الناس بدمه، وأُشهِد الله لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لنُلحقنَّهما بعثمان، فإن سيوفنا في عواتقنا وقلوبنا في صدورنا، ونحن اليوم كما كنّا أمس»[١].

ثم تحرك موكب علي (ع) إلى البصرة حتى انتهى إليها، فرأى الخارجين عليه قد أعدوا أنفسهم لحربه وصمموا على النكث والتمرد والقتال، فبدأ بتعبية جيشة وتنظيم قياداته، وكان من ذلك إنه جعل على ميمنة العسكر مالك بن الحارث الأشتر[٢].

ثم قامت الحرب على قدم وساق.

وتقدَّم الأشتر «حتى وقف بين الجمعين وهو يزأر كالأسد عند فريسته، ويقول هو في ذلك شعراً. فخرج إليه من أصحاب الجمل رجل يقال له عامر بن شداد الأزدي وأجابه على شعره، فحمل عليه الأشتر فقتله. ثم نادى فلم يجد أحدً، فرجع»[٣].

«فلما كان من الغد دنا القوم بعضهم من بعض، وتقدمت عائشة على جملها... وتقدم كعب بن سور الأزدي حتى أخذ بخطام الجمل وجعل يرتجز... فحمل عليه الأشتر فقتله. وخرج من بعده غلام من الأزد يقال له وائل بن كثير فجعل يتلو ويقول شعراً، فبرز إليه الأشتر مجيباً له وهو يقول شعراً، ثم حمل عليه الأشتر فقتله. وخرج من بعده عمرو بن خنفر من أصحاب الجمل وهو يقول شعراً، ثم حمل عليه الأشتر فقتله. وخرج من بعده عبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فجعل يلعب بسيفه بين يدي عائشة وهو يقول شعراً، فبدر

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣١٠ ـ ٣١١، وبعضه في الجمل: ٢٦٩.
(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٩ والجمل: ٣٣٦ و٣٥٩ والعقد الفريد: ٤/ ٣٢٥.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٢٢.

إليه الأشتر مجيباً له ثم حمل عليه فضربه ضربة رمى بيمينه فسقط لِمَا به، وثنّاه الأشتر بضربة أخرى فقتله»(١).

كذلك كان من قتلى الأشتر أيضاً في ذلك اليوم كلٌّ من: الأسود بن عوف وخباب بن عمرو الراسي وعبدالله بن حكيم بن حزام وهلال بن وكيع قائد ميسرة أتباع الجمل(٢).

ونادى منادٍ في جمهور البغاة: «اتقوا الأشتر النخعي وجندب ابن زهير العامري، فإن الأشتر نَشَرَ درعَه حتى يعفو أثره، وإن جندباً خرم درعه حتى يشمِّر عنه»(٣).

«وجعل الأشتر يجول في ميدان الحرب وينادي بأعلى صوته: يا أنصار الجمل؛ مَنْ يبارزني منكم؟، فبرز إليه عبدالله بن الزبير وهو يقول: إلى أين يا عدو الله؟ فأنا أُبارزك، فحمل عليه الأشتر فطعنه طعنة صرعه عن فرسه، ثم بادر وقعد على صدره، فجعل عبدالله بن الزبير ينادي من تحت الأشتر في يومه ذلك: اقتلوني ومالكاً. وكان الأشتر في يومه صائماً، وقد طوى من قبل ذلك بيومين، فأدركه الضعف فأفلت عبدالله من يده»(٤). وروى ابن عبد ربه الأندلسي عن عبدالله بن الزبير قوله: «التقيتُ بالأشتر النخعي يوم الجمل فما ضربتُه ضربة حتى ضربني خمساً أو ستاً، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله (ص) ما اجتمع منك عضو إلى آخر»، كما روى «إن أم المؤمنين عائشة

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٢) يراجع في ذلك: تاريخ الطبري: ٤/٥٢١ و٥٢٥ وكامل ابن الأثير: ٣/١٢٨ وشرح نهج البلاغة ١/٢٥٨ و٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) الجمل: ٣٦٤.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/٣٢٢ ـ ٣٢٣، ويراجع في ذلك أيضاً: تاريخ الطبري: ٤/ ٥٣٠ والجمل: ٣٥٠ وشرح نهج البلاغة: ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣.

أعطت من بَشَّرها بحياة ابن الزبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف درهم»[١]، وزاد الدميري في روايته عن ابن الزبير قوله:

«أمسيتُ يوم الجمل وفيَّ سبع وثلاثون جراحة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم»[٢].

ثم اشتد سعار الحرب حتى بلغ أعنف حالاته، واستمر تدفق نهر الدم في الجريان والمسيل، فقال علي (ع): «ادعوا لي الأشتر وعماراً، فجاءا فقال: اذهبا فاعقرا هذا الجمل، فإن الحرب لا يبوخ ضرامها ما دام حياً، إنهم قد اتخذوه قبلة. فذهبا ومعهما فَتَيَان من مرد... فما زالا يضربان الناس حتى خلصا إليه، فضربه المرادي على عرقوبية فأقعى وله رُغاء، ثم وقع لجنبه، وفرَّ الناس من حوله»[٣].

وما إن عُقِر الجمل وتهاوى ساقطاً على الأرض حتى أحسَّ أتباعه بالخذلان والهزيمة ففروا يجرون ذيول الخزي في الدنيا والآخرة، وألقت الحرب أوزارها. وجاء الأشتر إلى أُم المؤمنين عائشة فقال لها: «الحمد لله الذي نصر وليّه وكبت عدوه، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١]، فكيف رأيِ صنع الله بكِ يا عائشة؟، فقالت: مَنْ أنت ثكلتك أمك؟، فقال: أنا ابنكِ الأشتر. قالت: كذبتَ، لستُ بأُمك. قال: بلى؛ وإن كرهتِ، فقالت: أنت الذي أردتَ أن تثكل أختي أسماء بإبنها؟. فقال: المعذرة إلى الله ثم إليكِ، والله إني لولا كنتُ طاوياً ثلاثة لأرحتُكِ منه»[٤].

---

(١) العقد الفريد: : ١/١١٩ ـ ١٢٠ و٤/٣٢٦ والشعور بالعور: ١٩٩ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) حياة الحيوان: ١/١٩٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٨، ويراجع في عقر الجمل أيضاً: أنساب الأشراف: ٢/٢٤٨.

(٤) الجمل: ٣٧٠.

ثم عادت أحقاد الجاهلية الأولى إلى سابق أمرها المعهود تآمراً وبغياً وتمرداً على شرع الله وحكم القرآن، وقد برز إلى الواجهة فيها هذه المرة من كان متستراً وراء برقع (الجمل) في تلك الحرب الخاسرة من جمهور الطلقاء وأبنائهم ومن لفَّ لفَّهم وهوى إلى حضيضهم؛ ممن حملوا معهم كل ما كان يشحن نفوسهم الخبيثة من ثارات بدرٍ وضغائن أُحد والخندق؛ وترات سائر معارك الإسلام التي حطمت أصنامهم وقضت على أمانيهم وأحلامهم في الرياسة والزعامة.

وكان أصحاب علي (ع) بما يملكون من خبرة ومعرفة بتوجهات الأعداء ونواياهم الشرِّيرة ـ يترقبون هذا البغي الجديد، ويعلمون بأن الزمرة التي حاربت رسالة السماء قبل اليوم وعلى رأسها معاوية وخاصته في هذا الحين، لن تكف عن العدوان والتمرد؛ ولن تتردد عن إشهار سيوفها في الوقت المناسب لها، ولذلك تحلقوا حول علي (ع) بعد انتهاء حرب الجمل يشيرون عليه بالزحف من البصرة إلى دمشق؛ إفشالاً لخطط أولئك المتربصين وإجهاضاً لما يعدون ويسرون من تآمر لئيم، وكان منهم الأشتر النخعي الذي خاطب علياً (ع) في هذا الاجتماع قائلاً:

«يا أمير المؤمنين؛ إنما ينبغي لنا أن نقول قبل أن تعزم، فإذا

عزمتَ لم نقل، ولو سرتَ بهذا الجيش إلى الشام لم يلقوك بمثله أبداً، فسر بنا إلى القلوب القاسية والأبصار العمية»[١].

وعلى الرغم من صحة موقف الأشتر بالمنظور السياسي والعسكري فإنه لم يكن منسجماً مع لُبِّ المنظور الديني القائم على السلام والوئام ما وُجِد إليهما سبيل، ولذلك لم يستجب علي (ع) لدعوة هؤلاء الأصحاب المتحمسين، ورأى أن يشد رحاله من البصرة إلى الكوفة عازماً أن يتخذ منها مقراً موقتاً لإدارة الدولة، ليكون قريباً من جبهة الشام إذا ما أراد حاكمها التحرش والعدوان. مع التصميم على أن لا يبدأ هذه الحرب قبل إقامة الحجة واستنفاد وسائل حقن الدماء بدعوة هؤلاء القاسطين إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون من طاعة الله ورسوله وأولي الأمر الشرعيين.

وتنفيذاً لهذا الإلتزام الديني بالحفاظ على وحدة كلمة المسلمين ودرء حدوث الفتنة والانشقاق فيما بينهم؛ قرر علي (ع) تكرار دعوة معاوية الخارج على إمام زمانه إلى الإقرار بما أجمع عليه الناس في عموم أقطارهم من البيعة والطاعة، فقال له جرير بن عبدالله البجلي: «ابعثني إليه فإنه لم يزل ليس مستنصحاً ووداً، فآتِه وأدعوه إلى أن يسلِّم هذا الأمر، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك»[٢].

«فقال الأشتر لعلي (ع): لا تبعثه فوالله إني لأظن هواه معه، فقال علي: دعه حتى ننظر ما الذي يرجع به إلينا».

«فشخص إليه جرير، فلما قدم عليه ما طله واستنظره.... فلما

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧، وقريب من ألفاظه في الإمامة والسياسة: ١/ ٨٣.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٥٥.

قدم جرير بن عبدالله على عليّ (ع)... أخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه... فقال الأشتر لعلي (ع): قد كنتُ نهيتُك أن تبعث جريراً واخبرتك بعداوته وغشه، ولو كنتَ بعثتني كان خيراً من هذا الذي أقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فَتْحَه إلا فَتَحه؛ ولا باباً يخاف منه إلا أغلقه. فقال جرير: لو كنتَ ثَمَّ لقتلوك، لقد ذكروا إنك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيتُهم واللهِ يا جرير لم يعيني جوابهم؛ ولحملتُ معاوية على خُطَّةٍ أُعجِله فيها عن الفكر»[1].

وتمهيداً من معاوية لعدوانه الجائر بدأ بدسّ الدسائس وحشد المغريات وإرسال العملاء المأجورين، للعمل على ضعضعة الجبهة الداخلية في الكوفة؛ واستمالة من يمكن استمالته من ذوي النفوس الخاوية والذمم الضعيفة، وكان من أثر ذلك أن غادر بعض الناس مواقعهم في صفوف الحق ليلتحقوا بمعاوية طمعاً فيما ينثر من أموال ويوزع من صنائع ومطامع. ويروي المدائني: إن علياً (ع) شكا إلى الأشتر فرار هؤلاء إلى الشام، فقال له الأشتر:

«يا أمير المؤمنين، إنَّا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ورأيُ الناس واحد، وقد اختلفوا بعد وتعادَوا، وضعفت النية وقلَّ العدد، وأنتَ تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضيع من الشريف فليس للشريف عندك فضلُ منزلةٍ على الوضيع، فضجَّت طائفة ممن معك من الحق إذ عُمُّوا به؛ واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفسُ الناس إلى الدنيا، وقلَّ من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوي الحق ويشتري

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٦٢ ومروج الذهب: ٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، وبتفصيل أكثر في وقعة صفين: ٥٦ ـ ٦٠ وفتح ابن أعثم: ٢/ ٤٠٤ ـ ٢٠٦ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١١٦.

الباطل ويؤثر الدنيا. فإن تبذل المالَ يا أمير المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال وتَصْفُ نصيحتهم لك؛ وتستخلص ودَّهم. صنع الله لك يا أمير المؤمنين، وكبت أعداءَك، وفضَّ جمعهم، وأوهن كيدهم، وشتَّت أمورهم، إنه بما يعملون خبير».

«فقال علي (ع): أما ما ذكرتَ من عملنا وسيرتنا بالعدل فإن الله عز وجل يقول: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾... وأما ما ذكرتَ من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك فقد علم الله إنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم. وأما ما ذكرتْ من بذل الأموال واصطناع الرجال فإنه لا يسعنا أن نؤتي امرءاً من الفيء أكثر من حقه».

ثم ختم كلامه مع الأشتر قائلاً له:

«وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحهم لي، وأوثقهم في نفسي، إن شاء الله»(١).

وانتهت الأخبار إلى علي (ع) تُعْلِمُه بعزم معاوية على البدء بالحرب والتقدم نحو العراق، فعقد اجتماعاً عاماً حضره الناس فأخبرهم بذلك واستشارهم في أمر المسير لاستقبال الأعداء، فقام رجل من بني فزارة فأعلن امتناعه من الخروج للحرب، فما كان من الأشتر ـ وهو أحد حضار هذا الاجتماع ـ إلا أن ينهض مغضباً مما سمع من هذه الفزاري وقال:

«يا أمير المؤمنين؛ لا يهدَّنَّك ما رأيت، ولا يؤيسنَّك من نصرنا ما سمعتَ من مقالة هذا الشقي الخائن. جميع مَنْ ترى من الناس شيعتك،

---

(١) ورد هذا النص بكامله في شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٩٧ ـ ١٩٨، ووردت الجملة الأخيرة في الثناء على الأشتر في الغارات: ١/ ٧٣.

وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك، ولا يحبون بقاءً بعدك، فإن شئت فسِرْ بنا إلى عدوك، والله ما ينجو من الموت من خافه، ولا يُعْطَى البقاء من أحبَّه، وما يعيش بالآمال إلا شقي، وإنَّا لعلى بيِّنة من ربنا إن نفساً لن تموت حتى يأتي أجلها، فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أميرُ المؤمنين، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين فأسخطوا الله وأظلمت بأعمالهم الأرض، وباعوا خلاقهم بعرضٍ من الدنيا يسير».

«فقال علي (ع): الطريق مشترك، والناس في الحق سواء، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فله ما نوى؛ وقد قضى ما عليه»[1].

❀ ❀ ❀

ومهما يكن من أمر الإعداد للحرب؛ فقد حلت ساعة الزحف، وتقدم علي (ع) بجيشه نحو الشام لمّا بلغه تقدم معاوية بجيشه نحو العراق، وسار أمير المؤمنين (ع) في موكبه باتجاه ملاقاة العدو، حتى «نزل على شاطىء الفرات حذاء مدينة الرقة، وبلغ ذلك معاوية فدعا بأبي الأعور السلمي فضم إليه جيشاً كثيفاً من أهل الشام، ثم قال: سر بهذا الجيش نحو علي فلعلك أن تواقعه وقعة قبل مصيره إلينا. فسار أبو الأعور في جند من أهل الشام يريد علياً. وبلغ ذلك علياً فدعا زياد بن النضر وشريح بن هانىء فضم إليهما جيشاً وقدَّمهم بين يديه نحو أبي الأعور، فساروا حتى إذا بلغوا إلى الموضع الذي فيه أهل الشام نظروا إلى جيش عظيم... وبعثوا إلى علي فأخبروه بذلك»[2]، فكتب علي (ع) إلى الأشتر قائلاً:

«إن زياداً وشريحاً أرسلا إليَّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي

(١) وقعة صفين: ٩٥ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٤.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٩٠.

في جند من أهل الشام... فالنَّجَاء إلى أصحابك النجاء، فإذا أتيتَهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك؛ حتى تلقاهم وتسمع منهم، ولا يجرمنَّك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، وأجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً، وقِفْ بين أصحابك وسطاً، ولا تَدْنُ منهم دنوَّ من يريد أن يُنشِب الحرب، ولا تباعَدْ منهم تباعُدَ من يهاب البأس، حتى أقدم عليك، فإني حثيث السير إليك، إن شاء الله».

وكتب إلى شريح وزياد:

«أما بعد: فإني قد أمَّرت عليكما مالكاً فاسمعا له وأطيعا أمره، فإنه ممن لا يُخاف رهقه ولا سقاطه ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم؛ ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل. وقد أمرتُه بمثل الذي أمرتكما: ألاّ يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم فيدعوهم ويُعذِر إليهم»(١).

«فسار الأشتر في جيش خشن... فلما نظر أبو الأعور إلى جند أهل العراق قد وافوا صاح بأصحابه: احملوا على هؤلاء الكلاب!، فحمل القوم بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً. وجعل الأشتر يقول لأصحابه: ويلكم أروني أبا الأعور هذا الذي بَدَأنا به معاوية... فقالوا: هو الواقف على التل صاحب الفرس الأشقر. فقال الأشتر لرجل من أصحابه يقال له سنان بن مالك: اذهب إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة. فقال له سنان: إلى مبارزتك أو إلى مبارزتي؟. فقال الأشتر: ولو أمرتك بمبارزته لفعلتَ؟، قال: نعم والذي لا إله إلا هو، لو أمرتني أن اعترض صفهم هذا بسيفي لما رجعتُ عنهم أو أضرب فيهم ضرباً

(١) وقعة صفين: ١٥٣ ـ ١٥٤ وتاريخ الطبري: ٥٦٧/٤ وشرح نهج البلاغة: ٢١٢/٣ ـ ٢١٣

يرضيك ذلك مني. فقال له الأشتر: يا ابن أخ؛ والله لقد زدتَني فيك رغبة، ولكني لا آمرك بمبارزته، إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي، وذلك أنه لا يبارز إلا ذوي الأسنان والأكفاء من الفرسان، وأنت بحمد الله من الكرامة والشرف ولكنك حدث السن؛ وأعلم أنه لا يبارزك، ولكن اذهب إليه وادعه إلى مبارزتي».

«فأقبل الفتى حتى وقف قريباً من عسكر أهل الشام ثم قال: إني رسول ولا تؤذوني، فقال له أهل الشام: أنت آمن فهلم وقلْ ما أحببتَ. فجاء الفتى إلى أبي الأعور فقال: إن الأشتر يدعوك إلى مبارزته. فسكت أبو الأعور ساعة، ثم قال: إن جهل الأشتر وسوء رأيه هو الذي حمله على ما فعل بعثمان بن عفان، إنه قَبِل محاسنَه وأظهر عداوته ثم سار إليه في داره وقراره حتى قتله، انصرفْ عني فلا حاجة لي في مبارزته. فقال سنان: إنك قد تكلمتَ فاسمع الجواب. فقال: لا حاجة لي في جوابك، انصرف من حيث جئتَ».

«فرجع سنان إلى الأشتر فأخبره بذلك، فتبسم الأشتر وقال: إنه نظر لنفسه، ولو بارزني لبريتُ يديه، ولكن احملوا عليهم. فحملت أهل العراق على أهل الشام، واقتتلوا قتالاً عظيماً يوم ذلك إلى الليل».

«فلما كان وجه السحر انهزم أبو الأعور في أصحابه حتى سار إلى معاوية فأخبره بما كان من أمره. فقال معاوية: فكيف رأيتَ حرب القوم؟. فقال: يا معاوية؛ لا تسأل عن شيء؛ فإن الخطر عظيم»[1].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٣، ومضمونه في وقعة صفين: ١٥٥ ـ ١٥٦ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٦٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

وسار علي (ع) في جيشه بعد هزيمة أبي الأعور حتى انتهى إلى مدينة الرقة ـ وكان أهلها عثمانيين وهواهم مع معاوية ـ، «فلما نظروا إلى خيل علي (ع) قد وافتهم غلقوا باب المدينة وتحصنوا فيها، فنزل علي (ع) على شاطىء الفرات»[١]، وقال لهم: «اجسروا لي جسراً لكي أعبر من هذا المكان إلى الشام. فأبوا وقد كانوا ضمُّوا السفن عندهم، فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج. وخلَّف عليه الأشتر، فناداهم فقال: يا أهل هذا الحصن؛ إني أقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تُجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها؛ لأُجرِّدنَّ فيكم السيف ولأقتلنَّ مقاتلتكم ولأُخربنَّ أرضكم ولآخذنَّ أموالكم. فلقي بعضهم بعضاً فقالوا: إن الأشتر يفي بما يقول؛ وإن علياً خلَّفه علينا ليأتينا منه الشر. فبعثوا إليه: إنّا ناصبون لكم جسراً فأقبِلوا، فأرسل الأشتر إلى علي فجاء، ونصبوا له الجسر، فعبر الأثقال والرجال. ثم أمر الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس، حتى لم يبق أحد من الناس إلاّ عبر، ثم إنه عبر آخر الناس»[٢].

واستأنف (ع) مسيرة جيشه بعد عبور الجسر، وفي الطليعة مقدمته الضاربة التي يقودها مالك الأشتر[٣]، حتى بلغ مالكٌ «صاحب مقدمة معاوية ـ وقد سبقه إلى المعسكر على الماء ـ، وكان الأشتر في أربعة آلاف من متبصِّري أهل العراق، فأزالوا أبا الأعور عن معسكره، وأقبل معاوية في جميع الفيلق بقضِّه وقضيضه، فلما رأى ذلك الأشتر انحاز إلى

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣.
(٢) وقعة صفين: ١٥١ ـ ١٥٢، والنص بألفاظه قرية مما أثبتنا في أنساب الأشراف: ٢/ ٢٩٨ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٢١١.
(٣) وقعة صفين: ١٥٦.

علي (ع)، وغلب معاوية على الماء، وحال بين أهل العراق وبينه»[١].

فلما منع معاوية وأتباعه أصحاب علي (ع) من الماء أمر أميرُ المؤمنين الأشترَ أن يتقدم بالخيل نحو الفرات، فتقدم الأشتر بمن يقود من أصحاب الخيل وكذلك الأشعث بمن يقود من الرجّالة، ثم أمر علي (ع) الأشتر بأن يقحم الخيل، فكبَّر الأشتر وكبر الأشعث، وسرعان ما وضع الأشتر سنابك خيله في الفرات، وأخذت السيوف أعداء الله فولوا مدبرين، وانكشف عمرو بن العاص وقائد حملته أبو الأعور، وانهزم جيش معاوية، «وبعث الأشتر إلى علي (ع): هلم يا أمير المؤمنين قد غلب الله لك على الماء»[٢].

❁ ❁ ❁

ثم تقابل الجيشان على صعيد صفين، وانطلقت شرارة الحرب وبدأ القتال، بعد أن فرغ الطرفان من عقد الألوية وتنظيم الكتائب، وجعل عليٌّ (ع) على جموع مذحج وخيل الكوفة الأشتر النخعي قائداً لها وحاملاً لرايتها[٣].

ومع أن أمير المؤمنين (ع) كان يُخرج لقيادة كل حملة كبرى من حملات جنده في هذه المعركة أحدَ أصحابه المنتجبين؛ فإن الأشتر كان أكثرهم خروجاً وحرباً باتفاق المؤرخين[٤].

---

(١) وقعة صفين: ١٥٧ وشرح نهج: ١٣/ ٣١٣.

(٢) وقعة صفين: ١٦٧ و١٦٩ والإمامة والسياسة: ١/ ٩٨ ومروج الذهب: ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٢٤ و٣٢٥.

(٣) وقعة صفين: ٢٠٥ و٢٠٦ و٢٠٨ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٠٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ١١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٠.

(٤) وقعة صفين: ١٩٥ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٧٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٦.

وجاء في رواية نصر بن مزاحم أن الأشتر كان قد خطب الناس في بدء هذه الحرب فقال في خطبته:

«الحمد لله الذي خلق السماوات العلى، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طـه: ٦]، أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء، حمداً كثيراً بكرة وأصيلاً، مَنْ يَهْدِ الله فقد اهتدى، ومن يُضلل الله فقد غوى. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالصواب والهدى، وأظهره على الدين كله ولو كره المشركون، صلى الله عليه وسلم. ثم كان مما قضى الله وقدَّر أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض، ولفَّ بيننا وبين عدوِّنا، فنحن بحمد الله ونعمته ومنِّه وفضله؛ قريرةٌ أعيننا، طيبةٌ أنفسنا، ونرجو في قتالهم حسن الثواب والأمن من العقاب، معنا ابن عمِّ نبينا؛ وسيف من سيوف الله؛ علي بن أبي طالب، صلّى مع رسول الله (ص) لم يسبقه بالصلاة ذَكَرٌ حتى كان شيخاً، لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه في دين الله، عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل وصبر جميل وعفاف قديم. فاتقوا الله، وعليكم بالحزم والجد، وأعلموا أنكم على الحق وإن القوم على الباطل يقاتلون مع معاوية، وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدري ومَنْ سوى ذلك من أصحاب محمد (ص)، أكثر ما معكم رايات كانت مع رسول الله (ص)، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله (ص). فما يشك في قتال هؤلاء إلا ميتُ القلب، فإنما أنتم على إحدى الحسنيين: إما الفتح وإما الشهادة. عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه، وأستغفر الله لي ولكم»[1].

(١) وقعة صفين: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وأصبح علي (ع) في اليوم الأول من الحرب «فأخرج الأشتر أمام الناس، وأخرج إليه معاوية حبيبَ بن مسلمة الفهري، وكان بينهما قتال شديد، وأسفرت عن قتلى من الفريقين، وانصرفوا»، ثم خرج هذان القائدان في يوم آخر ومعهما أصحابهما فكانت الحرب بينهما سجالاً، «وصبر كلا الفريقين وتكاثروا وتواقفوا للحرب، وأسفرت عن قتلى منهما، والجراح في أهل الشام أعم»[1].

واستمر أتون الحرب في اللهب على مرِّ الأيام مما لا مجال لعرضه في هذا البحث إلا في حدود ما أجمعت عليه المصادر التاريخية من الحديث عن بطولة الأشتر وشجاعته في ذلك اليوم؛ ومن بيان عنف صولاته وشدة حملاته وجولاته، كما تحكيه لنا المقتطفات والشواهد الآتية:

١ ـ زحف الأشتر في أحد أيام صفين على جيش العدو، «فاستقبله معاوية بعَكٍ والأشعرين. فقال الأشتر لمذحج: اكفونا عكاً، ووقف في هَمْدان، وقال لكندة: اكفونا الأشعرين. فاقتتلوا قتالاً شديداً... حتى المساء، ثم إنه قاتلهم في همدان وناسٍ من طوائف الناس، فحمل عليهم فأزَّلهم عن مواقفهم حتى ألحقهم بالصفوف الخمسة المعقَّلة بالعمائم حول معاوية، ثم شدَّ عليهم شدة أخرى فصرع الصفوف الأربعة... حتى انتهوا إلى الخامس الذي حول معاوية، ودعا معاوية بفرس فركب»[2] فاراً من ساحة الوغى إلى المواقع الخلفية نجاة بنفسه.

٢ ـ خرج الأشتر يوماً «فقاتل بصفين في رجال من القرّاء ورجال من فرسان العرب، فاشتد قتالهم. فخرج عليهم رجل لقلَّ واللهِ مارُئي رجل قط هو أطول ولا أعظم منه، فدعا إلى المبارزة فلم يخرج إليه

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٠ و٢٦١.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٤.

إنسان، وخرج إليه الأشتر فاختلفا ضربتين، وضربه الأشتر فقتله... وجاء رجل من الأزد فقال: أقسم بالله لأقتلنَّ قاتله، فحمل على الأشتر وعطف عليه الأشتر فضربه فإذا هو بين يدي فرسه، وحمل أصحابُه فاستنقذوه جريحاً»[1].

٣ ـ دعا معاوية مروان بن الحكم فقال: «يا مروان، إن الأشتر قد غمَّني وأقلقني، فأخرج بهذه الخيل في كَلاع ويَحْصَب، فألقه فقاتله بها، فقال له مروان: ادْعُ لها عَمْراً فإنه شعارك دون دثارك. فدعا معاوية عمراً وأمره بالخروج إلى الأشتر، فخرج عمرو في تلك الخيل، فلقيه الأشتر... وهو يرتجز.... فعرف عمرو إنه الأشتر، وفَشِل حَيْلُه وجبن... فلما غشيه الأشتر بالرمح زاغ عنه عمرو فطعنه الأشتر في وجهه فلم يصنع الرمح شيئاً، وثقل عمرو فأمسك عنان فرسه وجعل يده على وجهه، ورجع راكضاً إلى العسكر»[2]، وضارب الأشتر القوم الذين كانوا مع عمرو «حتى ردَّهم على أعقابهم، فرجعت خيل عمرو»، وقال النجاشي شاعر أهل العراق في ذلك:

رأيت اللواء لواء العقاب ... يقحّمه الشانئُ الأخزرُ
كليث العرين خلال العجاج ... وأقبل في خيله الأبترُ
دعونا لها الكبش كبش العراق ... وقد خالط العسكرَ العسكرُ
فردَّ اللواء على عقبه ... وفاز بحظوتها الأشترُ
كما كان يفعل في مثلها ... إذا ناب معصوصب منكرُ
إذا الأشتر الخير خلّى العراق ... فقد ذهب العرفُ والمنكرُ[3]

---

(١) وقعة صفين: ١٩٦ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٧٥.
(٢) وقعة صفين: ٤٣٩ ـ ٤٤٠ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٨٠.
(٣) وقعة صفين: ٣٩٦ ـ ٣٩٧ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٣.

٤ ـ وفي إحدى حملات الأشتر في صفين «بَصُرَ به الحارث بن جمهان الجعفي، والأشتر متقنع في الحديد فلم يعرفه، فدنا منه فقال له: جزاك الله خيراً منذ اليوم عن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين. فعرفه الأشتر فقال: يا ابن جمهان؛ مثلُك يتخلف عن مثل موطني هذا الذي أنا فيه؟، فنظر إليه ابن جمهان فعرفه... فقال: جُعِلتُ فداك؛ لا والله ما علمتُ بمكانك إلا الساعة ولا أفارقك حتى أموت»[١].

ثم «زحف الأشتر نحو الميمنة... فلم يقصد كتيبة إلا كشفها ولا جمعاً إلا حازه وردَّه... وقاتلهم الأشتر قتالاً شديداً، ولزمه الحارث بن جمهان الجعفي يقاتل معه، فما زال هو ومن رجع إليه يقاتلون حتى كشف أهل الشام وألحقهم بمعاوية»[٢].

٥ ـ حدَّث عمار بن ربيعة قال: «مرَّ بي واللهِ الأشتر؛ وأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذي كان به. فقام في أصحابه فقال: شدُّوا ـ فدىً لكم عمي وخالي ـ شدَّةً تُرْضون بها الله وتُعِزُّون بها الدين، فإذا شددتُ فشدوا. ثم نزل وضرب وجه دابته، ثم قال لصاحب رايته: أقْدِمِ، فأقدم بها ثم شد على القوم وشد معه أصحابه، يضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم. ثم إنهم قاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً فقُتِل صاحب رايتهم، وأخذ علي (ع) لما رأى الظفر قد جاء من قِبَلِهِ يمدُّه بالرجال»[٣].

٦ ـ وخطب الأشتر يوماً في جنده وهو يحثّهم على القتال فقال:

«عضّوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامكم،

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٢.
(٢) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٣.
(٣) وقعة صفين: ٤٧٦ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٧ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

وشدوا شدة قوم موتورين ثأراً بآبائهم وإخوانهم، حناقاً على عدوهم، قد وطّنوا على الموت أنفسهم كيلا يُسبَقوا بوتر، ولا يُلحقوا في الدنيا عاراً، وأيم الله ما وُتِر قوم قط بشيء أشدّ عليهم من أن يُوتروا دينهم. وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليُميتوا ألسُّنّة ويحيوا البدعة ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة. فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم، فإن ثوابكم على الله، والله عنده جنات النعيم. وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز؛ والغلبة على الفيء؛ وذلُّ المَحْيا والممات؛ وعار الدنيا والآخرة»[١].

٧ ـ وروى نصر بن مزاحم: أن معاوية لما تعاظمت عليه الأمور «دعا عمَرو بن العاص وبسر بن أرطأة وعبيدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد؟ فقال لهم: إنه قد غمّني رجال من أصحاب علي، منهم سعيد بن قيس في همدان؛ والأشتر في قومه؛ والمرقال؛ وعدي بن حاتم؛ وقيس بن سعد في الأنصار... وقد عبَّأْتُ لكل رجل منهم رجلاً منكم فاجعلوا ذلك إليّ، فقالوا: ذلك إليك. قال: فأنا أكفيكم سعيد بن قيس وقومَه غداً، وأنت يا عمرو لأعور بني زهرة المرقال، وأنت يا بسر لقيس بن سعد، وأنت يا عبيدالله للأشتر النخعي، وأنت يا عبدالرحمن بن خالد لأعور طيء، يعني عدي بن حاتم»[٢].

وتنفيذاً لأمر معاوية لأصحابه حمل عبيدالله بن عمر على جيش العراق «فلقيه الأشتر أمام الخيل مزبداً ـ وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد ـ... وشدَّ على خيل الشام فردَّها» ثم حمل الأشتر على عبيدالله

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٣.

(٢) وقعة صفين: ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

نفسه «فطعنه واشتد الأمر، وانصرف القوم وللأشتر الفضل، فغمَّ ذلك معاوية»(١).

٨ ـ ثم تعاظم ضغط جيش الشام على جند العراق، واشتد عنف هجومهم، فلم تجد ميمنة أصحاب أمير المؤمنين مناصاً من التراجع الموقت، فأقبل علي (ع) حتى مرَّ بالأشتر «فقال له: يا مالك. قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: ائتِ هؤلاء القوم فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم؟. فمضى الأشتر فاستقبل الناس منهزمين فقال لهم هؤلاء الكلمات التي أمره عليٌّ بهنَّ، وقال: أيها الناس؛ أنا مالك بن الحارث... أنا الأشتر، إليَّ أيها الناس. فأقبلت إليه طائفة... فقال: إن هؤلاء القوم واللهِ لن يقارعوكم إلا عن دينكم... أخلصوا إليَّ مذحجاً. فاجتمعت إليه مذحج، فقال لهم: أنتم أبناء الحربَ وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد وحتوف الأقران ومذحج الطعان، الذين لم يكونوا يُسبَقون بثأرهم ولا تُطَلّ دماؤهم ولا يُعرَفون في موطن من المواطن بخسفٍ... أصدقوا عدوكم اللقاء فإن الله مع الصابرين، والذي نفس مالكٍ بيده ما من هؤلاء ـ وأشار بيده إلى أهل الشام ـ إلا رجلٌ على مثل جناح بعوضة من دين الله... عليكم بهذا السواد الأعظم فإن الله لو قد فضَّه تبعه مَنْ بجانبيه كما يتبع مؤخَّر السيل مقدمه».

«قالوا: خُذْ بنا حيث أحببتَ. فصمد بهم نحو عُظمهم مما نحو الميمنة، وأخذ يزحف اليهم الأشتر ويردهم»، و«أخذ لا يصمد لكتيبة إلا كشفها؛ ولا لجمعٍ إلا حازه وردَّه» و«في يده صفيحة له يمانية إذا طأطأها خِلتَ فيها ماء منصباً، فإذا رفعها كاد يُغْشي البصرَ شعاعها، ويضرب

(١) وقعة صفين: ٤٢٩ ـ ٤٣٠ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٧٢.

بسيفه قدماً»، ثم حمل الأشتر على جموع أهل الشام «حتى كشفهم فألحقهم بصفوف معاوية بين صلاة العصر والمغرب»[١].

٩ ـ وخرج الأشتر ذات يوم من أيام هذه الحرب الضروس فاستقبل أصحابه قائلاً:

«الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه؛ أقدَمَهم هجرة؛ وأولَهم إسلاماً، سيف من سيوف الله على أعدائه، فانظروا إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسَّر المرّان وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة؛ فاتبعوني وكونوا في أثري»[٢].

«وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنيت، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيوف وعُمُد الحديد. وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها... فلم يزل يفعل ذلك الأشتر بالناس حتى أصبح والمعركة خلف ظهره، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة ـ وهي ليلة الهرير ـ. ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى، والأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام: ازحفوا قيد رمحي هذا ـ ويلقي رمحه ـ، فإذا فعلوا قال: ازحفوا قاب هذا القوس، فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك»[٣].

❁ ❁ ❁

(١) وقعة صفين: ٢٥٠ ـ ٢٥٥ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٩ ـ ٢١ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٧.

(٣) وقعة صفين: ٤٧٥ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٧ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٦٠.

وفي اليوم الذي شاءت المقادير أن يكون اليوم الأخير لهذه المعركة؛ تقدم الأشتر «وحمل الناس حملة واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وأهمدوا ما أتوا عليه حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية»[١]، وأشرف جيش علي (ع) على النصر وأشرف الأشتر على الفتح، «فنادت مشيخة أهل الشام: الله الله في الحرمات والنساء والبنات» وقال معاوية لعمرو بن العاص: «هلمَّ مخبَّآتك يا ابن العاص فقد هلكنا»[٢]، فقال عمرو لمعاوية: «هل لك في أمرٍ أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة؟. قال: نعم. قال: نرفع المصاحف ثم نقول: هذا حَكَمْ بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدتَ فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم. وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنّا إلى أجل».

«فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم. فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله.؟ فقال لهم عليٌّ:

«عباد الله؛ امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمراً وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن... ويحكم ما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة».

«فقالوا له: لا يسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله».

«فقال لهم علي: فإني إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه».

---

(١) وقعة صفين: ٤٠٤.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٧١.

«فقا له مِسْعَر بن فَدَكيّ التميم وزيد بن حصين الطائي في عصبة من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دُعيتَ إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم...».

«قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي، فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم».

«قالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك. فبعث عليٌّ بن هانيء إلى الأشتر يستدعيه. فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي، إني قد رجوتُ أن يفتح الله لي».

«فرجع يزيد فأخبره. وارتفعت الأصوات، وارتفع الرهج من ناحية الأشتر، فقالوا: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل... فأبعث إليه فليأتك... فقال له: ويلك يا يزيد، قل له: أَقْبِلْ إليَّ فإن الفتنة قد وقعت. فأبلغه ذلك، فقال الأشتر: ألِرَفع المصاحف؟. قال: نعم. قال: والله لقد ظننتُ أنها ستوقع اختلافاً وفرقة، إنها مشورة ابن العاهر، ألا ترى إلى الفتح، ألا ترى ما يلقون، ألا ترى ما صنع الله لنا، لن ينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم، فقال له يزيد: أتحب أن تظفر وأمير المؤمنين يُسْلَّم إلى عدوه أو يُقْتَل؟!. قال: لا والله، سبحان الله، فأعلمه بقولهم؟ فأقبل إليهم الأشتر وقال:

«يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم وظنوا أنكم لهم قاهرن؛ رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها وسُنَّةَ من أُنزلت عليه، فأمهلوني فواقاً فإني قد أحسستُ بالفتح. قالوا: لا. قال: امهلوني عَدوَ الفرس فإني قد طمعتُ في النصر. قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك... قال:

«خُدِعتم وانخدعتم، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب

الجباه السود؛ كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبحاً يا أشباه النُّيَبِ الجلاّلة، ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون»[١].

ثم حدثت ملابسات مؤامرة التحكيم ووقائعها المريرة؛ على تفصيل لا مجال لعرضه في هذا البحث إلا في حدود ما يتصل منه بصاحبنا الأشتر.

ولما كُتبت صحيفة التحكيم المشؤومة دُعِي الأشتر للشهادة فيها فقال:

«لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال إن كُتِب لي في هذه الصحيفة اسمٌ على صُلح ولا موادعة، أولست على بينةٍ من ربي ويقين من ضلالة عدوي، أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور».

«فقال له رجل من الناس: إنك واللهِ ما رأيت ظفراً ولا خوراً، هلمَّ فأشهِدْ على نفسك وأقرر بما كُتِبَ في هذه الصحيفة؛ فإنه لا رغبة بك عن الناس».

«قال: بلى والله، أن بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي دماء رجالٍ ما أنت بخيرٍ منهم عندي ولا أحرَم دماً».

«فقال عمار بن ربيعة: فنظرتُ إلى ذلك الرجل وكأنما قُصِع على أنفه الحُمَم، وهو الأشعث بن قيس»[٢].

---

(١) النص من كامل ابن الأثير: ٣/ ١٦٠ ـ ١٦١، وبراجع في مضامينه: وقعة صفين: ٤٩٠ ـ ٤٩٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٩ ـ ٥١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢) وقعة صفين: ٥١١ ـ ٥١٢ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٦.

«وقيل لعلي: إن الأشتر لا يقر بما في الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم. فقال علي: وأنا والله ما رضيتُ ولا أحببتُ أن ترضوا، فإذ أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيتُ... وأما الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك، فلست أخاف على ذلك، يا ليت فيكم مثله اثنين، يا ليت فيكم مثله وأحداً يرى في عدوي ما أرى، إذاً لخفَّتْ عليَّ مؤونتكم ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم»[1].

(١) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٦٣.

وما أن انتهت حرب صفين وانسحبت الجيوش من ميادين قتالها، حتى عاد ولاة علي (ع) على الأقاليم ممن شارك في تلك المعركة إلى أماكن عملهم، ومنهم الأشتر الذي (عاد بعد صفين إلى عمله بالجزيرة)[1]، (فكان مقامه بنصيبين)[2]، وكانت تشمل ولايتُه (الموصل ونصيبين وداراً وسنجار وآمد وهيت وعانات وما غلب عليه من أرض الجزيرة)[3].

وسُجِّلت للأشتر خلال هذه المدة من ولايته هجمات وغارات بالجزيرة على بعض أراضيها التي كانت تخضع لأتباع معاوية بقيادة الضحاك بن قيس، وحصل بين الطرفين قتال ومناوشات على عدة جبهات منها، ولكنها لم تسفر عن حسم عسكري قاطع[4].

ثم فسدت مصر على واليها محمد بن أبي بكر بفعل فتن العثمانيين ودسائس معاوية وعملائه، فحصل الشغب والانقسام، وتمردت فئات

---

(١) الغارات: ١/ ٢٥٦ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٧ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٤ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٣.

(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ١٧٦ و٣٩٨.

(٣) وقعة صفين: ١٢.

(٤) الغارات: ١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٥ وأنساب الأشراف: ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

منهم فأعلنت نكثها وبغيها وخروجها على إمام زمانها، (فبلغ ذلك علياً فقال: ما لمصر إلا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلنا ـ يعني قيساً ـ أو الأشتر)[١].

وكتب علي (ع) على أثر ذلك إلى مالك الأشتر:

«إنك ممن ستظهِرُ به على إقامة الدين، وأقمع ببأسه ونجدته نخوة الأثيم، وأسدُّ به وبحزم رأيه الثغر المخوف»، (وأخبره بأمر ابن أبي بكر وشرحه له، وأمره أن يستخلف على عمله بعض ثقاته ويقدم عليه)[٢].

فحضر مالك عند علي (ع) (فأخبره خبر أهل مصر وقال: ليس لها غيرك فأخرج إليها، فإني لو لم أُوصك اكتفيتُ برأيك، واستعن بالله، واخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، وتشدد حين لا يغني إلا الشدة)[٣].

واختلف المؤرخون في تأريخ تولية عليّ (ع) مالكاً أمر مصر بين قائلٍ بكونها بعد شهادة محمد بن أبي بكر، وقائل بأنها كانت في حياته وبمثابة العزل له عن تلك الولاية.

والحقُّ الثابت في هذا الأمر أن ولاية محمد هي السابقة بلا ريب، وإن كان من الممكن أن نرجح ما ذهب إليه ابن تغري بردي بعد أن ذكر الخلاف المشار إليه إذ قال: (اللهم إلا إن كان لما اختل أمر مصر على

---

(١) الغارات: ١/ ٢٥٦ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٧ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٤ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٣.
(٢) الغارات: ١/ ٢٥٧ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٩٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ٩٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٤.
(٣) الغارات: ١/ ٢٥٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ٩٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٤ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٣.

محمد عزله علي (ع) بالأشتر، ثم استمر محمد ثانياً ـ بعد موت الأشتر ـ على عمله حتى وقع من أمره ما سنذكره، وهذا هو أقرب للجمع بين الأقوال)[١].

وعلى كل حال، فقد أصبح الأشتر والياً على مصر، وبعث علي (ع) رسالة إلى أهل مصر يخبرهم فيها بتولية الأشتر ويأمرهم بطاعته، وهذا لفظها برواية الثقفي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عُصي في الأرض وضرب الجور برواقه على البر والفاجر، فلا حقٌّ يُستَراح إليه ولا منكر يَتناهى عنه: سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فقد وجهت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء حذار الدوائر، أشدُّ على الكفار من حريق النار، هو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا فإنه سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة ولا كليل الحد، فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تحجموا فاحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته وشدة شكيمته على عدوه. عصمكم الله بالحق وثبتكم باليقين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[٢].

ثم زوَّد أمير المؤمنين (ع) مالكاً بتوجيهاته وتعليماته التفصيلية، مودعة في كتاب عهده الرائع الجامع البليغ الذي يعد أول عهد من حيث

---

(١) النجوم الزاهرة: ١/١٠٣.

(٢) الغارات: ١/٢٦٦ ـ ٢٦٧، وقريب من لفظه في الغارات أيضاً: ١/٢٦٠ ـ ٢٦١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/١٥٦، ومضمونة في تاريخ الطبري: ٥/٩٦.

مطالبه ومضامينه في تاريخ الإسلام، وهو العهد الذي قال فيه ابن أبي الحديد المعتزلي: إنُه (نسيج وحده، ومنه تعلَّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة)[١]، وقال فيه شهاب الدين النويري: (لم أرَ فيما طالعتُه من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشمل من عهدٍ كتبه علي بن أبي طالب (ع) إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر... ومثل هذا العهد لا يُهْمَل، وسبيل فضله لا يُجهَل)[٢].

وقال فيه القلقشندي: إنه (من العهود البليغة، جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك)[٣].

(وقد أوردنا هذا العهد بنَصِّه في ملحق الكتاب).

وتوجه الأشتر على أثر ذلك إلى مصر، وعلم معاوية بنبأ شخوصه إلى هناك فبعث إلى رأس الخراج بالقُلْزُم ـ فيما روى البلاذري ـ فقال له: (إن الأشتر قادم عليك، فإن أنت لطفتَ لكفايتي إياه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتُ، فاحتلْ له بما قدرتَ عليه. فخرج الأشتر حتى إذا أتى القُلْزم ـ وكان شخوصه من العراق في البحر ـ استقبله الرجل فأنزله وأكرمه، وأتاه بطعام فلما أكل قال له: أي الشراب أحب إليك أيها الأمير؟ قال: العسل. فأتاه بشربة منه قد جعل فيها سماً، فلما شربها قتلته من يومه أو من غده)[٤].

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٣.

(٢) نهاية الأرب: ٦/ ١٩.

(٣) صبح الأعشى: ١٠/ ١٢.

(٤) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩، وقريب من ألفاظه في كامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٨ والنجوم الزاهرة: ١/ ١٠٣ ـ ١٠٤، ومضمونه في الغارات: ١/ ٢٥٨ ـ ٢٦٠ وتاريخ الطبري: ٥/ ٩٥ ومروج الذهب: ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٤.

وجاء في إحدى روايات الثقفي: (إن علياً لما بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها؛ وبلغ معاوية خبرهُ: بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصره وأمره باغتيالهِ، فحمل معهُ مِزْوَدَيْن فيهما شراب، وصحب الأشتر، فاستسقى الأشتر يوماً فسقاهُ من أحدهما، ثم استسقى ثانية فسقاه من الآخر وفيه سم، فشربه فمالت عنقه. فطلبوا الرجل ففاتهم)[١].

وفي رواية أخرى: (إن معاوية دس للأشتر مولى لآل عمر، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضلَ عليٍّ وبني هاشم حتى اطمأن إليه الأشتر واستأنس به. فقدم الأشتر يوم ثقله أو تقدم ثقله فاستسقى ماء فقال له مولى عمر: هل لك أصلحك الله في شربة سويق؟ فسقاه شربة سويق فيها سم فمات)[٢].

وقال ابن أبي الحديد: (مات الأشتر في سنة تسع وثلاثين... قيل: سُقِي سماً، وقيل: إنه لم يصح ذلك وإنما مات حتف أنفه)[٣].

(وقد رُوِي من بعض الوجوه: أن الأشتر قُتِل بمصر بعد قتال شديد)[٤].

والثابت المستفاد من معظم الروايات بل يكاد يكون المسلَّم المتفق عليه لدى المؤرخين إن شهادته كانت بالسم[٥].

❀ ❀ ❀

(١) الغارات: ١/ ٢٦٢.
(٢) الغارات: ١/ ٢٦٣، ومضمونه في النجوم الزاهرة: ١/ ١٠٤.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٠١.
(٤) الغارات: ١/ ٢٦٣.
(٥) المصادر المذكورة في الهوامش المتقدمة وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٥٣ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤ والإصابة: ٣/ ٤٥٩ وشذرات الذهب: ١/ ٤٨.

مهما يكن من أمر فقد حُمَّ القضاء ووقعت الواقعة، ولبى الأشتر نداء ربه فذهب إلى الفردوس والجنان ومستقر النعيم والرضوان، ودوى نبأ رحيل الأشتر في الأرجاء فهزت أصداء شهادته جنبات الشام والعراق قبل غيرهما من أقاليم المسلمين.

وروى المؤرخون إن معاوية لما بلغه الخبر قال شامتاً مبتهجاً:

(كان لعلي يدان يمينان، فقُطِعت أحداهما يوم صفين ـ يعني عمار بن ياسر ـ وقُطِعت الأخرى اليوم ـ وهو مالك الأشتر ـ)(١).

كذلك نقلت المصادر عنه قوله أيضاً بهذه المناسبة ـ وفيه ما لا يخفى على اللبيب من السخرية بقدرة الله تعالى وبجنوده التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ـ:

(إن لله جنوداً من عسل)(٢).

أما وقع ذلك على أمير المؤمنين (ع) فقد كان أليماً جداً وإلى أبعد الحدود، وحدَّث أبو إسحاق الثقفي: إن علياً (ع) لما بلغه موت الأشتر قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. اللهم إني أحتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر).

ثم قال:

(رحم الله مالكاً فقد وفى بعهده، وقضى نحبه، ولقي ربه، مع أنّا وطّنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله (ص) فإنها أعظم المصائب)(٣).

---

(١) الغارات: ١/ ٢٦٤ وأسماء المغتالين / نوادر المخطوطات: ٢/ ١٦٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٨ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٦.
(٢) أمثال أبي عبيد: ١٩٢ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٩٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٨٨.
(٣) الغارات: ١/ ٢٦٤.

وروى الثقفي أيضاً: إن جماعة من أشياخ النخع قالوا:

(دخلنا على علي (ع) حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه ويقول: لله درُّ مالك، وما مالك!، لو كان جبلاً لكان فِنداً، ولو كان حجراً لكان صلداً. أمَا والله ليهدَّنَّ موتك عالَماً وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجودٌ كمالك).

(قال علقمة بن قيس النخعي: فما زال علي يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا. وقد عُرِف ذلك في وجهه أياماً)[١].

وروى الشريف الرضي كلام علي (ع) في تأبين مالك باللفظ الآتي:

(مالك وما مالك!، والله لو كان جبلاً لكان فنداً، أو كان حجراً لكان صلداً، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر)[٢].

كما أُثر عن أمير المؤمنين (ع) في مالك أيضاً بعد شهادته قوله الموجز الذي أجمل فيه ما يحتاج تفصيله إلى مجلدات من الشرح والبيان:

(رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنتُ لرسول الله (ص))[٣].

وقال ابن أبي الحديد معلقاً على كلمات علي (ع) في الأشتر: «لعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف فيسطو في موضع السطوة ويرفق في موضع الرفق»[٤].

---

(١) الغارات: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٧٧، وبعضه في كل ابن الأثير: ٣/ ١٧٨ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٢١٦ وشرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٩٣.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٨.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٠١ ـ ١٠٢.

وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن بطولات الأشتر في حروبه: (لله أُمٌّ قامت عن الأشتر، لو أن انساناً يُقْسِم إن الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلا استاذه (ع) لَمَا خشيتُ عليه الأثم)[1].

وقالت أخت مالك الأشتر ترثي أخاها:

أبَعد الأشتر النخعي نرجو مكاثرةً ونقطع بطنَ وادِ
ونصحب مذحجاً بإخاء صدقٍ وإن نُنْسَب فنحن ذرا إيادِ
ثقيف عمنا وأبو أبينا وأخوتنا نزار أولو الشدادِ[2]

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٢) كامل المبرد: ٢/ ٦ ـ ٦٧ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٣٠٤.

ملحق الكتاب

عهد أمير المؤمنين(ع) للأشتر النخعي لمّا ولاّه على مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«هذا ما أمر به عبدُ الله عليٌّ أميرُ المؤمنين مالكَ بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاّه مصر: جبايةَ خراجها، وجَهادَ عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتِّباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه جلَّ اسمه قد تكفل بنصر مَنْ نصره وإعزاز من أعزَّه.

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات؛ ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.

ثم أعلم يا مالك أني قد وجَّهتك إلى بلاد قد جرتْ عليها دول قبلك من عدلٍ وجور. وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنتَ تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقوم فيهم، وإنما يُستَدَلُّ على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك، وشُحَّ بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشحَّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أحبَّتْ أو كرهتْ.

وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين وإما نظير لك في الخَلْق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويُؤتَى على أيديهم في العمد والخطأ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم؛ ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاَك، وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم.

ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله فإنه لا يَدَيْ لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمنَّ على عفوٍ، ولا تبجحنَّ بعقوبة، ولا تسرعنَّ إلى بادرة وجدتَ منها مندوحَة، ولا تقولنَّ إني مؤمَّر آمر فأُطاع، فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغِيَر. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبَّهةً أو مخيلةً فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكفُّ عنك من غَرْبك؛ ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يُذلُّ كلَّ جبار؛ ويهين كل مختال.

أنصِف الله وأنِصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومَنْ لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلاّ تفعلْ تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمة الله أدحض حجته، وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب. وليس شيء أدعَى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحبُّ الأمور إليك أوسطَها في الحق، وأعمَّها في العدل،

وأجمعها لرضَى الرعية، فإن سخط العامة يُجحِف برضى الخاصة، وأن سخط الخاصة يغتفر مع رضَى العامة. وليس أحدٌ من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف؛ وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر؛ من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعُدَّة للأعداء: العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم.

وليكن أبعدَ رعيتك منك وأشنأهم عندك أطْلَبُهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحقُّ من سترها، فلا تكشفنَّ عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعتَ يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك.

أطلق عن الناس عقدة كل حقد، وأقطع عنك سبب كل وتر، وتغابَ عن كلِّ ما لا يَضِحُ لك، ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساعٍ فإن الساعي غاشٌ وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويَعِدُك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حرِيصاً يزيِّن لك الشرهَ بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتَّى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شرَّ وزرائك مَنْ كان للأشرار قبلك وزيراً ومَنْ شركهم في الآثام فلا يكونَّن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثَمَة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه، أولئك أخفُّ عليك مؤونة، وأحسن لك معونة؛ وأحنى عليك عطفاً؛ وأقل لغيرك إلفاً. فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن

آثَرُهم عندك أقْوَلَهم بمُرِّ الحق لك؛ وأقلَّهم مساعدة فيما يكون منك مما كره لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع. وألصق بأهل الورع والصدق؛ ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجِّحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهوَ وتدني من العزة. ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان؛ وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألْزِم كلاً منهم ما ألزم نفسه.

وأعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راعٍ برعيته من إحسانه إليهم؛ وتخفيفه المؤونات عليهم؛ وترك استكراهه إياهم على ما ليس قِبَلهم، فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نَصَباً طويلاً، وإن أحقَّ مَنْ حَسُن ظنك به لَمَنْ حسن بلاؤك عنده، وأن أحقَّ من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سُنَّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنَّة تضر بشيء من ماضي تلك السنن؛ فيكون الأجر لمن سنَّها، والوزر عليك بما نقضتَ منها.

وأكثر مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك؛ وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

وأعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكُلاً قد سمّى الله سهمه ووضع على حدِّه فريضته في كتابه أو سنة نبيه (ص) عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود ـ بإذن الله ـ حصون الرعية وزين الولاة وعزُّ الدين وسُبُل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب، لما يحكمون من المعاقد؛ ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات؛ فيما يجتمعون عليه من مرافقهم؛ ويقيمونه من أسواقهم؛ ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم. وفي الله لكلٍ سعة، ولكل على الوالي حقٌ بقدر ما يصلحه.

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله؛ وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثقل. فوَلِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك؛ وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطيء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف. ثم الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة؛ فإنهم جماع من الكرم وشُعَب من العرف. ثم تفقَّد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمنَّ في نفسك شيء قوَّيتهم به، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قلّ؛ فإنه داعية لهم إلى بذلك النصيحة لك وحسن الظن بك، ولا تدع تفقُّد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها؛ فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به؛ وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه.

وليكن آثَرُ رؤوس جندك عندك مَن واساهم في معونته؛ وأفضل

عليهم من جدَته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون هَمُّهم هماً واحداً في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولا أمورهم؛ وقلّة استثقال دُوَلهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرِّض الناكل إن شاء الله. ثم أعرف لكل امرىء منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرىء إلى غيره ولا تقصِّرنَّ به دون غاية بلائه، ولا يدعونَّك شرفُ امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً؛ ولا ضعةُ امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً.

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحبَّ إرشادهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فالرَّدُّ إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرَّدُّ إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرِّقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تُمحكه الخصوم؛ ولا يتمادى في الزلة؛ ولا يَحْصَر من الفيء إلى الحق إذا عرفه؛ ولا تُشرِف نفسه على طمع؛ ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه؛ وأوقفَهم في الشبهات، وآخَذَهم بالحجج؛ وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبَرهم على تكشُّف الأمور، وأصرمَهم عند اتضاح الحكم؛ ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستمليه إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه، وافسح له في البذل ما يزيل علَّته وتقل معه حاجتهُ إلى الناس، وأعطه من المنزلة

لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعْمَل فيه بالهوى وتُطلَب به الدنيا.

ثم انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولِّهم محاباة وأثرةً فإنهما جماعٌ من شُعَب الجور والخيانة، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقَدَم في الإسلام المتقدمة؛ فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقلَ في المطامع إشرافاً وأبلغ من عواقب الأمور نظراً. ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم؛ وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم؛ وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم وأبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنَّ تعاهدك في السرِّ لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية. وتحفَّظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانةٍ اجتمعتْ بها عليه عندك أخبارُ عيونك اكتفيتَ بذلك شاهداً فبسطتَ عليه العقوبة في بدنه وأخذتَه بما أصاب من عمله، ثم نصبتَه بمقام المذلة، ووسمتَه بالخيانة؛ وقلدته عار التهمة.

وتفقَّد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرَك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك البعاد ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علةً أو انقطاعَ شربٍ أو بالَّةٍ أو إحالةَ أرض اغتمرها غرقٌ أو أجحف بها عطش، خففتَ عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلنَّ عليك شيء خففتَ به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمادة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم

وتبجُّحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عوَّلتَ فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيبةَ أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملتَه، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر.

ثم أنظر في حال كتّابك فوَلِّ على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تُدخِل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق، ممن لا تبطره الكرامة فيجترىء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطى منك، ولا يُضعِف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عُقِد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليتَ أمره.

واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم، لا يقهره كبيرها، ولا يتشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتَابك من عيب فتغابيت عنه ألزمتَه.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً: المقيم منهم، والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب

المرافق، وجُلاّبها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. وأعلم ـ مع ذلك ـ أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات، وذلك بابُ مضرةً للعامة، وعيبٌ على الولاة. فامنع من الاحتكار فإن رسول الله (ص) منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حُكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب في غير إسراف.

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكُلٌّ قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تُعذَر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشي والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً، تفرغ لهم فيه شخصك،

وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول في غير موطن: (لن تقدَّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع). ثم احتمل الخرق منهم والعي ونح عنك الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار.

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمّالك بما يعيّى عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك، وامض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية.

وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك إقامةُ فرائضه التي هي له خاص، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفِّ ما تقربت به إلى الله في ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ. وإذا أقمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله (ص) حين وجهني إلى اليمن: كيف أُصلي بهم؟ فقال: (صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً).

وأما بعد فلا تطوِّلن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علوم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر

لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه، أو مبتلٍ بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك. مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة أو طلب إنصافٍ في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عُقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهن ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

وألزِم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فإن مغبة ذلك محمودة.

وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك، وأعدل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيتك، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق.

ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن.

وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبستَه منك ذمة فحط عهدك

بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناسُ أشد عليه اجتماعاً ـ مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ـ من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر. فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي، وقد جعلك الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه. ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعولن على لحن قولٍ بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيقُ أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود البدن. وإن ابتليتَ بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحبَّ الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والمنَّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل عمل موقعه.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما يعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وهما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم.

أملك حمية أنفك وسورة حدك، وسطوة يدك وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك، من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا (ص)، أو فرضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدته مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه، من الإقسامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، وإنا إليه

راغبون، والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً)[١].

---

(١) نقلنا نص هذا العهد بألفاظه من نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ٢/ ٨٢ ـ ١١١، وقد ورد أيضاً بنصه في شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣٠ ـ ١١٧ ونهاية الأرب في فنون الأدب: ٦/ ١٩ ـ ٣٢، كما وردت فقرات مطولة منه في صبح الأعشى: ١٠/ ١٢ ـ ١٥.

وللباحث الثانوني المعاصر المرحوم توفيق الفكيكي كتاب في شرح هذا العهد سماه (الراعي والرعية)، وهو مطبوع أكثر من مرة.

وذكر أبو العباس أحمد بن علي النجاشي المتوفي سنة ٤٥٠هـ في كتاب الرجال: أنه يروي هذا العهد بسنده عن شيخه ابن الجندي أحمد بن محمد بن عمران بن موسى، عن أبي علي بن همام، عن الحميري صاحب قرب الإسناد، عن هارون بن مسلم، عن الحسين ابن علوان، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة صاحب علي (ع) ومن خاصته المعروفين.

كما ذكر أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ في كتاب الفهرست: أنه يروي هذا العهد بسنده عن علي بن أحمد بن محمد بن أبي جيد، عن محمد بن الحسن بن الوليد، عن الحميري، عن هارون بن مسلم والحسن بن ظُريف جميعاً، عن الحسين بن علوان الكلبي، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة صاحب علي (ع) (مجمع الرجال: ١/ ٢٣٣).

[٢٣]

سهل بن حنيف

سَهْلُ بنُ حُنَيْف

سَهْل بن حُنَيف بن واهب بن العُكَيْم بن ثَعلبة بن مَجْدَعة بن الحارث بن عمرو ـ وهو بَحْزَج ـ بن حَنش بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو ـ مُزَ يقياء ـ بن عامر ـ ماء السماء ـ ابن حارثة الغِطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد[1]: صحابي جليل ومجاهد مغوار.

ذكر له المؤرخون كنىً متعددة منها: أبو الوليد، وأبو سعد، وأبو عبدالله، وأبو سعيد، وأبو ثابت، وأبو عَدِي، وأبو محمد[2].

وأُمُّه: هند بنت رافع بن عُمَيس بن معاوية بن أُميَّة بن زيد بن قيس بن عامر بن مُرَّة بن مالك بن الأوس، من الجَعَادرة[3]. وقيل: هي

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٣٣٦، ويراجع في هذا النسب: جمهرة النسب: ٦٣٠ وطبقات خليفة: ١/ ١٩٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٣٩ و٦/ ٨ والمعجم الكبير: ٦/ ٨٦ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٨ والإصابة: ٢/ ٨٦، وفيها اختلاف في الأسماء وفي التسلسل.

(٢) يراجع في هذه الكنى ـ منفردة أو مكررة ـ: طبقات خليفة: ١/ ١٩٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩ و٦/ ٨ والمعارف: ٢٩١ والمعجم الكبير: ٦/ ٨٦ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٥ و٣٢٨ والإصابة: ٢/ ٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١ والدرجات الرفيعة: ٣٨٨ ومجمع الرجال: ٣/ ١٧٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٣٩.

هند بنت رافع بن قيس بن معاوية بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس[(١)].

وكان له من **الأخوة لأبيه وأُمّه**:

١ ـ الصحابي المجاهد المعروف عثمان بن حنيف المتوفى سنة ٥٩ هـ، وسنفرد رسالة مستقلة في سيرته إن شاء الله تعالى.

٢ ـ عَبّاد بن حنيف[(٢)]، وهو ممن شهد بدراً من المسلمين.

كما كان له من **الأخوة لأُمه**:

١ ـ عبدالله.

٢ ـ النعمان. وهما ابنا أبي حبيبة بن الأزعر بن زيد بن العَطّاف بن ضُبَيْعَة[(٣)].

❀ ❀ ❀

وُلِد سهل في المدينة المنورة قبل البعثة الشريفة؛ في «قُبَاء»[(٤)] حيث كان حيُّ قومه ومستقر أسرته، ونشأ هناك كما ينشأ لداته وأترابه حتى بلغ سنَّ الرجولةَ وعمر الزواج والأبوّة. وتزوَّج على مدى حياته ـ فيما روى المؤرخون ـ ثلاث أزواج هن:

١ ـ السيدة (حبيبة بنت أسعد بن زَرارة بن عَدَس بن عُبَيدة بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجّار، وأمها عُمَيْرة بنت سهل بن ثعلبة بن الحارث بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجّار».

---

(١) طبقات خليفة: ١/١٩٦.

(٢) جمهرة النسب: ٦٣٠ والاشتقاق: ٤٤٢ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٦ والإصابة: ٢/٢٥٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٣٩ وفيها (ابنا أبي حبيبة) كما أثبتنا، ولكنه (أبو مُلَيل بن الأزعر بن زيد) في الاشتقاق: ٤٣٨.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٣٩.

ويبدو أن هذا الزواج قد تمَّ بتشجيع ومباركة من النبي (ص)، فقد ورد في الخبر: أن رسول الله (ص) قد ضمَّ «حبيبة» هذه إليه لمّا توفي أبوها السبّاق إلى الإسلام أسعد الخير بن زرارة؛ وأنه زوَّجها سهل بن حنيف.

وكانت هذه المرأة المباركة من جملة المؤمنات اللواتي بادرن إلى بيعة رسول الله (ص)[١].

٢ ـ السيدة أُميمة بنت بشر؛ من بني عمرو بن عَوْف. وكانت قبل ذلك زوجة حسَان بن الدحداحة ففرَّت منه ـ وهو كافر يومئذ ـ إلى النبي (ص) حماية لدينها، فزوجها سهل بن حنيف، وفيها نزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾، وشكَّ بعضهم في أن تكون هي المقصودة بهذه الآية، لأنها من بني عمرو بن عوف وهم من أهل المدينة وليسوا من المهاجرين، غير أن الحافظ ابن حجر العسقلاني احتمل أن يكون زوجها الكافر المشار إليه ـ ولم يكن من الأوس والخزرج ـ ربما كان قد انتقل بها إلى مكة للسكن هناك، ثم فرَّت منه عائدة إلى مسقط رأسها فكان حكمها حكم المهاجرات[٢].

٣ ـ السيدة أُمُّ كلثوم بنت عتبة بن أبي وقاص بن وُهَيْب ابن عبد مناف بن زَهرة بن كلاب[٣].

❀ ❀ ❀

---

(١) يراجع في ترجمة السيدة حبيبة المصادر الآتية ـ ومنها اقتبسن ما أوردنا ـ: المحبَّر: ٤٣١ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٣٢٢ والاستيعاب: ٤/ ٢٦٦ وأسد الغابة: ٥/ ٤٢١ والإصابة: ٤/ ٢٦٠.

(٢) أسد الغابة: ٥/ ٤٠٢ والإصابة: ٤/ ٢٣٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩.

وعرفنا له من الأبناء:

١ ـ أسعد بن سهل، أبو أُمامة: وقد وُلِد في العهد النبوي، وأُتِيَ به رسول الله (ص) فدعا له وبرَّك عليه وسماه باسم جدِّه أبي أُمِّه وكنّاه بكنيته. وكان أسعد هذا ـ كما وصفه الزهري ـ «من علية الأنصار وعلمائهم ومن أبناء البدريين»، كما كان من المحدِّثين المعروفين الذين وردت أحاديثهم في الموسوعات الحديثية. توفي سنة مائة من الهجرة وهو ابن نيف وتسعين[١]. وذكر الرواة أن له من الأولاد كَلاً من: محمد وعبدالله وسهل وعثمان وإبراهيم ويوسف ويحيى وأيوب وداوود وصالح وحبيبة وأُمامة[٢].

٢ ـ عبدالرحمن بن سهل: وقد وُلِد في أواخر حياة رسول الله (ص)، ولِذلك لم يُعَدّ في جملة الصحابة، وإن كان لا يبعد أن تكون له رؤية[٣].

٣ ـ عبدالله بن سهل: وُلد على عهد رسول الله (ص)، وروى عن أبيه، وهو ابن أُميمة بنت بشر[٤].

(١) اقتبسنا ترجمة أسعد المذكور من جمهرة النسب: ٦٣٠ والمعارف: ٢٩١ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٣ وطبقات ابن سعد: ٥/ ٥٩ ـ ٦٠ وتاريخ أبي زرعة الدمشقي: ١/ ٥٦٧ و٦١٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٨٧ ـ ١٠٤ والاستيعاب: ١/ ٦٠ ـ ٦١ و٤/ ٥ وأسد الغابة: ٥/ ١٣٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥١٧ ـ ٥١٩ والإصابة: ١/ ١٠٧ و٤/ ١٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ٥٩ ـ ٦٠ وتاريخ أبي زرعة: ١/ ٥٦٧ و٦١٧ وجمهرة أنساب العرب: ٣٢٦.

(٣) أسد الغابة: ٣/ ٢٩٩ والإصابة: ٣/ ٧٠.

(٤) المعجم الكبير: ٦/ ١٠٤ ـ ١٠٥ وأسد الغابة: ٣/ ١٧٨ و٥/ ٤٠٢ والإصابة: ٣/ ٦٠ و٤/ ٢٣٣.

٤ ـ عثمان بن سهل[١].

٥ ـ سعد بن سهل، وأُمُّه أم كلثوم بنت عتبة[٢].

ولسهل بن حنيف عقب بالمدينة وبغداد[٣].

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩. ومثله في المعارف: ٢٩١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٨.

ودوَّت صيحة الإسلام في مكة المكرمة فاهتزت لها أرجاء الجزيرة العربية، وسرعان ما انتشرت أصداؤها في يثرب فأثارت انتباه الناس هناك، ثم هيمنت على عقولهم وألبابهم وانجذبت لها مشاعرهم وأحاسيسهم، فبادر عدد منهم ـ ومن الأوس والخزرج على وجه الخصوص ـ إلى الإيمان بهذه الرسالة ورسولها الأعظم، مما لا مجال للدخول في تفصيله.

وكان سهل بن حنيف من جملة أولئك المبادرين إلى اعتناق الإسلام بصدق وإخلاص، فلبّى دعوة الله مؤمناً صلب الاعتقاد، وتأهَّب لنشر الرسالة وحماية الرسول بكل حزم وجد واندفاع. ولذلك وصفه الواصفون قائلين: كانت له «صحبة فاضلة»[١]، و«كان من السابقين»[٢]، و«من فضلاء الصحابة»[٣].

وروى البلاذري: إن سهلاً هذا وعبدالله بن جبير كانا يكسران الأصنام رفضاً لها وحنقاً عليها ويأتيان بها المسلمين ليستوقدوا بخشبها[٤].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٣٣٦.
(٢) الإصابة: ٢/٨٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٥ والإصابة: ٢/٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/٢٥١.
(٤) أنساب الأشراف: ١/٢٦٥.

وحدَّث ابن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب (ع) قال:

«كان بقُبَاء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت انساناً يأتيها في جوف الليل فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه. قال: فاستربتُ بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله؛ مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابَك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو؛ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟. قالت: هذا سهل بن حنيف بن واهب؛ قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا. فكان علي (ع) يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف»(١) أي يحدِّث به الناس.

❀ ❀ ❀

ثم كانت الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة، وما صاحبها من هجرة عدد من المكيين المسلمين نجاة بأنفسهم من أذى قريش وتَضامناً مع مَنْ آمن من أنصار الله من الأوس والخزرج في الدفاع عن كلمة الحق ودين الخلود.

ولما آخى النبي (ص) بعد استقراره في دار هجرته بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة التكاتف والتآزر ووحدة الطريق والمصير، آخى بين سهل بن حنيف وعلي بن أبي طالب (ع)(٢).

وثارت ثائرة قريش بعد سماعهم أنباء نجاح النبي (ص) في جمع شمل المسلمين في عاصمة النبوة؛ وتوافد العرب من أطراف المدينة

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٢٧٠ و٢/ ٩١ والمحبر: ٧١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٤ و٣/ ق٢/ ٣٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٩ والإصابة: ٢/ ٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

للدخول في الدين الجديد زرافات ووحدانا، وعلموا ماذا سيؤول إليه شأن كيانهم المهزوز المنخور ووثنيتهم المتحجرة الفاسدة، إذا ما تمَّ لمحمد (ص) بسط سيطرته ونشر دينه وإرساء ركائز دولته الطالعة، فقرروا الزحف نحو هذا التجمع السماوي الوليد وبدأه بالحرب والعدوان، أملاً في هدم قواعده وتدمير معالمه والقضاء عليه قبل اشتداد أزره واستفحال أمره.

وسرعان ما بدأوا بتنفيذ ما صمموا عليه، وزحفت قريش بقضها وقضيضها نحو المدينة لإطفاء ذلك النور المتدفق وإخماد هذه الشعلة الوهاجة، فكانت المواجهة الأولى بين الفريقين في تلك المعركة الخالدة الفاصلة التي عُرفت في تاريخ الإسلام باسم معركة بدر الكبرى، وقد خاض غمارها المسلمون بكل شجاعة واستبسال، فأذلوا فيها كبرياء قريش أيما إذلال، وسجلوا خلالها من مآثر البطولة ما بقي مسطوراً ماثلاً في مصادر التاريخ على مرِّ القرون.

وكان سهل ـ بإجماع المؤرخين ـ ممن شهد هذه المعركة الحامية الوطيس، وشارك فيها بأقصى درجات الإيمان والعزم والإقدام[(١)].

ثم كانت أُحد ثاني تلك المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون، وقد شهدها سهل[(٢)] فيمن شهدها من المقاتلين، بل كان من جملة

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٤ وجمهرة النسب: ٦٣٠ وطبقات خليفة: ١/ ١٩٦ والمحبر: ٢٩٠ والمعارف ٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩ و٦/ ٨ والاشتقاق: ٤٤٢ والمعجم الكبير: ٦/ ٨٦ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٥ و٣٢٨ والعبر: ١/ ٣٢ والتاريخ الكبير: ١/ ١٢٢ والإصابة: ٢/ ٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١ والدرجات الرفيعة: ٣٨٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٣٩ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وجميع المصادر الآتي ذكرها في الهوامش الأربعة التالية.

المبرَّزين المميَّزين من حضَار هذه الملحمة، لأنه أحد أفراد تلك القلَّة التي نافحت واستبسلت في ذلك اليوم العصيب بعد أن انكشف الناس وفرَّ المعظم من ساحة الحرب خوفاً وهلعاً، فبايع رسول الله (ص) في تلك الساعة على الموت، وثبت معه ثبات الأبطال الصناديد، وجعل ينضح بالنبل عن رسول الله (ص) حتى نادى النبي: «نبِّلوا سهلاً فإنه سهل»[١].

وروى البلاذري بسنده قال:

«بايع رسول الله (ص) يوم أُحدٍ على الموت ثمانية: علي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة، وأبو دُجَانة، والحارث بن الصِّمَّة، وحَباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف»[٢].

وروى ابن اسحاق: أن النبي (ص) قال لعلي بن أبي طالب (ع) بعد معركة أحد: «لئن كنت صدقتَ القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة»[٣].

وجاء في نصِّ الذهبي: إن علياً دخل على فاطمة الزهراء إثر الفراغ من الحرب «وهي تغسل الدم عن وجه رسول الله (ص)، فقال: خذيه فلقد أحسنتُ به القتال. فقال النبي (ص): إن كنتَ أحسنتَ فلقد أحسن سهل بن حنيف»[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/٣٩ ـ ٤٠ والاستيعاب: ٢/٩١ وأسد الغابة: ٢/٣٦٥ وسير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٤/٢٥٢ والإصابة: ٢/٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/٢٥١ والدرجات الرفيعة: ٣٨٨.

(٢) أنساب الأشراف: ١/٣١٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/٢٠.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/١٠٦ وتاريخ الطبري: ٢/٥٣٣ وشرح نهج البلاغة: ١٥/١٥. ويراجع أيضاً في هذا النص: دلائل النبوة ٣/٢١٥ و٢٨٤ والمعجم الكبير: ٦/٩٢.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٩.

وتابع سهل بعد بدر وأُحُد شهودَ جميع المشاهد الحربية مع رسول الله (ص) إلى آخر عهد النبوة الزاهر[١].

ويروي المؤرخون: إن النبي (ص) لما صادر أموال بني النضير ـ وهي مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصةً لرسول الله (ص) قسَّمها (ص) بين المهاجرين، ولم يعط أحداً من الأنصار منها شيئاً باستثناء سهل بن حنيف وأبي دجانة[٢].

وفي رواية البلاذري: إن رسول الله (ص) قال للأنصار حينذاك: «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمتُ هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمستكم أموالكم وقسمتُ هذه فيهم خاصة. فقالوا: بل قسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣] [الحشر: ٩].

وذكر ابن سعد: أن رسول الله (ص) أعطى سهل بن حنيف من تلك الأموال «مالاً يقال له: مال ابن خَرَشَة»[٤].

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤٠ ودلائل النبوة: ٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٤ وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣٢٥ والإصابة: ٢/ ٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠١ وأنساب الأشراف: ١/ ٥١٨ وفتوح البلدان: ٣٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤٠ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٨.

(٣) فتوح البلدان: ٣٣ ـ ٣٤.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٤٢.

وفي بداية العام الحادي عشر من الهجرة وقعت الطامة الكبرى والمصيبة العظمى بوفاة رسول الله (ص)، فانقطع حبل الوحي الموصول بين الأرض والسماء، وحدث الإنقلاب على الأعقاب كما أخبر ربُّ العزة وهو أصدق القائلين، واشرأبت أعناق الطامعين والمتربصين إلى سلب تراث النبوة واقتسام التركة كما تستدعي الأهواء وتتحرك الرغبات.

وحصل ما حصل وكان ما كان.

ومن المؤكد الثابت أن يبرز لسهل بن حنيف في تلك الأحداث التي ضرب إعصارها المجتمع الغض الوليد، موقف محدَّد ورأي قاطع أصيل، وإن كنّا لم نقف على تفاصيله في مصادر التاريخ.

ولا بد أنه كان يرى أن أولى المسلمين بمقام الخلافة مَنْ كان أفضلهم وأعلمهم وأقضاهم بنصِّ رسول الله (ص) أعني عليَّ بن أبي طالب (ع)، وكان سهل أحبُّ الناس إليه[1].

وإذا كنا لم نعرف بالتفصيل كيف كانت علاقاته بخلفاء عصره وحكام مصره، فإن المعلوم الثابت أنه كان محل احترامهم واهتمامهم وتقديرهم، لِمَا له من سابقة ممتازة في الإسلام وتضحيات مشهودة في سبيل الله تعالى جعلته محل ثقة المسلمين واعتمادهم وتصديقهم، ولهذا

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٧٥.

ورد حديثه في الكتب الستة كما ذكر الذهبي[١].

وروى ابن سعد وغيره: إن عمر بن الخطاب كان يقول: «ادعوا لي سَهْلاً غير حَزْنٍ» يعني سهل بن حنيف[٢].

وجاء في روايات المؤرخين: إن الثوار المسلمين لم تجمعوا وافدين من أمصارهم في المدينة المنورة لإنكار أعمال عثمان والضغط عليه للتراجع عن تلك التصرفات المنافية لنصوص الشرع، رضي الخليفة أن يكتب لهم كتاباً يتعهد فيه بالعمل والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله؛ وأن تُرْسل نُسَخُه إلى جميع الحواضر الإسلامية التي قدم الثوار منها إلى المدينة لتقرأ فيها على رؤوس الأشهاد، وقد أشهد عثمان على نفسه بالوفاء بما فيه سبعةَ من وجوه المسلمين من أهل المدينة ومنهم سهل بن حنيف[٣].

ورُوِي أن زيد بن ثابت قال يوماً للأنصار ـ والثورة على عثمان في أوج اشتعالها ـ: «يا معشر الأنصار، إنكم نصرتم الله ونبيه فانصروا خليفته» فأنكر ذلك عليه سهل ابن حنيف وقال له: إنك قلتَ ما قلتَ لأن عثمان قد أشبعك من عضدان المدينة[٤].

ثم اشتد أمر الثوار على عثمان بعد فشل كل المحاولات المبذولة لانقاذ الموقف من سوء المصير، وأطبق الحصار على الخليفة فمُنع مِن مغادرة داره، ولما حان وقت الصلاة «جاء المؤذنُ إلى عليّ، فأمر سهل بن حنيف فصلّى اليوم الذي حُصِر فيه عثمان الحَصْرَ الآخر، وهو

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ قف/ ٤٠ و٤١ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٤ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٤) أنساب الأشراف: ٥/ ٧٨. والعضدان ضربٌ من النخل.

ليلة رُئي هلال ذي الحجة»[١]، ثم صلى بهم بعد ذلك أسعد بن سهل في الأيام التالية حتى قُتل عثمان.

۞ ۞ ۞

وتقدَّم الناس وفي طليعتهم قادة الثورة ورجالها القادمون من أقاليم المسلمين الكبرى، نحو علي بن أبي طالب (ع) يريدون بيعته، بحكم كونه الفرد الأوحد الأكمل المؤهّل لحمل الأمانة وتطبيق شريعة العدل وضمان سلامة المسيرة كما أرادها الله تعالى.

وقبل عليٌّ ذلك ـ بعد تردد وتمهُّل ـ نزولاً على اندفاع الجماهير وإلحاحهم عليه بالقبول كي يحقق لهم حلمهم المنشود.

وأنثال الجميع على البيعة زرافات ووحداناً، فـ «بايعه طلحة والزبير... وسهل بن حنيف... وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله (ص)»[٢].

وبعد انتهاء مراسيم البيعة والفراغ من شعائرها المعتادة قصد عليٌّ (ع) خزانة الدولة حيث يكون بيت المال، وغدا الناس لقبض ما يستحق كل فرد من ذلك المال، فقال لعبيدالله بن أبي رافع كاتبه: ابدأ بالمهاجرين فنادهم واعْطِ كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثَنِّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومَنْ يحضر من الناس كلهم ـ الأحمر والأسود ـ فاصنع به مثل ذلك».

«فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٢٣ وكامل ابن الأثير: ٣/٩٥، وروى المسعودي أيضاً صلاة سهل بالناس لما حوصر عثمان في مروج الذهب: ٢/٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/٢٠ والجمل: ١٠٥.

أعتقتُه اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك. فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضِّل أحداً على أحد»[١].

وما إن مرت أيام على قيام هذه الخلافة الراشدة الجامعة لاختيار السماء وانتخاب الناس، حتى أحسَّ بعض الصحابة البارزين أن هناك أمراً يُدَبَّر بليل، «فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على عليّ (ع) فقالوا: يا أمير المؤمنين، انظر في أمرك، وعاتب قومك هذا الحيَّ من قريش، فإنهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دعونا في السرِّ إلى رفضك، هداك الله لرشدك. وذلك لأنهم كرهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة.. وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة، وتألُّفاً لأهل الضلالة، فرأيك»[٢]، فسمع الإمام ما قالوا ولكنه لم يرتب أثراً عملياً على ذلك، وكأنه كان يريد أن لا يؤاخذ هؤلاء المنشقين على نواياهم المستورة حتى يبدأوا العمل والتنفيذ.

ثم أن علياً (ع) بدأ باختيار الأمراء والولاة وتفريقهم على الأمصار والأقطار، واختار من بين أولئك سهل بن حنيف ـ كما روى ابن الأثير ـ والياً على بلاد الشام. وامتثل سهل أمر التولية الصادر إليه فغادر المدينة قاصداً مقر عمله، «حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل فقالوا: مَنْ أنت؟، قال: أمير، قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام. قالوا: إن كان بعثك عثمان فحيّ هلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع. قال أَوَمَا سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى. فرجع إلى علي»[٣] فأخبره الخبر.

❀ ❀ ❀

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٣٩.
(٣) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٠٣.

ثم تسارعت الأحداث أثر بيعة علي (ع) وإطلالة حكومة العدل والمساواة والصرامة في تطبيق الإسلام، فثارت النزعات الجاهلية، واشتعلت الأحقاد القبلية، وهاجت النزوات النفعية والمطامع الذاتية، وأسفر كل ذلك الهيجان والنزوان عن تجمع ضال مضلّ فضَّل الانتقال من اتباع كتاب الله ودينه وشرعه، إلى أتباع جملٍ بائس أبكم يقوده بغاة ناكثون بزعامة طلحة والزبير ومن لف لفهما من الأشياع والمرتزقة، وبمعية الرمز المخدوع «أُم المؤمنين».

وما إن انتشر خبر هذا التجمع اللئيم المنكر في أرجاء المدينة المنورة حتى تناولت ألسن الناس هناك هذين الزعيمين المتمردين بالنقد والتشهير، لأنهما كانا قد بايعا علياً في اليوم الأول لخلافته على مرأى ومسمع من جميع المسلمين ولما أراد أسامة بن زيد الدفاع عنهما بزعم أنهما لم يبايعا طائعَيْن وإنما كانا مكرهين «واثَبَه سهل ابن حنيف والناس»[1].

ودعا عليٌّ (ع) كلا من عبدالله بن عباس ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وسهل بن حنيف، فأخبرهم بنكث هؤلاء للبيعة وعزمهم على المسير إلى البصرة بزعم المطالبة بدم عثمان، وتداولوا في الأمر، وأدلى كل واحد منهم برأيه. فأخبرهم أمير المؤمنين (ع) بتصميمه على الشخوص لأولئك الناكثين لبيعتهم والناقضين لعهودهم[2] لوضع حدّ لطيش دعاة الفتن وذوي الأطماع وأصحاب النفوس الأمّارة بالسوء.

ولما أراد عليٌّ (ع) مغادرة المدينة بمن معه من الأصحاب جعل

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٠.
(٢) الجمل: ٢٣٩.

عليها سهل بن حنيف الأنصاري والياً وأميراً، وخرج متوجهاً إلى البصرة(١).

وبلغه ـ وهو في أثناء مسيره ـ أن قوماً من أهل المدينة تسللوا إلى معاوية ملتحقين بموكب بغيه وغيِّه، فكتب إلى سهل عامله كتاباً جاء فيه: «أما بعد: فقد بلغني أن رجالاً ممن قِبَلَك يتسلَّلون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غيّاً، ولك منهم شافياً، فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعُهم إلى العمى والجهل، فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها، قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً. إنهم والله لم يفروا من جور؛ ولم يلحقوا بعدل، وإنّا لنطمع في هذا الأمر أن يذلِّل الله بنا صَعْبَه، ويسهِّل لنا حَزْنَه، إن شاء الله»(٢).

❀ ❀ ❀

ويشاء التقدير الإلهي الحاسم أن يجعل وجود سهل بن حنيف على رأس إمارة المدينة المنورة وولايتها الإدارية سبباً في حماية أخيه عثمان والي البصرة من القتل على يد طلحة والزبير وأمهما المصون.

ويروي المؤرخون: إن أتباع الجمل لما ألقوا القبض على عثمان بن حنيف وأسروه إثر سيطرتهم على البصرة ـ في تفصيل لا مجال لسرده في

---

(١) تاريخ خليفة: ١/ ١٩٩ و٢٣٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٢٠ و٦/ ٨ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣ و٤٧٤ و٥/ ٩٣ و١٥٦ ومروج الذهب: ٢/ ٢٤٣ والاستيعاب: ٢/ ٩١ والجمل: ٢٨٤ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٣ ومجمع الرجال: ٣/ ١٧٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٥٢.

هذا الاستطراد وسوف نورده مفصلاً إن شاء الله في بحثنا عن عثمان في هذه السلسلة ـ قال طلحة والزبير لعائشة:

ما تأمرين في عثمان؟.

قالت: اقتلوه قتله الله.

«وكانت عندها امرأة من أهل البصرة فقالت لها: يا أُمَاه! أين يذهب بكِ؟ أتأمرين بقتل عثمان، وأخوه سهل على المدينة، وله مكانة من الأوس والخزرج ما قد علمت. والله لئن فعلتِ ذلك ليكوننّ له صولة بالمدينة يقتل فيها ذراري قريش».

«فآب إلى عائشة رأيُها وقالت: لا تقتلوه، ولكن احبسوه وضيّقوا عليه»[١].

وفي خبر أبي مخنف:

إن عائشة قالت لأبان بن عثمان: «اخرج إليه (أي إلى عثمان بن حنيف) فاضرب عنقه، فإن الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله».

«فنادى عثمان: أن أخي سهل بن حنيف خليفةُ علي بن أبي طالب على المدينة، وأقسم بالله إن قتلتموني ليضعنَّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يُبقي أحداً منكم. فكفوا عنه»[٢].

وروى البلاذري:

أن سهل بن حنيف لما بلغه «وهو والٍ على المدينة من قبل علي؛ ما كان من طلحة والزبير إلى أخيه عثمان وحبسهما إياه، فكتب إليهما:

---

(١) الجمل: ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٢١.

أُعطي لله عهداً لئن ضررتموه بشيء ولم تخلّوا سبيله لأبلغن من أقرب الناس منكما مثل الذي صنعتم وتصنعون به، فخلوا سبيله»[١].

ومهما يكن من أمر، فقد تقابل الفريقان على صعيد البصرة، وبدأت محاولات علي (ع) في الحوار والوعظ والتنبيه والتوعية، إقامةً للحجة وتثبيتاً للسلم وحقناً للدماء، فلم ينفع ذلك كله في ردع هؤلاء الضالين المعاندين، فكتب إلى سهل أن يقدم عليه بمن لديه من المحاربين الراغبين في المشاركة في حرب البغاة، وأن يولي مكانه أبا حسن المازني[٢].

وفي نص البلاذري: أن علياً كتب «إلى عمّاله في القدوم عليه واستخلاف من يثقون به، وكتب إلى سهل بن حنيف في القدوم عليه. وولى مكانه قُثَم بن العباس بن عبد المطلب إلى ما كان يلي من مكة»[٣].

وامتثل سهل أمر عليّ (ع) بالحضور فقدم عليه وشارك في القتال مشاركة فعَالة[٤]، وكان مما أُثِر عنه قبيل قيام هذه الحرب البائسة قوله:

عَذَرْنا الرجل بحرب الرجال ... فما للنساء وما للسِّبابِ
أما حسبنا ما أتينا به؟ ... لكِ الخير من هتك ذاك الحجابِ
ومخرجها اليوم من بيتها ... يعرِّفها الذنبَ نبحُ الكلابِ
إلى أن أتانا كتابٌ لها ... مشوم، فياقبح ذاك الكتابِ[٥]

ثم قامت الحرب على قدم وساق، ولم تضع أوزارها إلا بعقر الجمل وهزيمة أتباعه الخائبين.

---

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٠.
(٢) طبقت ابن سعد: ٣/ق١/ ٢٠ و٦/ ٨.
(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٠٠.
(٤) طبقات خليفة: ١/ ٤٤٩ والمحبر: ٢٩٠.
(٥) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٣ ـ ١٤ والدرجات الرفيعة: ٣٩٠.

وبعد أن فرغ عليّ (ع) من حرب الجمل وذيولها المختلفة وأراد مغادرة البصرة؛ استخلف سهل بن حنيف والياً موقتاً عليها[1]، بدلاً من أخيه عثمان الذي انهدَّت قواه وأصبح عاجزاً عن القيام بواجبات عمله، إثر أسره من قبل البغاة وتعذيبهم له بألوان العذاب.

ثم شهد سهل قتال القاسطين في صفين تحت راية علي أمير المؤمنين (ع)[2]. وكان من أُمراء الجيش[3] قائداً لخيل أهل البصرة[4] أو جند البصرة[5]، وقيل: قائداً لخيل المدينة[6].

وكان عليّ (ع) حين عزم على المسير من الكوفة لحرب أهل الشام القاسطين قد جمع كبار أصحابه وولاته وخاصَّته لاستشارتهم في الزحف

---

(١) الإصابة: ٢/ ٨٦.

(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٥ و٣٩٢ والمعارف: ٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤٠ و٦/ ٨ والمحبر: ٢٩٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٥٥ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٥ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٤ والإصابة: ٢/ ٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٣٥.

(٤) وقعة صفين: ٢٠٨ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٠٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ١١ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٩.

(٥) كامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٠.

(٦) وقعة صفين: ٢٤٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٨.

نحو جمع البغي الجديد الذي يقوده في هذه المرة معاوية بن هند. وكان من جملة أولئك المستشارين الحاضرين سهل بن حنيف الذي قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا أمير المؤمنين، نحن سلمٌ لمن سالمت وحربٌ لمن حاربتَ، ورأيُنا رأيك، ونحن كفُّ يمينك. وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس، فإن استقاموا لك استقام الذي تريد وتطلب، وأما نحن فليس عليك منّا خلاف، متى دعوتَنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك»[١].

وذكر الرواة في أخبار سهل في هذه الحرب أن أهل الشام لما استعلوا في أحد أيامها على أهل العراق إثر شهادة عبدالله بن بديل، وتراجعت خيل العراق من قبل الميمنة، «أمر عليٌّ (ع) سهل بن حنيف فاستقدم من كان معه ليرفد الميمنة ويعضدها»[٢]، فكان له في رفد المعركة وعضدها وجود فاعل وموقف مشهود.

❀ ❀ ❀

وما إن انتهت هذه الحرب الضروس ـ بكل شؤونها وشجونها وملابساتها المؤلمة ـ وتوجه علي (ع) بمن معه إلى الكوفة؛ أعاد ولاته إلى أماكن عملهم، وعيَّن سهل ابن حنيف والياً على بلاد فارس[٣] لمّا

---

(١) وقعة صفين: ٩٣ ـ ٩٤ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٣ والدرجات الرفيعة: ٣٨٩، وبعضه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤٣.

(٢) وقعة صفين: ٢٤٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٢ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) طبقات خليفة: ١/ ٤٥٠ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

بلغه تجمُّع عدد كبير من الخوارج فيها بعد حرب صفين، ولكن الظروف العامة لم تكن مواتية لسهل، وفتن الأعداء كانت أقوى منه ومن إمكاناته العسكرية، فلم يستطع الوقوف في وجه هؤلاء المارقين لمّا أعادوا تجمعهم هناك بعد هزيمتهم في النهروان وانتصار جيش الإسلام عليهم، إذا شجعوا أهل الأهواز على التمرد فـ (طمع أهل الخراج في كسره[١])، وثاروا على سهل[٢] فلم يجد بدأ من مغادرة مركز عمله إلى الكوفة لتدارس الموقف.

❀ ❀ ❀

ووصل سهل الكوفة في مقدمهِ هذا ليكون أجله المحتوم في انتظاره، فتوفي (رضوان الله عليه) فيها في سنة ٣٨ هـ[٣]، ففُجِع المؤمنون بفقده، و«وجد عليه أمير المؤمنين وجداً كثيراً[٤]»، وكفنه في برد أحمر حبرةً[٥]، وصلى على جثمانه وكبَّر عليه خمساً[٦]، وروى ابن قتيبة وآخرون: إنه كبَّر عليه ستاً لأنه بدري[٧]، وقيل: كبر عليه سبع تكبيرات «وقال: لو كبَّرتُ عليه سبعين لكان أهلاً»[٨].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٢٢ و١٣٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٨٥.

(٢) تاريخ خليفة: ١/ ٢١٦ وطبقات خليفة: ١/ ٤٥٠ والاستيعاب: ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٨٥ و١٩٢.

(٣) تاريخ خليفة: ١/ ٢٢٥ وطبقات خليفة: ١/ ١٩٦ و٣٠٤ والمحبر: ٢٩٠ والمعارف: ٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٤٠ و٤١ و٦/ ٨ والاستيعاب: ٢/ ٩١ والمعجم الكبير: ٦/ ٨٦ و٨٧ وأسد الغابة: ٢/ ٣٦٥ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٥ والعبر: ١/ ٣٢ والإصابة: ٢/ ٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

(٤) الدرجات الرفيعة: ٣٩٠.

(٥) مجمع الرجال: ٣/ ١٧٨.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٧ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥١.

(٧) المعارف: ٢٩١ والمعجم الكبير: ٦/ ٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٧.

(٨) مجمع الرجال: ٣/ ١٧٨ والدرجات الرفيعة: ٣٩٠.

وجاء في بعض الروايات: إن علياً (ع) كبر على سهل خمس تكبيرات «ثم مشى ساعة ثم وضعه وكبر عليه خمس تكبيرات أخرى، يصنع ذلك حتى كبر عليه خمساً وعشرين تكبيرة» وجاء في بيان أسباب ذلك: إنه «كلما أدركه الناس قالوا: يا أمير المؤمنين؛ لم ندرك الصلاة على سهل، فيضعه ويكبر حتى انتهى إلى قبره خمس مرات»[1].

---

(١) الدرجات الرفيعة: ٣٩٠ ـ ٣٩١.

[٢٤]

صعصعة بن صوحان

صَعْصَعَة بن صُوحَان

صعصعة بن صُوحان[١] بن حُجْر بن الحارث بن الهِجْرِس بن صَبْرة بن حِدْرِجان بن عِسَاس بن ليث بن حُدَاد بن ظالم بن ذُهْل بن عِجْل بن عَمرو بن وديعة بن أَفْصَى بن عبدالقيس بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار[٢]: صحابي جليل وخطيب مفوّه وشجاع مغوار.

وكان أبوه صوحان رأساً في الجاهلية وسيداً في الإسلام[٣]، ولم يصلنا من أخباره غير ذلك.

واشتهر صعصعة لدى مؤرخيه بكنيتَيْه «أبو طلحة»[٤]، و«أبو عكرمة»[٥] وقيل: إنه قد يكنى «أبو عمر»[٦].

---

(١) نص ابن حجر في الإصابة: ١/ ٥٥٠ عى ضم الصاد من صوحان وسكون الواو وحاء مهملة.

(٢) يراجع في هذا النسب كلاً أو بعضاً: جمهرة النسب: ٥٨٩ وطبقات خليفة: ١/ ٣٢٦ وطبقات ابن سعد: ٦/ ٨٤ و١٥٤ والاشتقاق: ٣٢٩ والاستيعاب: ١/ ٥٣٩ وجمهرة أنساب العرب: ٢٩٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢. ولا تخلو أسماء سلسلة النسب من بعض الاختلاف في هذه المصادر.

(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣١٧.

(٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٨.

(٥) طبقات خليفة: ١/ ٣٢٧.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٩. ووردت هذه الكنى كلها في تهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.

وعرف تاريخ الإسلام من بين أرحامه الأقربين أخويه الشهيدَيْن الخالدَيْن في جنان النعيم:

١ ـ سَيْحان بن صوحان: من الصحابة الشهداء بيد الناكثين أتباع الجمل، و«كانت الراية يوم الجمل في يده، فقُتِل فأخذها زيد، فقتل فأخذها صعصعة»[١].

٢ ـ زيد بن صوحان: وكان أخا صعصعة لأبيه وأمه[٢] وهو شهيد آخر من شهداء الصحابة على يد أولئك البغاة الأشرار أتباع الجمل. وتقدم منّا في هذه السلسلة تحت الرقم (١٥) بحث يعنى بالحديث عن سيرة زيد الجهادية ونضاله الديني، وقد طبع في سنة ١٤١٥ هـ.

كما عرفنا له من بين أولاده: ابنه صوحان بن صعصعة، وجاء في رواية السيد علي رضي الدين آل طاووس «في ذكر أهل بيت الحسين (ع) ورجوعهم من كربلا والشام إلى المدينة وخطبة علي بن الحسين (ع): فقام صوحان بن صعصعة بن صوحان ـ وكان زَمِناً ـ فاعتذر إليه بما عنده من زمانة رجليه، فأجابه بقبول معذرته وحسن الظن فيه، وشكر له، وترحم على أبيه»[٣].

❀ ❀ ❀

ولد صعصعة في ديار قومه بني عبد القيس، ونشأ هناك نشأة لداته وأترابه من أولاد الرؤساء والسادة، وأدرك عصر النبوة وهو صغير يافع[٤]

(١) جمهرة النسب: ٥٨٩ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٩.
(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤.
(٣) سفينة البحار: ٥/ ١١٠.
(٤) الاستيعاب: ٢/ ١٨٩.

فاعتنق الإسلام منذ بداية شبابه على حياة رسول الله (ص) وإن كان لم يرزق شرف لقائه[١] ونص الذهبي على أنه «أسلم في زمن النبي (ص) ولم يره»[٢].

ثم سرعان ما مرت الأيام وتعاقبت الأعوام، فاستوى صعصعة رجلاً جليل الشأن رفيع المقام، فكان مثار الإعجاب والتقدير وملء السمع والبصر، بما منحه الله تعالى من مزايا الرجال الأفذاذ ومواهب العباقرة المشار إليهم بالبنان.

ولقد وصفه واصفوه من المؤرخين فقالوا:

كان خطيباً مصقعاً، بل يُعد «أحد خطباء العرب» و«من أخطب الناس»[٣]، بل بلغ حداً صار فيه مضرب المثل في الخطابة[٤]، وقال الشعبي: «كنتُ أتعلَّم منه الخطب»[٥]، وقال يحيى بن معين: «صعصعة وزَيد وسيحان بنو صوحان كانوا خطباء»[٦]، ويكفينا من كل ما قيل في خطابة هذا الرجل كلمة سيد خطباء العرب وفصيح فصحائهم علي بن أبي طالب (ع) فيه حينما سماه: «الخطيب الشحشح»[٧] أي الماهر

(١) الاستيعاب: ٢/ ١٨٩ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠ وتجريد أسماء الصحابة: ١/ ٢٦٥ والإصابة: ٢/ ١٨٠ و١٩٢ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.

(٢) تجريد أسماء الصحابة: ١/ ٢٦٥ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.

(٣) المعارف: ٤٠٢ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤ والفهرست: ١٣٩ والفائق: ١/ ٧٨ واللباب: ٢/ ١١٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٨ والإصابة: ٢/ ١٩٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٩٨.

(٥) الإصابة: ٢/ ١٩٢.

(٦) الاستيعاب: ٢/ ١٨٩.

(٧) يراجع في كلمة علي (ع) هذه: غريب الحديث لأبي عبيد: ٢/ ١٣٢ وتهذيب الأزهري: ٣/ ٣٩٦ والفائق: ٢/ ٢٢٥ وغريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٥٢١ وتركيب (شحح) في لسان العرب وغيره من معجمات اللغة.

بالخطبة الماضي فيها، وقال عز الدين بن أبي الحديد معلقاً على ذلك: «وكفى صعصعة بها فخراً أن يكون مثل علي (ع) يثني عليه بالمهارة وفصاحة اللسان، وكان صعصعة من أفصح الناس، ذكر ذلك أبو عثمان الجاحظ»[١].

كما وصفه آخرون منهم فقالوا:

«كان فصيحاً خطيباً عاقلاً لسناً ديّناً فاضلاً بليغاً»[٢].

«كان شريفاً مطاعاً أميراً فصيحاً مفهوهاً»[٣].

ولذلك كله «كان سيداً من سادات قومه عبد القيس»[٤].

و«كان ثقة» باصطلاح المحدّثين ولكنه «قليل الحديث»[٥]، وبلغنا من صحاح أحاديثه روايته عهد علي (ع) لمالك الأشتر لما ولاه أمر مصر[٦].

ولسيادته وزعامته كان يعد «من أصحاب الخطط بالكوفة»[٧].

وذكره عقيل بن أبي طالب وهو يحدث معاوية عن رجال العرب ومشاهيرهم فقال فيه: «عظيم الشأن، عضب اللسان، قائد فرسان، قاتل أقران، يرتق ما فُتِق ويفتق مارتق، قليل النظير»[٨].

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٩٤ و٩٥ وشرح نهج البلاغة: ١٩/ ١٠٦.
(٢) الاستيعاب: ٢/ ١٨٩ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٩.
(٤) الاستيعاب: ٢/ ١٨٩ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠.
(٥) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٩ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.
(٦) رجال النجاشي: ١٤٣ ـ ١٤٤ ومجمع الرجال: ٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٧) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤.
(٨) مروج الذهب: ٢/ ٣٣٧.

وقال له عبدالله بن عباس يوماً على أثر حديث بينهما: «إنك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء» و«أنت يا ابن صوحان باقر علم العرب»[١].

وتحدث يوماً عبدالملك بن مروان أمام جلسائه عن بعض قبائل العرب، فوقف عند بني عبدالقيس فذكر أن منهم أشدَّ الناس وأسخى الناس وأخطب الناس وأحضر الناس جواباً ـ إلى أن قال: «وأما أحضر الناس جواباً فصعصعة بن صوحان»[٢].

ومنحته هذه الصفات والمؤهلات مقاماً جليلاً بين الناس وشأناً كبيراً عند رجال الحكم والخلافة، وحظي ـ منذ عنفوان شبابه ـ بما تستوجبه تلك المزايا من احترام لشخصه وتقدير لآرائه ومقترحاته، ولعل من أبرز شواهد ذلك جرأةً ورجولةً ما رواه الحافظ بن عبدالبر قال:

إن الخليفة عمر بن الخطاب «حين قسم المال الذي بعث إليه أبو موسى ـ وكان ألف ألف درهم ـ وفضلت منه فضلة، فاختلفوا عليه حيث يضعها، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس؛ قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس فما تقولون فيها؟».

«فقام صعصعة بن صوحان ـ وهو غلام شاب ـ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنما تشاور الناس فيما لم ينزل الله فيه قرآناً، وأما من أنزل الله به القرآن ووضعه مواضعه فضَعْه في مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها».

«قال: صدقتَ، أنت مني وأنا منك، فقسمه بين المسلمين»[٣].

---

(١) مروج الذهب ـ أيضاً ـ: ٢/ ٣٤٤ ـ٣٤٥.

(٢) العقد الفريد: ٣/ ٣٦٦.

(٣) الاستيعاب: ٢/ ١٨٩ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠، وأشير إلى هذا النص في الإصابة: ٢/ ١٨٠.

لما مُصرِّت الكوفة وبدأ استيطان المسلمين فيها اتخذها صعصعة مسكناً له ومستقراً لِلَفيف من قومه بني عبدالقيس، ولذلك عُدَّ من أصحاب الخطط في الكوفة كما تقدم، كما عُدَّ في الطبقة الأولى من أهل الكوفة[1].

وكان يذهب من الكوفة للحج في الموسم ما استطاع الذهاب، وقد شارك في إحدى هذه الرحلات في دفن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري لما مات وحيداً إثر نفي عثمان إياه إلى الربذة، وكان صعصعة مع رهط من إخوانه المؤمنين مقبلين من بيت الله الحرام فمروا في طريقهم بالربذة، فرأوا امرأةً تستنجد وتشير إليهم، فلما استخبروها الخبر علموا إنها زوجة أبي ذر وأخبرتهم بوفاة زوجها في دار منفاه وغربته، فأخذوا في تجهيزه وألحدوه في حفرته[2].

وبهذه المشاركة ثبت كون صعصعة أحد المشمولين بشهادة النبي (ص) بالإيمان لمن يشهد جنازة أبي ذر، في قوله (ص) في حديث طويل ورد فيه ذكر دفن أبي ذر: «يشهده عصابة من المؤمنين»[3].

---

(١) طبقات خليفة: ١/ ٣٢٧.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) الاستيعاب: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦، والنص في طبقات ابن سعد أيضاً: ٤/ق ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٩ ـ ١٠٠.

وبقي الرجل مقيماً في الكوفة ومعدوداً من وجوهها البارزة ذوي النفوذ والمقام والتأثير، وبقيت علاقاته بالدولة ورجالها حسنة المظاهر محفوظة الشكل والصورة، حتى قدم سعيد بن العاص والياً على الكوفة من قبل عثمان و«جعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويَسْمَرون عنده»، فـ «سمر عنده ليلةً وجوهُ أهل الكوفة» منهم مالك بن الحارث الأشتر النخعي وزيد وصعصعة إبنا صوحان العبديان وآخرون، «فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان قريش»، «فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك!، والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا». «وتكلم معه القوم».

«فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك ويقول: إن رهطاً من أهل الكوفة ـ سماهم له عشرة ـ يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا».

«فكتب عثمان إلى سعيد: أن سَيّرهم إلى معاوية. ومعاوية يومئذ على الشام».

«فسيّرهم ـ وهم تسعة نفر ـ إلى معاوية. فيهم: مالك الأشتر، وثابت بن قيس بن منقع، وكميل بن زياد النخعي، وصعصعة بن صوحان»[١]، وكان ذلك في سنة ٣٣ هـ.

«وكتب عثمان إلى معاوية: أن أهل الكوفة قد أُخرِجوا إليك نفراً خُلِقوا للفتنة، فَرُعْهم وقم عليهم»[٢].

ووصل هؤلاء المسلمون الصادقون الذين لم تأخذهم في الله لومة

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٣. ويراجع في ذلك أيضاً: أنساب الأشراف: ٥/ ٤٠ ـ ٤١ وطبقات ابن سعد: ٧/ ٧٩ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ١٧١ ـ ١٧٨ وأسد الغابة: ٤/ ٢٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٦٩ ـ ٧٠ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣١٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٧٠.

لائم إلى مدينة دمشق، وفُرضت عليهم الإقامة الجبرية مدة من الزمن، ثم رأى معاوية أن يجتمع بهم ويختبر أفكارهم فاستدعاهم إليه فحدَّثهم وحدثوه، ثم أعاد لقاءه بهم مكرراً، ويروى: أنه ذكر لهم في إحدى تلك اللقاءات عَظَمة أبي سفيان وأنه كان أكرم قريش وابن أكرمها وقال: «إني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً!».

فقال له صعصعة: «كذبتَ، قد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان، مَنْ خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البَرُّ والفاجر والأحمق والكَّيس»(١).

وفي لقاء آخر له معهم «قال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد كنتم أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة. إن أئمتكم لكم جُنَّة فلا تفترقوا عن جُنتكم».

فقال له صعصعة: «أما ما ذكرتَ من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوّفنا، وأما ما ذكرتَ من الجُنَّة، فإن الجنة إذا اخْتُرِقَتْ خُلِص إلينا».

«فقال معاوية: عرفتُكم الآن، وعلمتُ أن الذي أغراكم على هذا قلّة العقول!!، وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً...».

«ثم قام وتركهم»(٢).

واجتمع بهم مرة أخرى ـ ولعلها الأخيرة ـ فطال بينهم الأخذ والرد، وطالبهم معاوية بالطاعة والإذعان، فانبرى صعصعة قائلاً وبمنتهى الجرأة والصراحة:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٧١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) كامل ابن الأثير: ٣/ ٧٠.

«لستَ بأهل ذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله».

فقال له معاوية: «أوليس ما ابتدأتُكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه (ص) وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرَّقوا».

قالوا: «بل أمرتَ بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي (ص)».

قال معاوية: «فإني آمرُكم الآن، إن كنتُ فعلتُ فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه (ص) ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة، وأن توقِّروا أئمتكم وتدلوهم على كل حَسَن ما قدَّرتم...».

فقال صعصعة: «فإنّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإن في المسلمين مَنْ هو أحقُّ به منك»[1].

وفي لفظ ابن أعثم الكوفي: «فقال معاوية: قاتلك الله يا صعصعة!، قد أُعطِيتَ لساناً حديداً. اخرجوا واتقوا الله وأحسنوا الثناء على أئمتكم فإنهم جُنَّة لكم».

«فقال صعصعة: يا معاوية، إننا لا نرى لمخلوقٍ طاعةً في معصية الخالق».

«فقال معاوية: اخرج عني، أخرجك الله إلى النار»[2].

وهكذا انفض هذا الاجتماع بلا جدوى، كسائر الاجتماعات السابقة عليه، وبرم معاوية بهؤلاء المبعَدين إليه أشد البرم، ولم يطق صبراً على بقائهم في مملكته، فكتب إلى عثمان بشأنهم كتاباً جاء فيه:

«إنك بعثتَ إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُمْلون

(١) تايخ الطبري: ٤/ ٣٢٤ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٣٢.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٧٧.

عليهم. . . ولستَ آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم، فارددهم إلى مصرهم».

«فكتب إليه عثمان يأمره أن يردَّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة. فردَّهم إليه، فلم يكونوا إلاُّ أطلق ألسنةً منهم حين رجعوا»(١).

ويستفاد من سياق النصوص التاريخية في هذا الموضوع أن أمر الخليفة بردِّ هؤلاء المؤمنينَ إلى الكوفة لم يكن مجرد استجابةٍ لطلب معاوية، وإنما كان نتيجة استنكارٍ واسع لإبعاد أولئك الصالحين النجباء من أصحاب محمد (ص)، وجاء في رواية البلاذري ـ مثالاً على ذلك السخط العام ـ ما أورده من أن جماعة من القرّاء في الكوفة كتبوا إلى عثمان:

«أن سعيداً كثّر على قومٍ من أهل الورع والفضل والعفاف، فحملك في أمرهم على ما لا يحل في دين ولا يحسن في سماع، وإنّا نذكّرك الله في أمة محمد فقد خفنا أن يكون فساد أمرهم على يديك، لأنك قد حملتَ بني أبيك على رقابهم، وأعلم أن لك ناصراً ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نصرك الظالم ونقم عليك الناقم تباين الفريقان واختلفت الكلمة» إلى آخر ما جاء في الكتاب(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد عاد القوم المنفيون إلى بلدهم، ولكن الوالي القريب من الخليفة نسباً وفكراً وأخلاقاً لم يكن يطيق رؤية هؤلاء أو سماع أنباء نقدهم ونقمتهم عليه وعلى سيده الأكبر، فكتب مرة أخرى إلى خليفته «يضج منهم. فكتب عثمان إلى سعيد: أنْ سَيِّرْهم إلى عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص»(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٥.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٤١ ـ ٤٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٧٢ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٣٣.

وكتب عثمان إلى مالك الأشتر وأصحابه: «أما بعد: فإني قد سَيِّرْتُكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فأخرجوا إليها، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شرّاً!!، والسلام».

وسار الأشتر وأصحابه ومنهم صعصعة إلى حمص، «فأنزلهم عبد الرحمَن بن خالد الساحل»[١].

ثم عاد القوم إلى الكوفة بعد لأي من الزمن فارين من قبضة عبد الرحمن إثر غيابه عن ولايته، فكانوا يجتمعون كعادتهم في مجالسهم وأنديتهم، وليس لديهم إلا الحديث عن تردي الأوضاع وسوئها في عهد عثمان[٢].

واستمرت نار السخط والاستنكار في الكوفةَ اشتعالاً وتوقداً، ثم امتد لهبها ليتعدى دائرة الكوفة فيشمل أهم الحواضر الإسلامية على سعة رقعة الدولة، وكان يرى الصحابة المخلصون لرسالتهم ومبادئهم إن أمور الخلافة لم يعد يصح السكوت عنها وهي تسير من سيِّء إلى أسوأ على مرِّ الأيام، فقرروا الزحف إلى المدينة للتفاوض مع عثمان وإجباره على إصلاح الحال، بإبعاد ذوي قرباه الفاسدين المفسدين عن مراكز الحكم والإدارة، وبالالتزام الدقيق بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله (ص).

وذهب وفد من هؤلاء ـ وهو الأول بين الوفود ـ من الكوفة إلى المدينة، وفيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة إبنا صوحان العبديان وآخرون، وجعلوا مطلبهم الرئيس من الخليفة عزل سعيد بن العاص عن الكوفة[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٦.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٣.
(٣) طبقات ابن سعد: ٥/ ٢٢.

والمستفاد من خلاصة أخبار هذا اللقاء أن الخليفة قد ضاق صدره من كلام وفد الكوفة، فصبَّ جام غضبه على صعصعة خاصة لأنه خطيبهم البارز المفوَّه، فقال غاضباً: «أيها الناس، إن هذا البَجْبَاج النَّفَاج[١] لا يدري ما الله ولا أين الله!!!»[٢].

ثم تجمع ذوو الدين والرأي من سائر الأمصار الإسلامية في وفود تضم مجموعات كبيرة العدد ثقيلة الوزن، وشاركتهم الكوفة في وفد منها ـ هو الثاني ـ، وقد ضمَّ فيمن ضمَّ «كميل بن زياد ومالك الأشتر وصعصعة بن صوحان وحجر بن عدي في جماعة من قرّاء الكوفة... فاجتمع القوم على عيب عثمان وجهروا بذكر أحداثه... فلما بلغ عثمان اجتماعُهم أرسل إلى علي (ع) وقال: أخرج يا أبا الحسن إلى هؤلاء القوم ورُدَّهم عما جاءوا إليه»[٣].

فالتقاهم علي (ع) وكلَّمهم، ثم فاوض عثمان وأخذ منه العهود والمواثيق على الوفاء بما وعد، وأقنع الوافدين بالعودة إلى أمصارهم بعد عهد عثمان وميثاقه.

ولما نقض عثمان ما تعهد به قدمت الوفود مرة أخرى إلى المدينة، وحاصروا عثمان، وكثر الأخذ والرد والقيل والقال، ولم تنجح كل المحاولات المبذولة في إقناع الخليفة بإبعاد قريبه مروان ـ وهو الوزغ ابن الوزغ مصدر الشر والفتنة ـ، وحمله على العدل في الرعية والقسمة بالسوية، والتطبيق الحرفي لأوامر الله تعالى كما وردت في كتابه وسنة رسوله (ص).

ثم آل الأمر بالثوار إلى أن يجهزوا على عثمان فيقتلوه.

---

(١) البجباج: الكثير الكلام، والنفاج: الشديد الصلف.
(٢) غريب الحديث للخطابي: ٢/ ١٣١ والفائق: ١/ ٧٨.
(٣) الجمل: ٦٩ ـ ٧١.

واتجه قادة الثورة وممثلو الوفود الإسلامية القادمة إلى المدينة المنورة، على أثر مقتل عثمان، إلى أملهم ومجمع طموحهم وثقتهم في إقامة دولة الله في الأرض ـ ولم يكن إلا عليّ بن أبي طالب (ع) طالبين منه أن يمدَّ يده إليهم ليبايعوه خليفة وإماماً على المسلمين.

واستجاب لطلبهم ـ بعد تردد منه وتمهُّل ـ فتدافع جمهور المؤمنين الصالحين نحو هذه البيعة الراشدة زرافات ووحدانا، ولم يمتنع منها إلا مَنْ كان في نفسه مرض ومَنْ استزلّه الشيطان فأعمى قلبه ولُبَّه.

وكان صعصعة بن صوحان أحد أفراد ذلك الجمع المؤمن المبادر إلى البيعة[1] ـ وهو المعدود من كبار أصحاب علي (ع) وخاصته المشهورين بذلك[2] ـ، وكان علي (ع) يحبه حباً جماً ويعوده إذا مرض[3]، ويقول له في بعض الأحيان: «ما علمتك إلا كثير المعونة قليل المؤونة، فجزاك الله خيراً»[4]، كما كان هو الآخر يحب علياً (ع) حباً

---

(١) الجمل: ٥٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤ ورجال الكشي: ٦٨ والاستيعاب: ٢/ ١٨٩ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٨.

(٣) الغارات: ٢/ ٥٢٤ وأنساب الأشراف: ٢/ ١٦٣ ورجال الكشي: ٦٨.

(٤) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٨، ووردت كلمة علي (ع) هذه أيضاً في الغارات: ٢/ ٥٢٤ ورجال الكشي: ٦٨ ومقاتل الطالبيين: ٣٧ وربيع الأبرار: ٤/ ١٣٣ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ١١٩.

جماً أيضاً ويقول فيه: كان فينا كأحدنا لِينَ جانباً وشدة تواضعٍ وسهولةَ قيادٍ، وكنا نهابة مهابة الأسير المربوط للسَّياف الواقف على رأسه»[1].

ثم تحركت الترات الدفينة والأحقاد الكامنة والنزغات الجاهلية الموروثة لتمنع هذه الخلافة الصالحة من قيامها بواجبها المنتظر في إدارة الدولة والمجتمع كما أراد الله تعالى، وفي تطبيق الإسلام على الصعيد العملي الشامل الذي يعم الجميع ويضم الكافة بلا استثناء ولا تمييز.

وكانت حرب الجمل هي النار الأولى التي أشعلها هؤلاء البغاة المتمردون، خروجاً على إمام دينهم وخليفة زمانهم.

وكان من المؤمَّل ـ بل الطبيعي جداً ـ أن يقف صعصعة وهو المسلم الصادق الإيمان إلى جانب إمامه الشرعي علي بن أبي طالب (ع)، وأن يحارب من حاربه ويسالم من سالمه.

وسرعان ما خرج ملتحقاً بركب علي (ع) فأدركه في ذي قار.

وحمَّله علي (ع) من ذلك المكان كتاباً إلى طلحة والزبير وعائشة بعد وصولهم إلى البصرة «يعظِّم عليهم حرمة الإسلام، ويخوِّفهم مما صنعوه وقبيح ما ارتكبوه من قَتْل مَنْ قتلوا من المسلمين، وما صنعوا بصاحب رسول الله (ص) عثمان بن حنيف... ووعظهم ودعاهم إلى الطاعة».

«قال صعصعة: فقدمتُ عليهم فبدأتُ بطلحة وأعطيته الكتاب وأدَّيتَ الرسالة. فقال: الآن حين عضَّت ابنَ أبي طالب الحرب ترفَّقَ لنا».

«ثم جئتُ إلى الزبير فوجدته ألْيَنَ من طلحة».

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥.

«ثم جئت إلى عائشة فوجدتها أسرع الناس إلى الشر فقالت: نعم فقد خرجتُ للطلب بدم عثمان، والله لأفعلنَّ وأفعلن».

«فعدتُ إلى أمير المؤمنين (ع) فلقيتُه قبل أن يدخل البصرة، فقال: ما وراءك يا صعصعة؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، رأيت قوماً ما يريدون إلا قتالك. فقال: الله المستعان»[1].

ودارت رحى الحرب.

وكانت راية عبد القيس الكوفيين بيد صعصعة بعد شهادة أخويه سيحان وزيد[2]، وقاتل في ذلك اليوم بكل بسالة وإقدام حتى أصيب بجراح[3]، ثم كتب الله له السلامة فشُفي من تلك الجراح.

وأسفرت تلك الحربِ في خاتمتها عن هزيمةٍ منكرة للجمل وأتباعه، ونصرٍ مؤزَّر للحق وأجناده.

❀ ❀ ❀

وعادت ثارات بدر مرة أخرى إلى تجمُّعها اللئيم وبغيها المنكر، وكانت في جولتها الجديدة تحت راية قائد القاسطين معاوية بن هند كما كان يتوقع علي (ع) وينتظر.

وروى الرواة في هذا الشأن: إن علياً (ع) لمَّا انصرف من حرب الجمل كان همه إقامة الحجة على خصومه الشاميين لعلمه بمنوياتهم

---

(١) الجمل: ١٦٧.
(٢) جمهرة النسب: ٥٨٩ وفتوح ابن أعثم: ٢/٣١٩. وورد ذكر مشاركته في حرب الجمل في المعارف: ٤٠٢ والفائق: ١/٧٨.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٥١٤ و٥٢٨ و٥٣٠ وفتوح ابن أعثم: ٢/٣١٩ وكامل ابن الأثير: ٣/١٢٥.

الشريرة ومضمراتهم الخبيثة، فقال لآذنه: «مَنْ بالباب من وجوه العرب؟ قال: محمد بن عمير بن عطارد التميمي والأحنف بن قيس وصعصعة بن صوحان العبدي في رجال سمّاهم. فقال: أئْذَن لهم، فدخلوا... فقال لهم: أنتم وجوه العرب عندي ورؤساء أصحابي، فأشيروا عليَّ في أمر هذا الغلام المترف ـ يعني معاوية ـ .... فقال صعصعة:

«إن معاوية أترفه الهوى، وحُبِّبتْ إليه الدنيا، فهانت عليه مصارع الرجال، وابتاع آخرته بدنياهم، فإن تعمل فيه برأيٍ ترشد وتصب إن شاء الله، والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين. الرأي أن ترسل إليه عيناً من عيونك وثقة من ثقاتك، بكتابٍ تدعوه إلى بيعتك، فإن أجاب وأناب كان له ما لك وعليه ما عليك، وإلا جاهدته وصبرتَ لقضاء الله حتى يأتيك اليقين».

«فقال علي: عزمتُ عليك يا صعصعة إلاّ كتبتَ الكتاب بيدك وترجهتَ به إلى معاوية، واجعل صدر الكتاب تحذيراً وتخويفاً، وعجزه استتابة واستنابة. ولتكن فاتحة الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد) ثم أكتب ما أشرتَ به عليَّ، واجعل عنوان الكتاب: (ألا إلى الله تصير الأمور).

«قال: اعفني من ذلك».

«قال: عزمتُ عليك لتفعلنَّ».

«قال: أفعلُ».

«فخرج بالكتاب وتجهز وسار، حتى ورد دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه: أستأذِنْ لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ وبالباب أردفة من بني أمية ـ، فأخذته الأيدي والنعال لقوله، وهو يقول: أتقتلون

رجلاً أن يقول ربي الله. وكثرت الجلبة واللغط، فاتصل ذلك بمعاوية فوجّه بمن يكشف الناس عنه، فكُشفوا، ثم دخلوا، فقال لهم: مَنْ هذا الرجل؟ قالوا: رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علي. فقال: والله لقد بلغني أمره، هذا أحد سهام علّيٍ وخطباء العرب، ولقد كنتُ إلى لقائه شيقاً. «أْذَنْ له يا غلام».

«فدخل عليه فقال: السلام عليك يا ابن أبي سفيان، هذا كتاب أمير المؤمنين».

«فقال معاوية: أما أنه لو كانت الرسل تُقتَل في جاهلية أو إسلام لقتلتك، ثم اعترضه معاوية في الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف قريحته أطبعاً أم تكلفاً، فقال له: ممن الرجل؟ فقال: من نزار. قال: وما كان نزار؟. قال: كان إذا غزا نكس، وإذا لقي افترس، وإذا انصرف احترس. قال: فمن أي أولاده أنت؟. قال: من ربيعة. قال: وما كان ربيعة؟. قال: كان يُطيل النِّجاد، ويعود العباد، ويضرب ببقاع الأرض العماد. قال: فمن أي أولاده أنت؟. قال: من جديلة. قال: وما كان جديلة؟. قال: كان في الحرب سيفاً قاطعاً، وفي المكرمات غيثاً نافعاً، وفي اللقاء لهباً ساطعاً. قال: فمن أي أولاده أنت؟. قال: من عبد القيس. قال: وما كان عبد القيس؟. قال: كان حضرياً خصيباً أبيض، وهّاباً لضيفه ما يجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق، يقوم للناس مقام الغيث من السماء».

«قال: ويحك يا ابن صوحان!، فما تركت لهذا الحيّ من قريش مجداً ولا فخراً».

«قال: بلى والله يا ابن أبي سفيان، تركتُ لهم ما لا يصلح إلا لهم، تركتُ (لهم) الأبيض والأحمر، والأصفر والأشقر، والسرير

والمنبر، والملك إلى المحشر، وأنّي لا يكون ذلك كذلك وهم منار الله في الأرض ونجومه في السماء».

«ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها، فقال: صدقتَ يا ابن صوحان، إن ذلك لكذلك».

«فعرف صعصعة ما أراد فقال: ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد، بعدتم عن أنف المرعى وعلوتم عن عذب الماء».

«قال: فلِمَ ذلك ويلك يا ابن صوحان».

«قال: الويل لأهل النار. ذلك لبني هاشم».

«قال: قم. فأخْرَجُوه».

«فقال صعصعة: الصدق ينبيء عنك لا الوعيد، من أراد المشاجرة قبل المحاورة».

«فقال معاوية: لشيءٍ مّا سوَّده قومه، وددتُ والله أني من صلبه، ثم التفت إلى بني أمية فقال: هكذا فلَتكن الرجال»[1].

ويبدو أن صعصعة قد تمهل في دمشق بعد هذا اللقاء ولم يغادر على الفور، وكان يحضر مجلس معاوية ويرد عليه أقواله في بعض الأحيان، ولعله كان يأمل من وراء هذا الانتظار أن يقوم أمير الشام بكتابة جواب لعلي (ع). وجاء في رواية أخرى للمسعودي ـ وهو يتحدث عن مواقف صعصعة في هذه الرحلة ـ: إن معاوية «قال يوماً ـ وعنده صعصعة، وكان قدم عليه بكتاب علي، وعنده وجوه الناس ـ: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركتُ منه كان جائزاً لي».

(١) النص بكامله في مروج الذهب: ٢/٣٣٨ ـ ٣٤٠ وصبح الأعشى: ١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٦.

«فقال صعصعة:

تمنِّيك نفسك ما لا يكو ن جهلاً معاوِيَ لا تأثَمِ

«فقال معاوية: يا صعصعة، تعلمتَ الكلام».

«قال: العلم بالتعلم، ومن لا يعلم يجهل».

«قال معاوية: ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك».

«قال: ليس ذلك بيدك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها».

«قال: ومن يحول بيني وبينك؟».

«قال: الذي يحول بين المرء وقلبه».

«قال معاوية: اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير».

«قال: اتسع بطن من لا يشبع...»(١).

وفي لفظ الآبي ـ وقد أورد هذه الرواية ـ: أن معاوية قال يوماً:

«الأرض لله وأنا خليفته، ما أخذتُ فلي حلال، وما تركت للناس فلي عليهم فيه مِنَّة».

«فقال صعصعة: ما أنت وأقصى الأمة فيه إلاّ سواء، ولكن مَنْ ملك استأثر».

«فغضب معاوية وقال: لقد هممتُ».

«قال صعصعة: ما كلُّ مَنْ هَمَّم فعل».

«قال: ومن يحول بيني وبين ذلك؟».

«قال: الذي يحول بين المرء وقلبه»(٢).

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٢.

(٢) نثر الدر: ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

ومهما يكن من أمر، فقد ركب معاوية رأسه ولم ينصع لدعوات السلم والدخول فيما دخل فيه المسلمون، فلم يكن بد من الحرب تنفيذاً لأمر الله تعالى في مقاتلة البغاة، وهي الحرب التي اشتهرت في التاريخ باسم حرب صفين. وكان لصعصعة فيها مواقف بارزة وجهاد مشرّف باليد واللسانَ، وهو القائل في أولئك القاسطين حينما بدأ الزحف من الكوفة للقائهم:

«وكيف نتأنّى بالقاسية قلوبهم، القليل في الإسلام حقهم، أعوان الظلم ومؤسسي أساس الحقد وظلم والعدوان، وليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من التابعين بإحسان»(١).

وزحف الجمعان من الكوفة والشام، ووصل الفريقان إلى صعيد صفين.

وكان جيش معاوية قد قدم صفين قبل جيش علي (ع)، فاختار موقع النزول، ثم اتجه نحو الماء فسيطر على النهر ليمنع أصحاب علي التقرب منه.

ثم قدم جيش علي فوجد الأمر على هذه الحال.

وحدَّثنا نصر بن مزاحم بسنده عن عبدالله بن عوف بن الأحمر ـ وهو من جملة جند أمير المؤمنين وشاهد عيان فيما يروي ـ قال:

«لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بَساطاً واسعاً، وأخذوا الشريعة فهي في أيديهم. . . وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء. ففزعنا إلى أمير المؤمنين فأخبرناه بذلك، فدعا صعصعة ابن صوحان فقال: ائت معاوية فقل:

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤٥. ووقع في المطبوع «زيد بن صوحان» ولعله من أغلاط الطابع أو الناسخ، لأن زيداً كان قد استشهد قبل ذلك في حرب الجمل.

«إنّا سِرْنا مسيرنا هذا، وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قد قدمتَ بخيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتَنا بالقتال ونحن من رأينا الكفّ حتى ندعوك نُحتجَّ عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها حتى حلتم بين الناس وبين الماء، فَخَلِّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم. وإن كان أحبَّ إليك أن ندع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا».

وذهب صعصعة إلى معاوية فبلَّغه الرسالة «فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟».

«قال الوليد بن عقبة: أمنعهم الماء كما منعوه ابنَ عفان... اقتلهم عطشاً قتلهم الله... وقال عبدالله بن أبي سرح ـ وهو أخو عثمان من الرضاعة ـ: أمنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، وكان رجوعهم هزيمتهم، امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة!!».

«فقال صعصعة بن صوحان: إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرَةَ الفجرة شَرَبَةَ الخمر، ضَرْبَكَ وضَرْب هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة ـ».

«فتواثبوا عليه يشتمونه ويهدِّدونه. فقال معاوية: كفوا عن الرجل فإنه رسول».

ويقول عبدا لله بن عوف راوي الحادثة مكملاً حديثه:

«إن صعصعة رجع إلينا فحدثنا بما قال معاوية وما كان منه وما ردَّ عليه. فقلنا: وما ردَّ عليك معاوية؟. قال: لما أردت الانصراف من عنده قلتُ: ما تردُّ عليَّ؟. قال: سيأتيكم رأيي. فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف وأرسل إلى أبي الأعور: أمنعهم الماء».

«فازدلفنا ـ والله ـ إليهم ـ فارتمينا واطْعَنَّا بالرماح واضطربنا بالسيوف... فصار الماء في أيدينا، فقلنا: واللهِ لا نسقيهم».

«فأرسل إلينا عليٌّ: خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم لبغيهم وظلمهم»[١].

ثم قامت الحرب على قدم وساق، فصال فيها صعصعة وجال، وكان على رأس قومه عبد القيس الكوفيين في الإمارة والقيادة وحمل اللواء[٢]، حتى وضعت الحرب أوزارها، فعاد مع أمير المؤمنين (ع) وجيشه إلى الكوفة.

❀ ❀ ❀

وما إن حطَّ علي (ع) رحاله في الكوفة بعد الإياب من صفين، حتى بدأ الخوارج المارقون من الدين خصامهم وفتنتهم وتمردهم، متأولين القرآن ومدعين التمسك الحرفي بالإسلام، وهم الذين مرقوا منه كما يمرق السهم من الرمية. وطال جدهم وخصامهم لعلي (ع) ستة أشهر، ثم تجمعوا تحت رايات بغيهم وباطلهم في (حروراء) ـ وعددهم خمسة آلاف ـ بقيادة ابن الكواء، فأرسل إليهم علي (ع) عبدالله بن عباس وزياد بن النَّضْر الحارثي وصعصعة بن صوحان، فدعوهم إلى الجماعة وناشدوهم الطاعة وترك العناد فأبوا عليهم.

ثم أعاد عليهم أمير المؤمنين المناشدة في كرَّة أخرى من محاولات الإصلاح ـ وربما كان ذلك بناء على طلبهم كما روى البلاذري ـ،

(١) وقعة صفين: ١٦٠ ـ ١٦٢ وتاريخ الطبري: ٤/ ٥٧١ ـ ٥٧٢ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٣١٨ ـ ٣١٩، ومعظمه في كامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٥ وتذكرة الخواص: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) تاريخ خليفة: ١/ ٢٢١ ووقعة صفين: ٢٠٦ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٧ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.

فأرسل إليهم عبدالله بن عباس وصعصعة أيضاً، «فقال لهم صعصعة: أذكِّركم الله أن تجعلوا فتنة العام مخافة فتنة عام قابل. فقال ابن الجواء: أكنتم تعلمون أني دعوتكم لهذا الأمر؟، فقالوا: بلى، قال: فإني أول من أطاع هذا الرجل فإنه واعظ شفيق. فخرج معه منهم نحوٌ من خمسمائة فدخلوا في جملة عليّ وجماعته»[١].

وفي لفظ ابن عبد ربه الأندلسي: إن صعصعة خاطبهم قائلاً: «أنشدكم بالله يا معشر الخارجين ألاّ تكونوا عاراً على من يغزو لغيره، وألاّ تخرجوا بأرض تُسَمّوا بها بعد اليوم، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل، فقال له ابن الكواء: إن صاحبك لقينا بأمرٍ قولك فيه صغير. فأمسك»[٢].

ولما فشلت المناشدات والمفاوضات في ردع المعاندين منهم ولم ينفعهم الوعظ ولم تردهم الحجج، زحف علي (ع) نحوهم لتأديبهم وصدِّ بغيهم، وشارك في تلك الحرب صعصعة فيمن شارك من صحابة رسول الله (ص) وجند الإسلام.

وروى المسعودي في أخبار هذه الحرب عن رجل من الأزد قوله:

«نظرتُ إلى أبي أيوب الأنصاري في يوم النهروان وقد علا عبدالله بن وهب الراسبي، فضربه ضربة على كتفه فأبان يده وقال: بُؤْ بها إلى النار يا مارق. فقال عبدالله: ستعلم أيّنا أَوْلى بها صليّاً... إذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف وقال: أولى بها صلياً من ضلّ في الدنيا عميّا، وصار إلى الآخرة شقيا، أبعدك الله وأنزحك، أما والله لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس فأبيتَ إلاّ نكوصاً على عقيبك، فذق يا

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥ وكامل المبرد: ٣/ ٢١٠.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٣٥٣.

مارق وبال أمرك. وشَرَكَ أبا أيوب في قتله، ضَرَبَه ضربةً بالسيف أبان بها رجله، وأدركه بأخرى في بطنه، وقال: لقد صرت إلى نار لا تُطْفَأ ولا يبوخ سعيرها. ثم احتز رأسه»[١].

وانتهت المعركة بهزيمة الخوارج المارقين وفشل تمردهم البائس المشين.

❀ ❀ ❀

ثم كانت فاجعة الفواجع على أثر انهيار الخوارج أن يسقط علي (ع) شهيداً بسيف الغدر في محراب صلاته بمسجد الكوفة.

وهزت هذه المصيبة العظمى عواطف أصحاب أمير المؤمنين ومشاعر رجاله المخلصين، فرثوا إمامهم ببليغ المنثور والمنظوم وصادق عبارات الأسى واللوعة، وكان من جملتهم صاحبنا صعصعة الذي أُثر عنه في هذه المناسبة الأليمة شعر طافح بنبضات الحب والولاء ودلائل الود الصادق الصادر من الأعماق، وكان من بعض تلك المراثي قوله:

إلى منْ لي بانسك يا أخيّا ... ومن لي أن ابثّك ما لديّا
طوتك خطوب دهر قد توالى ... لذاك خطوبه نشراً وطيّا
فلو نشرت قواك ليَ المنايا ... شكوتُ إليك ما صنعتْ إليّا
بكيتك يا علي بدَرِّ عيني ... فلم يغن البكاء عليك شيّا
كفى حزناً بدفنك ثم إني ... نفضتُ تراب قبرك من يديّا
وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيّا
فيا أسفا عليك وطول شوقي ... إليك لو أن ذلك ردَّ شيّا[٢]

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٦.
(٢) المناقب: ٢/ ٨٢ وبحار الأنوار: ٤٢/ ٢٤٢.

وقال أيضاً يرثيه:

هل خبَّر القبر سائليهِ　　أم قرَّ عيناً بزائريهِ
أم هل تراه أحاط علماً　　بالجسد المستكنِّ فيه
لو علم القبر مَنْ يواري　　تاه على كلٍّ من يليهِ
يا موت ماذا أردتَ مني　　حَقَّقْتَ ما كنتُ أتَّقيهِ
يا موت لو تقبل افتداء　　لكنتُ بالروح أفتديهِ
دهر رماني بفقد إلفي　　أذمُّ دهري واشتكيهِ[1]

---

(١) المناقب: ٢/ ٨٢ ـ ٨٣.

وتوجه المسلمون في معظم أقطارهم وأمصارهم وقد خلا دست الإمامة الدينية والولاية الشرعية، نحو خليفة علي (ع) وريحانة رسول الله (ص) وأحد سيدي شباب أهل الجنة ـ أعني الإمام الحسن (ع)، للبيعة وإعلان الطاعة والولاء.

وما إن بدأ الخليفة الجديد الجامع لاختيار السماء وانتخاب أهل الأرض عمله الحازم في إدارة الدولة وتسيير شؤون الحكم، حتى تجمعت عناصر الفتنة والتمرد؛ وتحركت عوامل الخيانة والخذلان، فاضطر الإمام الحسن (ع) إلى الصلح والموادعة مع معاوية، في تفصيل تضيق عن عرضه هذه الصفحات[١].

وأصبح ابن هند وأبي سفيان ـ وهو الطليق ابن الطليق ـ سيد الموقف وبطل الساحة، يفعل ما يشاء ويتصرف كما يريد، بلا رادع يردع ولا مانع يمنع.

واضطر المؤمنون الصادقون إلى الإنكماش والسكوت تبعاً لما أقر إمامهم في وثيقة الصلح، ولكنهم لم يبايعوا معاوية بقلوبهم ومشاعرهم، بل لم يهادنوه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ودخل معاوية الكوفة على أثر ذلك دخول الطغاة الفاتحين،

---

(١) يراجع في ذلك كتابنا (الإمام الحسن بن علي (ع)).

وخطب الناس في مسجدها الجامع تلك الخطبة المعروفة التي أعلن في خلالها بواضح اللفظ وصريح الكلام قائلاً:

«يا أهل الكوفة؛ أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؛ وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وأليَ رقابكم ـ إلى آخر ما قال ـ»[١].

وأُدْخِل عليه بهذه المناسبة جماعة «من أصحاب علي (ع) كان الحسن (ع) قد أخذ الأمان لرجال منهم مسمين بأسمائهم وأسماء آبائهم وكان فيهم صعصعة. فلما دخل عليه صعصعة قال معاوية له: أما والله إني كنت لأبغض أن تدخل في أماني. قال: وأنا والله أبغض أن أسميك بهذا الأسم. ثم سلم عليه بالخلافة، فقال معاوية: إن كنتَ صادقاً فأصعد المنبر فألعن علياً. فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس؛ أتيتكم من عند رجل قدَّم شرَّه وأخَّر خيره، وأنه أمرني أن ألعن علياً فألعنوه لعنه الله. فضج أهل المسجد بآمين»[٢].

وفي لفظ ابن عبد ربه: إن معاوية قال لصعصعة: «اصعد المنبر فألعن علياً، فامتنع من ذلك وقال: أو تعفيني، قال: لا. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس؛ إن معاوية أمرني أن ألعن علياً فألعنوه لعنه الله»[٣].

ثم تسلَّم المغيرة بن شعبة أمر ولاية الكوفة، ففعل الأفاعيل في مطاردة شيعة علي (ع) قتلاً وبطشاً وإرهاباً وتعذيباً، ولكنه لم يعلن الحرب صراحة على زعماء قبائلها وأمراء أحيائها، لأنه لم يكن يضمن

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٥.
(٢) رجال الكشي: ٦٩ ومجمع الرجال: ٣/ ٢١٣.
(٣) العقد الفريد: ٢/ ٤٦٦.

النتائج ولا يعلم غيب العواقب، فكان يجاملهم ما وسعه الأمر، ويعاتبهم بلا فظاظة وغلظة.

وروى الطبري: إن المغيرة بلغه يوماً أن صعصعة يعيب عثمان بن عفان ويُكثِر من ذكر علي ويفضِّله، فدعاه فقال له: «إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس، وإياك أن يبلغني عنك أنك تُظِهر شيئاً من فضل علي علانيةً فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أَخَذَنَا بإظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيراً مما أمِرنا به ونذكر الشيء الذي لا نجد معه بداً، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية، فإن كنتَ ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك وفي منازلكم سراً، وأما علانية في المسجد فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا؛ ولا يعذرنا به».

«فكان يقول له: نعم أفعل».

«ثم يبلغه إنه قد عاد إلى ما نهاه عنه»[1].

وهكذا كُتِب على صعصعة أن يُمضي ما تبقى من أيام حياته في ظل حكم معاوية والمغيره بن شعبة، وكان مجاهراً بولائه لعلي بن أبي طالب (ع) وعدائه للخليفة المتسلط على رقاب المسلمين[2].

ويستفاد من النصوص التاريخية أن صعصعة قد تكرر ذهابه إلى الشام خلال أيام سلطان معاوية، وكان من أسباب بعض تلك الرحلات مشاركته في وفد أهل العراق، ومنها ما كان باستدعاء من السلطة ـ ومعه آخرون ـ لسجنهم هناك، ومنها ما كان لأسباب أخرى لم نقف على تفاصيلها. ويبدو أن صعصعة كان يطيل المقام في دمشق في بعض تلك

(١) تاريخ الطبري: ٦/ ١٨٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢١٤.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٣٠.

الأسفار؛ وإنه كان يتردد على مجلس الخليفة، وربما يتبسط معاوية معه في ألوان من الحديث. ونروي فيما يأتي شواهد على ذلك كله مما ورد في مصادر التاريخ والأدب:

١ ـ دخل صعصعة على معاوية «في وفد أهل العراق، فقال معاوية: مرحباً بكم يا أهل العراق، قدمتم أرض الله المقدسة، منها المنشر وإليها المحشر. قدمتم على خير أمير يبرُّ كبيركم ويرحم صغيركم، ولو أن الناس كلهم وَلَدُ أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء».

«فأشار الناس إلى صعصعة فقام فحمد الله وصلى على النبي (ص) ثم قال: أما قولك يا معاوية أنا قدمنا الأرض المقدسة، فلِعمري ما الأرض تقدِّس الناسَ، ولا يقدس الناس إلا أعمالهم. وأما قولك: منها المنشر وإليها المحشر، فلعمري ما ينفع قربُها كافراً ولا يضرُّ بُعدُها مؤمناً. وأما قولك: لو أن الناس كلهم وَلَدُ أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء؛ فقد ولدهم خير من أبي سفيان آدمُ ـ صلوات الله عليه ـ؛ فمنهم الحليم والسفيه والجاهل والعالم»(١).

٢ ـ «حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدي وعبدالله بن الكواء اليشكري ورجالاً من أصحاب علي مع رجال من قريش. فدخل عليهم معاوية يوماً فقال:

«نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً: أي الخلفاء رأيتموني؟».

فتكلم ابن الجواء، «ثم تكلم صعصعة فقال:

«تكلمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت، ولم تقصر عما أردت، وليس

---

(١) العقد الفريد: ٣/٣٦٦ ـ ٣٦٧ ولباب الآداب: ٣٥٠ ـ ٣٥١.

الأمر على ما ذكرتَ. أنَى يكون الخليفةَ من مَلَك الناس قهرا، ودانهم كِبرا، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكرا!! أما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى.. ولقد كنتَ أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله (ص)، وإنما أنت طليق ابن طليق أطلقكما رسول الله (ص) فأنى تصلح الخلافة لطليق؟!!»[1].

٣ ـ قال معاوية يوماً لصعصعة: «يا ابن صوحان؛ أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها فأخبرني عن أهل البصرة» ثم سأله عن أهل الكوفة وأهل الحجاز وأهل الشام، وصعصعة يجيبه بكل صراحة وبما يغضب بعضه معاوية، «فقال معاوية: والله يا ابن صوحان؛ إنك لحامل مُدْيتك منذ أزمان، إلا أن حلم أبي سفيان يرد عنك، فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كان قدراً مقدورا»[2].

٤ ـ «دخل صعصعة بن صوحان على معاوية؛ ومعه عمرو بن العاص جالس على سريره، فقال: وَسِّعْ له على تُرابية فيه. فقال صعصعة: إني والله لترابي، منه خُلِقت وإليه أعود ومنه أبعث، وإنك لمارج من نار»[3].

٥ ـ قال معاوية يوماً لصعصعة: «إنما أنت هاتف بلسانك لا تنظر في أود (أرز) الكلام ولا في استقامته، فإن كنت تنظر في ذلك فأخبرني عن أفضل المال. فقال: والله يا أمير المؤمنين؛ إني لأدع الكلام حتى يختمر في صدري، فما أرهف به ولا أتلهق فيه حتى أقيم أوده وأحرِّر متنه، وأن أفضل المال لُبَّرةٌ سمراء في تربة غبراء؛ أو نعجة صفراء في

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣٦٦.

روضة خضراء؛ أو عين خرارة في أرض خوارة. قال معاوية: لله أنت فأين الذهب والفضة؟ قال: حجران يصطكان؛ إن أقبلتَ عليهما نفدا، وإن تركتهما لم يزيدا»(١).

٦ ـ «تكلم صعصعة بن صوحان عند معاوية فعَرِق، فقال معاوية: بهرك القول. فقال صعصعة: إن الجياد نضاحة بالماء (أو: بالعرق)»(٢).

❁ ❁ ❁

وفي سنة ٤٣هـ بلغ المغيرة والي الكوفة، إن الخوارج قد تجمعوا في الحيرة وأطرافها بزعامة المستورد بن عُلَّقة التيمي في منازل معروفة فيها، فجمع رؤساء البلد وأعلمهم بما بلغه، وتوعَّدهم طالباً منهم الحذر واليقظة وتنبيه الناس على عدم فسح المجال لهؤلاء بالتجمع في أحيائهم ومنازلهم. وكان من جملة أولئك الرؤساء صعصعة بن صوحان وهو «رأس عبدالقيس» في الكوفة.

وخرج صعصعة من مجلس الوالي فبحث في جلية الأمر، فجاءه الخبر أن عدداً من هؤلاء الخوارج يتجمعون بمنزل سليم بن مجدوح ـ وهو من أبناء قبيلته ـ؛ فجمع عبدَ القيس وقام فيهم خطيباً فقال:

«يا معشر عباد الله؛ إن الله ـ وله الحمد كثيراً ـ لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم، فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره الله لنفسه وارتضاه لملائكته ورسله، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله (ص). ثم اختلف الناس بعده... فلزمتم دين الله إيماناً به

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٣٢، ومختصر منه في غريب الخطابي: ٢/ ٥٢١ والفائق: ١/ ١٩٧.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٢٤ وعيون الأخبار: ٢/ ١٧٣ وغريب الخطابي: ٢/ ١٣١ والعقد الفريد: ٢/ ٢٧١.

وبرسوله... فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء وعلى كل حال، حتى اختلفت الأمة بنيها، فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة، وقالت طائفة: نريد أهل المغرب، وقالت طائفة: نريد عبدالله بن وهب الراسبي ـ راسب الأزد ـ. وقلتم أنتم: لا نريد إلا أهل البيت الذين ابتدأنا الله من قِبَلهم بالكرامة، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً، فلم تزالوا على الحق لازمين له آخذين به، حتى أهلك الله بكم وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم؛ الناكثين يوم الجمل؛ والمارقين يوم النهر ـ وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ سلطانهم ـ».

«ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر، فإياكم أن تؤوهم في دوركم أو تكتّموا عليهم، فإنه ليس ينبغي لحيّ من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد ـ والله ـ ذُكِر لي أن بعضهم في جانب من الحي، وأنا باحث عن ذلك وسائل؛ فإن كان حُكي لي ذلك حقاً تقربتُ إلى الله تعالى بدمائهم، فإن دماءهم حلال... ثم تنحى فجلس»[1].

ويبدو من سياق الأحداث في تلك السنوات العجاف الحافلة بالمآسي والكوارث أن معاوية وجلوازه المغيرة حاكم الكوفة، قد ضاقا ذرعاً بصعصعة، ولم يستطيعا الصبر على ما كان يبلغهما من تصرفاته ومواقفه وتصريحاته؛ وفيها ما فيها من صراحة في معارضة السلطة القائمة وخروج على مجمل توجهاتها الفكرية والسياسية، فأمر المغيرة بنفيه ـ في رواية الحافظ ابن حجر ـ «بأمر معاوية من الكوفة إلى الجزيرة

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٨٤ ـ ١٨٦ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

أو إلى البحرين، وقيل: إلى جزيرة ابن كاوان فمات بها»[١] وكانت وفاته خلال إيام سلطان معاوية[٢].

❀ ❀ ❀

وهكذا ذهب صعصعة إلى جوار ربه صادق الإيمان ثابت اليقين، وبقي ذكره خالداً مضمخاً بصلابة الاعتقاد وأرج العبقرية، كما بقيت خالدة ماثلة حتى اليوم إحدى ذكريات هذا العبد الصالح ـ ناطقة بشدة زهده وورعه ومعبِّرة عن مدى حبه لله وقربه إليه ـ، وأعني بذلك مسجده القائم في مدينة الكوفة، في الجانب الشرقي من مسجد السهلة، وتقدَّر مساحته بـ(٧٥) متراً مربعاً، وقد ورد استحباب الصلاة والدعاء فيه[٣].

---

(١) الإصابة: ٢/ ١٩٢، وسميت الجزيرة فيها: جزيرة ابن كافان، ولعله خطأ مطبعي، والتصويب من معجم البلدان: ٣/ ١٠٣، وقال ياقوت: «جزيرة كاوان ـ ويقال جزيرة بني كاوان ـ: جزيرة عظيمة... من بحر فارس بين عُمان والبحرين... وكانت من أجلِّ جزائر البحر عامرة آهلة. وقال هشام بن محمد: كاوان اسمه الحارث بن امرىء القيس بن حجر بن عامر بن مالك بن زياد بن عَصَر بن عوف بن عامر بن الحارث بن أتمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس».

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤ وأسد الغابة: ٣/ ٢٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٩ والإصابة: ٢/ ١٩٢ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٤٢٢.

(٣) المزار الكبير للمشهدي: ١٤٣ ـ ١٤٦ والإقبال: ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣ وبحار الأنوار: ١٠٠/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨ وتاريخ الكوفة: ٤٦ ـ ٤٧.

[٢٥]

عمرو بن الحمق الخزاعي

عمرو بن الحمق الخزاعي

عمرو بن الحَمِق[1] بن كاهن ـ ويقال كاهِل ـ بن حبيب بن عمرو بن القَيْن بن رَزَاح بن عمرو بن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة ـ وهو لُحَيّ ـ بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة[2]، الخزاعي الكعبي[3]: صحابي جليل، ومجاهد مغوار.

وكان قد عُرِف من بين آبائه جدُّه الكاهن الخزاعي، الذي اشتهر عندَ العرب بكهانته واحترام أحكامه التي يفصل فيها بين الناس فيما يختلفون فيه، وكان منزله ـ كما نصَّ البلاذرِي ـ بعسفان[4].

ولم تذكر لنا المصادر من أفراد أسرته الخاصة أحداً سوى زوجته السيدة الطاهرة الصابرة آمنة بنت الشريد، وسوف يأتي مزيد من الحديث عنها عند ذكر شهادة زوجها في آخر هذا البحث.

وُلِد عمرو ونشأ في منازل قومه، وكانت ولادته قبل الهجرة بما

---

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الميم وبعدها قاف كما في نص الإصابة: ٢/٥٢٦ وغيرها من المصادر التاريخية والمعجمات اللغوية.

(٢) طبقات خليفة: ١/٢٣٥ و٣٠٦. والنسب ـ كله أو بعضه ـ في طبقات ابن سعد: ٦/١٥ والاستيعاب: ٢/٥١٦ والمقتضب: ٢٣٠ ـ ٢٣٣ وأسد الغابة: ٤/١٠٠ والإصابة: ٢/٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/٢٣ ـ ٢٤ وتاج العروس/حمق.

(٣) الإصابة: ٢/٥٢٦.

(٤) أنساب الأشراف: ١/٦١.

يزيد على ثلاثين عاماً، فقد جاء في الروايات التاريخية أن عمرواً هذا سقى النبي (ص) في أحد الأيام لبناً، فدعا له رسول الله (ص) وقال: «اللهم مَتِّعْه (أو: أمتعه) بشبابه»، فمرت عليه ثمانون سنة لا تُرى (أو: لم تُرَ) في لحيته شعرة بيضاء، يعنون إنه استكمل الثمانين ـ كما أوضح الحافظ ابن حجر ـ لا أنه عاش بعد ذلك ثمانين[1].

وكان عمرو قد أسلم في حياة النبي (ص)، واتفق جميع مؤرخيه على أن «له صحبة»[2] وزاد الحافظ ابن حجر العسقلاني فقال: «قد وقع في الكنى للحاكم أبي أحمد... ما يقتضي أن عمرو بن الحمق شهد بدراً»[3].

وذكرت بعض الروايات: إنه كان من المهاجرين إلى المدينة المنورة، وأخرج الطبراني بسنده عنه إنه قال: «هاجرتُ إلى النبي (ص)، فبينا أنا عنده. وذكر قصة تدل على فضيلة لعلي»[4].

وروى البيهقي بسنده عن معمَّر قال: «بلغني أن النبي (ص) كان جالساً في أصحابه يوماً فقال: اللهم أنْجِ أصحاب السفينة، ثم مكث ساعة فقال: قد استمرت، فلما دنوا من المدينة قال: قد جاءوا يقودهم رجل صالح. قال: والذين كانوا في السفينة الأشعريون؛ والذي قادهم عمرو بن الحمق الخزاعي ـ إلى آخر الرواية»[5].

---

(١) الخرائج والجرائح: ١/ ٥٢ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ والدرجات الرفيعة: ٤٣١.

(٢) المعارف: ٢٩١ والمحبر: ٢٩٢ والاشتقاق: ٤٧٤ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥ والاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٤ والدرجات الرفيعة: ٤٣١ وتاج العروس/ حمق.

(٣) الإصابة: ٢/ ٥٢٦.

(٤) الإصابة أيضاً: ٢/ ٥٢٦.

(٥) دلائل النبوة: ٦/ ٢٩٨.

وجاء في رواية الكشي: إن النبي (ص) بعث ذات يوم سريَّةً وقال لهم: «إنكم تصلون ساعة كذا من الليل، فخذوا ذات اليسار، فإنكم تمرو برجل في شائه فتسترشدونه، فيأبى أن يرشدكم حتى تصيبوا من طعامه، فيذبح لكم كبشاً فيطعكم، ثم يقوم فيرشدكم، فاقرأوه مني السلام وأعلموه إني قد ظهرتُ بالمدينة. فمضوا فضلوا الطريق، فقال قائل منهم: ألم يقل لكم رسول الله (ص) تياسروا. ففعلوا ومروا بالرجل الذي قال لهم رسول الله (ص)، فاسترشدوه فقال لهم الرجل: لا أفعل حتى تصيبوا طعامي، ففعلوا فأرشدهم الطريق، ونسوا أن يقرأوه السلام من رسول الله (ص)، فقال لهم الرجل ـ وهو عمرو بن الحمق **(رض)**: ـ أظهر النبي بالمدينة؟ فقالوا: نعم. فلحق به ولبث معه ما شاء الله، ثم قال له رسول الله (ص): أرجع إلى الموضع الذي منه هاجرت... فانصرف الرجل»[1].

وخلاصة القول: إن عمراً كان من المهارجين قطعاً، وورد في المصادر التاريخية إنه هاجر بعد الحديبية[2] وتؤكد كتب الحديث والتاريخ إنه ممن روى عن النبي (ص) «وحفظ عنه أحاديث»[3].

ويُجمِل الشيخ المفيد تاريخ هذا الرجل في عصر النبوة فيقول:

(١) رجال الكشي: ٤٩ وعنه في مجمع الرجال: ٤/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وأسد الغابة ٤/ ١٠٠ وتجريد أسماء الصحابة: ١/ ٤٠٥ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ وتاج العروس/ حمق.

(٣) طبقات خليفة: ١/ ٢٣٥ والاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠ وتجريد أسماء الصحابة: ١/ ٤٠٥ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٤.
ويراجع في أحاديث عمرو بن الحمق عن النبي (ص): سنن ابن ماجه: ٢/ ٨٩٦ ومسند أحمد بن حنبل: ٥/ ٢٢٣ و٢٢٤ و٤٣٧ ودلائل النبوة: ٦/ ٤٨٢ و٤٨٣.

«هجرته إلى الله ورسوله معروفة، ومكانه منه (ص) مشهور، ومدحه (ص) له مذكور»[١].

❀ ❀ ❀

ثم نلتقي بعمرو مجدَّداً بعد ذلك بسنوات في الكوفة حينما مُصِّر وتوافد عليها المسلمون للسكنى والاستيطان، فكان ممن نزل هذه المدينة إثر تمصيرها فعدَّه أصحاب الطبقات من ساكنيها[٢]. ثم انتقل إلى مصر[٣] فحط رحله فيها برهة من الزمن، ثم عاد إلى الكوفة من مصر لتكون كما اختارها أولاً وطناً دائماً ومسكناً ثابتاً[٤]، وربما كانت هذه العودة أيام خلافة علي (ع) لمّا اختارها مستقراً له بعد حرب الجمل ليكون قريباً من مواقع الأحداث المنتظرة.

أما سكناه الشام لبعض الوقت كما روى بعضهم[٥] فهو مما لم يثبت على نحو اليقين، ولعله أقام بها طارئاً خلال سنوات حروب الفتوح، ثم غادرها إلى مقرِّه الدائم في الكوفة كما يشعر به نصُّ الحافظ ابن عبد البر القرطبي[٦].

❀ ❀ ❀

ولم نقف لعمرو خلال السنوات الأولى من إقامته في الكوفة، ثم

---

(١) الجمل: ١٠٤.

(٢) طبقات خليفة: ١/ ٢٣٥ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥ والمعارف: ٢٩١ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٤.

(٣) أسد الغابة: ٤/ ١٠٠ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٤.

(٤) أسد الغابة: ٤/ ١٠٠ وقال ابن الأثير في هذا الشأن: (والصحيح أنه انتقل من مصر إلى الكوفة).

(٥) الاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وعنه في الإصابة: ٢/ ٥٢٦.

(٦) الاستيعاب: المصدر السابق نفسه.

مصر، على ذكر خاص له أو موقف معين يرتبط بشؤون عصره أو مصره، إلى أن آل الأمر إلى عثمان بن عفان بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب؛ وأصبح الحاكم المطلق الفاعل لما يريد، فلم يكن له من همّ إلا تسليم أزمة الحكم في أقاليم المسلمين لذوي قرباه الأمويين ومن يمتّ إليهم بصلة مصاهرة أو مناسبة أو أخوّة حتى وإن كانت من الرضاعة، وهكذا أصبح سعيد بن العاص في ضوء هذا المنطق والمنطلق والياً على الكوفة.

وبقدوم الوالي الجديد فقدت هذه المدينة هدوءها واستقرارها الاجتماعي المعهود، وبدأت تتململ تحت ضغط الأهواء والأطماع التي عصفت بها في ظل حاكمها الأهوج. ثم حدثت القشَّة التي قصمت ظهر البعير؛ حينما أعلن الوالي إن «السواد كله لقريش فما نشاء منه أخذنا وما نشاء تركنا» فأنكر عليه المسلمون ذلك وقالوا له: «أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستاناً لك ولقومك؟! والله ما يصيبك من العراق إلا كل ما يصيب رجلاً من المسلمين»، فردَّ عليهم ذلك صاحبُ شرطة سعيد، وعلا الضجيج حتى بلغ حدَّ ضرب الجماهير الغاضبة لصاحب الشرطة وجلاوزته، وتأزم الموقف أشد التأزم، فكتب الوالي إلى خليفته كتاباً يذكر فيه ما أصابه من هوان وإذلال على أيدي الكوفيين، فأمر عثمان بنفي قادة هؤلاء الرافضين لتصرفات الوالي وأعماله المنكرة إلى الشام[(١)].

وبادر سعيد بن العاص فرحاً إلى تنفيذ أمر سيده بتسيير (أشراف أهل العراق) إلى مملكة قريبه معاوية بدمشق، وتم فرض الإقامة الجبرية

---

(١) يراجع في تفاصيل ما كان بين سعيد بن العاص وأشراف أهل الكوفة ووجوهها: سيرة (مالك بن الحارث الأشتر) وقد مرت: ص ٢٣٠ ـ ٢٤٠، وقد أوردنا هناك جميع النصوص التاريخية المتعلقة بذلك فلا نكرر ولا نعيد.

عليهم هناك، وكان من جملة أولئك المسيَّرين المنفيين إلى الشام: عمرو بن الحمق الخزاعي[1].

ويستفاد من سياق الأخبار التاريخية أن السلطة سمحت بعد لأي لبعض أولئك الذين أُجبروا على الإقامة بدمشق بالعودة إلى الكوفة ـ ومنهم صاحبنا عمرو ـ مع إبقاء الآخرين رهن الأسر والمكث في منفاهم، وجاء في بعض الروايات التي أخرجها البلاذري وغيره: إن جماعة من القراء بالكوفة ـ ومنهم عمرو بن الحمق الخزاعي ـ كتبوا إلى عثمان يستنكرون بقاء أولئك المنفيين بعيدين عن عوائلهم وبلادهم تحقيقاً لرغبات سعيد بن العاص، ويطالبون الخليفة بالسيرة الحسنة والسلوك المحمود مع الناس عامة ومع هؤلاء الرجال المؤمنين الصالحين على وجه الخصوص[2].

ومهما يكن من أمر؛ فقد زادت بطانة عثمان ـ وعلى رأسهم مروان ـ في ممارسة ما دأبت عليه من المظالم والمنكرات، وأخذ يتصاعد جورها وأذاها واستهانتها بتعاليم الدين وأحكام الإسلام، فلم يجد المسلمون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر مناصاً من تشكيل وفود الاحتجاج التي تضم القادة والأشراف المعروفين باستقامة المواقف ونزاهة الدوافع والترفع عن المطامع الذاتية والرغبات الشخصية، فزحفت من أقاليمها إلى المدينة المنورة لملاقاة الخليفة ومطالبته بتصحيح الأخطاء وتقويم الانحراف والعودة إلى الإلتزام الأمين بكتاب الله وسنة رسوله.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٢٦ وكامل ابن الأثير: ٣/٦٩ ـ ٧٢ وشرح نهج البلاغة: ٢/١٣٤.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/٤١ وفتوح ابن أعثم: ٢/١٧٩ ـ ١٨٠.

وتصرح الروايات التاريخية أن عمرواً كان في هذه الأيام مقيماً في مصر، وإن المصريين الذين زحفوا من مصر إلى المدينة للاعتراض على سوء الأوضاع العامة ـ وكان عددهم ستمائة ـ قد اختاروا ثلاثة أو أربعة من بين أولئك المشاركين في الوفد رؤساء لهم وقادة لزحفهم، وكان من جملة هؤلاء القادة الثلاثة أو الأربعة ـ كما نصت مصادر التاريخ ـ: عمرو بن الحمق الخزاعي[١]، بل ربما أُطلق على هؤلاء الثوار المصريين اسم (جيش عمرو بن الحمق)[٢] تعبيراً عن أهمية وجود عمرو فيما بينهم وعن علو مقامه الديني والاجتماعي بين الناس.

واجتمع قادة الوفود القادمة من الحواضر الإسلامية الكبرى في المدينة المنورة، وبدأت المفاوضات بينهم وبين الخليفة وبمشاركة عدد من كبار الصحابة، سعياً نحو إصلاح الأحوال السائدة؛ وإزالة المظالم؛ وقطع دابر تلك الأعمال السيئة التي يمارسها مروان ومجموعته الفاسدة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

وتم الإتفاق على النقاط الرئيسة التي يجب على الخليفة إصلاحها على الفور، وتعهد عثمان بتنفيذ ذلك الاتفاق بحذافيره، وأشهد على تعهده هذا عدداً من أجلّاء الصحابة، فقرر القادمون من تلك البلدان العودة إليها فرحين مستبشرين بهذه النتائج الخيِّرة؛ الضامنة لانقاذ المسيرة الإسلامية مما أشرفت عليه من مخاطر التردي والانهيار.

وفي خلال عودة الوفد المصري من المدينة ـ وما زال في بداية الطريق إلى بلده ـ رأوا رجلاً يَغذُّ السير في تلك الصحراء وكأنه يقصد

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٦١ و٩٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٤٩ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٢ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣١ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٤٥.

مصر، فاسترابوا به فأخذوه وفتشوه، فرأوا معه كتاباً من عثمان إلى عامله على مصر يأمره فيه أن يجلد عمرو بن الحمق وعبدالرحمن بن عُدَيس وأن يحلق رأسيهما ولحيتيهما ويحبسهما؛ وأن يصلب قوماً آخرين من أولئك الثوار[1].

وما إن تم العثور على هذا الكتاب بيد غلام عثمان ـ وفيه ما أسلفنا ذكره من أوامر القتل والمثلة بهؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ـ حتى قرر الجمع العودة ثانية إلى المدينة؛ بعد أن نقض الخليفة عهوده والتزاماته، وتأزم الموقف هناك إثر هذه الطوارىء الخطيرة أشدَّ التأزُّم، فحاصرت وفود الثوار دار عثمان، ثم اشتد الحصار ضراوة وعنفاً حتى بلغ ذروته فيما أسفر عنه من قتل الخليفة وانهيار دولته ونظامه.

ويروي المؤرخون: إن عمرو بن الحمق ـ وهو أحد أولئك الذين سماهم الخليفة فيما أمر به والي مصر من حبسهم والتمثيل فيهم ـ كان من جملة الأفراد المعدودين الذين بلغ بهم الغضب منتهى درجاته، فتسوروا على عثمان من دار عمرو بن حزم بقيادة محمد بن أبي بكر، ثم كان ما كان[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٣ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٨٤ ـ ٨٥ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٥٠. ويراجع في تفاصيل ذلك كله ـ بنصوصها ومصادرها ـ في سيرة: محمد بن أبي بكر، في هذا المجلد.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٨٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٥١ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٤ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣٣ والاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٥٨ و٣/ ١١١.

وما إن تقوض النظام السابق وتخلص الناس من قبضة مروان وتحُكم أشباه مروان، حتى توجه المسلمون في معظم أقطارهم وأمصارهم - وفي المقدمة طلائعهم الثائرة التي لم تغادر بعدُ المدينة المنورة - إلى مجْمَع المطامح ومستودع الآمال علي بن أبي طالب (ع)؛ يريدون بيعته وتسليم الأمر إليه، ليعيدوا الأمانة لأهلها، ويضمنوا سلامة الإدارة ونزاهة اليد والتطبيق الحرفي لما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص)، بعيداً عن المطامع والمحاباة والمحسوبية والمنافع الذاتية.

وامتنع علي (ع) باديء بدء من قبول البيعة؛ لعلمه بما ستؤول إليه الأمور، فتكأكأوا عليه مصرين مُلحِّين، فأجابهم إلى ما أرادوا بعد تردد وتلكؤ فرضهما عليه استشرافه البعيد للمستقبل وما يحمل في طياته من زوابع وأعاصير، وبعد مصارحته لهم بما ينتظر الجميع في الغد القريب من شدائد وأسواء؛ وبما تسفر عنه ثائرة أولئك المتضررين الذين سوف يشملهم الحساب حينما يبدأ (ع) بتصحيح أخطاء سلفه وإعادة الحقوق إلى أصحابها الشرعيين إثر سلبها من أيادي مغتصبيها الجائرين.

وكان الأمر في الحقيقة كما توقع هذا الحاكم الشرعي البعيد النظر؛ الذي اجتمعت فيه يومذاك خلافة الدنيا القائمة على الشورى والانتخاب، وإمامة الدين المستندة إلى وحي الله عز وجل ونصِّ رسوله

الأعظم (ص)، فتحركت الترات الجاهلية والأحقاد القبلية والأطماع الشخصية من هنا وهناك لتشكل تجمعاً لئيماً مفضوح الدوافع والأهداف، وليفرز هذا التجمع ـ من ثَمَّ ـ ذلك التنظيم المتمرد المسلح الذي كان شعاره المعلن: الأخذ بثأر عثمان، ودافعه المستور: رفض تلك الأمامة العادلة التي لا تأخذها في الحق لومة لائم، لعلمهم بما في العدل والمساواة من تبديد لأطماعهم، وتجريدهم من كل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات وخصوصيات في ظل الأوضاع السابقة المنحرفة.

والمستفاد من سياق الأخبار المعنية بذلك الحين أن عمرو بن الحمق ـ وقد شهد ولادة هذه الإمامة الشرعية في المدينة ـ عزم على العودة إلى بلده السابق (الكوفة والإقامة مجدداً فيها ليكون قريباً متن مركز الخلافة ومواقع الأحداث المتوقعة.

❀ ❀ ❀

وسرعان ما تجمعت عصائب البغي والعدوان بقيادة طلحة والزبير و(الرمز المخدوع) أم المؤمنين لتعلن تمردها السيء الصيت، ثم توجه ذلك الجمع بقيادته الحاقدة وأفراده المُضلَّلين المخدوعين إلى مدينة البصرة، متخذين منها قاعدة ومنطلقاً للخروج على ولي الأمر وإمام العصر، حيث قامت فيها أولى المعارك مع البغاة، وهي المعركة التي عُرفت في التاريخ باسم (حرب الجمل) لأن رمزها المخدوع كانت تمتطي جملاً يومذاك، ولأن المشاركين فيها من المتمردين كانوا (أتباع الجمل) حقاً وصدقاً وبكل معنى الكلمة.

وشهد صاحبنا عمرو بن الحمق هذه المعركة في جيش الحق تحت

لواء علي (ع)[١]، ولما عبّأ أمير المؤمنين أصحابه وجنده استعداداً للحرب جعل هذا الرجل المخلص المغوار «على رَجّالة خزاعة وأفناء اليمن» وقيل: «على خيل الكمين»[٢].

وتحدث المؤرخون عما كان لعمرو خلال هذه المعركة من صولات وجولات[٣]، وسموا بعض قتلاه من أتباع الجمل[٤]، ويبدو من بعض رواياتهم أنه كان يُعدُّ من بارزي جيش علي (ع) وكبار قادته، وحدث محمد بن زكريا الغلابي أن حنظلة بن ضرار - وهو شيخ من بني ضبة - خرج يومذاك من بين صفوف البغاة للمبارزة، فقصد «قصده علي فإذا دونه السيوف والآسنة، فرجع وهو يقول:

يا ضبّ يا ضب دعي علياً ... إني أرى من دونه خطّيا
ومعشراً يدعونه الوصيا ... وأرم بنا الأشتر أو عديا
وأرم بنا ابنَ الحَمِق الغويا[٥]

وأسفرت هذه الحرب في خاتمتها عن بغي مهزوم؛ وتمرد فاشل؛ وباطل عائد على أدراجه بخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

❀ ❀ ❀

وأعادت فلول الجاهلية وطلقاء الإسلام تجميع قوادها ولملمة طاقاتها للمرة الثانية للانقضاض على دولة العدل والحق، وكان قائدها

---

(١) المحبر: ٢٩٢ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥ والاشتقاق: ٤٧٤ والاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٤.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٠٨ والجمل: ٣٢٠.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٣٢.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٣٢٨.
(٥) وقعة الجمل: ٤٢ - ٤٣.

هذه المرة صاحب ثارات بدر ووارث ترات فتح مكة؛ وهو معاوية بن أبي سفيان.

وجاء في الروايات أن علياً (ع) حين رأى - إثر الفراغ من حرب الجمل - رفض هذا الطليق لدعوات السلم والدخول فيما دخل فيه الناس، وإصراره على البغي والتمرد وعدم البيعة؛ وعزمه على الخروج بأتباعه للحرب والمقارعة، أمر بإعداد العدة للزحف نحو بلاد الشام لمقاتلة هؤلاء القاسطين البغاة حتى يفيئوا إلى أمر الله كما أوجب جل وعلا في محكم كتابه.

وتقول هذه الروايات: إن بعضاً ممن حوله من الناس لم يكونوا راغبين في الحرب؛ فأشاروا عليه بالمقام في الكوفة وانتظار قدوم العدو بدلاً من الخروج لملاقاته، «إلا هؤلاء الخمسة نفر: الأشتر النخعي وعدي بن حاتم الطائي وعمرو بن الحمق الخزاعي وسعيد بن قيس الهمداني وهانىء بن عروة المذحجي، فإنهم قاموا إلى علي (ع) فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إن هؤلاء الذين أشاروا عليك بالمقام إنما يخافون حرب أهل الشام، وليس في حربهم بشيء هو أخوف من الموت، ولسنا نريد إلا الموت، فسِرْ بنا إليهم، وفقك الله لما تحب وترضى»[1].

وذكر الرواة في أخبار الإعداد الجماهيري لهذه الحرب في الكوفة: إن حجر بن عدي وعمرو بن الحمق طفقاً يحرضان الناس على التأهب ويثيران الحماس في النفوس، و«يظهران البراءة واللعن من أهل الشام. فأرسل إليهما علي (ع): أنْ كُفّا عما يبلغني عنكما، فأتياه فقالا:

«يا أمير المؤمنين؛ ألسنا محقين؟».

«قال: بلى».

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٨١.

«قالا: أوليسوا مبطلين؟».

«قال: بلى».

«قالا: فِلَم منعتنا من شتمهم؟».

«قال: كرهتُ لكم أن تكونوا لعّانين شتامين، تشتمون وتتبرأون. ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا ومن عملهم كذا وكذا؛ كان أصوب في القول وأبلغ في العذر. ولو قلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم؛ وأهدهم من ضلالتهم؛ حتى يعرف الحق منهم مَنْ جهله؛ ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به، كان هذا أحبُّ إليَّ وخيراً لكم».

«فقالا: يا أمير المؤمنين؛ نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك»[١].

وعلى كل حال، فقد زحف علي (ع) وجنده من الكوفة نحو الشام، وشهد عمرو هذا الزحف[٢] شهود الصناديد المؤمنين، وتحدثت المصادر التاريخية عن شدة حماسه واندفاعه في مقاتلة أولئك القاسطين الضالين حديثاً وافياً يبعث على غاية الإكبار والتقدير، وروت تلك المصادر أنه خاطب أمير المؤمنين (ع) في إحدى لقاءاته به في أثناء التوجه إلى لقاء الأعداء قائلاً:

«إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك؛ ولا إرادة مال تؤتنيه؛ ولا التماس سلطان يُرفعَ ذكري به. ولكن أحببتكَ لخصال خمس: إنك ابن عم رسول الله (ص)، وأول من آمن

(١) وقعة صفين: ١٠٣ وفتوح ابن أعثم: ٢/٤٤٨ وشرح نهج البلاغة: ٣/١٨١.
(٢) المحبر: ٢٩٢ وطبقات ابن سعد: ٦/١٥ والاشتقاق: ٤٧٤ والاستيعاب ٢/٥١٧ وأسد الغابة: ٤/١٠٠ والإصابة: ٢/٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/٢٤.

به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد (ص)، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله (ص)، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلو إني كُلِّفتُ نقل الجبال الرواسي ونزح البحور الطوامي حتى يأتي عليَّ يومي؛ في أمرٍ أقَوِّي به وليّك وأوهن به عدوك؛ ما رأيت إني قد أديت فيه كل الذي يحق عليَّ من حقك».

«فقال أمير الممنين عليّ (ع): اللهم نَوِّرْ قلبه بالتقى، وأهده إلى صراطك المستقيم. ليت أن في جندي مائة مثلك»[1].

ثم تقابل الجيشان على صعيد صفين.

وعبّى عليّ (ع) جنده تعبية الحرب والمبارزة، وكان من جملة إجراءات تلك التعبئة جعله عمرو بن الحمق قائداً لجموع خزاعة[2].

وأثِر عن عمرو من الشعر في هذه المعركة قوله:

تقول عرسيَ لما أن رأتْ أرقي	ماذا يهيجك من أصحاب صفينا
ألستَ في عصبة يهدي الإله بهم	لا يظلمون ولا بغياً يريدونا
فقلت: إني على ما كان من رَشَدٍ	أخشى عواقب أمرٍ سوف يأتينا
إدالة القوم في أمر يراد بنا	فاقْنَيْ حياء وكفي ما تقولينا[3]

وكان لعمرو في هذا اليوم ـ كما ذكر المؤرخون ـ مواقف مشهودة ومشاركات فعالة، وجاء من أمثلة ذلك ما رواه نصر بن مزاحم بسنده: إن جماعة من أهل اليمن ممن كانوا في جيش معاوية حملوا على أصحاب أمير المؤمنين (ع)؛ يقودهم أحد المُغرَّر به منهم ويحرّضهم

(١) وقعة صفين: ١٠٣ ـ ١٠٤ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤٩ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٨١ والدرجات الرفيعة: ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٢) وقعة صفين: ٢٠٥ وتاريخ خليفة: ١/ ٢٢١ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٧.

(٣) وقعة صفين: ٣٨١ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٥٢ والدرجات الرفيعة: ٤٣٢.

عمرو بن العاص من خلف الصفوف، فقال عمرو بن الحمق لمن حوله: «دعوني والرجل؛ فإن القوم قومي... وحمل وهو يقول:

بؤساً لجندٍ ضائع يمانِ مستوسقين كاتّساق الضانِ
تهوي إلى راعٍ لها وسنانِ اقحمها عمرو إلى الهوانِ
يا ليت كفي عدمت بناني وإنكم بالشِّحْر من عمانِ
مثل الذي أفناكم أبكاني

«ثم طعنه في صدره فقتله، وولت الخيل، وزال القوم عن مراكزهم»(١).

واستمرت هذه الحرب باعنف أحوالها وأضرى أهوالها، حتى أوشك جيش علي (ع) على دحر العدو واقتطاف النصر، فلم يكن أمام قادة أولئك المحكومين بالهزيمة إلا اللجوء إلى الدجل والتحايل والنفاق، فرفعوا المصاحف مكيدة ومكراً بزعم تحكيم كتاب الله، وهم أبعد الناس عن العمل بما ورد في ذلك الكتاب. وحدثت البلبلة في صفوف أهل العراق، فاستشار أمير المؤمنين (ع) خاصته من ذوي الحصافة والسداد فأدلى كل واحد منهم برأيه، وكان عمرو بن الحمق أحد أولئك الداخلين في هذه المشورة، فقام وقال:

«يا أمير المؤمنين؛ أنّا والله ما أجبناك ولا نصرناك عصبيةً على الباطل، ولا أجبنا إلا الله عز وجل، ولا طلبنا إلا الحق، ولو دعانا غيرُك إلى ما دعوت إليه لاستشرى فيه اللجاج وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه. وليس لنا معك رأي»(٢).

(١) وقعة صفين: ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٢) وقعة صفين: ٤٨٢ وشرح نهج البلاغة: ٢/٢١٦.

ثم كان ما كان من لعبة التحكيم وتآمر الحكمين وانتهاء هذه الحرب نهايتها المأساوية المؤلمة، وعاد علي (ع) بجيشه وأصحابه إلى الكوفة.

❀ ❀ ❀

وما إن حط علي (ع) رحله في الكوفة آيبا من صفين حتى بدأ الخوارج المارقون من الدين تجمعهم السيء الصيت، ثم انتقلوا إلى النهروان متخذين منها منطلقاً لخروجهم وحربهم، فزحف علي (ع) إليهم بمن استجاب دعوته إلى الجهاد، ومنهم عمرو بن الحمق كما نصَّ على ذلك بعض المؤرخين مصرحين باسمه في الزاحفين[1]، أو كما أجمل ذلك بعضهم وهم يتحدثون عن عمرو قائلين بأنه «شهد مع علي بن أبي طالب مشاهده» أو «حروبه»[2] ولكنهم لم يرووا لنا شيئاً من أخبار مواقفه وبطولاته في هذه الحرب.

❀ ❀ ❀

ثم عاد الجميع بعد انتظار النهروان إلى الكوفة، ولكن الزمن لم يمهلهم إثر العودة إلا قليلاً حتى حلت الفاجعة الكبرى بشهادة أمير المؤمنين (ع) في محرابه بسيف الغدر والضلال، فكان الإضطراب الكبير بل الزلزال المدمِّر.

وتوجه المسلمون المخلصون لربهم ورسالتهم إلى خليفة إمامهم الشرعي وريحانة نبيهم الأعظم (ص) الحسن بن علي (ع) فبايعوه بيعة

(١) الاستيعاب: ٢/ ٥١٧ وأسد الغابة: ٤/ ١٠٠.

(٢) المعارف: ٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥ والاشتقاق: ٤٧٤ والإصابة: ٢/ ٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٤.

السمع والطاعة، وأقروا بإمامته الدينية وولايته الدنيوية، ثم تسارعت الأحداث بفعل المكائد والمؤامرات وفتن أعداء الإسلام، فلم يجد الإمام الحسن (ع) بداً من الصلح حقناً للدماء، فأصبح معاوية بن هند حاكماً متسلطاً على رقاب المسلمين.

وانكمش رجال الحق وذوو الإيمان الثابت والعقيدة الواعية في عقر بيوتهم، يراقبون الأوضاع القائمة والخلافة المتسلطة وقد أصبحت لعبة بيد الطلقاء وأقاربهم ومرتزقتهم. وطورد المخلصون من أصحاب علي (ع) أينما كانوا مطاردة لا هوادة فيها ولا رحمة، وكانت حصة الأسد في جميع ذلك من نصيب الكوفة على يد ممثل ذلك السلطان الجائر فيها وهو المغيرة بن شعبة.

وكتب معاوية إلى المغيرة بأن يُلزِم جماعة سمّاهم له من أهل الكوفة بحضور الصلاة في الجماعة في المسجد، وكان من بين أولئك المنصوص على أسمائهم: عمرو بن الحمق[١]، ويقول ابن الأثير: إنه «إنما ألزمهم ذلك لأنهم كانوا من شيعة علي (ع)»[٢].

وبقيت الحال على هذا المنوال حتى مات المغيرة بن شعبة في سنة ٥٠هـ وشغرت ولاية الكوفة، فاستعمل معاوية أخاه من الزنا[٣] ـ زياد بن أبيه ـ والياً عليها.

وتسلم زياد مقاليد مسؤولياته في الكوفة، وبدأ المنافقون والجواسيس والمشاؤون بالنميم يرفعون له الأخبار والتقارير، وكان من بين هؤلاء عُمارة بن عقبة بن أبي معيط إذ أتى سيده يوماً فقال له:

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٧٩.
(٢) كامل ابن الأثير: ٣/ ٢١١.
(٣) يراجع في هذه الأخوة: كتاب نسب بني أمية: ٧٨ ـ ٨٢.

«أن عمرو بن الحمق يجتمع إليه من شيعة أبي تراب».

«فقال له عمرو بن حُرَيث: ما يدعو إلى رفع ما لا تَيَقَّنه ولا تدري ما عاقبته؟».

«فقال زياد: كلاكما لم يُصِبْ، أنت حيث تكلمني في هذا علانية، وعمرو حين يردك عن كلامك، قُوما إلى عمرو بن الحمق فقولا له: ما هذه الزرافات التي تجتمع عندك؟، مَنْ أرادك أو أردتَ كلامه ففي المسجد».

«ويقال: إن الذي رفع على عمرو بن الحمق وقال له قد انغل المصريَنْ: يزيد بن رُوَيم، فقال عمرو بن الحريث: ما كان قد أقبل على ما ينفعه منه اليوم. فقال زياد ليزيد بن رويم: أما أنت فقد أشطتَ بدمه، وأما عمرو فقد حقن دمَه، ولو علمتُ أن مخَّ ساقه قد سال من بغضي ما هجتُه حتى يخرج عليَّ»(١).

وعلى الرغم مما يحمل جواب زياد لابن رويم من تروّ وتعقل؛ فلقد كان من المنتظر ـ والنظام قائم أساساً على البطش والعنف والترهيب ـ أن يحدث الاصطدام في وقتٍ مَا بين الوالي وجمهور الناس، وهكذا كان.

وجاء في الروايات في ذكر منشأ هذا الانفجار: إن مشادة حدثت ذات يوم بين جلاوزة السلطة وحجر بن عدي وأصحابه، فتضاربوا وزياد ينظر إليهم وهو على المنبر، ثم غشى أولئك الجلاوزة حجراً ورفاقه بالعُمُدِ، «فضرب رجل من الحمراء ـ يقال له بكر بن عبيد ـ رأسَ عمرو بن الحمق بعمود فوقع، وأتاه أبو سفيان بن عويمر والعجلان بن

(١) تاريخ الطبري: ٦/٢٣٦ وكامل ابن الأثير: ٣/٢٢٩.

ربيعة، وهما رجلان من الأزد، فحملاه فأتيا به دار رجل من الأزد يقال له عبيدالله بن مالك فخبّآه بها. فلم يزل بها متوارياً حتى خرج منها»(١).

وروى الطبري وأبو الفرج في جملة ذيول هذه الحادثة وشجونها ما حدَّث به عبدالله ـ أو: عبيدالله ـ بن عوف الأحمر فقال:

«لما انصرفنا من غزوة با جميرا قبل مقتل مصعب بن الزبير بعام، فإذا أنا بالأحمري الذي ضرب عمرو بن الحمق يسايرني... فقلت له: ما رأيتك منذ اليوم الذي ضربتَ فيه رأس عمرو بن الحمق بالعمود في المسجد فصرعتَه إلى يومي هذا، ولقد عرفتك الآن حين رأيتك، فقال لي: لانعدم بصرك؛ ما أثبت نظرك، كان ذلك أمر الشيطان (أو: السلطان)، أما والله لقد بلغني إنه كان امرءاً صالحاً، ولقد ندمتُ على تلك الضربة فأستغفر الله»(٢).

❀ ❀ ❀

ومهما يكن من أمر، فقد بقي عمرو متوارياً عن أنظار السلطة لبعض الوقت، فلم يجد معاوية ما ينفّس به حقده وغيظه من هذا الرجل إلا أن يأمر بحبس زوجته آمنة بنت الشريد في دمشق(٣) فكان بهذه السابقة النكراء ـ كما نصَّ اليعقوبي ـ «أول من حبس النساء بجرائر الرجال»(٤).

ولما طال الأمد على عمرو في تواريه؛ ولم يجد منجاة من قبضة زياد إلا الخروج من الكوفة، خرج متخفياً ومعه رفاعة بن شداد «حتى

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٥٨ والأغاني: ١٧/١٣٧ وكامل ابن الأثير: ٣/٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/٢٥٨ ـ ٢٥٩ والأغاني: ١٧/١٣٨.
(٣) بلاغات النساء: ٥٩.
(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٦.

نزلا المدائن، ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل، فأتيا جبلاً فكمنا فيه. وبلغ عامل ذلك الرستاق ـ وهو رجل من هَمْدان يقال له عبيدالله بن أبي بلتعة ـ أن رجلين قد كمنا في جانب الجبل، فاستنكر شأنهما... فسار إليهما في الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد، فلما انتهى إليهما خرجا. فأما عمرو بن الحمق فكان مريضاً وكان بطنه قد سُقِي (قد استسقى)، فلم يكن عنده امتناع. وأما رفاعة بن شداد ـ وكان شاباً قوياً ـ فوثب على فرس له جواد وقال لعمرو: أقاتل عنك. قال: وما ينفعني أن تُقتَل، انْجُ بنفسك إن استطعت. فحمل عليهم فافرجوا له، فهرج تنفر به فرسُه، وخرجت الخيل في طلبه، ـ وكان رامياً ـ فأخذ لا يلحقه فارس إلا رماه فجرحه أو عقره. فانصرفوا عنه».

«وأُخِذ عمرو بن الحمق، فسألوه: من أنت؟ فقال: مَنْ إن تركتموه كان أسلم لكم؛ وإن قتلتموه كان أضرَّ لكم (أو: عليكم). فسألوه فأبى أن يخبرهم، فبعث به ابن أبي بلتعة إلى عامل الموصل عبد الرحمن بن عبدالله بن عثمان الثقفي ـ وهو ابن أمِّ الحكم؛ ابن أخت معاوية ـ فلما رأى عمرو بن الحمق عرفه. وكتب إلى معاوية بخبره، فكتب إليه معاوية: إنه زُعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه، وأنّا لا نريد أن نعتدي عليه!! فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان. فأخرج فُطعن تسع طعنات، فمات في الأولى منهن أو الثانية»[1].

وجاء في بعض الروايات التاريخية: أن عمرواً لما بلغ أطراف الموصل دخل غاراً ليختبيء به «فنهشته حية فقتلته، وبُعِث إلى الغار في

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦٥ والأغاني: ١٧/ ١٤٣ ـ ١٤٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٣٦ ونهاية الأرب: ٢٠/ ٣٣٤.

طلبه فوجدوه ميتاً»، فلم يجد الوالي ـ وهو ابن أخت معاوية ـ وسيلة للتشفي وبرد الغليل إلا أن يقطع رأسه فيبعث به إلى زياد، فبعث به زياد إلى سيده وملك الشام[١]، فكان هذا الرأس المبارك أول رأس «حُمِل وطيف به في الإسلام من بلد إلى بلد»[٢] وفي لفظ محمد بن حبيب: «ونصب معاوية رأس عمرو بن الحمق الخزاعي ـ وكان شيعياً ـ ودير به في السوق»[٣].

وروى بعض المؤرخين أن شهادة عمرو كانت في سنة خمسين للهجرة[٤]، ونصَّ آخرون على وقوعها في سنة إحدى وخمسين[٥] ولعلها الأصح أو الأرجح في ضوء تتابع الأحداث التاريخية التي شهدتها الكوفة بعد موت المغيرة في سنة ٥٠هـ.

❀ ❀ ❀

وتناقل المؤرخون مما يتعلق بذيول شهادة عمرو: إن معاوية أمر أن يحمل رأس هذا العبد الصالح بعد نهاية المطاف به إلى زوجته آمنة ـ وهي لما تزل بعد في السجن ـ، فلما وُضِع في حجرها قالت للرسول ـ

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٦ والمعارف: ٢٩١ ـ ٢٩٢ والاستيعاب: ٢/٥١٧ وأسد الغابة: ٤/١٠٠ والإصابة: ٢/٥٢٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٦ والمعارف: ٢٩١ ـ ٢٩٢ و٥٥٤ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥ والاشتقاق: ٤٧٤ والاستيعاب: ٢/٥١٧ وأسد الغابة: ٤/١٠١ وكامل ابن الأثير: ٣/٢٩٨ والديارات: ١٧٩ ولسان العرب/حمق والإصابة: ٢/٥٢٦ ومجمع الرجال: ٤/٢٨٠ والدرجات الرفيعة: ٤٣٣.

(٣) المحبر: ٤٩٠.

(٤) تاريخ خليفة: ١/٢٤٩ والاستيعاب: ٢/٥١٧ والإصابة: ٢/٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/٢٤.

(٥) طبقات خليفة: ١/٢٣٥ و٣٠٧ والإصابة: ٢/٥٢٦ وتهذيب التهذيب: ٨/٢٤ والدرجات الرفيعة: ٤٣٧.

كما في لفظ اليعقوبي ـ: «أبلغ معاوية ما أقول: طالبه الله بدمه، وعجَّل له الويل من نقمه، فلقد أتى أمراً فرياً، وقتل براً تقياً»[١] أو قالت ـ كما في لفظ ابن الأثير ـ: «غيبتموه عني طويلاً، ثم اهديتموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً به من هدية، غير قالية ولا مقلية»[٢].

وذكر الشابشتي فيما روى في هذه الحادثة: إن معاوية قال للرسول الذي حمل رأس عمرو إلى زوجته في السجن: «ألْقِه في حجرها وأحفظ ما تقول. فلما أتاها ارتاعت له وأكبَّت تقبله، ثم قالت: واضيعتا في دار هوان، نفيتموه طويلاً، واهديتموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنتُ له غير قالية، وأناله غير ناسية. قل لمعاوية: أيتم الله ولدك، وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك».

«فعاد الرسول بما قالت، فأمر بها فأحضرت، وعنده جماعة فيهم إياس بن شرحبيل ـ وكان في شدقيه نتوء لعِظَم لسانه ـ، فقال معاوية لها: يا عدوة الله!، أنت صاحبة الكلام؟ قالت: نعم؛ غير نازعة عنه ولا معتذرة منه ولا منكرة له، وقد ـ لعمري ـ اجتهدتُ في الدعاء وأنا اجتهد إن شاء الله، والله من وراء العباد. فأمسك معاوية».

«فقال اياس: أقتل هذه؛ فما كان زوجها بأحق بالقتل منها. (فالتفت إليه، فلما رأته ناتىء الشدقين ثقيل اللسان) قالت: مالك ويلك! بين شدقيك جثمان الضفدع، وأنت تأمره بقتلي كما قتل بعلي بالأمس (أن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)».

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٦.
(٢) أسد الغابة: ٤/١٠١.

«فضحك معاوية والجماعة، وبان الخجل في أياس، ثم قال لها معاوية: أخرجي عني فلا أسمع بك في شيء من الشام».

«قالت: سأخرج عنك، فما الشام لي بوطن، ولا أعرِّج فيه على حميم ولا سكن، ولقد عظمت فيه مصيبتي، وما قرت به عيني، وما أنا إليك بعائدة، ولا لك حيث كنت حامدة».

«فأشار إليها بيده أن أخرجي. فقالت: عجباً لمعاوية! يبسط عليَّ غربَ لسانه، ويشير إليَّ ببنانه... وخرجتْ تريد الكوفة، فلما وصلت إلى حمص توفيت بها»(١).

۞ ۞ ۞

ودفن جثمان عمرو بن الحمق في الموصل حيث قُتل، إلى جانب الدير المعروف باسم (دير الأعلى) هناك. وقال أبو الحسن الشابشتي وهو يتحدث عن هذا الدير: «وإلى جانب هذا الدير مشهد عمرو بن الحمق الخزاعي، ومسجدٌ بَنَتْه بنو حمدان يتصل بالقبر»(٢).

وقال ياقوت الحموي بعد ذكر دير الأعلى: هو «بالموصل في أعلاها على جبل مطل على دجلة.. وإلى جانب هذا الدير مشهد عمرو بن الحمق الخزاعي»(٣).

وقال عز الدين بن الأثير: «قبره مشهور بظاهر الموصل، يُزار، وعليه مشهد كبير، ابتدأ بعمارته أبو عبدالله سعيد بن حمدان ـ وهو ابن

(١) الديارات: ١٧٩ ـ ١٨٠، وورد نص محاورة معاوية وزوجة عمرو ـ وبتفصيل أكثر ـ في بلاغات النساء لابن طيفور: ٥٩ ـ ٦١، ومنه اقتبسنا ما وضعناه بين قوسين.
(٢) الديارات: ١٧٩.
(٣) معجم البلدان: ٤/١٢٣.

عم سيف الدولة وناصر الدولة ابني حمدان ـ في شعبان من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة»[١].

وقال ياسين بن خير الله العمري المتوفى بعد سنة ١٢٣٢هـ: «دير الأعلى: قديم في أعلى الموصل، مطل على دجلة.. وإلى جانب هذا الدير مشهد عمرو بن الحمق الخزاعي الصحابي رضي الله عنه»[٢].

وعلَّق الباحث المعاصر سعيد الديوجي محقق كتاب منية الأدباء على ما ورد فيه بهذا الشأن فقال: «وأول من نبَّه إلى محل قبره هو محقق الكتاب سعيد الديوجي بأنه في المقبرة التي تسمى (مقبرة الست فاطمة) وهي مقبرة نقباء الموصل»[٣].

ونشرت مجلة الرافدين الأسبوعية البغدادية في عدد الثلاثاء ٩ ـ ١٥/١٠/٢٠٠١م تحقيقاً عن مقابر الموصل ومراقدها التاريخية جاء فيه ذكر مرقد (الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي) ثم قال كاتب المقال: المعروف أنه دفن في الموصل في المقبرة المجاورة للست فاطمة «بيد أن قبره قد اندثر، لأنه يقع خارج المدينة القديمة، ويظهر أنه إندثر منذ مدة طويلة، لأن المصادر التي تذكر المراقد لم تذكره، وخاصة المصادر المتأخرة». وذلك وهم من كاتب التحقيق بفعل العجلة وعدم التدقيق، لأن ياسين العمري قد ذكره في كتابه ـ كما تقدم ـ، وهو من المصادر المتأخرة المرتبطة بالقرن الثالث عشر الهجري.

❀ ❀ ❀

(١) أسد الغابة: ٤/١٠١.

(٢) منية الأدباء: ١٤٦.

(٣) منية الأدباء أيضاً: الصفحة نفسها.

وكان لشهادة هذا الصحابي الزاهد المجاهد صدى استنكار وشجب كبيرين في المجتمع الإسلامي جيلاً بعد جيل، بل عُدَّت إحدى موبقات معاوية ومنكراته التي لا يمكن إغفالها ونسيانها على مر التاريخ، وحسبنا مثلاً على ذلك ما جاء في خلال رسالة الإمام الحسين بن علي (ع) التي بعثها إلى معاوية يعدِّد فيها جرائمه وجرائره التي اقترفها بحق صلحاء المسلمين:

«أولستَ قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص)؛ العبد الصالح الذي أبْلَتْه العبادة فنحلت جسمه وصفَّرت لونه، بعدما آمنتَه وأعطيته من عهود الله ومواثيقهما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلتَه جرأة على ربك واستخفافاً بذلك العهد»[١].

ولما كتب الخليفة المعتضد العباسي في سنة ٢٨٤هـ كتابه المعروف في لعن معاوية وبني أمية؛ وأمر أن يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنابر، كان مما جاء فيه:

«ثم ما أوجب الله له به اللعنة قَتْلُه مَنْ قَتَل صبراً من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة؛ مثل عمرو ابن الحمق وحجر بن عدي؛ فيمن قتل من أمثالهم»[٢].

⊛ ⊛ ⊛

وعند الله سيلتقي الخصوم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

---

(١) رجال الكشي: ٤٩ ومجمع الرجال: ٤/ ٢٨٢ والدرجات الرفيعة: ٤٣٥.
(٢) تاريخ الطبري: ١٠/ ٥٩.

[٢٦]

حجر بن عدي الكندي

حُجْرُ بنُ عَدِيٍّ الكِنْدِيُّ

حُجْرُ بن عَدِيٍّ بن جَبَلَة بن عَدِيّ بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن ثور ـ وهو كِنْدَة ـ بن عُفَيْر بن عدي بن الحارث بن مرَّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[(١)]: صحابي جليل ورئيس مطاع وبطل مغوار.

وواشتهر أبوه عدي بلقبه «الأدْبَر»: «لأنه ضُرِب بالسيف على أليته فسُمِّي بها الأدبر»[(٢)].

وعرفنا له من الأخوة: الصحابيَّ هانيء بن عدي الكندي، وكان ممن وفد إلى النبي (ص) في حياته فأسلم على يديه[(٣)]، وهو أبو معاذ بن هانئ المتعاون مع المختار بن أبي عبيد حين ثار في الكوفة في سنة ٦٦هـ[(٤)].

---

(١) في سلسلة نسب حجر وأسماء آبائه خلاف بين النسابين، وربما كان ما أثبتنا هو الأقرب إلى الصواب، ويراجع في تفاصيل ذلك: طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ والاستيعاب: ١/ ٣٥٥ وجمهرة أنساب العرب: ٤٢٥ ـ ٤٢٦ والمقتضب: ٢٥٧ ـ ٢٥٩ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٢ وتجريد أسماء الصحابة: ١/ ١٢٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٤٩ والإصابة: ١/ ٣١٣.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٣٥٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣ وتجريد أسماء الصحابة: ١/ ١٢٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ و٥/ ٥١ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٠ والإصابة: ١/ ٣١٣ و٣/ ٥٦٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٦/ ٥٩.

كما عرفنا له من الأولاد:

١ ـ عبدالله (أو عبيدالله).

٢ ـ عبد الرحمن.

وقد قتلهما مصعب بن الزبير صبراً لما تغلَّب على المختار الثقفي، وكانا يتشيَّعان[١].

٣ ـ همام:

وذكر ابن معصوم المدني إنه قُتل مع أبيه ودُفن معه وسائر الشهداء الآخرين من أصحابه في ضريح واحد في مَرْج عذراء[٢].

❀ ❀ ❀

وُلد في منازل قومه في العصر الجاهلي قبل البعثة الشريفة، ونشأ هناك كما ينشأ لداته وأترابه، وعُرِف بعد ذلك بين الناس بكنيته «أبي عبد الرحمن»[٣] ولقبه «حجر الخير»[٤]، وبقي مقيماً في تلك الربوع حتى أرسل الله تعالى محمداً (ص) برسالة الإسلام ونداء الحق، فوفد على النبي ـ ومعه أخوه هانىء ـ فأسلما على يديه[٥]، ثم اندمج في المجتمع الإسلامي على أفضل الوجوه، فكان مثال المسلم الملتزم بأحكام الله عز

(١) المعارف: ٣٣٤ وجمهرة أنساب العرب: ٤٢٦ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٧ والإصابة: ١/ ٣١٤.

(٢) الدرجات الرفيعة: ٤٢٨.

(٣) طبقات خليفة: ١/ ٣٣١ والمعارف: ٣٣٤ والاستيعاب: ١/ ٣٥٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣ والدرجات الرفيعة: ٤٢٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ وتجريد أسماء الصحابة: ١/ ١٢٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٤٩ والإصابة: ١/ ٣١٣.

(٥) المعارف: ٣٣٤ والمحبر: ٢٩٢ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ والاشتقاق: ٣٦٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٠ و٥٣ والإصابة: ١/ ٣١٣.

وجل وأصول دينه وواجبات شرعه، حتى أصبح معدوداً في المقدمة من رجال الإسلام والصحابة الكرام.

وجاء في وصف مؤرخيه له:

«كان ثقة معروفاً»[١]، «شريفاً أميراً مطاعاً أمّاراً بالمعروف مُقدِماً على الإنكار»[٢]، «من أعظم الناس ديناً وصلاة» و«من فضلاء الصحابة»[٣] و«عُبّاد الناس وزهادهم. كثير الصلاة والصيام، حتى قال عنه أبو معشر: ما أحدث قط إلا توضأ، ولا توضأ إلاّ صلّى ركعتين. هكذا قال غير واحد من الناس»[٤]، و«كان مجاب الدعوة»[٥]، وروى ابن عبدالبر عن أحمد بن حنبل أنه قال: «قلتُ ليحيى بن سليمان: أبلغك أن حجراً كان مستجاب الدعوة؟، قال: نعم؛ وكان من أفاضل أصحاب النبي (ص)»[٦].

وخلاصة القول: أنه كانت لحجر «صحبة ووفادة وجهاد وعبادة»[٧]، كما كانت له الرواية عن علي بن أبي طالب (ع)[٨]. ثم كان مما يضاف إلى مجموع صفته ومزاياه: أنه كان موصوفاً بالجمال، وروى أبو الفرج الأصبهاني: إن «الجمال بالكوفة ينتهي إلى أربعة نفر» أحدهم حجر[٩].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣.
(٣) الاستيعاب: ١/ ٣٥٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٨٦.
(٤) البداية والنهاية: ٨/ ٥٠.
(٥) أسد الغابة: ١/ ٣٨٦.
(٦) الاستيعاب: ١/ ٣٥٧.
(٧) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣ والعبر: ١/ ٤٠ وشذرات الذهب: ١/ ٥٧.
(٨) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١.
(٩) الأغاني: ١٦/ ٨٩.

ويبرز لنا حجر بطلاً مغواراً لأول مرة في تاريخه المدون بمشاركته المشهودة في حروب الفتوح، حينما انخرط في صفوف تلك الطلائع المتحمسة لإعلاء كلمة الله في الأرض ونشر دعوة الحق في أرجاء المعمورة، لتوقظ البشرية من غفوتها البلهاء، وترشد التائهين إلى طريق النجاة، وتأخذ بأيدي الأمم المتخلفة إلى ما فيه خيرها وصلاحها في الدارين.

واندفاعاً نحو تحقيق هذه الأهداف النبيلة المقدسة شهد حجر معارك القادسية[١]، وكان له فيها وجود مؤثر ومشاركة لا تنكر، كما كان له وجود فاعل أيضاً في بعض المعارك التالية لها، ومنها معارك جلولاء حينما اجتمع ثمانون ألف فارس من جند الفرس للمسير إلى محاربة سعد بن أبي وقاص، فلم يكن بد من إمداد جيش الإسلام بالعون والمدد من هنا وهناك، وكان في ذلك المدد «حجر بن عدي الكندي في ألفَيْ فارس»[٢]، إذ تولّى قيادة ميمنة ذلك الجيش يومذاك[٣]، واقتتل الطرفان «قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله؛ رمياً بالنبل وطعناً بالرماح» حتى انهزم الأعداء وولوا هاربين[٤]، ثم كان لهذا الفارس البطل عناء عظيم من الجهاد يوم عين قنطرة حلوان[٥].

وكان حجر ـ بإجماع المؤرخين ـ هو الذي افتتح مرج عذراء في بلاد الشام[٦]، وهو «أول مَنْ وحَّد الله عز وجل فيها حين افتِتحتْ،

(١) المحبر: ٢٩٢ والمعارف: ٣٣٤ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ وسير أعلام النبلاء: /٤٦٣ والإصابة: ١/ ٣١٣.

(٢) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٣) الأخبار الطوال: ١٢، وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٧.

(٤) فتوح البلدان: ٢٦٤ وفتوح ابن أعثم: ١/ ٢٧٧.

(٥) فتوح البلدان: ٢٩٩.

(٦) التعازي والمراثي للمبرد: ٣٠٣ وطبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ والاشتقاق: ٣٦٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٠ والإصابة: ١/ ٣١٣.

دخلها مكبّرا»[١]، وهو القائل لما حُمِل إليها ليقتل فيها: «الحمد لله، أمَا واللهِ أني لأول مسلم نبَّح كلابها في سبيل الله، ثم أُتِيَ بي اليوم إليها مصفوداً»[٢]، وفي لفظ الطبري: «أني لأول فارس من المسلمين سلك في واديها، وأول رجل من المسلمين نَبَحَته كلابها»[٣].

❀ ❀ ❀

ولما مُصِّرت الكوفة في سنة ١٧ هـ ونزلها المسلمون؛ اختارها حجر مسكناً له وموطناً، وأصبح يعدُّ في الطبقة الأولى من أهلها[٤]، بل صار معدوداً «من رؤساء أهل الكوفة»[٥].

وكان يشد الرحال منها في الموسم من كل عام إلى حج بيت الله الحرام ما استطاع سبيلاً إلى ذلك، وشاء الله تعالى أن يجعله من أولئك النفر الذين يشهدون جنازة الصحابي المضطهد أبي ذر الغفاري، الذي نفاه عثمان إلى الربذة ليتخلص من جهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتشهير بسيئات الحاكم وبطانته الفاسدة، فكان حجر بذلك أحد المشمولين بشهادة النبي (ص) لهم بالإيمان: في الحديث الذي أخرجه الحافظ ابن عبد البرِّ عنه (ص)، وفيه الإخبار بأن يشهد موتَ أبي ذر عصابةٌ من المؤمنين[٦].

---

(١) المحبر: ٢٩٢.
(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٣ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٦٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٥.
(٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١.
(٥) البداية والنهاية: ٨/ ٥٠.
(٦) الاستيعاب: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٩٩ ـ ١٠١ والإصابة: ١/ ٣١٣، ومضمون ذلك في طبقات ابن سعد: ٤/ق١/ ١٧٢ ـ ١٧٣ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢.

وحسب حجر هذه الشهادة النبوية بإيمانه وساماً تندك دونه الأوسمة؛ ومجداً تتلاشى أمامه سائر الأمجاد.

ثم ساءت أوضاع الكوفة وتردت الأمور العامة فيها إلى أسوء حال أيام ولاية سعيد بن العاص الأموي، وتمَّ نفي جماعة من مقدَّمي سكانها ووجوه أهلها بأمر الخليفة إلى حيث يسيطر معاوية في بلاد الشام، فقدم على عثمان قوم من أهل الكوفة بعد فراغهم من الحج، «فعاتبوه على تسييره الأشتر وأصحابه إلى الشام، ثم شكوا عاملهم سعيد بن العاص»[١].

ولكن الخليفة ـ كعادته ـ لم يُعرهم الأذن الصاغية، ولم يغير شيئاً من تلك الأحوال المنكرة، فاجتمع نفر من بارزي أهل الكوفة منهم حجر بن عدي الكندي وآخرون من أهل الدين والاستقامة والرياسة (فكتبوا إلى عثمان:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدالله عثمان أمير المؤمنين من الملأ المسلمين من أهل الكوفة، سلام عليك، فأنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإننا كتبنا إليك هذا الكتاب، نصيحة لك وإعتذار وشفقة على هذه الأمة من الفرقة، وقد خشينا أن تكون خُلِقتَ لها فتنة، وأن لك ناصراً ظالماً وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نقم عليك الناقم ونصرك الظالم؛ اختلفت الكلمتان وتباين الفريقان، وحدثت أمور متفاقمة أنت جنيتَها بأحداثك يا عثمان، فاتق الله والزم سنة الصالحين من قبلك، وانزع عن ضربِ قرَّائنا ونفي صلحائنا... فأنت أميرنا ما أطعت الله واتبعتَ ما في كتابه، وأنَبْتَ إليه وأحببتَ أهله، وجانبت الشر وأهله، وكنت للضعفاء، ورددتَ من نفيت منّا، وكان القريب والبعيد عندك في

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨.

الحق سواء. فقد قضينا ما علينا من النصيحة لك، وقد بقي ما عليك من الحقِ، فإن تبتَ من هذه الأفاعيل نكن لك على الحق أنصارا وأعواناً، وإلا فلا تلوم إلا نفسك، فإننا لن نصالحك على البدعة وترك السنة، ولن نجد عند الله عذراً إن تركنا أمره لطاعتك، ولن نعصي الله فيما يرضيك»[١].

وفشلت كل هذه المحاولات والمطالبات والشكاوى في حمل الخليفة على إصلاح الوضع وتدارك الأمر، فلم يجد المسلمون الغيارى مناصاً من زحف وفودهم من حواضرهم الإسلامية في الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة المنورة، لإعلان سخطهم وغضبهم على هذه الأحداث المنكرة؛ والمجاهرة بعيب الخليفة في إهماله وغض نظره عن الحال المتفاقمة سوءاً وفساداً في معظم تلك الحواضر، مما تقدم شرحه بالتفصيل في سيرة (محمد ابن أبي بكر) فلا نكرر ولا نعيد.

وحطت الوفود رحالها في مدينة الرسول، وكان وفد الكوفة مؤلفاً من حجر بن عدي وجماعة من القراء وذوي الحسب والشرف الكوفيين، ودارت المفاوضات بين عثمان من جانب وعلي بن أبي طالب (ع) وقد أنابه الثوار عنهم ـ من جانب آخر، ثم انتهت بعد كثير من الأخذ والرد إلى تفاهم وضمان من الخليفة بالإصلاح؛ وتعهد بإعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله (ص)، فأمر علي (ع) في ضوء هذا التفاهم بتفرق القادمين وتوجه كل فريق إلى بلاده ومستقره.

ثم تسارعت الأحداث بعد ذلك إثر إمساك المصريين وهم في طريق العودة بغلام عثمان في الأثناء قاصداً مصر، فاسترابوا به فأخذوه وفتشوه، فوجدوا معه كتاباً من عثمان إلى واليه على مصر يأمره فيه بقتل

(١) فتوح ابن أعثم أيضاً: ٢/ ١٨٠ ـ ١٨١.

بعض أولئك الثوار وقد ذكرهم بأسمائهم؛ وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وإلى آخر ما ورد فيه.

وتأزم الموقف كل التأزم بعد القبض على الغلام وقراءة كتاب الخليفة الناقض لما أعطى من ضمانات وعهود، وعاد الثوار مجدداً إلى المدينة وهم أشد مما كانوا سخطاً ونقمة على الحاكم وبطانته، وأعلن علي (ع) الامتناع من التوسط في الأمر بعد الإطلاع على الكتاب المذكور، ثم بدأ حصار عثمان في داره منذ ذلك اليوم، وأخذ يشتد شيئاً فشيئاً حتى أسفر في النهاية عن قتل الخليفة وانهيار حكمه وسلطانه[1].

(١) يراجع في التفاصيل كتاب الجمل: ١٣٧ ـ ١٤٠ وسيرة محمد بن أبي بكر في هذا المجلد.

وكان من المنتظر ـ وقد انتهت تلك الفترة العصيبة بكل مظالمها المريرة وملابساتها الأليمة ـ أن تنحو المسيرة الإسلامية مجدَّداً منحاها الإلهي القويم وصراطها المستقيم، فيتجه المسلمون لبيعة ذلك الإنسان الذي أجمعت عليه النصوص النبوية واجتمعت فيه صفات الكمال والأهليَّة؛ فكان مع الحق دوماً كما كان الحق دوماً معه بنص الرسول الذي لا ينطق عن الهوى ولا يفوه بغير الصواب.

إنه علي بن أبي طالب، أول المسلمين، ووصي النبي الأمين، وقسيم الجنة والنار يوم الدين. ومَنْ يكون أَوْلى منه يا ترى بقيادة المسيرة وولاية الأمر وإمامة الأمة؟.

وهكذا كان الأمر، فقد تهافت المؤمنون وأنثال جمهور الناس على بيعة هذا الإمام الكفء المؤهَّل، فاجتمعت في هذه البيعة كلمة الله ـ وهو المصدر الأعلى للسلطات ـ وكلمة الأمة التي يجب عليها طاعة ذلك المصدر والتسليم لإرادته، وأذعن علي (ع) لهاتين الإرادتين مع علمه التام بجميع ما هو مقبل عليه من صعاب ومشاكل وعقبات، وتقدم نحو مضمار المسؤولية الكبرى صادعاً بالحق؛ عاملاً بالكتاب؛ متبعاً للسنة، وحاكماً بما أنزل الله تعالى وإن تمرد المنافقون وأبى الطامعون وأحجم المترددون وزيّف المزيّفون.

وكان في طلائع المبادرين إلى تلك البيعة مَنْ كان في المدينة من

وفود الأمصار الثائرين على عثمان؛ ومَنْ فيها من المهاجرين «ومَنْ في عدادهم ممن أدرك عصر النبي (ص) كحجر بن عدي الكندي»[١] المعدود في مصادر التاريخ من عظماء أصحاب علي (ع) وأعيانهم[٢].

وتحركت الأحقاد الجاهلية والترات البدرية والعصبيات القبلية من هنا وهناك لتتجمع عى شكل حلف ضال غير مقدس، يخطط جاهداً لإفشال مساعي هذه الخلافة في الإصلاح ومكافحة الفساد، ويسعى بكل طاقاته لإثارة الفتنة والبغي، ويبذل جميع إمكاناته لزعزعة الهدوء والاستقرار ووحدة الكلمة، ويستخدم سائر ما يستطيع استخدامه من الوسائل والأساليب لتحقيق أهدافه اللئيمة وأغراضه الخبيثة.

وانقسمت جبهة هؤلاء الحاقدين المعاندين لله ورسوله ـ في المرحلة الأولى من بغيهم ـ إلى فئتين: تعمل إحداهما وراء الستار بقيادة معاوية بن هند ومَنْ لفَّ لفه من الطلقاء ومسلمة الفتح الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وتعمل الثانية في العلن بقيادة طلحة والزبير و«الرمز المخدوع» عائشة أم المؤمنين.

وبدأ عمل هؤلاء المتمردين على قدم وساق، فجمعوا صفوفهم متجهين إلى البصرة، حيث كان فيها عدد غير قليل من العثمانيين المتظلمين لما آلت إليه حاله في آخر أمره. ثم عسكروا فيها لتكون منطلق العدوان وقاعدة الزحف، كما يأتي تفصيله إن شاء الله ـ في سيرة «عثمان بن حنيف» من مادة هذا المجلد.

وكان على عليّ (ع) قياماً بواجب حماية الأمة من التآمر والفتنة؛

(١) الجمل: ١٠٤.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٢٤ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥.

أن يتصدى لردع هؤلاء الناكثين البغاة بقوة وحزم، . وأن يزحف للقائهم وإفشال خططهم بكل الوسائل والإمكانات، ومنها التنبيه والإرشاد أولاً، وإستعمال السلاح في إعادتهم إلى طريق الحق إذا لم تُجْدِ التوعية ولم ينفع الواعظ.

وتقدم أمير المؤمنين (ع) يقود جمع المجاهدين من المدينة المنورة باتجاه البصرة، حتى حط رحله في ذي قار متوقفاً هناك لجمع صفوف جيشه وتنظيم قياداته، وأرسل رسله إلى الكوفة ـ وفي مقدمتهم ابنه الإمام الحسن (ع) وعمار بن ياسر ـ لاستنفار أهلها للحرب ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فخطبوا في الناس شارحين الوضع وموضحين الموقف، «فقام حجر بن عدي الكندي ـ وكان من أفاضل أهل الكوفة ـ فقال: انفروا خفافاً وثقالاً، رحمكم الله»[١]، وفي لفظ الطبري وابن الأثير: أن حجراً قام خطيباً فكان مما قال: «أيها الناس، أجيبوا أمير المؤمنين، وانفروا خفافاً وثقالاً، مرّوا وأنا أولكم»[٢]، وفي لفظ المفيد وقد روى نصَّ خطبة حجر بتمامها أنه قال:

«أيها الناس؛ هذا الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) وهو مَنْ عرفتم: أحد أبويه النبي الأُمي (ص)، والآخر الإمام الرضي المأمون الوصي، وهو أحد اللذين ليس لهما في الإسلام شبيه سيدي شباب الجنة وسيدي سادات العرب، أكملهم صلاحاً، وأفضلهم علماً وعملاً، وهو رسول أبيه إليكم، يدعوكم إلى الحق ويسألكم النصر، فالسعيد والله مَنْ ودّهم ونصرهم، والشقي من تخلَّف عنهم بنفسه عن مواساتهم، فانفروا

---

(١) الأخبار الطوال: ١٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٥ و٤٨٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٨ ـ ١١٩.

معه ـ رحمكم الله ـ خفافاً وثقالاً، واحتسبوا في ذلك الأجر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»[١].

قال الراوي: فأجاب الناس كلهم بالسمع والطاعة، وأذعنوا للمسير، وخرج الجميع للالتحاق بركب علي (ع) في ذي قار.

وحدَّث المؤرخون: إن علياً (ع) لما عبَّأ أصحابه للحرب عقد راية لكندة وحضرموت وقُضاعة ومَهْرَة، وولى عليهم حجر بن عدي[٢]. وانفرد ابن أعثم الكوفي بالنص على أن حجراً كان قائد الرجّالة في ذلك اليوم[٣].

ودارت رحى المعركة، وتقابل الجيشان، ثم التحم الطرفان في قتال ضارٍ عنيف، أسفر في النهاية عن جمل معقور، وبغي مهزوم، وعدوان فاشل مخذول.

❀ ❀ ❀

وعلى الرغم من تلك الهزيمة النكراء التي مُني بها أعداء الحق في حربهم لإمام الحق، فقد لملموا فلولهم واستنفروا جموعهم للبغي والتمرد، في كرّة أخرى يأملون فيها تحقيق ما لم يتحقق لهم في مسعاهم الخائب الأول، وكان قائد الحملة في هذا الخروج الجديد كبير الطلقاء والمؤلفة قلوبهم في ذلك اليوم؛ وهو معاوية بن هند المعروف بمعاوية بن أبي سفيان[٤].

---

(١) الجمل: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٢) الأخبار الطوال: ١٤٦ وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٥ والجمل: ٣٢٠.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٠٨.

(٤) يراجع في انتساب معاوية لأبي سفيان: كتاب نسب بني أمية: ٦٢ ـ ٦٧.

وجاءت الأخبار إلى الكوفة تعلن فشل كل المحاولات السلمية التي بذلها علي (ع) في سبيل حقن الدماء ودخول معاوية واتباعه فيما دخل فيه مجموع المسلمين في أقطارهم وأمصارهم من البيعة والإقرار بهذه الخلافة الراشدة، مما لا مجال لبيان تفاصيله في هذا العرض المعنيّ بسيرة حجر.

ثم بدأت تتوالى الأنباء حاملة نُذر الحرب ومتحدثة عن بدء أهل الشام بالتهيؤ للهجوم والإعداد للزحف نحو العراق، فلم يكن أمام علي (ع) إلا الاستعداد للمعركة المفروضة عليه؛ وإلا التعبئة العامة للطاقات والإمكانات المتاحة لدحر هذا الزحف الضالّ الجائر.

وذكر الرواة فيما ذكروا من أخبار الإعداد الجماهيري لتلك الملاقاة: إن حجر بن عدي وعمرو بن الحَمِق طفقا يحرِّضان الناس على التأهب ويثيران الحماس في النفوس، و«يظهران البراءة واللعن من أهل الشام، فأرسل إليهما عليّ: أنْ كُفّا عما يبلغني عنكما.

«فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين؛ ألسنا محقّين؟».

«قال: بلى».

«قالا: أوليسوا مبطلين؟».

«قال: بلى».

«قالا: فلِمَ منعتَنا من شتمهم؟».

«قال: كرهتُ لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين، تشتمون وتتبرأون. ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا ومن عملهم كذا وكذا؛ كان أصوب في القول وأبلغ في العذر. ولو قلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم؛ وأصلح ذات بيننا وبينهم؛ واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم مَنْ

جهله؛ ويرعوي عن الغي والعدوان مَنْ لهج به، كان هذا أحبَّ إليَّ وخيراً لكم».

«فقالا: يا أمير المؤمنين؛ نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك»[1].

وروى نصر بن مزاحم في أخبار التهيؤ لهذه الحرب في الكوفة: أن حجر بن عدي قال لعلي (ع) ذات يوم: يا أمير المؤمنين؛ نحن بنو الحرب وأهلها الذين نُلقِحها وننتجها، قد ضارسَتنا وضارسناها، ولنا أعوان ذوو صلاح؛ وعشيرة ذات عدد؛ ورأي مجرَّب وبأس محمود، وأزمَّتنا منقادة لك بالسمع والطاعة، فإنْ شرَّقتَ شرَّقنا وإن غرَّبت غرَّبنا، وما أمرتنا به من أمر فعلناه».

«فقال علي (ع): أكُلُّ قومك يرى مثل رأيك؟».

«قال: ما رأيت منهم إلا حسناً، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وبحسن الإجابة».

«فقال له علي (ع) خيراً»[2].

وزحف الطرفان والتقى الجمعان على صعيد صفين، وكان صاحبنا حجر من بين حضّار المعركة مشاركاً[3] وأميراً[4]، ولما عبَّأ علي (ع) أصحابه جعل حجراً قائداً لكندة أو لكندة وحضرموت وقُضاعة ومَهرة[5]، وأُثِر عنه أنه ارتجز في ذلك اليوم فقال:

---

(١) وقعة صفين: ١٠٣ والأخبار الطوال: ١٦٥ وفتوح ابن أعثم: ٢/٤٤٨ وشرح نهج البلاغة: ٣/١٨١.

(٢) وقعة صفين: ١٠٣ ـ ١٠٤ وشرح نهج البلاغة: ٣/١٨٢.

(٣) المحبر: ٢٩٢ والمعارف: ٣٣٤.

(٤) البداية والنهاية: ٨/٥٠ والإصابة: ١/٣١٣.

(٥) تاريخ خليفة: ١/٢٢١ ووقعة صفين: ١١٧ و٢٠٥ والاستيعاب: ١/٣٥٥ وأسد الغابة: ١/٣٨٥ وشرح نهج البلاغة: ٣/١٩٤ و٤/٢٧.

يا ربنا سَلِّمْ لنا عليّا سلم لنا المهذب التقيا
المؤمن المسترشد الرضيا واجعله هادى أمّةٍ مهديا
لا خَطِل الرأي ولا غبيا واحفظه ربي حفظك النبيا
فإنه كان له وليا ثم ارتضاه بعده وصيا[1]

وحدَّث المؤرخون في أنباء هذه الحرب أن علياً (ع) كان يُخرِج مرة الأشتر ومرة حجر بن عدي[2]، وقال الشعبي: «أن أول فارسين التقيا في اليوم السابع من صفر ـ وكان من الأيام العظيمة في صفين ذا أهوالٍ شديدة ـ حُجر الخير وحجر الشر. أما حجر الخير فهو حجر بن عدي صاحب أمير المؤمنين (ع)... وأما حجر الشر فابن عمه، كلاهما من كندة، وكان من أصحاب معاوية، فاطَّعنا برمحيهما، وخرج رجل من بني أسد يقال له خزيمة من عسكر معاوية، فضرب حجر بن عدي ضربة برمحه، فحمل أصحاب عليّ فقتلوا خزيمة الأسدي، ونجا حجر الشر هارباً فالتحق بصف معاوية»[3].

وكان فيمن عرفنا من جملة قتلى حجر من القاسطين البغاة: أدهم بن لأم القضاعي ومالك بن مسهر القضاعي[4].

ثم انتهت هذه الحرب نهايتها المأساوية الأليمة المعروفة، فعاد علي (ع) بجيشه إلى مستقره في الكوفة.

❀ ❀ ❀

---

(١) وقعة صفين: ٣٨١ وفتوح ابن أعثم: ٣/ ٢٤٦ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٤٥ و٨/ ٥٢ وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٢ والدرجات الرفيعة: ٤٢٣ ـ ٤٢٤، وفي المصادر الثلاثة الأخيرة ورد أن حجراً ارتجز بهذا الرجز في يوم الجمل.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٧٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٦.

(٣) وقعة صفين: ٢٤٣ ـ ٢٤٤ وشرح نهج البلاغ: ٥/ ١٩٥.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٣/ ١٤٩ والدرجات الرفيعة: ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

وعلى أثر عودة المقاتلين من صفين إلى عاصمة الخلافة تكتَّل جمع من الشذّاذ المارقين الذين مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية ـ كما وصفهم الرسول الصادق الأمين (ص)، فخدعوا عدداً من الجهال والمضللين وزحفوا بهم نحو النهروان لمحاربة إمامهم الشرعي. فقاد علي (ع) جيشه بعد فشل محاولات الحوار والوعظ والإرشاد، وعسكر في النخيلة في طريقه إلى لقائهم بالنهروان، وأستدعى هناك خاصة أصحابه للمشاورة في الأمر، «فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال: يا أمير المؤمنين؛ سمعاً وطاعة، ووداً ونصيحة، أنا أول الناس جاء بما سألتَ وبما طلبتَ، وقام معقل بن قيس الرياحي فقال له نحواً من ذلك. وقام عدي بن حاتم وزياد بن خَصَفَة وحجر بن عدي وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك»[١].

ثم انطلق علي (ع) نحو حشود هؤلاء المارقين، بعد أن عبّأ جنده وعيَّن أمراءه واختار حجر بن عدي قائداً لميمنة الجيش أو ميسرته ـ على اختلاف الروايات في ذلك ـ[٢].

والتحم الفريقان في حرب ضروس سرعان ما بلغت نهايتها المتوقَّعة بخذلان ذوي الجباه السود وفشل تمردهم الخبيث المنكر.

❀ ❀ ❀

وعاد حجر مع جموع رفاق السلاح والعقيدة إلى الكوفة، بعد الفراغ من ثالثة تلك الحروب الفاجرة الجائرة المضادَّة لأحكام الشرع

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٧٩.

(٢) ورد النص على الميمنة في الأخبار الطوال: ٢١٠ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٧١ وتاريخ الطبري: ٥/ ٨٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٤، وورد النص على الميسرة في تاريخ خليفة: ١/ ٢٢٤ والاستيعاب: ١/ ٣٥٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥.

وتعاليم الدين والخارجة على الإمام الواجب الطاعة والاتباع، ليبقى ذلك الجندي المخلص الوفي الذي نذر نفسه للدفاع عن القيم الإسلامية الأصيلة والمنهج السماوي القويم، بلا كلل أو ملل ومن دون شعور بتعب أو إنهاك.

ولما صمم معاويةَ في سنة ٣٩هـ على استغلال الأوضاع الطارئة بعد حرب النهروان من تضعضع الجبهة الداخلية في العراق إثر فتنة الخوارج؛ ومن نشوء الخلافات والانقسامات بين طوائف الناس، كانت وسيلته الكبرى لتحقيق ذلك هي الإغارة على مراكز القرى وتجمعات الأعراب في البادية؛ التي لم يكن فيها من جيش علي (ع) من يتصدى لهؤلاء المغيرين أو كانت فيها مسلحة صغيرة لا تستطيع الوقوف بوجه المهاجمين، فهاجم أصحابه هؤلاء السكان الآمنين الوادعين وأخذوا فيهم قتلاً ونهباً وتدميراً، حتى شمل عملهم الإجرامي قوافل الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة، ويبدو أن ابن هند قد أراد بذلك إعلام المجتمع في مختلف الأمصار بعدم التزامه بحلال الله وحرامه وعدم اهتمامه بحدود الإسلام وأحكامه، وإنما يتركز همه الأوحد الذي يستبيح به كل شي في صيانة الملك والإمرة وتدعيم أركان التسلط، وليس لديه من هم آخر بمستواه ودرجته.

وانطلاقاً نحو هذا الهدف الدنيء المنحطّ دعا معاوية ـ كما روى الرواة، واللفظ لأبي إسحاق الثقفي ـ «الضحاك ابن قيس الفهري وقال له: سِرْ حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغِرْ عليه، وإن وجدتَ له مسلحة أو خيلاً فاغر عليهما، وإذا أصبحتَ في بلدة فأمْسِ في أخرى، ولا تقيمن لخيلٍ بلغك أنها قد سُرِّحتْ إليك لتلقاها فتقاتلها».

«فسرَّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جريدة خيل. فأقبل الضحاك يأخذ الأموال ويقتل من لقي من الأعراب حتى مرَّ بالثعلبية فأغار خيله على الحاج فأخذ أمتعتهم!!. ثم أقبل فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي ـ وهو ابن أخي عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله (ص) فقتله في طريق الحاج عند القُطْقُطانة وقتل معه ناساً من أصحابه».

فبلغ ذلك علياً (ع) فخرج إلى الناس فصعد المنبر وقال: «أيا أهل الكوفة؛ اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس وإلى جيوش لكم قد أصيب منها طرف، اخرجوا فقاتلوا عدوكم وامنعوا حريمكم».

ثم «خرج يمشي حتى بلغ الغريين، ثم دعا حجر بن عدي الكندي من خيله فعقد له ثَمَّ رايةً على أربعة آلاف ثم سرَّحه».

«فخرج حجر حتى مرَّ بالسماوة ـ وهي أرض كلب ـ فلقي بها أمرأ القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم الكلبي أصهار الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، فكانوا أدلاءه على طريقه وعلى المياه. فلم يزل مغذّاً في أثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقفه، فاقتتلوا ساعة فقُتِل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً، وقُتِل من أصحاب حجر رجلان: عبدالرحمن وعبدالله الغامدي، وحجز الليل بينهم، فمضى الضحاك، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثراً»[١].

وفي شهر رمضان المبارك من سنة ٤٠هـ، وفي رحاب مسجد الكوفة الطاهر المطهر، وفي محراب العبادة والنسك والابتهال إلى الله،

---

(١) الغارات: ٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٦، ومعظم النص في أنساب الأشراف: ٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨ وفتوح ابن أعثم: ٤/ ٣٧ ـ ٣٨، ومختصر منه في تاريخ الطبري: ٥/ ١٣٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٨٩ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١١٧ ـ ١١٨.

وعند اللحظات الأولى من إطلالة الفجر، استشهد علي بن أبي طالب (ع) بسيف الجبن والغدر، لينتقل من همِّ الدنيا وغمها إلى أعلى عليين، ليعيش هناك مع النبيين والصديقين والعباد الصالحين، حيث الرضوان الخالد والنعيم المقيم.

وتوجه المسلمون الصادقون في مختلف أقطارهم وأمصارهم نحو ابنه الحسن بن علي (ع) فبايعوه خليفة عليهم وولياً لأمرهم، تنفيذاً للنصوص الواردة فيه وإقراراً باجتماع صفات الأهلية في شخصه، ومَنْ يا ترى كان أولى منه بالإمامة في ذلك اليوم، وهو أكبر سبطي رسول الله (ص) وريحانتيه، وأول سيدي شباب أهل الجنة، وأحد الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وبعد الفراغ من مراسيم البيعة في الحواضر الإسلامية التي لم يشذ منها الإضلاّل أهل الشام ومرتزقتهم النفعيين وأتباعهم الجهلة المغرَّر بهم في متاهات الباطل، تحرك أولئك الخارجون على حكم الله وشرعه ليحاربوا إمام زمانهم الطالع كما حاربوا إمامهم السابق. فبدأ الإمام الحسن (ع) وقد بلغته أنباء التمرد في الشام والعزم على الزحف نحو العراق ـ بإعداد العدَّة لمقابلة هذا البغيّ وردعه، إطاعة الأمر الله تعالى بمقاتلة البغاة حتى يفيئوا إلى طريق الحق ونهج الصواب، وكان من بعض تلك الإجراءات إرساله «حجر بن عدي الكندي إلى العمال يأمرهم بالجد والاستعداد، إلى أن يمرَّ بهم»[1] في توجهه إلى حرب عدوه.

ثم حصل ما حصل من ضروب الدسائس والفتن وألوان وسائل الإغراء والطمع، حتى اضطر الإمام الحسن (ع) إلى الصلح مع عدوه على تفصيل لا مجال للخوض فيه في هذه الصفحات، فأصبح ابن هند

---

(١) أنساب الأشراف: ٣/ ٣٢ وقريب منه في مقاتل الطالبيين: ٦٠.

حاكماً بأمره في البلاد؛ ومتحكماً بالجور والظلم في رقاب العباد، ثم أخذ يضع الخطط ويحوك المؤامرات للتخلص من الحسن بن علي والتملص من شروط الصلح، فنجح في مسعاه بعد سنين بدس السم إليه والقضاء عليه، بلا خوف من الله ولا حياء من رسول الله (ص).

وأخذ معاوية بعد أن أخضع بلاد المسلمين لسلطانه في تأمير الأمراء وتعيين الولاة، فجعل المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، وكان من أوامر ابن هند، لحكام الأقاليم وخطباء الجمعة كافة، أن يسبوا علياً (ع) في كل خطبة وحديث وأن يقعوا فيه، كما كان من أوامره لوالي الكوفة خاصة قوله له بالجزم والتأكيد: «لست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تتحمَّ عن شتم علي (ع) وذمه؛ والترحم على عثمان والاستغفار له؛ والعيب على أصحاب علي (ع) والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم»[(١)].

ويروي الطبري عن عدد من محدِّثيه ـ وقد سمّاهم بأسمائهم ـ: إن المغيرة أقامَ عاملاً لمعاوية بالكوفة أكثر من سبع سنين «لا يدع ذمَّ علي (ع) والوقوع فيه، والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه. فكان حجر بن عدي إذا سمع ذلك قال: بل إياكم فذمَّم الله ولعن، ثم قام فقال: إن الله عز وجل يقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وأنا أشهد أن مَنْ تذمُّون وتعيِّرون لأحقُّ بالفضل، وأن مَنْ تزكُّون وتُطْرون أولى بالذم، فيقول المغيرة: . . . يا حجر ويحك!؛ اتق السلطان، اتق غضبه وسطوته، فإن غضبة السلطان أحياناً مما يُهلك أمثالك. . . ثم يكفّ عنه ويصفح».

«فلم يزل، حتى كان في آخر إمارته قام المغيرة فقال في علي وعثمان كما كان يقول. . . فقام حجر بن عدي فَنَعَر نعرة بالمغيرة سمعها

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٣.

كلَّ مَنْ كان في المسجد وخارجاً منه، وقال: إنك لا تدري بمن تُولَع من هَرمِك أيها الإنسان، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستَها عنّا وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحتَ مولّعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين».

«فقام معه أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق والله حجرٌ وبَرَّ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فأنّا لا ننتفع بقولكَ هذا ولا يجدي علينا شيئاً. وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه».

«فنزل المغيرة فدخل (القصر)، واستأذن عليه قومه فأذن لهم، فقالوا: علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترىء عليك في سلطانك هذه الجرأة؟... وكان أشدهم له قولاً في أمر حجر والتعظيم عليه عبدالله بن أبي عقيل الثقفي. فقال لهم المغيرة: أني قد قتلتُه، إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شرَّ قِتْلة، إنه قد اقترب أجلي وضعف عاملي، ولا أحب أن ابتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز في الدنيا معاوية وبذل يوم القيامة المغيرة»[١].

ومات المغيرة في سنة إحدى وخمسين فجُمِعت الكوفة والبصرة لزياد بن أبيه، فلما قدم زياد والياً على الكوفة «دعا بحجر بن عدي فقال: تعلم أني أعرفك، وقد كنت أنا وإياك على ما قد علمتَ ـ يعني من حب علي بن أبي طالب ـ، وإنه قد جاء غيرُ ذلك، وإني أنشدك الله أن تقطر لي من دمك قطرةً فأستفرغه كله، أمْلِكْ عليك لسانك، وليَسَعْك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدي، فاكفني

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

نفسك فإني أعرف عجلتك، فانشدك الله يا أبا عبد الرحمن في نفسك، وإياك وهذه السفلة وهؤلاء السفهاء! أن يستزلوك عن رأيك، فإنك لو هنتَ عليَّ أو استخففتُ بحقك لم أخصّك بهذا من نفسي».

ثم انصرف حجر إلى منزله، «فأتاه إخوانه من الشيعة فقالوا: ما قال لك الأمير؟، قال: قال لي كذا وكذا، قالوا: ما نَصَحَ لك. فأقام وفيه بعض الاعتراض، وكانت الشيعة يختلفون إليه يقولون: إنك شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر، وكان إذا جاء إلى المسجد مشوا معه، فأرسل إليه عمرو بن حُريث ـ وهو يومئذ خليفة زياد على الكفوة، وزياد بالبصرة ـ: أبا عبدالرحمن، ما هذه الجماعة وقد أعطيتَ الأمير من نفسك ما قد علمتَ. فقال للرسول: تُنكرون ما أنتم فيه؟ إليك وراءك أوسع لك. فكتب عمرو بن حريث بذلك إلى زياد؛ وكتب إليه: إن كانت له حاجة بالكوفة فالعَجَل»[1].

قال الطبري ـ وهو يشرح أحداث تلك الفترة السوداء ـ:

إن زياداً لما بلغه كتاب نائبه عمرو بن حريث «شَخَصَ إلى الكوفة حتى دخلها، فأتى القصر... ثم خرج فصعد المنبر... وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن غبَّ البغي والغي وخيم.. وأيم الله لئن لم تستقيموا لأداوينَّكم بدوائكم، وقال: ما أنا بشيء إن لم أمنع باحة الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده!، ويل أمك يا حجر!».

ثم كان يوم الجمعة فخطب زياد «فأطال الخطبة وأخَّر الصلاة، فقال له حجر به عدي: الصلاة. فمضى في خطبته، ثم قال: الصلاة، فمضى في خطبته. فلما خشي حجرٌ فوتَ الصلاة ضرب بيده إلى كفِ

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥١ ـ ١٥٢.

من الحصى، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره».

وروى الطبري بسنده عن حسين بن عبدالله الهَمْداني قال:

«كُنت في شُرَط زياد، فقال زياد: لينطلق بعضُكم إلى حجر فليَدْعُه، فقال لي أمير الشرطة ـ وهو شدّاد بن الهيثم الهلالي ـ: إذهب إليه فادْعُه. قال: فأتيتُه فقلت: أجبِ الأمير. فقال أصحابه: لا يأتيه ولا كرامة. قال: فرجعتُ إليه فأخبرتُه، فأمر صاحب الشرطة أن يبعث معي رجالاً. فبعث نفراً فأتيناه فقلنا: أجب الأمير. قال: فسبُّونا وشتمونا، فرجعنا إليه فأخبرناه الخبر، فوثب زياد بأشراف أهل الكوفة فقال: يا أهل الكوفة؛ أتشجُّون بيد وتأسون بأخرى، أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب، أنتم معي وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، هذا والله من دَحْسِكم وغشّكم، والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينَّكم بقوم أُقيم بهم أودكم وصعركم».

«فوثبوا إلى زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هاهنا رأي إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا أن فيه رضاك ما تستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمُرْنا به. قال: فليقم كل أمرىء منكم إلى هذه الجماعة حول حجر فليَدْعُ كل رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته، حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيمون».

«ففعلوا ذلك، فأقاموا جلَّ من كان مع حجر بن عدي فلما رأى زياد أن جُلَّ مَنْ كان مع حجر أقيمَ عنه قال لشدّاد ابن الهيثم... أمير شرطته: انطلق إلى حجر فإن تبعك فأتِني به، وإلا فمُرْ من معك فلينتزعوا عُمُد السوق ثم يشدوا بها عليهم حتى يأتوني به ويضربوا من حال دونه».

«فأتاه الهلالي فقال: أجب الأمير، فقال أصحاب حجر لا ولا نعمة عين؛ لا نجيبه. فقال لأصحابه: شدوا على عمد السوق. فاشتدوا إليها فأقبلوا بها قد انتزعوها. فقال عمير بن يزيد الكندي من بني هند - وهو أبو العَمَرَّطة - لحجر: إنه ليس معك رجل معه سيف غيري، وما يغني عنك. قال: فما ترى؟. قال: قم من هذا المكان فالحق بأهلك يمنعك قومك... فغُشوا بالعمد... وانحاز أصحاب حجر إلى أبواب كندة... ضُربتْ يدُ عائذ بن حملة التميمي وكُسِرَتْ نابُه... فانتزع عموداً من بعض الشرطة، فقاتل به وحَمَى حجراً وأصحابه حتى خرجوا من تلقاء أبواب كندة، وبغلة حجرِ موقوفة، فأتى بها أبو العمرَّطِة إليه ثم قال: اركبْ لا أب لغيرك، فوالله ما أراك إلا قد قتلتَ نفسك وقتلتَنا معك. فوضع حجر رجلَه في الركاب فلم يستطع أن ينهض، فحمله أبو العمرطة على بغلته، ووثب أبو العمرطة على فرسه، فما هو إلا أن استوى عليه حتى انتهى إليه يزيد بن طريف... فضرب أبا العمرطة بالعمود على فخذه، فاخترط أبو العمرطة سيفه فضرب به رأس يزيد بن طريف فخرَّ لوجهه».

«ومضى حجر وأبو العمرطة حتى انتهيا إلى دار حجر، واجتمع إلى حجر ناس كثير من أصحابه. وخرج قيس بن فهدان الكندي على حمار له يسير في مجالس كندة يقول:

يا قوم حجرٍ دافِعوا وصاولوا ... وعن أخيكم ساعةً فقاتلوا
لا يُلْفَيا منكم لحجرٍ خَاذلُ ... أليس فيكم رامح ونابلُ
وفارس مستلئم وراجلُ ... وضارب بالسيف لا يُزايلُ

«وقال زياد وهو على المنبر: ليقم هَمْدان وتميم وهوازن وأبناء أعصرُ ومذحج وأسد وغطفان فليأتوا جبّانة كندة، فليمضوا من ثَمَّ إلى حجر فليأتوني به...».

وجاء في رواية الطبري بسنده عن محمد بن مخنف قال: «إني لمع أهل اليمن في جبّانة الصائديين إذ اجتمع رؤوس أهل اليمن يتشاورون في أمر حجر، فقال لهم عبدالرحمن بن مخنف: أنا مشير عليكم برأي إن قبلتموه رجوت أن تسلموا من اللائمة والإثم، أرى لكم أن تلبثوا قليلاً فإن سُرْعان شباب همدان ومذحج يكفونكم ما تكرهون أن تلوا من مساءة قومكم في صاحبكم. قال: فأجمع رأيهم على ذلك. فوالله ما كان الأ ك«لا» و«لا» حتى أتينا فقيل لنا: أن (شباب) مذحج وهمدان قد دخلوا فأخذوا كلَّ مَنْ وجدوا من بني جَبَلة، فمرَّ أهل اليمن في نواحي دور كندة معذِّرة. فبلغ ذلك زياداً فأثنى على مذحج وهمدان وذَمَّ سائر أهل اليمن».

«وأن حجراً لما انتهى إلى داره فنظر إلى قلة من معه من قومه؛ وبلغه أن مذحج وهمدان نزلوا جبانة كندة؛ وسائر أهل اليمن جبانة الصائديين؛ قال لأصحابه: انصرفوا فوالله مالكم طاقة بمن قد أجتمع عليكم... فذهبوا لينصرفوا فلحقتهم أوائل خيل مذحج وهمدان... فتقاتلوا معهم... فقال لهم حجر: لا أبا لكم، تفرَّقوا لا تقاتلوا فإني آخذ في بعض السكك... فسار حتى انتهى إلى دار رجل يقال له سليم بن يزيد فدخل داره. وجاء القوم في طلبه حتى انتهوا إلى تلك الدار، فأخذ سليم بن يزيد سيفه ثم ذهب ليخرج إليهم، فبكت بناته. فقال له حجر: ما تريد؟ قال: أريد والله أسألهم أن ينصرفوا عنك، فإن فعلوا وإلا ضاربتهم بسيفي هذا ما ثبت قائمه في يدي دونك. فقال حجر: لا أبا لغيرك، بئس ما دخلتَ به إذاً على بناتك. قال: إني والله ما أمونهن، ولا رزقهن إلا على الحيِّ الذي لا يموت، ولا أشتري العار بشيء أبداً، ولا تخرج من داري أسيراً وأنا حي أملك قائم سيفي، فإن قُتِلتُ دونك فاصنع ما بدا لك. قال حجر: أمَا في دارك هذه حائط

أقتحمه أو خوخة أخرج منها، عسى أن يسلِّمني الله عز وجل منهم ويسلمك، فإذا القوم لم يقدروا عليَّ عندك لم يضروك. قال: بلى هذه خوخة تخرجك إلى دور بني العنبر وإلى غيرهم من قومك».

«فخرج حجر حتى مرَّ بِبَني ذُهْل، فقالوا له: مرَّ القوم آنفاً في طلبك يقفون أثرك... فخرج ومعه فتية منهم ينقصّون به الطريق ويسلكون به الأزقة حتى أفضى إلى النَّخَع، فقال لهم عند ذلك: انصرفوا رحمكم الله، فانصرفوا عنه. وأقبل إلى دار عبدالله بن الحارث أخي الأشتر فدخلها، فإنه لكذلك قد ألقى له الفُرُش عبدُ الله وبسط له البُسُط وتلقّاه ببَسْط الوجه وحُسْن البشْر، إذ أُتِيَ فقيل له: إن الشُّرَط تسأل عنك في النخع ـ وذلك أن أمَةً سوداء... لقيتهم فقالت: مَنْ تطلبون؟، قالوا: نطلب حجراً، قالت: ها هو ذا قد رأيته في النخع، فانصرفوا نحو النخع، فخرج من عند عبدالله متنكراً، وركب معه عبدُ الله بن الحارث ليلاً حتى أتى دار ربيعة بن ناجد الأزدي في الأزد فنزلها يوماً وليلة. فلما أعجزهم أن يقدروا عليه دعا زياد بمحمد بن الأشعث فقال له: أبا ميثاء، أمَا والله لتأتينّي بحجر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتُها؛ ولا داراً إلا هدمتُها؛ ثم لا تسلم مني حتى اقطّعك إرباً إرباً. قال: أمهلني حتى أطلبه. قال: قد أمهلتُك ثلاثاً؛ فإن جئتَ به وإلا عُدَّ نفسك مع الهلكى. وأُخرِج محمد نحو السجن منتقع اللون يُتَلُّ تلاً عنيفاً. فقال حجر بن يزيد الكندي لزياد: ضَمِّنيه وخلِّ سبيله يطلب صاحبه، فإنه مُخَلّىً سربُه أحرى أن يقدر عليه منه إذا كان محبوساً. فقال: أتضمنه؟، قال: نعم. قال: والله لئن حاص عنك لأُزيرنَّك شعوب وإن كنتَ الآن عليَّ كريماً. قال: إنه لا يفعل. فخلّى سبيله».

«ثم إن حجر بن يزيد كلَّمه في قيس بن يزيد وقد أُتِيَ به أسيراً، فقال لهم: ما على قيس بأس... ثم أرسل إليه فأتيَ به، فقال له: إني

قد علمتُ إنك لم تقاتل مع حجر وإنك ترى رأيه، ولكن قاتلتَ معه حميَّة قد غفرتُها لك لِمَا أعلم من حسن رأيك، ولكن لن أدعك حتى تأتيني بأخيك عمير. قال: أجيئك به إن شاء الله، قال: فهات من يضمنه لي معك، قال: هذا حجر بن يزيد يضمنه لك معي، قال حجر بن يزيد: نعم أضمنه لك على أن تؤمِّنه على ماله ودمه، قال: ذلك لك. فانطلقا فأتيا به وهو جريح، فأمر به فأُوقِر حديداً، ثم أخذتْه الرجال ترفعه حتى إذا بلغ سُرَرَها ألقوه فوقع على الأرض، ثم رفعوه وألقوه، ففعلوا به ذلك مراراً. فقام إليه حجر بن يزيد فقال: ألم تؤمِّنْه على ماله ودمه أصلحك الله؟!، قال: بلى قد آمنتُه على ماله ودمه ولستُ أهريق له دماً ولا آخذ له مالاً، قال: أصلحك الله! يُشْفَى به على الموت، ودنا منه وقام من كان عنده من أهل اليمن فدنوا منه وكلّموه، فقال: أتضمنونه لي بنفسه فمتى ما أحدث حدثاً أتيتموني به؟، قالوا: نعم. فخلّى سبيله».

«ومكث حجر بن عدي في منزل ربيعة بن ناجد الأزدي يوماً وليلة، ثم بعث حجر إلى محمد بن الأشعث غلاماً له... إنه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد، فلا يهولنَّك شيء من أمره، فإني خارج إليك أجمع نفراً من قومك، ثم ادخل عليه فأسأله أن يؤمِّنني حتى يبعث بي إلى معاوية فيرى فيَّ رأيه».

فخرج ابن الأشعث إلى حجر بن يزيد وإلى جرير بن عبدالله وإلى عبدالله بن الحارث أخي الأشتر، فأتاهم فدخلوا إلى زياد فكلموه وطلبوا إليه أن يؤمنه حتى يبعث به إلى معاوية فيرى فيه رأيه. ففعل، فبعثوا إليه رسوله ذلك يعلمونه أن قد أخذنا الذي تسأل وأمروه أن يأتي، فأقبل حتى دخل على زياد، فقال له: مرحباً بك أبا عبد الرحمن، حرب في أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس، على أهلها تجني براقش. قال: ما خالعت طاعة ولا فارقت جماعة... فقال: هيهات هيهات يا حجر،

تشج بيد وتأسو بأخرى، وتريد إذا أمكن الله منك أن نرضى!، كلا والله. قال: أو لم تؤمني حتى آتي معاوية...، قال: بلى قد فعلنا، انطلقوا به إلى السجن، فلما قُفِّيَ به من عنده قال زياد: أما والله لولا أمانه ما برح أو يلفظ مهجة نفسه» أو قال: «والله لأحرصنَّ على قطع خيط رقبته».

و«وجَّه زياد في طلب أصحاب حجر فأخذوا يهربون منه، ويأخذ مَنْ قَدَر عليه منهم، فبعث إلى قَبِيصة بن ضُبَيْعة بن حَرْمَلة العبسي صاحبَ الشرطة ـ وهو شدّاد بن الهيثم ـ، فدعا قبيصةُ في قومه وأخذ سيفه، فأتاه ربعيُّ بن خراش بن جحش العبسي ورجال من قومه... فأراد أن يقاتل، فقال له صاحب الشرطة: أنت آمن على دمك ومالك فلِمَ تقتل نفسك؟، فقال له أصحابه: قد أومِنْتَ فعلامَ تقتل نفسك وتقتلنا معك!، قال: ويحكم؛ إن هذا الدعيَّ ابن العاهرة والله لئن وقعتُ في يده لا أفلت منه أبداً أو يقتلني. قالوا: كلا. فَوضع يده في أيديهم فأقبلوا به إلى زياد، فلما دخلوا عليه قال زياد: وحيّ عَبْسٍ، تُعزوني على الدين، أما والله لأجعلنَّ لك شاغلاً عن تلقّيح الفتن والتوثُّب على الأمراء. قال: إني لم آتك إلا على الأمان. قال: انطلقوا به إلى السجن».

«وجاء قيس بن عبّاد الشيباني إلى زياد فقال له: إن امرءاً منّا من بني همام يقال له صَيْفيّ بن فَسِيل من رؤوس أصحاب حجر، وهو أشدُّ الناس عليك. فبعث إليه زياد فأتي به، فقال له زياد: يا عدو الله! ما تقول في أبي تراب؟. قال: ما أعرف أبا تراب. قال: ما أعرفَكَ به. قال: ما أعرفه. قال: أما تعرف علي بن أبي طالب؟. قال: بلى. قال: فذاك أبو تراب. قال: كلا؛ ذاك أبو الحسن والحسين. فقال له صاحب الشرطة يقول لك الأمير هو أبو تراب وتقول أنت: لا. قال: وإن كذب

الأمير أتريد أن أكذب وأشهد له على باطل كما شهد. قال له زياد: وهذا أيضاً مع ذنبك!، عليَّ بالعصا، فأُتيَ بها. فقال: ما قولك في علي؟. قال: أحسن قولٍ أنا قائله في عبدٍ من عباد الله. قال: اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلصق بالأرض، فضُرِب حتى لزم الأرض، ثم قال: أقلعوا عنه، إيهِ ما قولك في علي؟. قال: واللهِ لو شَرَّحْتَني بالمواسي والمدى ما قلتُ إلا ما سمعتَ مني. قال: لتلعنَّنه أو لأضربنَّ عنقك. قال: إذاً تضربها والله قبل ذلك، فإن أبيتَ إلا أن تضربها رضيتُ بالله وشقيتَ أنت. قال: ادفعوا في رقبته، ثم قال: أوقروه حديداً وألقوه في السجن».

«ثم بعث إلى عبدالله بن خليفة الطائي ـ وكان شهد مع حجر وقاتلهم قتالاً شديداً ـ. . . فأقبلوا في طلبه فوجدوه في مسجد عدي بن حاتم، فأخرجوه فلما أرادوا أن يذهبوا به ـ وكان عزيز النفس ـ امتنع منهم فحاربهم وقاتلهم، فشجوه ورموه بالحجارة حتى سقط، فنادت ميثاء أخته: يا معشر طيء أتُسْلمون ابنَ خليفةٍ لسانَكم وسنانَكم!. فلما سمع الأحمري (قائد الشرطة) نداءها خشي أن تجتمع طيء فيهلك، فهرب، وخرج نسوة من طيء فأدْخَلنَهُ داراً. وانطلق الأحمري حتى أتى زياداً فقال: إن طيئاً اجتمعتْ إليَّ فلم أُطقْهم، فأتيتك، فبعث زياد إلى عدي ـ وكان في المسجد ـ فحبسه وقال: جئني به. . . فقال عدي: كيف آتيك برجل قد قتله القوم!. قال: جئني حتى أرى أن قد قتلوه. فاعتلَّ له وقال: لا أدري أين هو ولا ما فعل. فحبسه، فلم يبق رجل من أهل المصر من أهل اليمن وربيعة ومضر إلّا فزع لعدي، فأتوا زياداً فكلموه فيه. أُخْرِج عبدالله فتغيَّب في بُحْتر، فأرسل إلى عدي: إن شئتَ أنَ أخرج حتى أضع يدي في يدك فعلتُ. فبعث إليه عدي: والله لو كنت تحت قدميَّ ما رفعتُهما عنك. فدعا زياد عدياً فقال له: إني أخلّي سبيلك

على أن تجعل لي لتنفيه من الكوفة ولتسيِّر به إلى الجبلين. قال: نعم. فرجع وأرسل إلى عبدالله بن خليفة: أخرج، فلو قد سكن غضبه لكلمته فيك حتى ترجع إن شاء الله. فخرج إلى الجبلين».

وفي رواية أخرى للطبري في موضوع عبدالله بن خليفة بألفاظ مختلفة جاء فيها:

«كان عبدالله بن خليفة الطائي شهد مع حجر بن عدي، فطلبه زياد فتوارى، فبعث إليه الشُّرَط ـ وهم أهل الحمراء يومئذ ـ فأخذوه، فخرجت اخته النوار فقالت: يا معشر طيء؛ أتُسْلِمون سنانكم ولسانكم عبدَ الله بن خليفة. فشدَّ الطائيون على الشرط فضربوهم وانتزعوا منهم عبدالله بن خليفة، فرجعوا إلى زياد فأخبروه، فوثب على عدي بن حاتم وهو في المسجد فقال ائتني بعبدالله بن خليفة. قال: وماله؟، فأخبره، فقال: هذا شيء كان في الحي لا علم له به، قال: والله لتأتيني به، قال: لا، والله لا آتيك به أبداً، أجيئك بابن عمي تقتله!، والله لو كان تحت قدميَّ ما رفعتُهما عنه. قال: فأمر به إلى السجن. فلم يبق بالكوفة يماني ولا ربعيّ إلا أتاه وكلَّمه وقالوا: تفعل هذا بعُدي بن حاتم صاحب رسول الله (ص). قال: فإني أخرجه على شرط. قالوا: وما هو؟. قال: يخرج ابن عمه عني فلا يدخل الكوفة ما دام لي بها سلطان. فأُتي عدي فأُخبر بذلك، فقال: نعم، فبعث عدي إلى عبدالله بن خليفة فقال: يا ابن أخي، إن هذا قد لجَّ في أمرك، وقد أبى إلا إخراجك عن مصرك ما دام له سلطان، فالحقْ بالجبلَيْن. فخرج، فجعل عبدالله بن خليفة يكتب إلى عدي، وجعل عدي يمنيه»، ثم مات ابن خليفة بالجبلين قبل موت زياد.

ثم «أُتي زياد بكريم بن عفيف الخثعمي فقال: ما أسمك؟. قال:

أنا كريم بن عفيف. قال ويحك ـ أو ويلك ـ ما أحسن اسمك واسم أبيك وأسوأ عملك ورأيك. قال: أما والله أن عهدك برأيي لمنذ قريب».

«ثم بعث زياد إلى أصحاب حجر حتى جمع أثنى عشر رجلاً في السجن. ثم إنه دعا رؤوس الأرباع فقال: اشهدوا على حجر بما رأيتم... فشهدوا أن حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شَتْمَ الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب والترحُّم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على مثل رأيه وأمره».

«ثم أمر بهم ليخرجوا... ونظر زياد في شهادة الشهود فقال: ما أظن هذه الشهادة قاطعة، وأني لأحبُّ أن يكون الشهود أكثر من أربعة».

وكان نصُّ الشهادة على هؤلاء المؤمنين كما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما شهد به أبو بردة بن أبي موسى لله رب العالمين!، شهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة، ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخَلْعِ أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء!!!».

«فقال زياد: على مثل هذه الشهادة فاشهدوا، أما والله لأجهدنَّ على قطع خيط عنق الخائن الأحمق!!. فشهد رؤوس الأرباع الثلاثة الآخرون على مثل شهادته ـ وكانوا أربعة ـ».

«ثم أن زياداً دعا الناس فقال: اشهدوا على مثل شهادة رؤوس الأرباع»، فشهد جمع من النفعيين والانتهازيين على ذلك ومنهم ابن بُزَيعة، فلما قرأ زياد الأسماء وانتهى إلى ابن بزيعة قال: «ما لهذا أب

ينسب إليه، ألقوا هذا من الشهود. فقيل له: إنه أخو الحضَين وهو ابن المنذر، قال: فانسبوه إلى أبيه، فنُسِب إلى أبيه»، فبلغت مقولة زياد ابنَ بزيعة فقال: «ويلي على ابن الزانية!، أوليست أمُّه أعرف من أبيه، والله ما ينسب إلا إلى أمه سمية».

وبلغ عدد الشهود على حجر ورفاقه سبعين رجلاً، «وكُتبتْ شهادة هؤلاء الشهود في صحيفة، ودفعها إلى وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب الحارثي، وبعثهما عليهم وأمرهما أن يخرجا بهم، وكُتِب في الشهود اسما شُرَيح بن الحارث القاضي وشريح بن هانيء الحارثي. فأما شريحِ القاضي فقال سألني عنه فأخبرتُه إنه كان صوّاماً قوّاماً، وأما شريح بن هانيء فكان يقول: ما شهدتُ، وقد بلغني أن قد كُتِبتْ شهادتي، فأكذبتُه ولُمْتُه».

«وجاء وائل بن حجر وكثير بن شهاب فأخرج القوم عشية، وسار معهم صاحبُ الشرطة حتى أخرجهم من الكوفة، فلما انتهوا إلى جبّانة عَرْزَم نظر قَبيصة بن ضُبَيْعة العبسي إلى داره - وهي في جبانَة عرزم - فإذا بناته مُشرفات، فقال لوائل وكثير: ائْذَنَا لي فأُوصي أهلي، فأذنا له فلما دنا منهن وهن يبكين سكت عنهن ساعة ثم قال: اسْكُتْنَ، فسكَتْنَ فقال: اتقين الله عز وجل واصبرن فإني أرجو من ربي في وجهي هذا إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا الشهادة وهي السعادة، وإما الإنصراف اليكن في عافية، وإن الذي كان يرزقكن ويكفيني مؤنتكن هو الله تعالى - وهو حيٌّ لا يموت - أرجو أن لا يضيِّعكن وأن يحفظني فيكن. ثم انصرف فمرَّ بقومه، فجعل القوم يدعون الله له بالعافية، فقال: إنه لمما يعدل عندي خطر ما أنا فيه هلاك قومي».

وكان الذين بعث بهم زياد إلى معاوية هم التالية أسماؤهم - كما

دوَّنها الطبري ـ: «حجر بن عدي بن جَبَلَة الكندي، والأرقم بن عبدالله الكندي من بني الأرقم، وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي من بني عامر بن شران ثم من قحافة، وعاصم بن عوف البجلي، وورقاء بن سُمَيّ البجلي، وكدام بن حيّان، وعبد الرحمن بن حسان العَنَزيّان من بني هُمَيْم، ومُحْرز بن شهاب التميمي من بني مِنْقَر، وعبدالله بن حويَّة السعدي من بني تميم».

«فمضوا بهم حتى نزلوا مَرْجَ عذراء فحُبسوا بها. ثم أن زياداً أتبعهم برجلين آخرين: بعتية بن الأخنس من بني سعد بن بكر بن هوازن، وسعيد بن نمران الهَمْداني ثم الناعطي. فتموا أربعة عشر رجلاً».

و«بعث معاوية إلى وائل بن حجر وكثير بن شهاب فأدخلهما، وفضَّ كتابهما فقرأه على أهل الشام، فإذا فيه: «من زياد بن أبي سفيان: أما بعد: فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء، فكاد له عدوه وكفاه مؤونة من بغى عليه. إن طواغيت من هذه الترابية السبئية (السابَّة) رأسهم حجر بن عدي خالفوا أمير المؤمنين!. وفاقوا جماعة المسلمين!، ونصبوا لنا الحرب فأظهَرنَا الله عليهم وأمكننا منهم. وقد دعوتُ خيار أهل المصر وأشرافهم وذوي السنّ والدين منهم فشهدوا عليهم بما رأوا وعملوا، وقد بعثتُ بهم إلى أمير المؤمنين وكتبتُ شهادة صلحاء أهل المصر وخيارهم في أسفل كتابي هذا».

«فلما قرأ الكتاب وشهادة الشهود عليهم قال: ماذا ترون في هؤلاء النفر الذين شهد عليهم قومُهم بما تستمعون؟؟، فقال له يزيد بن أسد البجلي: أرى أن تفرّقهم في قرى الشام فَيكفيكهم طواغيتها».

ثم قرأ معاوية كتاباً كان قد بعث به إليه شريح بن هانىء فإذا فيه: «أما بعد: فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حجر بن عدي، وإن شهادتي على حجر إنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال، فإن شئتَ فاقتله وإن شئت فدعه... فقال: ما أرى هذا إلّا قد أخرج نفسه من الشهادة».

«فحبس القوم بمرج عذراء. وكتب معاوية إلى زياد: أما بعد، فقد فهمتُ ما اقتصصتَ به من أمر حجر وأصحابه، وشهادةَ مَنْ قِبَلَك عليهم، فنظرتُ في ذلك، فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم، وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم... فكتب إليه زياد: أما بعد فقد قرأتُ كتابك وفهمت رأيك في حجر وأصحابه، فعجبتُ لاشتباه الأمر عليك فغيهم، وقد شهد عليهم بما قد سمعتَ من هو أعلم بهم، فإن كانت لك حاجة في هذا المصر فلا تَرُدنَ حجراً وأصحابه إليَّ».

ودخل يزيد بن أسد البجلي على معاوية فقال: «يا أمير المؤمنين؛ هب لي ابني عمي.. فقال: سألتَني ابنَيْ عمك فهما لك».

«وطلب وائل بن حجر في الأرقم فتركه له».

«وطلب أبو الأعور السُّلمي في عتبة بن الأخنس فوهبه له».

«وطالب حُمرة بن مالك الهَمْداني في سعيد بن نمران الهمداني فوهبه له».

«وكلمه حبيب بن مسلمة في ابن حَويَّة فخلّى سبيله».

«وقام مالك بن هُبَيرة السكوني فقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين؛ دَعْ لي ابن عمي حجراً. فقال: إن ابن عمك حجراً رأس القوم، وأخاف

إن خليتُ سبيله أن يُفسِد عليَّ مصري فيضطرنا غداً إلى أن نُشخِصَك وأصحابك إليه بالعراق. فقال له: والله ما أنصفتَني يا معاوية، قاتلتُ معك.. حتى ظفرتْ كفُّك وعلا كعبك... ثم سألتك ابن عمي فسطوتَ وبسطتَ من القول بما لا أنتفع به... ثم انصرف فجلس في بيته».

و«جاء رسول معاوية إليهم بتخلية ستة وبقتل ثمانية»، وقال لأولئك المحكومين بالقتل: «إنّا قد أمَرَنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، وإن أمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلَّتْ له بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفا عن ذلك فابرأوا من هذا الرجل نُخَلِّ سبيلكم».

«قالوا: إنّا لسنا فاعلي ذلك».

«فأُمِر بقبورهم فحُفِرتْ، وأُدنيت أكفانهم، وقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء، لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة وأحسنتم الدعاء، فأخبرونا ما قولكم في عثمان؟. قالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق. فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين كان أعلم بكم. ثم قاموا إليهم فقالوا: تبرأون من هذا الرجل. قالوا: بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرَّأ منه».

«فأخذ كل رجل منهم رجلاً ليقتله...».

«ثم إن حجراً قال لهم: دعوني أتوضأ، قالوا له: توضأ، فلما أن توضأ قال لهم: دعوني أُصلِّ ركعتين فأيمن الله ما توضأتُ قط إلا صليت ركعتين، قالوا: لتصل. فصلى ثم انصرف فقال: والله ما صليتُ صلاة قط أقصر منها، ولولا أن تروا أن ما بي جزعٌ من الموت لأحببتُ أن أستكثر منها، ثم قال: اللهم إنّا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وأن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها إني

لأول فارس من المسلمين سلكَ في واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها».

«فمشى إليه الأعور هُدْبة بن فياض بالسيف فأُرعدت خصائله، فقال: زعمتَ أنك لا تجزع من الموت، فأنا أدعك فابرأ مِن صاحبك. فقال: ما لي لا أجزع وأنا أرى قبراً محفوراً وكفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً، وإني والله إن جزعت من القتل لا أقول ما يسخط الرب. فقتله».

«وأقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قتلوا ستة».

«فقال عبدالرحمن بن حسان العنزي وكريم بن عفيف الخثعمي: ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين، فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته، فبعثوا إلى معاوية يخبرونه بمقالتهما، فبعث إليهم أن آتوني بهما. فلما دخلا عليه قال الخثعمي: الله الله يا معاوية، فإنك منقول من هذه الدارِ الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة ثم مسؤول عما أردتَ بقتلنا وفيم سفكتَ دماءنا. فقال معاوية: ما تقول في علي؟. قال: أقول فيه قولك، أتبرأ من دين علي الذي كان يدين الله به؟. فسكت وكره معاوية أن يجيبه. وقام شمر بن عبدالله من بي قحافة فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي ابن عمي. قال: هو لك؛ غير أني حابسه شهراً... ثم إن شمراً عاوده فيه الكلام فقال: نُمرُّك على هبة ابن عمك. فدعاه فخلّى سبيله على أن لا يدخل إلى الكوفة ما كان له سلطان فقال: تخيَّر أي بلاد العرب أحبّ إليك أن أُسيِّرك إليها، فاختار الموصل، فكان يقول: لو قد مات معاوية قدمتُ المصر. فمات قبل معاوية بشهر».

«ثم أقبل على عبدالرحمن العنزي فقال: إيه يا أخا ربيعة، ما قولك في علي؟، قال: دعني ولا تسألني فإنه خير لك. قال: والله لا أدعك حتى تخبرني عنه. قال: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيراً؛

ومن الآمرين بالحق والقائمين بالقسط والعافين عن الناس. قال: فما قولك في عثمان؟، قال: هو أول من فتح باب الظلم وأرتج أبواب الحق. قال: قتلتَ نفسك. قال: بل إياك قتلتُ... فبعث به معاوية إلى زياد وكتب إليه: أما بعد فإن هذا العنزي شرُّ مَنْ بعثت، فعاقِبْه عقوبته التي هو أهلها واقتله شرَّ قتلة. فلما قُدِم به على زياد بعث به زياد إلى قُسِّ الناطف فدُفِن به حيّاً!!!».

«وذُهِب بعتبة بن الأخنس وسعيد بن نمران بعد حجرٍ بأيامٍ فخُلِّيَ سبيلهما»[١].

وأُثر عن حجر بن عدي قبل شهادته إنه «قال لأهله: لا تُطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً فإني ملاق معاوية على الجادة»، وقال: «ادفنوني في ثيابي فإني أُبعَث مخاصِماً»[٢].

وثمَّ دفن حجر ورفاقه الشهداء في موضع قتلهم في مرج عذراء[٣]، «ومشهدهم ظاهر يزار»[٤]، وفي لفظ ابن عساكر وابن كثير: «ومسجد قبره بها معروف»[٥]، وما زال ذلك المشهد ظاهراً معروفاً حتى اليوم.

---

(١) النص بطوله وألفاظه من تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٤ ـ ٢٧٨، وقريب منه وبعضه بألفاظه في الأغاني: ١٧/ ١٣٣ ـ ١٥٣ وقال أبو الفرج بعد إيراد النص كله تقريباً: «وقد اختصرت جُمّلاً من ذلك يسيرة تحرزاً من الإطالة»، كذلك ورد معظم النص وبألفاظه في كامل ابن الأثير: ٣/ ٢٣٣ ـ ٢٤٣ ونهاية الأرب: ٢٠/ ٣٣٠ ـ ٣٣٩، وخلاصة غير قليلة منه في تاريخ دمشق: ٨/ ١٥ ـ ١٩.

(٢) الروايتان في سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٦ والإصابة: ١/ ٣١٣، والأولى بمفردها في تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٧ والاستيعاب: ١/ ٣٥٦ وأسد الغابة: ١/ ٣٧٦ وتاريخ دمشق: ١٣/ ١٥٧، والثانية بمفردها في طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٤.

(٣) معجم ما استعجم: ١/ ١٦١ و٣/ ٩٢٧ ومعجم البلدان: ٦/ ١٣٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٧.

(٥) تاريخ دمشق: ١٣/ ١٤٤ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٠.

وما إن استشهد هؤلاء المؤمنون الأبرار في مرج عذراء واريقت دماؤهم هناك بسيف الجور والضلال حتى علم الناس مراد النبي (ص) في حديثه الذي تناقله الرواة وأسنده الحفاظ المعنيون، وقد قال فيه ناقلاً عن الغيب:

«سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء»[١].

وكان قد أُثِر عن علي (ع) قوله في ذلك:

«يا أهل العراق: ـ أو يا أهل الكوفة ـ سيُقْتَل منكم سبعة نفر بعذراء، مَثَلُهم كمثل أصحاب الأُخدود. فقُتل حجر وأصحابه[٢]، ثم قرأ علي (ع) في تتمة هذا الخبر في رواية ابن العماد الحنبلي ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٣] [البروج: ٨].

وقال البيهقي معقِّباً على حديث علي (ع) بعد إيراده: «قلتُ: علي (ع) لا يقول مثل هذا إلا بأن يكون سمعه من رسول الله (ص)»[٤].

وليس لدينا ما نقوله بحق معاوية الآمر بقتل هؤلاء الصالحين الذين يغضب الله لهم وأهل السماء؛ إلا أن نردد بخشوع وإخبات قوله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

❀ ❀ ❀

(١) المعرفة والتايخ: ٣/ ٣٢٠ و٣٢١ ودلائل النبوة: ٦/ ٤٥٧ وتاريخ دمشق: ١٣/ ١٥٧ والبداية والنهاية: ٦/ ٢٢٦ و٨/ ٥٥.

(٢) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٣٢٠ و٣٢١ ودلائل النبوة: ٦/ ٤٥٦ وتاريخ دمشق: ١٣/ ١٥٨ والدرجات الرفيعة: ٤٢٩.

(٣) شذرات الذهب: ١/ ٥٧.

(٤) دلائل النبوة: ٦/ ٤٥٦.

وسرعان ما انتشر نبأ مقتل حجر بن عدي وأصحابه في جميع أرجاء العالم الإسلامي فكان له دوي كدوي الصاعقة وانفجار كانفجار البركان، ولم يبق أقليم من أقاليم المسلمين وصقع من أصقاع العرب إلا أهتز بوقع هذه الجريمة النكراء والسوأة السوءاء، وعلى الرغم من شدة جبروت معاوية وطغيانه؛ ووفرة رشاواه وإغراءاته؛ وتعدد أساليبه في إسكات أعدائه والمنكرين عليه؛ وتحفظ المؤرخين من ذكر الكثير من جرائمه وجناياته، فقد فلت من بين الفجوات والسطور ما يدلنا على أن هذا الحدث قد أثار غضب الناس وألهب مشاعرهم في يوم وقوعه، وفي مقدمهم أهل الكوفة الذين استفظعوا ذلك استفظاعاً شديداً[١]، ثم ظل يثير ويلهب عواطف المسلمين قادة وجماهير وعلى اختلاف المشارب والتوجهات بعد ذلك اليوم. ونورد فيما يأتي بعض صيحات الاستنكار لهذا الجرم الفظيع والعمل الشنيع كما سجلتها أقلام عدد من المؤرخين والمحدِّثين في كتبهم ومصنفاتهم:

١ ـ الحسين بن علي(ع):

قال مخاطباً معاوية خلال الرد على كتاب كان قد كتبه إليه:

«ألستَ القاتل حجر بن عدي أخا كندة والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم، ثم قتلتَهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنتَ أعطيتَهم الأيمان المغلَّظة والمواثيق المؤكدة لا تأخذهم بحدثٍ كان بينك وبينهم ولا بإحنةٍ تجدها في نفسك»[٢].

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٤.

(٢) رجال الكشي: ٤٩ والدرجات الرفيعة: ٤٣٠.

وروى اليعقوبي قال: لما قتل معاوية حجر بن عدي وأصحابه لقي في ذلك العام الحسين (ع) فقال: «يا أبا عبد الله؛ علمت أنَّا قتلنا شيعة أبيك فحنطناهم وكفَّناهم وصلينا عليهم ودفناهم؟. فقال الحسين (ع): حجوك ورب الكعبة (أو قال: خَصَمَك القوم يا معاوية يوم القيامة)، لكنا والله إن قتلنا شيعتك ما كفَّناهم ولا حنطناهم ولا صلينا عليهم»[١].

٢ ـ السيدة عائشة أم المؤمنين:

روى الطبري قال: لما حج معاوية مرَّ على عائشة «فاستأذن عليها فأذنت له، فلما قعد... قالت: يا معاوية؛ أما خشيتَ الله في قتل حجر وأصحابه!، قال: لستُ أنا قتلتُهم؛ إنما قتلهم من شهد عليهم»[٢]. وروى الرواة عنها أنها كانت تقول: «لولا أنّا لم نغيِّر شيئاً إلا آلتْ بنا الأمور إلى أشد مما كنّا فيه لغيَّرْنا قتل حجر!!، أما واللهِ إن كان ما علمتُ لمسلماً حَجّاجاً معتمراً»[٣]. وروى البيهقيّ بسنده قال: «دخل معاوية على عائشة فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين؛ إني رأيتُ قتلهم صلاحاً للأمة وأن بقاءهم فساد للأمة!. فقالت: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: سيُقْتَل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء»[٤]. وروى ابن عبد البرِّ بسنده عن مسروق بن الأجدع قال: «سمعتُ عائشة أمَّ المؤمنين تقول: أما والله

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٦، وقريب منه في نثر الدر: ١/٣٣٥ والدرجات الرفيعة: ٤٢٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٢٧٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/٢٧٩ والأغاني: ١٧/١٥٤ وكامل ابن الأثير: ٣/٢٤٣ ونهاية الأرب: ٢٠/٣٤٠.

(٤) دلائل النبوة: ٦/٤٥٧ والبداية والنهاية: ٦/٢٢٦ و٨/٥٥ والدرجات الرفيعة: ٤٢٩.

لو علم معاوية إن عند أهل الكوفة منعةً ما اجترأ على أن يأخذ حُجْراً وأصحابه من بينهم حتى يقتلهم بالشام، ولكن ابن آكلة الأكباد علم أنه قد ذهب الناس»(١).

٣ ـ عبدالله بن عمر:

روى أحمد بن حنبل وابن عون عن نافع قال: «كان ابن عمر في السوق فنُعيَ له حُجرُ، فأطلق حبوته وقام وقد غلب عليه النحيب»(٢).

٤ ـ الحسن البصري:

روى الطبري وغيره أن الحسن البصري قال: «أربع خصال كنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزَّها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه ابنه بعده سكيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير. وإدعاؤه زياداً وقد قال رسول الله (ص): الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقتله حُجراً؛ ويلاً له من حُجر ـ مرتين ـ»(٣).

٥ ـ أبو إسحاق السبيعي:

روى الطبري وغيره أن أبا إسحاقِ السبيعي قال: «أدركتُ الناس

(١) الاستيعاب: ١/ ٣٥٧.
(٢) تاريخ دمشق: ١٣/ ١٥٨ و١٥٩ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٦ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٥ والإصابة: ١/ ٣١٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٤٢ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٢ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٨٦. وفي المصادر الثلاثة الأخيرة في آخر النص: (وقتله حجراً وأصحابه... فيا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر». كما ورد كلام الحسن هذا في النجوم الزاهرة: ١/ ١٤١ ونهاية الأرب: ٢/ ٣٤٠ والدرجات الرفيعة: ٤٣٠.

وهم يقولون: إن أول ذُلٍ دخل الكوفة: موت الحسن بن علي، وقتل حُجرُ بن عدي، ودعوة زياد»[1].

٦ ـ عبد الرحمن بن أبي ليلى:

روى التنوخي عن أبي الحسن المدائني قال: «كتب معاوية إلى زياد: إنه قد تلجلج في صدري شيء من أمر حُجرُ بن عَدَي، فأبعث لي رجلاً من أهل المصر له فضل ودين وعلم. فدعا عبد الرحمن بن أبي ليلى فقال له: إن أمير المؤمنين كتب إليَّ يأمرني أن أوجِّه إليه رجلاً من أهل المصر له دين وفضل وعلم ليسأله عن حُجرُ بن عَدَي، فكنتَ عندي ذلك الرجل، فإياك إن تقبّح له رأيه في حُجرُ؛ فأقتلك. وأمر له بألفي درهم وكساه حلَّتين وحمله على راحلتين».

«قال عبد الرحمن: فسرتُ وما في الأرض خطوة أشدّ عليَّ من خطوة تدنيني إلى معاوية. فقدمتُ بابه فاستأذنتُ فأذن لي فدخلتُ، فسألني عن سفري ومَنْ خلَّفتْ من أهل المصر وعن خبر العامة والخاصة... فذكر حُجراً ثم قال: أما والله لقد تلجلج في صدري منه شيء، وودتُ إني لم أكن قتلتُه. قلت: وأنا واللهِ يا معاوية وددتُ إنك لم تقتله. فبكى، فقلتُ: والله لوددتُ إنك حبستَه. فقال لي: وددت إني كنت فرَّقتهم في كور الشام فتكفينيهم الطواعين. قلت: وددتُ ذلك...»[2].

٧ ـ الربيع بن زياد الحارثي:

روى المؤرخون ـ واللفظ لابن الأثير ـ قالوا: في سنة ٥٣ هـ

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٩/٥ والأغاني: ١٥٣/١٧ ومقاتل الطالبيين: ٧٦ وكامل ابن الأثير: ٢٤٢/٣ وشرح نهج البلاغة: ٥١/١٦ ونهاية الأرب: ٣٤٠/٢٠ والدرجات الرفيعة: ٤٢٩.

(٢) الفرج بعد الشدة: ٢٠٦/٣ ـ ٢٠٨.

«مات الربيع بن زياد الحارثي عامل خراسان من قبل زياد، وكان سبب موته إنه سخط قتل حُجرُ بن عدي حتى أنه قال: لا تزال العرب تُقتَل صبراً بعده، ولو نفرتْ عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً، ولكنها أقرَّتْ فذلَّتْ. ثم مكث بعد هذا الكلام جمعة ثم خرج يوم الجمعة فقال: أيها الناس؛ إني قد مللتُ الحياة وإني داعٍ بدعوة فأمِّنوا، ثم رفع يديه بعد الصلاة فقال: اللهم إن كان لي عندكَ خير فاقبضني إليك عاجلاً، وأمَّن الناس، ثم خرج فما توارتْ ثيابه حتى سقط، فحُمِل إلى بيته ومات من يومه»(١).

٨ ـ معاوية بن أبي سفيان قاتل حجر وأصحابه:

روى المؤرون أنه لما حضرته الوفاة جعل يقول: «يوم لي من ابن الأدبر طويل»(٢)، وفي لفظ آخر: «أي يوم لي من ابن الأدبر طويل»(٣)، وفي لفظ ابن سيرين قال: «بلغنا أن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حُجرُ يومٌ طويل»(٤).

وروى ابن أعثم الكوفي قال: لما أشرف معاوية على الموت جعل يبكي لما نزل به، «فقال له مروان بن الحكم: أجزعاً يا أمير المؤمنين!!؟، فقال: لا يا مروان، ولكني ذكرتُ ما كنتُ عنه عزوفاً... فأخاف أن تكون عقوبة عجّلتْ لي لما كان مني من دفعي بحق علي بن أبي طالب؛ وما فعلتُ بحُجرُ بن عَدَي وأصحابه».

---

(١) كامل ابن الأثير: ٣/ ٢٤٥، ومختصر منه في فتوح البلدان: ٤٠١ وتاريخ الطبري: ٥/ ٢٩١ والدرجات الرفيعة: ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٢) التعازي والمرائي: ٢٢٥ وتاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٩.
(٣) الأغاني: ١٧/ ١٥٤ ونهاية الأرب: ٢٠/ ٣٤٠.
(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٤٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٣ ونهاية الأرب: ٢٠/ ٣٤٢ والدرجات الرفيعة: ٤٢٩.

قال: ثم اشتد عليه المرض، «وكان في مرضه يرى أشياء لا تسرُّه حتى كأنه ليهذي هذيان المدنف.. وكان ربما غُشِي عليه... فإذا أفاق من غشوته ينادي بأعلى صوته: مالي ومالك يا حُجرُ بن عَدَي!، مالي ومالك يا حُجرُ بن عدي!، مالي ومالك يا عمرو بن الحَمِق!، مالي ومالك يا ابن أبي طالب!»[١].

٩ - زهير بن القَيْن:

روى الطبري أن زهير بن القين خطب في الناس في كربلاء يوم عاشوراء، فقال موجِّهاً كلامه إلى جموع الخارجين لحرب الحسين (ع) واعظاً إياهم ومعنفاً، وكان مما قال في هذه الخطبة:

«إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية محمد (ص) لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذل الطاغية عبيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عُمْرَ سلطانهما كله؛ لَيَسْملان أعينكم، ويقطِّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثِّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقُرّاءكم أمثال حُجرُ بن عَدَي وأصحابه»[٢].

❀ ❀ ❀

كذلك أثارت هذه الجريمة النكراء عواطف الشعراء في ذلك اليوم فرثوا حُجراً ورفاقه الشهداء بصادق الشعر ورقيق النظم المعبِّر عن عميق الأسى والحزن بهذا الحادث الجلل والمصاب الأليم، وكان منهم الشاعر البليغ عبدالله بن خليفة الطائي؛ الذي أوردنا قصيدته خلال الحديث عن سجنه ونفيه إلى الجبلَيْن.

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٢٦.

وقالت هند ابنة زيد بن مَخْرَمة[١] الأنصارية ترثي حُجراً ـ وقيل: إن الشعر لابنة حُجرُ، أو لهندٍ أخته، أو لأُم حُجرُ، وقيل: بل الشعر لامرأة من كندة ـ:

تَرَفَّعْ أيها القمر المنيرُ   تَبَصَّرْ هل ترى حجراً يسيرُ
يسير إلى معاوية بن حرب   ليقتله كما زعم الأميرُ
ويصلبه على بابَيْ دمشقَ   وتأكل من محاسنه النسورُ
تجبَّرت الجبابرُ بعد حجرٍ   وطاب لها الخورنق والسديرُ
وأصبحت البلاد بها مُحولاً   كأنْ لم يُحْيِها مزنٌ مطيرُ
ألا يا حجرُ حجرَ بني عدي   تلقَّتك السلامةُ والسرورُ
أخاف عليك ما أردى عديّاً   وشيخاً في دمشق له زئيرُ
يرى قتل الخيار عليه حقاً   له من شرِّ أمَّته وزيرُ
ألا يا ليت حجراً مات موتاً   ولم يُنحَرْ كما نُحِر البعيرُ
فإن تهلك فكلُّ زعيم قوم   من الدنيا إلى هلكٍ يصيرُ
فرضوان الإله عليك مَيْتاً   وجنات بها نِعَمٌ وحورُ[٢]

---

(١) كذا هو (مخرمة) في معظم المصادر، وفي تاريخ دمشق المطبوع: ١٣/ ١٥٢: «ابن مخربة، قال الصوري: وفي نسخة: مخزية».

(٢) وردت الأبيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ١٠ في تاريخ الطبري: ٥/ ٢٨٠ ـ وألفاظ الشعر منه ـ، وعزاها لهند ابنة زيد بن مخرمة الأنصارية.
والأبيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ٧ و١٠ في طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٣ ـ ١٥٤، وعزاها لهند السالفة الذكر.
والأبيات ١ و٦ و١٠ في الأخبار الطوال: ٢٢٣ ونسبها لأم حجر.
والأبيات ١ ـ ٤ و٦ ـ ٧ و٩ ـ١٠ في مروج الذهب: ٢/ ٣٠٨ ونسبت فيه لابنة حجر.
والأبيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ١٠ في الأغاني: ١٧/ ١٥٤ ـ ١٥٥ وعزيت لامرأة من كندة.

وقال قيس بن فهدان الكندي يرثيه:

يا حُجر يا ذا الخير والحِجْرِ ... يا ذا الفعال ونابه الذكرِ
كنتَ المُدافِع عن ظلامتنا ... عند الطلوع ومانع الثغرِ
إمّا قُتِلتَ فأنت خيرهم ... في العسر ذي العيصاء واليسرِ
يا عين بكّي خير ذي يمنٍ ... وزعيمها في العرف والنكرِ
فلأبكينَّ عليك مكتئباً ... فلنعم ذو القربى وذو الصهرِ
يا حجر مَنْ للمعتفين إذا ... لزم الشتاء وقل مَنْ يقري
من لليتامى والأرامل إن ... حقب الربيع وضنَّ بالوفرِ
أم من لنا في الحرب إن بعثتْ ... مستبسلاً يفري كما يفري
فسعدتَ ملتمس التقى وسقى ... جدثاً أجنَّكَ مسبل القطرِ
كانت حياتك إذا حييتَ لنا ... عزاً وموتك قاصم الظهرِ
وتريشنا في كل نازلةٍ ... نزلت بساحتنا ولا تبري
يا طول مُكتَأبي لقتلهم ... حجراً وطول حرارة الصدرِ
قد كدتُ أصعق جازعاً أسفا ... وأموت من جزع على حجرِ
فلقد جدلتَ وقد قتلتَ ومن ... لم تستعبه[1] حوادث الدهرِ
فلذاك قلبي مشعر كمداً ... ولذاك دمعي ليس بالنزرِ
ولذاك نسوتنا حواسر يسـ ... ـتبكين بالإشراق والظهرِ

= والأبيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ٨ و١٠ في تاريخ دمشق: ١٣/ ١٥٢ ونسبت لهند ابنة زيد الأنصارية، كما ورد في بعضها في ١٣/ ١٥٣ معزوة لاخت حجر.

والأبيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ٧ و١٠ في كامل ابن الأثير: ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦ ونهاية الأرب: ٢٠/ ٣٤٠ ـ ٣٤١ منسوبة لهند بنت زيد الأنصارية.

والأبيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ١١ في البداية والنهاية: ٨/ ٥٤ ـ ٥٥ مرددة بين هند الأنصارية أو هند أخت حجر.

والأبيات ١ ـ ٢ و٤ و٧ و١٠ في الدرجات الرفيعة: ٤٢٨ ونسبت لابنة حجر.

(١) تاريخ دمشق: ١٣/ ١٦٢.

ولــذاك رهــطــي كــلــهــم آســفٌ   جــم الــتــأوّه دمــعــه يــجــري[١]

وقالت الكندية ترثي حجراً ـ ويقال: إنها هند ابنة زيد ابن مخرمة الأنصارية المتقدمة الذكر ـ:

دمــوع عــيــنــي دمــيــةٌ تــقــطــرُ   تــبــكــي عــلــى حــجــرٍ ومــا تــفــتــرُ
لــو كــانــت الــقــوس عــلــى أســرهِ   مــا حُــمِّــل الــســيــفَ لــه الأعــورُ[٢]

⊛ ⊛ ⊛

ثم بقي هذا الحدث الشنيع المنكر مدوّياً على مرِّ الأيام، فتصدى رواة الوقائع وكتاب التاريخ إلى جميع أخباره ورواياته وسرد تفاصيله وملابساته في كتب خاصة بذلك، كما فعل المؤرخون الآتية أسماؤهم:

لوط بن يحيى الأزدي الشهير بأبي مخنف؛ المتوفى سنة ١٥٧هـ؛ في كتابٍ سماه «كتاب مقتل حُجرُ بن عَدَي»[٣].

ونصر بن مزاحم المنقري المتوفى سنة ٢١٢ هـ؛ في كتاب سماه «كتاب مقتل حُجرُ بن عَدَي»[٤].

وأحمد بن عبيدالله بن محمد بن عمار الثقفي الكاتب؛ المتوفى سنة ٣١٤ أو ٣١٩ هـ؛ في كتابٍ سماه «كتاب أخبار حُجرُ بن عَدَي»[٥].

ولعل خير ما ننهي به هذا البحث وما انطوى عليه من مآسٍ وفجائع؛ أن نقرأ هذه المقتطفات مما كتبه الأستاذ المؤرّخ المعاصر الدكتور حسين مؤنس وهو يتحدث عن تلك الحقبة الدموية من تاريخ الإسلام، فقال في جملة ما قال:

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٨٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٨٠.
(٣) الفهرست: ١٠٥ ومعجم الأدباء: ١٧/ ٤٢.
(٤) الفهرست: ١٠٦ ومعجم الأدباء: ١٩/ ٢٢٥.
(٥) الفهرست: ١٦٦ ومعجم الأدباء: ٣/ ٢٤٠.

«معاوية بن أبي سفيان عندما تولّى أمرنا كان يعرف أنه يقود أمةً فاتت الله ففاتها الله، فاستخفَّ بنا وقدر أن يحكمنا على هواه، واستعمل جنداً من أجلاف البدو ليسوقونا بالعصا، فأصبحنا عبيد العصا وعبيد الخوف».

«وعندما استقر الأمر لمعاوية أمر خطباءه بأن يَسبوا عليَّ بن أبي طالب (ع) من أعلى المنابر، كأنّ ذلك جزء من العبادات. ويقف في مسجد الكوفة رجل شهم يسمى حُجرُ بن عَدَي ويأمر الخطيب بألّا يسب علي بن أبي طالب (ع)، ويرفض الخطيب فيحصبه الناس بالطوب».

«ويبلغ الأمر معاوية بن أبي سفيان فيأمر المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة بأن يقتل حُجرُ بن عَدَي وأصحابه، والمغيرة كان رجلاً مسنّاً فآثر أن يأخذ الأمر بالرفقِ ويطلب إلى حجر ألاّ يعترض، ولكن حجراً كان رجلاً حراً فيمضي على طيته لا يسمع الخطيب يسب علياً (ع) إلا قام وسبَّ الخطيب... ولكن خلفه عبيدالله بن زياد يأخذ حِجراً وأصحابه ويرسلهم إلى معاوية، ومعاوية يقتل الأحرار... وكان عبيدالله رجلاً جباراً لم يعرف الإسلام إلى قلبه سبيلاً، فهو خادم الدنيا وخادم الشيطان».

ثم ختم الدكتور مؤنس هذه الحلقة من بحثه بقوله:

«كنا نعلم يوم اخترنا عثمان أننا اخترنا بني أمية وفضلناهم على بني هاشم، وعلي بن أبي طالب (ع) كان يعرف أن غالبية قريش لا يحبونه لأنهم رجال سياسة ومطامع ودنيا، وكانوا لا يريدون علياً (ع) لأنه كان سيحملهم على الطريق..».

«وبالفعل، فاتنا الخير كله من ذلك التاريخ»[1].

---

(١) الحلقة الثانية من سلسلة بحوث الدكتور حسين مؤنس المعنونة: (ظلمات بعضها فوق بعض)، مجلة أكتوبر القاهرية/ العدد ٣٣٢/ الأحد ٦ مارس ١٩٨٣م.

ملحق البحث

أصحاب

حُجْر بن عَديّ في ثورته

أ ـ الشهداء.

ب ـ السجناء والمنفيون.

أ

الشهداء

١ ـ شَريك بن شدّاد الحضرمي:

ذكره المؤرخون في جملة الشهداء الذين قُتلوا مع حجر في مرج عذراء[1].

٢ ـ صَيْفيّ بن فَسِيل الشَّيباني:

كان من وجوه أصحاب علي (ع)، وشارك في حروبه ضد الناكثين والقاسطين والمارقين، وروى الطبري بعض مواقفه الدالة على صلابة ولائه وصدق وفائه، ومنها خطابه في النخيلة لما زحف أمير المؤمنين بجيشه لحرب الخوارج، فقال فيما قال: «يا أمير المؤمنين، نحن حزبك وأنصارك، نعادي من عاديتَ، ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسِرْ بنا إلى عدوك مَنْ كانوا وأينما كانوا، فإنك ـ إن شاء الله ـ لن تُؤْتى من قلة عددٍ ولا ضعفِ نفيةِ أتباعٍ»[2].

وقد أرسل ابنُ أبيه هذا المؤمن المجاهد فيمن أرسل إلى معاوية

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٧٧ وسائر المصادر الأخرى التي ذكرناها عند الحديث عن شهادة حجر بن عدي.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٨٠.

من أقطاب شيعة علي (ع)، بعد حديث طويل بين زياد وصيفي تقدم نصه خلال الحديث عن حجر ومقدمات شهادته، فأمر معاوية بقتله، ودُفن مع حجر في مرج عذراء[١].

٣ ـ عبد الرحمن بن حسّان العَنَزيّ:

تقدمت منّا رواية مجابهته العنيفة لمعاوية وكلامه الغليظ له، وأنه بعثه إلى زياد ليعاقبه بالطريقة التي ينفِّس فيها بعض حقده، فأمر زياد بأن يُدفَن حيّاً بقُسِّ الناطف وهو موضع قريب من الكوفة[٢].

ومما يذكر أن حسان بن محدوج ـ أبا عبد الرحمن ـ كان من الشهداء تحت لواء الحق، وقد قتله أتباع الجمل في يوم البصرة[٣].

٤ ـ قبيصة بن ضبيعة العَبْسي:

نسبه الكلبي فقال: قبيصة بن ضبيعة بن حرملة بن عمرو بن عبدالله بن بَجاد[٤]، وهو معدود في الطبقة الأولى من أهل الكوفة، ومن أصحاب علي (ع) المشاركين في حروبه مع أعدائه[٥]، وقد ذكرنا فيما تقدم خبر دخوله على زياد وأمره بسجنه، ثم إرساله إلى معاوية ليأمر بقتله في مرج عذراء[٦].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٧٧ وغيره من المصادر التي سبق ذكرها في شهادة حجر. وله ترجمة خاصة في تاريخ دمشق: ٢٦/١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٦/٢٧٦ ـ ٢٧٧ وبقية المصادر المتقدمة.
(٣) تاريخ دمشق: ٣٦/٢١٠.
(٤) جمهرة النسب: ٤٥٠.
(٥) تاريخ الطبري: ٥/٨٦.
(٦) تاريخ الطبري: ٥/٢٦ و٢٧٧ وتاريخ دمشق: ٥٢/١٧٧ ـ ١٧٩ وبقية المصادر المتقدمة.

٥ ـ كدام بن حيّان العَنَزي:

من تابعي أهل الكوفة، وهو أحد الذين أرسلهم زياد من الكوفة مع حجر بن عدي، فأمر معاوية بقتله فيمن قتل من أصحاب حجر، ودفن معه في مرج عذراء[١].

٦ ـ كريم بن عفيف الخثعمي:

نسبه ابن حزم فقال: كريم بن عفيف بن عبدالله بن كعب بن غَزِيَّة بن مالك بن نصر بن مالك بن عمرو بن عامر بن مَشيب (أو شبيب) بن شباب بن مالك بن دعران بن محارب بن عمران بن شهران، من بني خثعم بن أنمار[٢].

ونصَّ ابن دريد وابن حزم على كونه ممن استشهد مع حجر بن عدي في مرج عذراء[٣]، ولكن ابن عساكر ذكر أنه لم يقتل لأن شمر بن عبدالله القحافي كان قد كلَّم معاوية فيه فوهبه له، غير أنه حبسه مدة ثم أطلقه، فسكن الموصل ومات بها قبل معاوية بشهر»[٤].

٧ ـ كعب بن الأسلع بن عمرو:

من بني يَحَابر، وقد انفرد ابن دريد بذكره في الشهداء الذين قتلوا مع حجر بن عدي[٥].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧١ و٢٧٧ وتاريخ دمشق: ٥٣/ ٨٦.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٣٩١.
(٣) الاشتقاق: ٥٢٣ وجمهرة أنساب العرب: ٣٩١.
(٤) تاريخ دمشق: ٥٣/ ٩٧. وذكر الطبري في تاريخه: ٥/ ٢٧١ عن كريم أنه كان ممن أرسل مع حجر ورفاقه إلى الشام، ولكنه نجا من الموت كما نص على ذلك في التاريخ: ٥/ ٢٧٧.
(٥) الاشتقاق: ٤١٢.

٨ ـ مُحْرِز بن شهاب السَّعْدي التميمي المِنْقري:

نسبه الكلبي فقال: محرز بن شهاب بن محرز بن سُمَيّ بن سنان، وعند الطبري: محرز بن شهاب بن بجير بن سفيان بن خالد بن منقر التميمي، وعند ابن عساكر: محرز بن شهاب بن محرز ـ ويقال مُحَيْريز ـ بن سفيان بن خالد بن سفر المنقري التميمي[(١)].

وكان محرز هذا من أصحاب أمير المؤمنين المخلصين، ويروي الطبري: أن علياً (ع) لما خطب أصحابه ـ وهو بالنخيلة ـ حاثاً جنده على الجدِّ في قتال الخوارج المارقين من الدين «قام إليه محرز بن شهاب التميمي من بني سعد فقال:

«يا أمير المؤمنين، شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك والجدِّ في جهاد عدوك، فأبشر بالنصر، وسر بنا إلى أي الفريقين أحببتَ، فإنّا شعيتك الذين نرجو في طاعتِك وجهاد مَنْ خالفك صالحَ الثواب، ونخاف في خذلانك والتخلّفِ عنك شدةَ الوبالِ»[(٢)].

ولما بعث زياد بن سمية حجراً وكبار أصحابه أسرى إلى معاوية ابن هند كان محرز منهم، فأمر معاوية بقتله في جملة من قتل من هؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر[(٣)].

٩ ـ هَمّان بن حُجْر بن عَديّ:

ذكر الشيخ محمد بن مكي الجزّيني العاملي المعروف بالشهيد الأول، المتوفى سنة ٧٨٦ هـ: أن من جملة الشهداء الذين قتلهم معاوية

---

(١) جمهرة النسب: ٢٣٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٩٦ وتاريخ دمشق: ٦٠/ ٨٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٨٠ ـ ٨١.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧١ و٢٧٧.

بعذراء دمشق: همام بن حجر بن عدي الكندي، ونصَّ على أنهم «كلهم في ضريح واحد في جامع عذراء»، وروى أن خادم ذلك الضريح أنشده هذه الأبيات في رثائهم:

جماعةُ بثرى عذراء قد دُفِنوا وهم صحابٌ لهم فضل وإعظامُ
حجرٌ قبيصةُ صيفيٌّ شريكهم ومحرز ثم هَمّام وكدّام
عليهم ألف رضوانٍ ومكرمةٍ تترى تدوم عليهم كلما داموا

«قال محمد بن مكي: فزدتُ بيتاً:

ومثلها لعناتٌ للألى سفكوا دماءهم وعذابٌ بالذي استاموا»[1]

(١) الدرجات الرفيعة: ٤٢٨.

ب

السجناء والمنفيّون

١ ـ الأرقم بن عبدالله الكندي:

كان أحد الرجال الذين سجنهم زياد مع حجرٍ في الكوفة، ثم بعث بهم إلى مرج عذراء بدمشق، فشفع فيه وائل بن حجر عند معاوية فأطلق سراحه[١].

٢ ـ سعد بن نمران الهَمْداني الناعطي:

كان ممن بعث به زياد إثر حجر بن عدي فسُجِن بمرج عذراء، ثم شفع فيه حمرة (أو حمزة) بن مالكَ الهمداني لدى معاوية فوهبه له[٢].

٣ ـ عاصم بن عوف (أو عمرو) البجلي:

بعث به زياد إلى مرج عذراء في جملة أصحاب حجر، فشفع فيه جرير بن عبدالله ويزيد بن أسد البجليان عند معاوية فأطلقه[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧١ و٢٧٤ وتاريخ دمشق: ٨/ ١٥ و٢٧/ ٢٠٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٢ و٢٧٤ وتاريخ دمشق: ٢٢/ ٢٧٨ و٢٧/ ٢٠٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧١ و٢٧٤ وتاريخ دمشق: ٢٧/ ١٩٧ و٢٠٠.

٤ ـ عبدالله بن جويَّة (أو حوية) السعدي التميمي:

كان من جملة من سجنهم زياد في الكوفة ثم أرسلهم إلى مرج عذراء، فشفع فيه حبيب بن مسلمة عند معاوية فخلى سبيله[١].

٥ ـ عبدالله بن خليفة الطائي:

أوردنا خبره بالتفصيل فيما تقدم ذكره من أفاعيل زياد في الكوفة بحجر بن عدي وأصحابه، وما انتهى إليه أمره من نفيه إلى الجَبَلَيْن، ووعْد عدي بن حاتم شيخ الطائيين بإرجاعه إلى الكوفة عندما يسكن غضب زياد، فخرج إلى هناك بأمل العودة فطال عليه الأمد، فجعل يكتب إلى عدي مطالباً منه الوفاء بوعده، وجعل عدي يمنّيه، فانفجر فيه بركان الألم ذات يوم، فنظم هذه القصيدة العصماء المؤثرة معاتباً فيها عدياً وراثياً صاحبه حجراً:

تذكَّرتُ ليلى والشبيبة أعصُرا
وذكرُ الصِّبا بَرْحٌ على مَنْ تذكَّرا
وولّى الشباب فافتقدتُ غضونه
فيالك من وجدٍ به حين أدبرا
فدع عنك تذكار الشباب وفقده
وآثاره إذْ بان منك فأقصرا
وبكِّ على الخُلاّن لما تُخُرِّموا
ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا
دَعَتْهم مناياهم، ومن حان يومُهُ
من الناس فاعلم أنه لن يؤخَّرا

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧١ و٢٧٤ وتاريخ دمشق: ٨/ ١٥ و١٩ و٢٩/ ٢١٢.

أولـئـك كـانـوا شـيـعـة لـي ومـوئـلاً
إذا الـيـوم أُلْـفـي ذا احـتـدامِ مـذكَّـرا
ومـا كـنـتُ أهـوى بـعـدهـم مُـتَـعَـلِّـلاً
بـشـيء مـن الـدنـيـا ولا أن أُعـمَّـرا
أقـول ـ ولا والله أنـسـى ادكـارهـم
سـجـيـس الـلـيـالـي أو أمـوت فـأُقْـبَـرا ـ:
عـلـى أهـل عـذراء الـسـلام مـضـاعـفـاً
مـن الله ولْـتُـسْـقَ الـغـمـام الـكـنـهـورا
ولاقـى بـهـا حـجـرٌ مـن الله رحـمـةً
فـقـد كـان أرضـى الله حـجـرٌ وأعـذرا
ولا زال تـهـطـال مُـلِـثٌ وديـمـةٌ
عـى قـبـر حـجـرٍ أو يُـنَـادَى فـيُـحْـشَـرا
فـيـا حـجـر مَـنْ لـلـخـيـل تَـدمَـى نـحـورُهـا
ولـلـمَـلـكِ الـمُـغـزي إذا مـا تـغـشـمـرا
ومَـنْ صـادع بـالـحـق بـعـدك نـاطـق
بـتـقـوى ومَـنْ إن قـيـل بـالـجـور غَـيَّـرا
فـنِـعْـمَ أخـو الإسـلام كـنـتَ وإنـنـي
لأطـمـعُ أن تُـؤتـى الـخـلـود وتُـحـبَـرا
وقد كنتَ تُعطي السيفَ في الحرب حقَّه
وتـعـرف مـعـروفـاً وتـنـكـر مـنـكـرا
فـيـا أخَـوَيْـنـا مـن هُـمَـيْـم عُـصـمِـتُـمـا
ويُـسِّـرْتُـمـا لـلـصـالـحـات فـأبـشـرا
ويـا أخَـويَّ الـخِـنْـدِفـيَّـيْـن أبـشـرا
فـقـد كـنـتـمـا حُـيِّـيْـتُـمـا أن تُـبَـشّـرا

ويا أخوتا من حضرموت وغالب
وشيبان لُقِّيتُم حساباً ميسَّرا
سعدتم فلم أسمع بأصوبَ منكم
حِجاجاً لدى الموت الجليل وأصبرا
سأبكيكمُ ما لاح نجمٌ وغَرّد الـ
حمامُ ببطن الوادِيَيْن وقرقرا
فقلتُ ولم أظلمْ: أغوْث بن طيِّيء
متى كُنتُ أخشى بينكم أن أُسَيَّرا
هبلتم ألا قاتلتم عن أخيكم
وقد ذبَّ حتى مال ثم تجوَّرا
ففرَّجتم عني فغودرتُ مُسْلَماً
كأني غريب في إيادٍ وأعصُرا
فمن لكم مثلي لدى كل غارة
ومَنْ لكم مثلي إذا البأس أصحرا
ومن لكم مثلي إذا الحرب قلَّصت
وأوضَعَ فيها المستميتُ وشمَّرا
فها أنا ذا آوي بأجبال طيِّيءٍ
طريداً ولو شاء الإله لغيَّرا
نفاني عدوي ظالماً عن مهاجري
رضيتُ بما شاء الإله وقدَّرا
وأسلمني قومي لغير جنايةِ
كأن لم يكونوا لي قبيلاً ومعشرا
فإنْ أُلْفَ في دار بأجبال طيِّيءٍ
وكانَ مَعاناً من عُصَيْرٍ ومحضرا

فما كنتُ أخشى أن أرَى مُتَغَرِّباً
لحا الله مَنْ لاحَى عليه وكثَّرا
لحا الله قتل الحضرميين وائلاً
ولاقى القنانيَّ السنان الموفَّرا
ولاقى الردى القوم الذين تحزبوا
علينا وقالوا قول زورٍ ومنكرا
فلا يدعُني قومٌ لغوث بن طيءٍ
لأنْ دهرهم أشقى بهم وتغَّيرا
فلم أغزُهم في المُعلَمين ولم أثِرْ
عليهم عجاجاً بالكويفة أكدرا
فبلِّغْ خليلي إنْ رحلتَ مشرِّقاً
جَديلة والحَيَّيْن مَعْناً وبُحترا
ونبهانَ والأفناءَ من جِذم طيىء
ألم أكُ فيكم ذا الغناء العشنزرا
لم تذكروا يوم العُذَيب ألِيَّتي
أمامكم ألاَّ أرَى الدهرَ مُدْبِرا
وكرّي على مهران والجمع حاسرٌ
وقتلي الهمامَ المستميتَ المُسَوَّرا
ويوم جلولاء الوقيعة لم أَلَمْ
ويوم نهاوند الفتوح وتُسْتَرا
وتنسونني يوم الشريعة والقنا
بصفين في أكتافهم قد تكسَّرا
جزى ربُّه عني عديَّ بن حاتم
برفضي وخذلاني جزاء موفَّرا

أتنسى بلائي سادراً يا ابن حاتمٍ
عشية ما أغنتْ عديُّك حزمرا
فدافعتُ عنك القوم حتى تخاذلوا
وكنتُ أنا الخصم الألدَّ العذوَّرا
فولَّوا وما قاموا مقامي كأنما
رأونيَ ليثاً بالأباءة مُخْدِرا
نصرتُك إذ خام القريبُ وأبعط الـ
بعيدُ وقد أُفردتَ نصراً مؤزَّرا
فكان جزائي أن أُجَرَّد بينكم
سجيناً وأن أُوْلى الهوان وأُوسَرا
وكم عِدَةٍ لي منك إنك راجعي
فلم تُغْنِ بالميعاد عنيَ حبترا
فأصبحتُ أرى النِّيبَ طوراً وتارة
أهرهِرُ إن راعي الشويهات هرهرا
كأني لم أركب جواداً لغارة
ولم أترك القِرْن الكميَّ مقطَّرا
ولم أعترض بالسيف خيلاً مغيرةً
إذا النكس مشّى القهقرى ثم جرجرا
ولم أستحثّ اركض في إثر عصبةٍ
مُيَمِّمة عليا سِجاسَ وأبهرا
ولم أذعر الأبلام مني بغارة
كَوردِ القطا ثم انحدرتُ مظفَّرا
ولم أرَ في خيلٍ تطاعن بالقنا
بقزوين أو شروين أو أغْزُ كُنْدُرا

فـــذلـــك دهـــر زال عـــنـــي حـــمـــيـــدُه
وأصـــبـــح لـــي مـــعـــروفُـــه قـــد تـــنـــكـــرا
فـلا يـبـعـدنْ قـومـي وإن كـنـتُ غـائـبـاً
وكـنـت الـمُـضـاعَ فـيـهـم والـمـكـفَّـرا
لا خـيـر فـي الـدنـيـا ولا الـعـيـش بـعـدهـم
وإن كـنـتُ عـنـهـم نـائـيَ الـدار مُـحْـصَـرا

ومات عبدالله بالجَبَلَيْن قبل موت زياد[١].

❀ ❀ ❀

٦ ـ عتبة بن الأخنس:

كان من جملة من سجنهم زياد بن أبيه بالكوفة مع حجر ثم بعث بهم إلى سيده في دمشق فسُجنوا في مرج عذراء، فشفع فيه أبو الأعور السلمي إلى معاوية فأطلقه[٢].

---

(١) ورد تفصيل موقف عبدالله بن خليفة من زياد بن سمية وما أدى إليه ذلك من نفيه إلى الجبلين ثم نصُّ قصيدته بطولها في تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨ و٢٨١ ـ ٢٨٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

كما وردت الأبيات ١ و٨ ـ ١٠ و١٢ و١٤ معزوة لابن خليفة في رثاء حجر بن عدي في التعازي والمراثي للمبرد: ٣٠٣ ـ ٣٠٤، والبيت ١٣ بلا عزو في رثاء حجر في الزاهر: ٢/ ٣٤٥، والبيتان ١٢ و١٣ بلا عزو أيضاً في أضداد الأنباري، ٣٧٩ ونص على أنهما في رثاء حجر، والأبيات ٨ ـ ١٠ و١٢ بلا عزو في الحماسة الشجرية: ب/ ٣٢٠، والأبيات ٨ ـ ١٠ و١٢ ـ ١٥ لعبدالله أيضاً في رثاء حجر «من قصيدة طويلة» في تاريخ دمشق: ١٣/ ١٦١ ـ ١٦٢. والأبيات ٤٩ ـ ٥١ لعبدالله في معجم البلدان: ٥/ ٣٦ ـ ٣٧، والأبيات ٤٢ ـ ٤٧ لعبدالله نفسه في كامل ابن الأثير: ٣/ ١٤٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٢ و٢٧٤ وتاريخ دمشق: ٤٠/ ١٦٧.

٧ ـ ورقاء بن سُمَيّ البجلي:

سجنه زياد في الكوفة مع حجر وأصحابه، ثم بعث بهم إلى مرج عذراء بدمشق، فشفع فيه جرير بن عبدالله ويزيد بن أسد البجليان فأطلقه[١].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧١ و٢٧٤ وتاريخ دمشق: ٨/ ١٥ و١٩ و٦٦/ ٤٤.

[٢٧]

عُثمان بن حُنيف

عثمان بن حنيف

عثمان بن حُنَيْف بن واهِب بن العُكَيْم بن ثَعلبة بن مَجْدَعة بن الحارث بن عمرو ـ وهو بَحْزَج ـ بن حَنَش بن عَوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو ـ مُزَيقياء ـ بن عامر ـ ماء السماء ـ بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزْد[1]: صحابي معروف ومجاهد مغوار.

وأُمُّه: الصحابية الجليلة هند بنت رافع بن عُمَيْس بن معاوية بن أمية بن زيد بن قيس بن عامرة بن مُرَّة بن مالك بن الأوس؛ من الجَعَادِرة[2]. وقيل: هي بنت رافع بن قيس بن معاوية بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس[3]. ووصفها الذهبي فقال: إنها «من جِلَّة الأنصار»[4].

---

(١) جمهرة النسب: ٦٣٠ وطبقات خليفة: ١/ ٣٠٤ والاستيعاب: ٣/ ٨٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٩ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٦ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٣٩.

(٣) طبقات خليفة: ١/ ١٩٦ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٩.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٠.

وذكر المؤرخون في كنيته أنه اشتهر بـ«أبو عمرو»[(١)]، وقيل: «أبو عبدالله»[(٢)] أيضاً.

وكان له عدد من الأخوة الأجلاّء المجاهدين في سبيل الله وفي مقدمتهم الصحابي البدري الصادق الإيمان سهل بن حنيف المتوفى سنة ٣٨ هـ، وقد تقدَّم منّا بحث في سيرته في حلقة سابقة من هذه السلسلة تحمل الرقم (٢٣)، وهي مطبوعة في سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م وموجودة في متن هذا المجلد ص: ١٩٧ ـ ٣٢٢.

كما كان من أخوته لأمه وأبيه الصحابيُّ المقدام عبّاد بن حنيف أحد شهود بدر تحت لواء النبوة[(٣)].

وجاء في المصادر المعنيَّة بأخبار السيرة والصحابة أنه وُلد في المدينة المنورة في حيٍّ قومه في قُبَاء[(٤)]، ولكنّا لم نقف على تاريخ ولادته ولا على تحديد عمره أيام البعثة أو الهجرة الشريفة. ونشأ عثمان في تلك الأجواء والأرجاء كما ينشأ لداته وأترابه، حتى بلغ سنَّ الرجولة وعمر الزواج فاقترن برفيقة مسيرته الجهادية الحافلة بالمتاعب والمصاعب. ورُزِق منها أولاده الأربعة:

١ ـ عبدالله.

٢ ـ حارثة.

٣ ـ البَرَاء.

٤ ـ محمد[(٥)].

---

(١) طبقات خليفة: ١/١٩٦ والاستيعاب: ٣/٨٩ وأسد الغابة ٣/٣٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/٢٠٦.

(٢) الاستيعاب: ٣/٨٩ وتاريخ بغداد: ١/١٧٩ وأسد الغابة: ٣/٣٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/٢٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٢.

(٣) جمهرة النسب: ٦٣٠ والاشتقاق: ٤٤٢ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٦ والإصابة: ٢/٢٥٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٣٩.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٠.

ولما بعث الله تعالى رسوله محمداً (ص) بكلمة التوحيد ونداء الحق؛ ودوَّت صيحة الإسلام في جزيرة العرب حتى شملت أرجاء يثرب، أقبل عليها مَنْ أقبل ممن آتاه الله بُعْدَ النظر وسلامة الفكر وعمق الوعي، وكان صاحبنا عثمان بن حنيف أحد أولئك الواعين المبادرين الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان فأسلم فيمن أسلم من بني قومه، فكانت له على مرِّ تلك السنين من العهد النبوي الزاهر «صحبة فاضلة»[1] مشهودة، بل أصبح معدوداً «من فضلاء الصحابة» بنص الذهبي[2]، وأسنَد له المحدثون بعض الروايات والأحاديث عن النبي (ص)[3].

ثم تمت الهجرة النبوية الشريعة إلى المدينة المنورة فاحتضن الأوسُ والخزرجُ رسول الله (ص) خير الاحتضان، وأحاطوه برعايتهم وحمايتهم ومفاداته بأموالهم وأرواحهم مهما كانت الشدائد والأخطار.

وسرعان ما أحسَّت قريش بالخطر الداهم الذي يهدِّد مجدها الوثني الجاهلي بعد نجاح الهجرة المباركة وبدء النبي بوضع اللمسات الأولى لإقامة صرح دولة العدل في مستقر الهجرة الجديد، فتجمعوا من كل

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٣٣٦.

(٢) التاريخ الكبير: ١/ ٨١.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٥٦٩ ومسند أحمد: ٤/ ١٣٨ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٩ والبداية والنهاية: ٨/ ٨١.

حدب وصوب لمهاجمة هذا الكيان الوليد، قبل أن يشتد ساعده وتنتشر أضواؤه في جميع جنبات الجزيرة العربية، وأعدوا لهذا العدوان كل ما أمكنهم إعداده من رجال ومال وسلاح. ثم كان الالتحام بين الطرفين في تلك المعركة العظيمة الفاصلة من معارك الإسلام ـ وهي التي عرفت في التاريخ باسم (معركة بدر الكبرى) ـ، وقد نصر الله بها عبده ذلك النصر المبين، وأرجع أتباع الشيطان يجرون أذيال الهزيمة والخذلان.

وكان عثمان بن حنيف أحد الذين أسهموا في هذه الحرب بعزيمة وبسالة وإخلاص، فنال بتلك المشاركة شرف الدنيا والدين؛ ودخل بفضلها في عداد أولئك الذين باركهم الله تعالى في محكم كتابه المجيد وأثنى عليهم النبي (ص) في متواتر حديثه الشريف[1].

ثم شهد بعد ذلك أُحداً وما تلاها من المشاهد والمعارك النبوية؛ ضد الشرك والوثنية وظلام الجاهلية، فكانت له في جميع تلك المواقف صولات وجولات[2].

---

(١) روى الحافظ ابن حجر العسقلاني خبر حضور عثمان بدراً في الإصابة: ٢/ ٤٥٢.

(٢) يراجع في حضوره المشاهد النبوية: المحبر: ٢٩٠ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٩ وأسد الغابة: ٣/ ٣٧١ والإصابة: ٢/ ٤٥٢.

وفي السنة الحادية عشرة من الهجرة اختار الله تعالى لجواره نبيه الحبيب ورسوله الخاتم، ففقدت السفينة ربانها، وانقطعت صلة الأرض بوحي السماء، وتفجرت براكين الفتن من مكامنها، فحدث الانقلاب على الأعقاب كما وعد ربُّ العزة في محكم كتابه وفصل خطابه، وكان ما كان...

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب، وبدأ النظر في أمر مساحة الأرضين وجبايتها وضرْبِ الخراج والجزية على أهلها، «استشار الصحابة في رجل يوجِّهه إلى العراق، فأجمعوا جميعاً على عثمان بن حنيف وقالوا: إنْ تبعثه على أهمّ من ذلك فإن له بصراً وعقلاً ومعرفة وتجربة. فأسرع عمر إليه فولاّه مساحة أرض العراق»[1]، «فمسح الكور والطساسيج بالجانب الغربي من دجلة، فكان أولها كورة فيروز وهي طسوج الأنبار وكان أول السواد شرباً من الفرات. ثم طسوج مسكن وهو أول حدود السواد في الجانب الغربي من دجلة وشربُه من دجيل. ويتلوه طسوج قطربل وشربه أيضاً من دجيل. ثم طسوج بادوريا وهو طسوج مدينة السلام وكان أجل طساسيج السواد جميعاً»[2].

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٩٠.

(٢) تاريخ بغداد: ١/ ١٧٩.

وجاء في روايات المؤرخين: إن عمر بن الخطاب بعث عمار بن ياسر أميراً على أهل الكوفة، وعبدالله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم؛ وعثمان بن حنيف على مساحة الأرض.. فمسح عثمان بن حنيف الأرض، فجعل على جريب النخل عشرة دراهم؛ وعلى جريب الكرم عشرة دراهم، وعلى جريب القصب ستة دراهم؛ وعلى جريب البُرّ أربعة دراهم؛ وعلى جريب الشعير درهمين. وكتب بذلك إلى عمر فأجازه[1].

وفي نصّ آخر: إن الخليفة عمر بعث حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة، وبعث عثمان بن حنيف على ما دون دجلة، فوضعا على كل جريب قفيزاً ودرهماً[2].

ونقل لنا الذهبي بعض التفاصيل مما عمل عثمان في مهمته هذه فقال:

«إن عمر وجَّه عثمان بن حنيف على خراج السواد، ورِزقُ كل يوم ربع شاة وخمسة دراهم، وأمره أن يمسح السواد عامره وغامره، ولا يمسح سبخة ولا تَلاً ولا أجمة ولا مستنقع ماء. فمسح كل شيء دون جبل حلوان إلى أرض العرب وهو أسفل الفرات، وكتب إلى عمر: إني وجدتُ كل شيء بلغه الماء غامراً وعامراً ستة وثلاثين ألف جريب»[3].

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ خليفة: ١/١٤٦ وفتوح البلدان: ٢٦٩ وتاريخ الطبري: ٤/١٣٩ و١٤٤ و١٤٥، ومختصر منه في طبقات ابن سعد: ٦/٣.
(٢) فتوح البلدان: ٢٦٩.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٠ ـ ٣٢١.

ويستفاد من بعض النصوص التاريخية أن عثمان بن حنيف كان قد شارك في معارك فتح العراق[١]، وربما يمكن افتراض تاريخ تكليفه من قبل الخليفة بمهام المسح وفرض الخراج تالياً لتاريخ عودته من حروب الفتح إلى المدينة المنورة، فعاد إلى العراق مرة أخرى للقيام بمسؤولياته الجديدة التي نفذها على أفضل الوجوه[٢] قبل أن يستأنف حياته المعتادة في المدينة حيث أهله ومستقره.

❀ ❀ ❀

ثم تنقطع عنا أخبار ابن حنيف بعد رجوعه إلى المدينة إثر فراغه من مهماته الجهادية، فلم نقف له على ذكر إلا بعد مقتل عثمان بن عفان وانثيال المسلمين على علي (ع) يريدون بيعته على السمع والطاعة.

وكان في مقدمة أولئك المتحمسين للبيعة والمبادرين إليها من بقايا البدريين ولباب الصحابة المنتجبين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، صاحبنا عثمان بن حنيف ـ وهو المسلم الأمين على الرسالة ونهج العقيدة ـ، فقد جاء معدوداً في جملة تلك الطلائع المتسابقة إلى البيعة[٣]؛ فرحاً بعودة الحق لأهله واستبشاراً ببدء الأمة الإسلامية مسيرتها المنتظرة؛ عملاً بكتاب الله تعالى واتباعاً لسنة رسوله الأعظم (ص) وسيراً وراء قائدها المكرَّم بنص السماء والمعيَّن بانتخاب الأمة.

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٧٩.

(٢) يراجع في تفاصيل تلك المسؤوليات: المحبر: ٢٩٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٨٢ و٦/ ٣ وأنساب الأشراف: ١/ ١٦٣ وتاريخ خليفة: ١/ ١٤٦ وأسد الغابة: ٣/ ٣٧١ والإصابة: ٢/ ٤٥٢.

(٣) الجمل: ٥١.

ولما بدأ علي (ع) عمله في إعادة بناء الدولة وإصلاح جهازها الإداري العامل في الحواضر والأقاليم الإسلامية اختار عثمان بن حنيف عاملاً له على البصرة(١).

وسار عثمان إلى البصرة ليحل محل واليها السابق عبد الله بن عامر، فدخلها وتسلم أمر ولايتها من دون مشاكسة أو إنكار من ذلك الوالي.

«وافترق الناس بها، فاتَّبعتْ فرقةٌ القوم، ودخلت فرقة في الجماعة، وفرقة قالت: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا»(٢).

وكان عليّ (ع) على الرغم من ثقته الكبرى بابن حنيف ـ دائم المراقبة والاستطلاع لأعماله وتصرفاته كما هو ديدنه مع باقي ولاته، فيكاتبهم موجِّهاً ومنبهاً على الصغيرة والكبيرة مما يرتبط بشؤون الناس عامة أو يمس سلوكهم الذاتي على وجه الخصوص.

وروى الرواة ـ مثالاً على هذه المراقبة والمتابعة ـ إن علياً (ع) بلغه ذات يوم حضور واليه عثمان وليمةً دعاه إليها أحد وجهاء البصرة، فكتب إليه كتاباً جاء فيه:

«أما بعد يا ابن حنيف: فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة

---

(١) المحبر: ٢٩٠ وتاريخ خليفة: ١/ ٢٣٢ وطبقات خليفة: ١/ ٤٥٠ وجمهرة النسب: ٦٣٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٢ وطبقات ابن سعد: ٥/ ٣٤ ووقعة صفين: ١٥ وجمهرة أنساب العرب ٣٣٦ والاستيعاب: ٣/ ٨٩ وأسد الغابة: ٣/ ٣٧١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٠٣ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٢ والإصابة: ٢/ ٤٥٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٢.

دعاك إلى مأدبةٍ فأسرعتَ إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعامِ قومٍ عائلُهم مجفوٌّ وغنيُّهم مدعوّ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمُه فالْفِظُه، وما أيقنتَ بطيب وجهه فنَلْ منه».

«ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه؛ ومن طعامه بقرصيه. ألاوانكم لا تقدرون على ذلك، ولكنْ أعينوني بورع واجتهاد؛ وعفة وسداد، فوالله ما كنزتُ من دنياكم تبرا، ولا ادَّخرتْ من غنائمها وفرا، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طمرا، ولا حزتُ من أرضها شبرا»[١].

وما إن بدأت مسيرة الخلافة الراشدة خطواتها الأولى نحو الإصلاح بقيادة أول المسلمين والإمام المنصوص عليه من رسول رب العالمين، حتى تحركت الأحقاد الكامنة والمطامع المستكلبة لتتجمع في موكب بائس يقوده طلحة والزبير تحت شعار الطلب بثأر عثمان بن عفان، وجعلا السيدة عائشة على رأس هذا الجمع ليثيرا بذلك عواطف السذج من الناس، واختارا الجمل الذي ركبته أمُّ المؤمنين شعاراً ورمزاً لهذا الركب المسكين المضلَّل. وتوجَّه الجميع بقضهم وقضيضهم من المدينة المنورة إلى البصرة بأمل تحقيق أهدافهم المبطَّنة اللئيمة.

وروى الرواة: إن عائشة لما خرجت مع طلحة والزبير وأتباعهما تريد البصرة «طرقت ماء الحوأب.. فنبحتهم الكلاب، فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها!. فلما سمعت عائشة ذكر الحوأب قالت: أهذا ماء الحوأب؟ قالوا: نعم، فقالت: ردُّوني ردوني. فسألوها: ما شأنها وما بدا لها؟، فقالت: إني سمعتُ

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٥.

رسول الله (ص) يقول: كأني بكلاب ماء يُدْعى الحوأب قد نبحتْ بعضَ نسائي، ثم قال لي: إياك يا حميراء أن تكونيها. فقال لها الزبير: مهلاً يرحمكِ الله فَانَا قد جُزْنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة. فقالت: أعندك مَنْ يشهد بأن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟. فلفَّق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً جعلا لهم جُعلاً فحلفوا لها وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوب. فكانت هذه أول شهادة زورٍ في الإسلام!»[1].

ثم سارت عائشة لوجهها حتى انتهى الركب إلى موضع قريب من البصرة، فكتب طلحة والزبير «إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ـ وهو عامل علي (ع) على البصرة ـ أن أخْلِ لنا دارَ الإمارة».

«فلما وصل كتابهما إليه بعث إلى الأحنف بن قيس فقال له: إن هؤلاء القوم قدموا علينا ومعهم زوجة رسول الله، والناس إليها سراع، فما ترى؟. فقال الأحنف: إنهم جاؤوك بها للطلب بدم عثمان، وهم الذين ألَّبوا على عثمان الناس وسفكوا دمه، وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلْقوا العداوة بيننا ويسفكوا دماءنا، وأظنهم والله سيركبون منك خاصةً ما لا قبل لك به؛ إن لم تتأهل لهم بالنهوض إليهم فيمن معك من أهل البصرة، فإنك اليوم الوالي عليهم، وأنت فيهم مطاع، فسر إليهم بالناس وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة فيكون الناس لهم أطوع منهم لك».

«فقال عثمان بن حنيف: الرأي ما رأيت، ولكنني أكره الشرَّ وأن أبدأهم به، وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به».

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٠ ـ ٣١١، ومختصر منه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

«ثم أتاه بعد الأحنف حكيمُ بن جبلة العبدي فأقرأه كتاب طلحة والزبير، فقال له مثل قول الأحنف، وإجابة عثمان بمثل جوابه للأحنف».

«وكتب عليٌّ إلى عثمان لما بلغه مشارفَةُ القوم البصرة: من عبدالله عليّ أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف، أما بعد: فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا وتوجهوا إلى مصرك، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به والله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً. فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإن أجابوا فأحُسنْ جوارهم ما داموا عندك، وإن أبوا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين»[1].

فلما وصل كتاب علي (ع) إلى ابن حنيف أرسل إلى أبي الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي؛ فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم وما الذي أقدمهم. فانطلقا حتى أتيا معسكر البغاة فكلّما عائشة ثم كلما طلحة والزبير، ثم «مضى الرجلان حتى دخلا على عثمان بن حنيف، فبدر أبو الأسود قائلاً:

يا ابن حنيفٍ قد أتيتَ فانفِرِ وطاعن القومَ وجالدْ واصبِرِ
وأبرز لهم مستلئماً وشَمِّرِ

«فقال عثمان: إنا لله وإنا إليه راجعون، دارتْ رحى الإسلام وربِّ الكعبة؛ فانظروا بأي زيفان تزيف.. أشرْ عليَّ يا عمران، قال: إني قاعد فاقعد. فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين».

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٠ ـ ٣١٣.

«وقام عثمان في أمره... ونادى في الناس وأمرهم بالتهيُّؤ، ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع»[١].

وفي لفظ أبي مخنف في روايته: إن أبا الأسود «جاء حتى دخل على عائشة فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان!. قال: إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد. قالت: صدقت، ولكنهم مع علي بن أبي طالب (ع) بالمدينة، وجئتُ استنهض أهل البصرة لقتاله، أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟!. فقال لها: ما أنتِ من السوط والسيف، إنما أنت حبيس رسول الله (ص)، أمركِ أن تقرّي في بيتك وتتلي كتاب ربك، وليس على النساء قتال؛ ولا لهن الطلب بالدماء، وإن علياً (ع) لأولى بعثمان منك، فقالت: لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمتُ له، أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي؟. قال: أما والله لتقاتلنَّ قتالاً أهونه الشديد».

ثم قام أبو الأسود «فأتى الزبير فقال: يا أبا عبدالله؛ عهدُ الناس بك وأنت يوم بُويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك تقول: لا أحد أولْى بهذا الأمر من ابن أبي طالب (ع)، وأين هذا المقام من ذلك؟!». فذكر له الزبيرُ دم عثمان. فقال له أبو الأسود: «أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا»، فقال الزبير: «فانطلق إلى طلحة فاسمع ما يقول»، «فذهب إلى طلحة فوجده سادراً في غيِّه؛ مصّراً على الحرب والفتنة»، فرجع أبو الأسود إلى عثمان بن حنيف «فقال: إنها الحرب فتأهب لها»[٢].

وأثر عن أبي الأسود على أثر ذلك قوله:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦١ ـ ٤٧٣، وقريب منه في أنساب الأشراف: ٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٠٨.

(٢) الجمل: ١٤٧ ـ ١٤٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٢٦.

أتينا الزبير فداني الكلام ... وطلحة كالنجم أو أبْعَدُ
وأحسنُ قوليْهما فادحٌ ... يضيق به الخطب مستنكدُ
وقد أوعدونا بجهد الوعيد ... فأهونْ علينا بما أوعدوا
فقلنا: ركضتم ولم تُرْملوا ... وأصدرتم قبل أن توردوا
فإنْ تُلْقِحوا الحرب بين الرجال ... فمُلْقِحها جدُّه الأنكدُ
وأن علياً لكم مصحِرٌ ... ألا أنه الأسد الأسودُ
أمَا إنه ثالث العابدين ... بمكة واللهُ لا يُعْبَدُ
فرخُّوا الخناق ولا تعجلوا ... فإن غداً لكُمُ موعدُ[1]

كما أُثر عن الزبير في ذلك اليوم قوله لمولاه: «إن هذه هي الفتنة التي كُنّا نُحدَّث عنها. فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟!. قال: ويحك! إنّا نُبَصَّر ولا نُبْصِر، ما كان أمر قط إلا علمتُ موضع قدمي فيه غير هذا الأمر فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر!».

وكذلك أُثِر عن طلحة قوله لعلقمة بن وقاص يومذاك: «بينا نحن يدٌ واحدة على مَنْ سوانا، إذ صرنا جبلَيْن من حديد يطلب بعضنا بعضاً، إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يُسْفَك دمي في طلب دمه»[2].

❀ ❀ ❀

وعزم عثمان بن حنيف على معرفة هوى الناس، «فأمرهم بالتهيؤ، وأمر رجلاً ودسّه إلى الناس خَدِعاً كوفياً قيسياً، فقام فقال: يا أيها الناس؛ أنا قيس بن العَقَدية الحُمَيْسي، إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إنْ

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٤، ويراجع في أبيات أبي أسود ديوانه.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧٦.

كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقَتَلة عثمان، أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤوا». وقام آخر فقال ما يشبه ذلك، فهاج الناس، فعرف ابنُ حنيف أن لهم بالبصرة ناصراً[1].

وبعثت عائشة وطلحة والزبير إلى الأحنف بن قيس، «فدعوه وقالوا: إننا نريد منك أن تنصرنا على دم عثمان بن عفان فإنه قُتِل مظلوماً. فالتفت الأحنف إلى عائشة وقال: يا أم المؤمنين؛ أنشدكِ الله، أما قلتِ لي ذلك اليوم إن قتل عثمان فمن أُبايع؟، قلت: علي بن أبي طالب (ع)».

«قالت عائشة: قد كان ذلك يا أحنف، ولكن هاهنا أمور نحن بها أعلم منك».

«فقال الأحنف: لا والله لا أُقاتل عليَّ بن أبي طالب (ع) أبداً، وهو أخو رسول الله (ص) وابن عمه وزوج ابنته وأبو سبطيه، وقد بايعه المهاجرون والأنصار»[2].

ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد وقد دخلوه من أعلاه، ووقفوا حتى خرج إليهم عثمان بن حنيف فيمن معه، وغصَّ المربد بالناس مشاةٍ وركباناً.

وخطب طلحة بالناس، ثم الزبير، ثم عائشة.

«فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين... وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا في المربد في موضع الدباغين، وبقي

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦٣، وقريب منه في شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٤ وفيه (الجشمي) بدل (الحميسي).

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٨٩.

أصحاب عثمان على حالهم... وأتى عثمان بن حنيف فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدباغين استقبلوا الناس فأخذوا عليهم بفمها»[(١)].

وجاء في الرواية عن أحد المشاركين في هذه المقابلة قوله:

«لما نزل طلحة والزبير المربد؛ أتيتهما فوجدتهما مجتمعين، فقلت لهما: ناشدتكما الله وصحبة رسول الله (ص) ما الذي أقدمكما أرضنا هذه؟، فلم يتكلما. فأعدتُ عليهما فقالا: بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا؛ فجئنا نطلبها»، وفي لفظ الأحنف بن قيس وقد سألهما السؤال نفسه قالا: «إنما جئنا لطلب الدنيا»[(٢)].

وبهذا المعنى ما رواه الطبري بسنده قال: «جاء رجل إلى طلحة والزبير ـ وهما في المسجد بالبصرة ـ فقال: نشدتكما الله في مسيركما؛ أعهد إليكما فيه رسول الله (ص) شيئاً؟. فقام طلحة ولم يجبه. فناشد الزبير فقال: لا، ولكن بلَغنا أن عندكم دراهم فجئنا نشارككم فيها»[(٣)].

و«أقبل جارية بن قدامة السعدي وقال: يا أم المؤمنين؛ والله لَقَتْلُ عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالكِ يرى قتلكِ، لئن كنت أتيتينا طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتينا مكرهة فاستعيني بالناس»[(٤)].

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٣ ـ ٤٦٥ والجمل: ١٥٠ ـ ١٥١ وكامل ابن الأثير: ٣/١٠٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/٣١٦ ـ ٣١٧.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٥ وشرح نهج البلاغة: ٩/٣١٧ ـ ٣١٨.
(٤) كامل ابن الأثير: ٣/١٠٩.

«وخرج غلام شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال: أمّا أنت يا زبير فحواريّ رسول الله (ص)، وأمّا أنت يا طلحة فَوَقَيت رسول الله (ص) بيدك. وأرى أمكما معكما؛ فهل جئتما بنسائكما؟، قالا: لا. قال: فما أنا منكم في شيء، واعتزل، وقال في ذلك:

صنتم حلائلكم وقدتم أُمَّكم — هذا لعمرك قلة الإنصافِ
أُمِرَتْ بجرِّ ذيولها في بيتها — فهوتْ تشق البيد بالإيجافِ
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها — بالنبل والخطيِّ والأسيافِ
هُتِكت بطلحة والزبير ستورها — هذا المخبِّر عنهم والكافي[١]

وحدَّث الطبري بسنده عن الزهري قال:

لما قدم طلحة والزبير وعائشة ومن معهم البصرة قال لهم عثمان بن حنيف: «ما نقمتم على صاحبكم؟. فقالوا: لم نره أوْلى بها منّا وقد صنع ما صنع. قال: فإن الرجل أمَرني فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له.. ثم قام طلحة والزبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة؛ توبة بحوبة، إنما أردنا أن يُستعْتب أميرُ المؤمنين عثمان ولم نرد قتله، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه. فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد؛ قد كانت كتبك تأتينا بغير ذلك».

ثم قال رجل من عبد القيس فردَّ على طلحة والزبير وقال في آخر كلامه يذكر علياً (ع): «فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟، هل استأثر بِفَيْء؟، أو عمل بغير الحق؟، أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه؟. وإلاّ فما هذا؟!. فهمُّوا بقتل ذلك الرجل فقام من دونه عشيرته، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى مَنْ كان معه فقتلوا سبعين رجلاً»[٢].

---

(١) كامل ابن الأثير نفسه: الجزء والصفحة.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧٠.

«وأقبل طلحة والزبير من المربد يريدان عثمان بن حنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك، فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدباغين، فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف، فشجرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح، فحمل عليهم حكيم بن جبلة فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة... حتى انتهوا إلى.. سَبَخة دار الرزق فنزلوها».

«وأتاهما عبدالله بن حكيم التميمي لما نزلا السبخة بكتب كانا كتباها إليه، فقال لطلحة: يا أبا محمد؛ أما هذه كتبك إلينا؟، قال: بلى. قال: فكتبت أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله، حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه، فلعمري ما هذا رأيك، لا تريد إلا الدنيا، مهلاً. إذا كان هذا رأيك فلِمَ قبلتَ من عليّ ما عرض عليك من البيعة فبايعتَه طائعاً راضياً، ثم نكثتَ بيعتك، ثم جئتَ لتدخلنا في فتنتك»[1].

ثم أصبح طلحة والزبير من غدٍ فصفّا أصحابهما للحرب، «وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه، فناشدهما الله والإسلام، وأذكرهما بيعتهما علياً (ع)، فقالا: نطلب بدم عثمان. فقال لهما: وما أنتما وذاك؟ أين بنوه؟ أين بنو عمه الذين هم أحق به منكم؟. كلا والله ولكنكما حسدتماه حيث اجتمع الناس عليه، وكنتما ترجوان هذا الأمر وتعملان له، وهل كان أحدٌ أشدَّ على عثمان قولاً منكما. فشتماه شتماً قبيحاً، وذكرا أمّه».

«فقال للزبير: أمَا والله لولا صفية ومكانها من رسول الله (ص) فإنها أدْنَتْك إلى الظل وأن الأمر بيني وبينك يا ابن الصعبة ـ يعني طلحة

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/٣١٨ ـ ٣١٩.

ـ أعظم من القول؛ لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما. اللهم إني قد أعذرتُ إلى هذين الرجلين»(١).

«ثم حمل عليهم، واقتتل الناس قتالاً شديداً. ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يُكْتَبَ بينهم كتابُ صلح [أي مهادنة]، فكُتِبَ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين: إن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده، وإن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما، حتى يرجع أمينُ الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة. ولا يضار واحد من الفريقين الآخر في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فُرْضة، بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر، فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيَّته؛ وإن شاء دخل معهما، وإن رجع بأنهما لم يُكْرَها فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليّ (ع)؛ وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيَّتهما. والمؤمنون أعوان الفالح منهما»(٢).

هكذا روى الطبري نصَّ كتاب الهدنة، وهو نص ينسجم مع منطق الحكم وهوى الحاكمين وإن لم يحك الواقع القائم يومذاك، وربما أدخل فيه وانقص بعضُ رواة السوء ما لم يكن من صلب النص المكتوب يومذاك أو كان فحُذِف، كما يشعرنا بذلك لفظ رواية أبي مخنف التي جاء فيها كتاب الهدنة بالنص الآتي: «هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤنين علي بن

(١) المصدر نفسه: ٩/ ٣١٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧، ومختصر منه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٨٨.

أبي طالب (ع)؛ وطلحة والزبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما: إن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وإن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة، ولا يضار بعضهم بعضاً في طريق ولا فُرضة ولا سوق ولا شرعة ولا مرفق، حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمة، وإن أحبوا لحق كلٌّ قوم بهواهم وما أحبوا؛ من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة. وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه وأشدُّ ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وذمة».

«وختم الكتاب، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة، وقال لأصحابه: الحقوا ـ رحمكم الله ـ بأهلكم، وضعوا سلاحكم، وداووا جرحاكم. فمكثوا كذلك أياماً»[(١)].

وخرج كعب على أثر هذا الاتفاق حتى قدم المدينة، «فاجتمع الناس لقدومه، وكان قدومه يوم جمعة، فقام كعب فقال: يا أهل المدينة؛ إني رسول أهل البصرة إليكم، أأكْرَهَ هؤلاء القومُ هذين الرجلين على بيعة عليّ أم أتياها طائعَيْن؟. فلم يجبه أحدٌ ألا ما كان من أسامة بن زيد».

وبلغ علياً ذلك، فبادر بالكتابة إلى عثمان بن حنيف، ثم أعلن عثمان شهادة أهل المدينة بأن طلحة والزبير لم يُكْرَها على البيعة[(٢)].

ولما علم طلحة والزبير بما أعلنه عثمان بن حنيف ويئسا من الحصول على أي مكسب من سفر كعب إلى المدينة، قررا نقض ما أعطيا من عهد الله وميثاقه، و«خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٩ ـ ٣٢٠، ومختصر منه في تاريخ خليفة: ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٠.

ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب، فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان ابن حنيف إليه، وأقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلي بهم، فأخّره أصحاب طلحة والزبير وقدّموا الزبير»[١].

ثم أخذوا ابن حنيف فضربوه ضرب الموت ونتفوا حاجبيه وأشفار عينيه وكل شعرة في رأسه ووجهه، وهجموا على أصحابه وحراسه، ثم انطلقوا بهم وبعثمان ابن حنيف إلى عائشة، «فقالت لأبان بن عثمان: اخرج إليه فاضرب عنقه فإن الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله. فنادى عثمان: يا عائشة ويا طلحة ويا زبير؛ إن أخي سهل ابن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة، وأقسم بالله إن قتلتموني ليضعنَّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يُبْقي أحداً منكم. فكفُّوا عنه»[٢].

ثم بعث طلحة والزبير عبدالله بن الزبير في جماعة عند السحر إلى بيت المال وعليه قوم من السبابجة يكونون أربعين؛ ويقال أربعمائة، فامتنعوا من تسليمه إليهم قبل قدوم علي، فقتلوهم وقتلوا رئيسهم أبا سلمة (أو سالمة) الزطيّ وكان عبداً صالحاً»[٣].

ويقول المسعودي: إن عدد القتلى من هؤلاء كان سبعين رجلاً غير مَنْ جُرِح، وخمسون من السبعين ضُرِبت رقابهم صبراً بعد الأسر»[٤].

(١) الجمل: ١٥١ ـ ١٥٢ وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٢٠، ومختصر منه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٨٩ ومروج الذهب: ٢/ ٢٤٣.

(٢) النص في شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٢١. ويراجع فيه فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٩٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩ والجمل: ١٥٣ ـ ١٥٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٣٣.

(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ وفتوح البلدان: ٣٦٩ والمناقب: ٣/ ١٧٧.

(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٣.

وهكذا «كان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أول غدرٍ كان في الإسلام. وكان السبابجة أول قوم ضُربت أعناقهم من المسلمين صبراً»[١].

«وأصبح الناس وعثمان بن حنيف محبوس، فتدافع طلحة والزبير الصلاة وكانا بُويعا أميرين غير خليفتين، وكان الزبير مقدماً. ثم اتفقا على أن يصلي هذا يوماً وهذا يوماً»[٢]، وفي رواية أبي مخنف: أن عائشة هي التي أصلحت بينهما «بأن جعلت عبدالله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصليان بالناس هذا يوماً وهذا يوماً»[٣].

«وبلغ حكيم بن جَبَلة ما صنُع بعثمان فقال: لست أخاف الله إن لم أنصره، فجاء في جماعة من عبدالقيس وبكر بن وائل ـ وأكثرُهم عبد القيس ـ. فأتى ابنُ الزبير فقال: مالك يا حكيم؟. قال: أن تخلَوا عثمان فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عليّ، والله لو أجد أعواناً أخبطكم بهم ما رضيتُ بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم، ولقد أصبحتم وأن دماءكم لنا لحلالٌ بمن قتلتم من إخواننا. أما تخافون الله عز وجل!، بم تستحلون سفك الدماء؟!».

فقال عبدالله بن الزبير: «بدم عثمان بن عفان».

قال حكيم: «فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان؟ أما تخافون مقت الله!».

«فقال له عبدالله بن الزبير: لا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً».

«قال حكيم: اللهم إنك حَكَمٌ عدل فاشهد. وقال لأصحابه: إني لست في شك من قتال هؤلاء فمن كان في شكٍ فلينصرف».

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/٣٢١.
(٢) أنساب الأشراف: ٢/٢٢٨.
(٣) الجمل: ١٥٢ وشرح نهج البلاغة: ٩/٣٢٢.

«وقاتلهم قتالاً شديداً، وضرب رجلٌ ساق حكيم فأخذ حكيم ساقه فرماه بها فأصاب عنقه فصرعه... وقُتَل سبعون رجلاً من عبد القيس... وقتل مع حكيم ابنه الأشرف وأخوه الرَعِل بن جبلة»[١]، وفي لفظ أبي مخنف: أنه «قُتِل مع حكيم أخوة له ثلاثة، وقُتِل أصحابه كلهم وهم ثلاثمائة من عبد القيس والقليل منهم من بكر بن وائل»[٢]، كما قُتِل أيضاً مجاشع بن مسعود السلمي من أصحاب رسول الله (ص)[٣].

وجاءت الرسل إلى سهل بن حنيف وهو والٍ يومذاك على المدينة تخبره بما كان «من طلحة والزبير إلى أخيه عثمان وحبسهما إياه، فكتب إليهما: أُعطي الله عهداً لئن ضررتموه بشيء ولم تخلوا سبيله لأبلغنَ من أقرب الناس منكما مثل الذي صنعتم وتصنعون به. فخلوا سبيله»[٤].

❀ ❀ ❀

وأقبل موكب عليّ (ع) يريد البصرة، فنزل ذاقار ليعدَّ جيشه للحرب، فسارع أتباع الجمل إلى تخلية سبيل عثمان ابن حنيف، فقدم على عليّ (ع) «وليس في وجهه شعر. فلما رآه علي (ع) نظر إلى أصحابه فقال: انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب»[٥]، وفي رواية أخرى: إن عثمان قدم على عليٍّ (ع) «وقد نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه فقال: يا أمير المؤمنين؛ بعثتَني ذا لحية وجئتُك أمرد. قال:

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٧٥ والجمل: ١٥٢ ـ ١٥٣، ومختصر منه في أنساب الأشراف: ٢/ ٢٢٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١١.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٢٢.
(٣) تاريخ خليفة: ١/ ١٩٩.
(٤) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٠.
(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨١ والجمل: ١٥٤.

أصبتَ أجراً وخيراً»[١]. ويقول الحافظ ابن عبدالبر: إن ما أصاب عثمان بن حنيف من الشدائد على يد أصحاب طلحة والزبير قد زاد في فضله ورفعة مقامه[٢].

وروى بعض الرواة الأبيات الآتية معزوة لعثمان بن حنيف؛ وقد عبَّر فيها عن مجمل ما تحمل من الأذى في تلك الأيام العصيبة:

شهدتُ الحروب فشيَّبْنني فلم أر يوماً كيوم الجملْ
أشدَّ على مؤمنٍ فتنةً وأقبل منه لخرق بطلْ
فليت الظعينة في بيتها ويا ليت عسكر لم يرتحلْ[٣]

ثم دارت رحى الحرب وانتهت نهايتها المأمولة بنصر جند الله وهزيمة أولياء الشيطان، ولكن صاحبنا ابن حنيف لم يوفَّق للمشاركة الفعالة فيها لأنه كان طريح الفراش بسبب ما أصابه من آلام الضرب وآثار التعذيب، فأقام في ذي قار مريضاً يُعالج مما ألمَّ به[٤]، حتى وضعت الحرب أوزارها، فعاد مع إمامه وأصحابه إلى الكوفة مختاراً سكناها والإقامة الدائمة فيها، حتى عدَّ في مصادر التاريخ من سكان الكوفة[٥].

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١١٦ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٨ والبداية والنهاية: ٨/ ٨١.
(٢) الاستيعاب: ٣/ ٩٠.
(٣) وردت الأبيات الثلاثة في أنساب الأشراف: ٢/ ٢٧٠ وقال البلاذري قبل إيرادها: «قال الشاعر في يوم الجمل ويقال هو عثمان ابن حنيف»، كما وردت معزوة لعثمان بن حنيف في المناقب: ٣/ ١٩١.
وورد الأول بمفرده معزواً لعثمان أيضاً روايةً عن الأصمعي في معجم الشعراء: ٢٥٥، وقال المرزباني بعد إيراده: «وهي أبيات تروى لغيره».
(٤) الجمل: ١٥٦.
(٥) طبقات خليفة: ١/ ١٩٦ و٣٠٤ والاستيعاب: ٣/ ٩٠ وأسد الغابة: ٣/ ٣٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٦ والإصابة: ٢/ ٤٥٢.

ولما تجمع القاسطون والمؤلفة قلوبهم بقيادة معاوية ابن هند للتمرد على ولي أمرهم الشرعي وإمام زمانهم المفترض الطاعة، لم يجد علي (ع) بداً من التصدي لهذا الخروج الظالم؛ ومقاتلة البغاة حتى يفيئوا إلى أمر الله تعالى، فزحف من الكوفة للقيام بالواجب الديني في مقاتلة جموع العدوان والفساد في الأرض، وكان عثمان بن حنيف أحد المشاركين في هذا الزحف المقدس تحت لواء أمير المؤمنين (ع)[١]، وإن كنا لم نقرأ في الأخبار التاريخية ذكراً خاصاً لما كان ينتظر منه من فعل وأداء، ولعل ما أصابه في عدوان البغاة عليه في البصرة قد سبَّب له عوقاً مقعداً عن النهوض بواجبات القيادة ومسؤوليات الحرب، وإن كان لم يقعده ذلك عن الإسهام في الرأي والنصيحة وحث الناس على الطاعة والتسليم لما يأمرهم به إمامهم في حربه وصلحه مهما كانت الظروف والملابسات[٢].

❁ ❁ ❁

وعاد عثمان بن حنيف بصحبة رفاق سلاحه إلى الكوفة بعد انتهاء حرب صفين، من دون أن نقرأ له خبراً يخصه في حرب النهروان أو موقفاً ينسب إليه خلال البيعة للإمام الحسن (ع) بعد شهادة علي (ع). ويبدو أن ما كان يعاني من المرض والعجز قد حال بينه وبين المشاركة في هذه الميادين، حتى حانت ساعة وفاته في أخريات أيام سلطان معاوية[٣]، وربما كان ذلك في سنة ٥٩ هـ[٤] على وجه التحديد، أو في

(١) المحبر: ٢٩٠.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١١٢.
(٣) طبقات خليفة: ١/ ٣٠٤ والاستيعاب: ٣/ ٩٠ وتاريخ بغداد: ١/ ١٨٠ وأسد الغابة: ٣/ ٣٧١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢٢ والإصابة: ٢/ ٤٥٢.
(٤) تاريخ خليفة: ١/ ٢٧٣.

سنة ٥٧هـ كما في بعض الروايات[1]، فذهب إلى ربه بقلب طافح باليقين ونفس مطمئنة بالإيمان، شاكياً إليه ما أصابه من الأذى والبلاء على يد أدعياء الإسلام من بقايا الجاهلية وفلول البغي والعدوان.

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٨١.

[٢٨]

قيس بن سعد ابن عبادة

قيس بن سعد ابن عبادة

قيس بن سعد بن عُبَادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أبي حَزيمة[1] بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج[2] بن الحارث بن الخزرج بن حارثة[3]: صحابي جليل وبطل مغوار وداهية من دهاة العرب المعدودين.

وقبيلته: الخزرج أنصار الله ورسوله الذين أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، وذكرهم رسول الله (ص) بكل خير، بل ورد في بعض المأثور عنه من الحديث في حق هذا الحي من الأنصار: أن «حبهم إيمان وبغضهم نفاق»[4].

وأبوه وجدُّه وأبو جدِّه: من أشهر مَنْ عُرِف بالكرم والجود بين زعماء تلك الأطراف، ورُوِي أنه «لم يكن في الأوس والخزرج أربعةُ

---

(١) وقال الخطيب البغدادي بعد إيراد ذلك: «وقيل: دليم بن حارثة بن خزيم بن أبي خزيمة بالخاء المعجمة المرفوعة».

(٢) ورد هذا النسب ـ على اختلاف في بعض أسمائه ـ في سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٧ و١٠٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ وطبقات ابن سعد: ٧/ ق٢/ ١١٥ والمحبر: ٢٧٧ والاستيعاب: ٢/ ٣٢ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٧ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٥ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٠٢ والإصابة: ٢/ ٢٧.

(٣) المحبر: ٢٦٩.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٠٣.

مطْعِمون متتالون في بيتٍ واحد إلا قيس بن سعد بن عُبادة بن دُلَيم. . . ولقد كان مناديه ينادي. . . مَنْ أراد الشحم واللحم فلْيَأتِ دار دُلَيم. فمات دُلَيم فنادى منادي عبادة بمثل ذلك، ثم مات عبادة فنادى سعد بمثل ذلك»[١]، وفي رواية محمد بن حبيب: «كان قيس وسبعة من آبائه أجواداً إلى طُرَيف، كلٌّ جواد مِطْعام للطعام»[٢].

وقد أفردنا لسعد زعيم الخزرج ـ والد قيس ـ حلقة من هذه السلسلة تحمل الرقم (٨)، وطبعت بتوفيق الله في سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

وكانت أم قيس صحابية جليلة مذكورة في عداد النساء اللواتي أسلمن وبايعن رسول الله (ص)[٣]، وهي فُكَيْهَة بنت عبيد (أو: عبد) بن دُليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طُرَيف بن الخزرج بن ساعدة[٤].

وحدث المؤرخون: أنه كان لقيس عدد من الأخوة قيل إنهم ستة[٥] وقيل خمسة، «وكلهم قد نصروا رسول الله (ص) »[٦]، وقد عرفنا منهم:

١ ـ الصحابي الثقة سعيد بن سعد الذي تولى إمرة اليمن أيام

(١) الاستيعاب: ٢/ ٣٣. وورد ذكر هؤلاء الأربعة المتوالين في الضيافة والكرم في أسد الغابة: ٢/ ٢٨٣. ويراجع في حصن دليم ودعوة الناس إليه: سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٩ والإصابة: ٢/ ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) المحبر: ١٥٥.

(٣) المحبر: ٤٢٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٧٢ وطبقات خليفة: ١/ ٢١٦ والاستيعاب: ٣/ ٢١٧ وأسد الغابة: ٥/ ٥٣١ والإصابة: ٤/ ٣٦٥.

(٥) مجمع الرجال: ٥/ ٦٤.

(٦) الدرجات الرفيعة: ٣٣٤.

خلافة علي (ع)، وقد روى عنه ابنه شرحبيل بن سعيد وأبو أُمامة بن سهل بن حنيف[(١)]، و«السعيدِ هذا عقبٌ بالأندلس. . . من قبل الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة»[(٢)].

٢ ـ إسحاق بن سعد: ذكره الذهبي في أولاد سعد[(٣)]، وأسند الطبراني رواية إليه[(٤)].

كما ورد ذكر اخته أُمامة بنت سعد في ترجمة أمها فُكيهة.

❊ ❊ ❊

ولد قيس في الجاهلية قبل البعثة النبوية؛ وإن كنا لم نعلم متى كان ذلك على وجه التعيين، ونشأ في يثرب نشأة المجد والزعامة والترف، وأتقن فنون الرمي والفروسية إتقاناً كاملاً، ومارس حياة البادية والصحراء بأفضل وجوهها، حتى صار من أبرز شباب قومه فتوة ونشاطاً وبسالة، وممن يشار إليه بالبنان في هذه الميادين.

واشتهر هذا الشاب الطالع بعدة كنى منها «أبو الفضل» و«أبو عبدالله» و«أبو عبدالملك»[(٥)]، وذكر ابن حبان إنه يكنى أبو القاسم»[(٦)] أيضاً.

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ١٦ وأسد الغابة: ٢/ ٣٠٨ والإصابة: ٢/ ٤٤.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٣٦٥.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٩.
(٤) المعجم الكبير: ٦/ ٢٤.
(٥) طبقات خليفة: ١/ ٢١٦، والاستيعاب: ٣/ ٢١٧ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٨ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٥ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١١١ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠ والإصابة: ٣/ ٢٣٩،
(٦) الإصابة: ٣/ ٢٣٩ والدرجات الرفيعة: ٣٣٤.

وذكر بعض المؤرخين أنه اقترن بقريبة بنت عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وأمها هند بنت نُقَيْد بن بُجَير بن عبد بن قصي، ولكنها «لم تلد له شيئاً»[١]. وربما اقترن بعدها بمن سماها ابن كثير: قريبة بنت أبي عتيق أخت الخليفة أبي بكر[٢]، ولا بد أن ذلك قد تمَّ بعد قدوم المهاجرين المكيين إلى المدينة المنورة.

وعرفنا له من الأبناء:

١ - سالم بن قيس، وهو من أجداد أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عمار بن يحيى بن العباس بن عبد الرحمن بن سالم بن قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، «من أوجَهِ مشايخ نيسابور في العدالة والورع والقبول والاتقان في الرواية»، توفي في جمادى الآخرة سنة ٣١٧ هـ بنيسابور[٣].

٢ - يحيى بن قيس، وهو من أجداد أبي بكر محمد بن أحمد بن العباس بن الحسن بن جبلة بن غالب بن جابر بن نوفل بن عياض بن يحيى بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، المعروف بالعِياصي، من أهل سمرقند، كان فقيهاً جليلاً من رؤساء البلدة والمنظور إليهم[٤].

❀ ❀ ❀

وسرعان ما أصبح قيس - وهو بعد في ريعان الشباب - رجلاً مهاب الجانب رفيع المقام، ومشاركاً لأبيه في رئاسة الخزرج وزعامة مجتمع المدينة المنورة.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٨١.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٠٠، وذكر ابن حزم زواجه بإحدى بنات أبي قحافة ولم يسمها. جمهرة أنساب العرب: ١٣٧.
(٣) أنساب السمعاني: ٢/ ١٥٦.
(٤) أنساب السمعاني: ٣/ ٣٨٦.

وتحدث مترجموه عن أوصافه البدنية فقالوا: «كان جميلاً ضخماً جسيماً صغير الرأس سِناطاً ليست له لحية» و«كان طويلاً إذا ركب الحمار خطّت رجلاه الأرض»[١].

وأجمعت كتب التاريخ على عدّه «من ذوي الرأي الصائب والمكيدة في الحرب مع النجدة والشجاعة» وذكروا أنه كان «شجاعاً مجرَّباً» و«أحد الفضلاء الجلة» و«من كرام أصحاب رسول الله (ص)»، و«كان شريف قومه غير مدافع»[٢].

وجاء في الرواية عن الزهري: إنه كان يعد دهاة العرب يومذاك خمسة، وكان أحدهم صاحبنا قيس بن سعد[٣]، وكان قيس يقول: «لولا أني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: (المكر والخديعة في النار) لكنت من أمكر هذه الأمة»[٤].

واشتهر فتى الخزرج منذ مطلع شبابه بالكرم البالغ والسخاء اللافت للأنظار، حتى أصبح أحد أجواد العرب كما نصَّ محمد بن حبيب[٥]، وحتى أصبح مضرب المثل بجوده[٦].

(١) المحبر: ٢٣٣ والاستيعاب: ٣/ ٢١٩ و٢٢٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٨ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٦ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٣ والبداية والنهاية: ٨/ ١٠٢ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

(٢) الغارات: ١/ ٢٢٠ و٢٢٢ والاستيعاب: ٣/ ٢١٧ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٨ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٣٦ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٤ و١٠/ ١١١ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

(٣) كامل ابن الأثير: ٣/ ٢٠٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٧ والبداية والنهاية: ٨/ ١٩ و٤٩ و١٠١.

(٤) أسد الغابة: ٤/ ٢١٥ ـ ٢١٦ وسير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٨ والبداية والنهاية: ٨/ ١٠١.

(٥) المحبر: ١٥٥.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٧.

وحسبنا من أمثلة ذلك ـ وما زال في مقتبل العمر ـ ما رواه الرواة من بعث رسول الله (ص) بعثاً بقيادة أبي عبيدة ـ وفيهم ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار ومنهم قيس بن سعد ـ إلى ساحل البحر، إلى حيٍّ من جُهَينة، فأصابهم جوع شديد حتى كانوا يقتسمون التمرة، فأراد قيس بن سعد بن عبادة أن يشتري الجُزُرَ دَيناً بذمته لينحرها لإخوانه الجياع، فصدَّه عن ذلك بعض من كان معه، وقال أبو بكر وعمر: إن تَرَكْنا هذا الفتى أهلك مال أبيه، ولكن قيساً لم يمتنع عن الاستدانة والانفاق على من معه، وبقي ينحر ويطعم طيلة تلك المدة، «فلما قدم قصَّ على أبيه وكيف منعوه... فكتب له أربع حوائط (أي بساتين)»، وبلغ ذلك النبيَّ (ص) فقال: (أما إنه في بيت جود)، وفي رواية أخرى عنه أنه قال: (الجود من شيمة أهل ذلك البيت)، ثم قام سعد على أثر ذلك عند النبي (ص) وقال: «مَنْ يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب يبخِّلان عليَّ ابني»[١].

وذكر المؤرخون: أن قيس بن سعد كان «يُطْعِم الناس في أسفاره مع النبي (ص)... ينادي في كل يوم: هلموا إلى اللحم والثريد. وقال ابن سيرين: كان سعد ينادي على أُطُمِه: مَنْ أحبَّ شحماً ولحماً فليأت. ثم أدركتُ ابنه يفعل مثل ذلك»، وفي لفظ ابن كثير الدمشقي: إن قيس بن سعد كانت له صحفة يدار بها حيث دار، وكان ينادي له منادٍ: هلموا إلى اللحم والثريد. وكان أبوه وجده من قبله يفعلان كفعله»[٢].

---

(١) يراجع في ذلك: تاريخ الطبري: ٣/ ٣٢ ـ ٣٣ والغارات: ١/ ٢٢٢ وغريب الخطابي: ٢/ ٢٣٥ ودلائل النبوة: ٤/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٦ والبداية والنهاية: ٨/ ١٠٠.

وجاء في أخبار جوده أيضاً ما روى الجاحظ وغيره من أن عجوزاً شكت إليه قلة الجرذان في بيتها، فقال: ما أحسن ما سألتِ، أما والله لأكثرنَ جرذان بيتكِ. فملأ بيتها طعاماً وودكاً وأداماً»[١].

ومنها: ما ورد أنه توفي أبوه عن حمل لم يعلم به، فلما وُلِدَ ـ وقد كان سعد قسم ماله في حين خروجه من المدينة بين أولاده ـ، فكلَّم أبو بكر وعمر في ذلك قيساً وسألاه أن ينقض ما صنع سعد من تلك القسمة، فقال: نصيبي للمولود، ولا أغيِّر ما صنع أبي ولا أنقضه»[٢].

ومنها: أنه كان له مال كثير ديوناً على الناس، فمرض واستبطأ عُوّاده، فقيل له: أنهم يستحيون من أجل دينك. فأمر منادياً ينادي: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو له، فأتاه الناس حتى هدموا درجة كانوا يصعدون عليها إليه»[٣]، وفي لفظ ابن كثير: أنه لما رأى قلة عوَّاده قال لزوجته: إني أرى قلة من عادني في مرضي هذا، وإني لأرى ذلك من أجل مالي على الناس من القرض، فبعث إلى كل رجل ممن كان له عليه دين بصكه المكتوب عليه، فوهبهم ماله عليهم»[٤] إلى آخر الرواية المتقدمة.

وقال سفيان الثوري: «اقترض رجل من قيس بن سعد ثلاثين ألفاً، فلما جاء ليوفيه إياها قال له قيس: إنا قوم ما أعطينا أحداً شيئاً فنرجع فيه»[٥].

---

(١) الحيوان: ٥/ ٢٥٦ والاستيعاب: ٣/ ٢٢٢ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٦ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩.
(٢) المعجم الكبير: ١٨/ ٣٤٨ والاستيعاب: ٣/ ٢٢٢ والبداية والنهاية: ٨/ ١٠١.
(٣) المحبر: ١٥٥ والاستيعاب: ٣/ ٢٢٣ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٦.
(٤) البداية والنهاية: ٨/ ١٠٠.
(٥) الاستيعاب: ٣/ ٢٢١ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩ والإصابة: ٣/ ٢٩.

وإلى كثير من أمثال ذلك مما يطول الكلام بسرده[١].

وأُثِر عنه أنه كان يدعو فيقول في دعائه: «اللهم ارزقني حمداً ومجداً وشكراً، فإنه لا حَمْدَ إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال. اللهم وَسِّع عليَّ فإن القليل لا يسعني ولا أسعه»[٢].

❀ ❀ ❀

أسلم قيس مع أبيه ورهطه فكانوا جميعاً من السابقين إلى الإسلام وإن تقدمهم سعد في ذلك كما بيَّناه في ترجمته. وتكرر نصُّ المصادر على أن قيساً صحب النبي (ص) وخدمه عشر سنين[٣]، وروى عنه أحاديث وحدَّث بما سمع في الكوفة ومصر والشام[٤]، وكان سعد من رسول الله (ص) بإجماع المؤرخين بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير[٥]، كما كان صاحب لواء النبي (ص) في بعض مغازيه[٦]، وقد استعمله على الصدقة أيضاً[٧].

(١) يراجع في ذلك: أنساب الأشراف: ٢/ ٥١ ـ ٥٢ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٨ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٧ والبداية والنهاية: ٨/ ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) الغارات: ١/ ٢٢٣ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٦٥ والبداية والنهاية: ٨/ ١٠٠.

(٣) المعجم الكبير: ١٨/ ٣٤٧ والاستيعاب: ٣/ ٢١٧ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

(٤) المعجم الكبير: ١٨/ ٣٤٨ ـ ٣٥٤ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٦ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١١١ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٢ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩.

(٥) المعجم الكبير: ١٨/ ٣٤٦ والاستيعاب: ٣/ ٢١٧ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٤٥ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

(٦) المعجم الكبير: ١٨/ ٣٤٧ والاستيعاب: ٣/ ٢١٧ وتاريخ بغداد: ١/ ١٧٨ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٣ و١٠٥ والبداية والنهاية ٨/ ٩٩ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٥ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩.

ونصَّ مؤرخو الصحابة على أن قيساً قد «شهد مع رسول الله (ص) المشاهد»[١]، وكان فتح مكة أهم تلك المشاهد والحروب، وكانت راية رسول الله (ص) في ذلك اليوم بيد سعد بن عبادة، وتقول الروايات: إن سعداً لما مرَّ على أبي سفيان ورأى صورته الكريهة وتذكر ما كان منه في حرب النبي والإسلام والمسلمين نادى برفيع صوته: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحُرمة (أو تُسْبى الحرمة)، اليوم أذلَّ الله قريشاً. فأُخْبِر النبي (ص) بقول سعد وما سبَّبه من قلق واضطراب في نفوس أهل مكة، فأمر (ص) علياً بأن يأخذ الراية من سعد ويدخل بها مكة[٢]، وقيل: بل دفع اللواء إلى قيس بن سعد بن عبادة: «ورأى رسول الله (ص) أنه لم يخرجه عن سعدٍ حيث دفعه إلى ولده، فذهب به حتى غرزه بالحجون»[٣].

---

(١) الإصابة: ٣/ ٢٣٩ والدرجات الرفيعة: ٣٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٩ وطبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٩٨ وتاريخ الطبري: ٣/ ٥٦ والاستيعاب: ٢/ ٣٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٤.

(٣) لفظ النص من شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٧٢ ومضمونه في طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٩٨ والاستيعاب: ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

وفي أوائل السنة الحادية عشرة من الهجرة حلت الفجيعة الكبرى بالمسلمين، ودوى نذير الخطر بوقوع الانقلاب على الأعقاب، إذ شاء الله تعالى أن يرفع حبيبه محمداً إلى أعلى عليين، فيحدث الفرغ الخطير بفقدان الرسول والمعلّم والقائد والرئيس، ويصبح الكيان الإسلامي الوليد في معرض التجاذب والصراع والفتن الهوج.

وروى المؤرخون في خصوص الأحداث المرتبطة بصاحبنا قيس يومذاك: إن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة إثر إعلان وفاة النبي (ص)، «وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض. فلما اجتمعوا قال لابنه قيس أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسْمِع القوم كلهم كلامي، ولكن تلقَّ مني قولي فأسمعهموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيُسْمِع أصحابه»، فخطب فيهم متحدثاً عن فضيلة الأنصار على سائر قبائل العرب؛ بإيمانهم بالرسالة الإسلامية؛ وهجرة الرسول إليهم؛ ومنعهم شخصه ورسالته وأصحابه المهاجرين من شرور المشركين وعدوان المعتدين، «حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً... وتوفاه الله وهو راض عن الأنصار وقرير عين بهم»[1].

وبلغ عمرَ بن الخطاب خبرُ اجتماع الأنصار في السقيفة، «فأرسل

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢١٨.

إلى أبي بكر... إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمتَ أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة... فمضيا مسرعيْن فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم»[١]، ولم يخبروا بذلك أياً من الصحابة الذين كانوا مجتمعين حينذاك برمتهم في المسجد النبوي الشريف.

فلما دخل هؤلاء الثلاثة السقيفة، واحتدم الجدل في أمر الخلافة، «قام الحُباب بن المنذر ـ وكان بدرياً ـ فقال: ... إنّا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم. فقال له عمر: إذا كان ذلك فمُتْ إن استطعت»[٢].

ثم «كثر اللغط وارتفعت الأصوات» فتخوَّف عمر الاختلاف وفشل الخطة، فقال لأبي بكر: أبسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه عمر. ثم زاد الكلام والأخذ والرد حتى بلغ درجة الخصام والعنف كما جاء على لسان عمر قائلاً: «ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة»[٣] و«قالت الأنصار: قتلتم سعداً، وقد كادوا يطأونه. فقال عمر: اقتلوه فإنه صاحب فتنة»[٤]، ثم قال عمر لسعد: «لقد هممتُ أن أطأك حتى تندر عضدك. فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر وقال: والله لو حصصتَ منه شعرة ما رجعتَ وفي فيك واضحة»[٥].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٩.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٢٩.
(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣١٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٦.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٢.
(٥) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢.

ثم كان ما كان، وأصبح أبو بكر هو الحاكم والخليفة، وامتنع كثير من المسلمين عن الاعتراف بهذا الأمر الواقع، و«قالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا علياً»[١]، وكان قيس بن سعد من جملة أولئك الرافضين لمبايعة أبي بكر[٢].

❀ ❀ ❀

ولما بدأت حروب الفتح بعد ذلك لإعلاء كلمة الله والدعوة إلى سبيله؛ لم يجد قيس مسوغاً لعدم المشاركة فيها، على الرغم من رفضه للوضع القائم؛ وامتناعه من الإقرار بشرعيته وسلامة أساسه، فشارك مشاركة الأبطال في معارك نشر الإسلام، وأسهم في:

حروب اليرموك[٣].

وفتوح مدينة حلب وقلاعها[٤].

ومعارك فوح مصر[٥]، وقال ابن يونس: إنه سكن مصر بعد الفتح لبعض الوقت واختطّ بها داراً[٦].

وبقي قيس طوال عهد الخلفاء الثلاثة الذين تسلموا السلطان بعد وفاة النبي (ص) منضمّاً إلى صفوف المعارضة التي أبت الإذعان لأولئك الذين جعلتهم الظروف أصحاب الأمر والنهي والحل والعقد.

ثم قُتِل عثمان في ثورة شعبية شارك فيها عدد من أبناء الأقاليم

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢.

(٢) مجمع الرجال: ٥/ ٦٥.

(٣) فتوح الشام: ١/ ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٤) فتوح الشام: ١/ ١٧٨.

(٥) فتوح الشام: ٢/ ٣٠ ـ ٣١.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٠٢ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

الإسلامية، فانتهى بمقتله النزاع في شرعية خلافته، وشغر على أثر ذلك كرسي الحكم بانهيار رأسه. فتدافع جمهور المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه صوب إمام الحق والنص؛ وبطل العقيدة والرسالة؛ علي بن أبي طالب (ع)، ليبايعوه على السمع والطاعة، وليضعوا أيديهم بيده في مسيرة العمل بهدى الكتاب وسنة الرسول وإقامة حكم الله في الأرض.

وكان قيس بن سعد أحد هؤلاء المسارعين للبيعة[١]، وفي طليعة المبادرين لها من زعماء الأنصار وقادتهم في المدينة المنورة، ولا عجب منه ذلك وهو المعروف بولائه لأمير المؤمنين، وقد روى المسعودي إن قيساً كان «من الزهد والديانة والميل إلى علي (ع) بالموضع العظيم»[٢].

ثم تجمعت جموع الخارجين على هذه الخلافة الراشدة؛ من بقايا الجاهلية وفلول الطلقاء وحملة الأحقاد والترات، ليصدوا زحفَ الإصلاح والبناء الذي كان ينتظره المسلمون الصادقون، فظهر فيهم مَنْ نكث البيعة بعد إبرامها؛ ومن امتنع عن البيعة ليموت ميتة جاهلية؛ ومن كان مذبذباً بين هؤلاء وهؤلاء من ذوي الوجهين واللسانين.

وكانت معركة الجمل أولى تلك المعارك التي قادها المتمردون على إمامة الحق وخلافة النص والبيعة، فأخذوا بالتوجه إلى البصرة ليجعلوا منها المنطلق نحو مآربهم الشريرة وأهدافهم الدنيوية الوضيعة.

ونصَّ عدد من المؤرخين على حضور قيس هذه المعركة فيمن حضرها من أصحاب رسول الله (ص)؛ ومشاركته فيها كما يفرض عليه شرع الله من وجوب محاربة أهل النكث والبغي[٣].

---

(١) الجمل: ١٠٥.

(٢) مروج الذهب: ٢/٣٢٠.

(٣) المحبر: ٢٢ والاستيعاب: ٣/٢١٨.

وحدَّث نصر أن قيساً كان أحد الذين اختارهم علي (ع) للذهاب إلى الكوفة بقيادة ابنه الإمام الحسن (ع)، ومن جملتهم عمار بن ياسر وعبدالله بن عباس، ليستنهضوا أهلها ويندبوهم للخروج إلى محاربة أعداء الحق الناكثين(١).

وروى المفيد: أن قيساً لما انتهى إلى الكوفة في مهمته هذه خطب الناس هناك فقال: «أيها الناس؛ إن هذا الأمر لو استقبلنا فيه الشورى لكان أمير المؤمنين (ع) أحقَّ الناس به، لمكانه من رسول الله (ص)، وكان قتال مَنْ أبى ذلك حلالاً، فكيف في الحجة على طلحة والزبير وقد بايعاه طوعاً ثم خلعاه حسداً وبغياً. وقد جاءكم علي في المهاجرين والأنصار. ثم أنشأ يقول:

رضينا بقَسْم الله إذ كان قَسمُنا ... علياً وأبناءَ الرسول محمدِ
وقلنا لهم: أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمدِّ يَدَيْنا من هدىً وتودُّد
فما للزبير الناقض العهد حرمةٌ ... ولا لأخيه طلحة اليوم من يدِ
أتاكم سليل المصطفى ووصيّه ... وأنتم بحمد الله عارضة النَّدي
فمَنْ قائم يرجى بخيل إلى الوغى ... وضمِّ العوالي والصفيح المهنَّدِ
يسوِّد من أدناه غير مدافع ... وإن كان ما تقضيه غير مسوَّد
فإن يأت ما تهوى فذاك نريدُهُ ... وأن تخط ما تهوى فغير تعمُّدِ(٢)

ثم انتهت المعركة بهزيمة أتباع الجمل وخذلان جند الشيطان، ودخل علي (ع) البصرة على رأس جيشه الظافر، في استعراض مهيب

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٦٢ ووقعة صفين: ١٥ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٥ والجمل: ٢٤٣ و٣٩٨ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٠.
(٢) الخطاب والشعر في الجمل: ٢٤٦ ـ ٢٤٧، والخطاب ـ بدون الشعر ـ في الإمامة والسياسة: ١/ ٦٣.

كان مقسّماً إلى مجموعات من الفرسان، يقدم كلَّ مجموعة منها قائدها وأميرها، وقد حدثنا المنذر بن الجارود ـ وهو من حضّار هذا الاستعراض ـ واصفاً تلك المجموعات فقال في خلال ذلك:

«ثم مرَّ بنا فارس على فرس أشقر، تخط رجلاه في الأرض، ليس له لحية، عليه درع قد تظاهرها بثوب أصفر، متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً، وبيده لواء وهو ينشد شعراً، في جمع من الناس، فقلنا: مَنْ هذا؟، فقيل: قيس بن سعد بن عبادة في الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان»(١).

وعلى الرغم من جميع هذه الروايات المصرحة بمشاركة قيس بن سعد في هذه المعركة، فقد نفى البلاذري حضوره فيها وقال: «الثبت أن علياً ولّى قيساً مصر ـ وهو بالمدينة ـ. . . ثم إنه عزله عن مصر، وقدم المدينة، وشخص هو وسهل بن حنيف إلى الكوفة، فهشدا صفين والنهروان معه»(٢).

ومن الممكن أن نقول جمعاً بين الأقوال المتقدمة: أن قيساً حضر المعركة قادماً من مصر، ثم عاد إليها بعد انتهاء الحرب للاستمرار في أداء واجبات الإمارة ومسؤوليات الحكم والإدارة.

---

(١) وقعة الجمل ٣٢ ـ ٣٣ ومروج الذهب: ٢/ ٢٤٥.
(٢) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٣٥.

وكان أبرز حدث في تاريخ قيس خلال هذه الحقبة الحافلة بالأحداث قيامه بأمر ولاية مصر، وجاء في أخبار هذه الولاية ما روى الرواة تفصيلها في مصادر التاريخ ـ واللفظ لأبي إسحاق الثقفي في معظمه ـ، قال:

لما «وُليَ علي بن أبي طالب (ع) دعا قيسَ بن سعد فقال: سِرْ إلى مصر فقد وَلَّيْتُكها، واخرج إلى رحلك فاجمع فيه من ثقاتك مَنْ أحببتَ أن يصحبك، حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرهب لعدوك وأعزُّ لوليك، فإذا أنت قدمتَها إن شاء الله فأحْسِن إلى المحسن، واشتد على المريب، وارفق بالخاصة والعامة فإن الرفق يُمن».

«فقال له قيس بن سعد: رحمك الله يا أمير المؤمنين؛ قد فهمتُ ما ذكرتَ. أما قولك: اخرج إليها بجندٍ، فإني أدع ذلك الجند لك، فإن احتجتَ إليهم كانوا قريباً، وإن أردتَ بعثهم إلى وجهٍ من وجوهك كانوا عدَّة لك، ولكني أسير إليها بنفسِي وأهل بيتي، وأما ما أوصيتَني به من الرفق والإحسان فإن الله تعالى هو المستعان على ذلك».

«فخرج قيس بن سعد في سبعة نفر من أصحابه»، «فلما انتهى إلى أيلة لقيته خيل فقالوا: مَنْ أنت؟، قال: من فالَّة عثمان فأنا أطلب مَنْ آوي إليه وأنتصر به. قالوا: من أنت؟، قال: قيس ابن سعد، قالوا:

امضِ، فمضى حتى دخل مصر»، «فصعد المنبر فأمر بكتاب معه فقُرىء على الناس، فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من المسلمين: سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن الله بحسن صنعه وتقديره وتدبيره أختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به الرسل إلى عباده، وخصَّ من انتجب من خلقه، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من الفضيلة أن بعث محمداً (ص) إليهم، فعلمهم الكتاب والحكمة والسنة والفرائض، وأدَّبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا، وزكّاهم لكيما يتطهروا. فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه، إنه حميد مجيد».

«ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا امرأين منهم صالحين عملا بالكتاب وأحسنا السيرة ولم يتعديا السنة، ثم توفاهما الله... ثم ولي من بعدهما والٍ أحدث أحداثاً، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا عليه فغيَّروا. ثم جاؤوني فبايعوني، فأستهدي الله الهدى وأستعينه على التقوى. ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله والقيام بحقه والنصح لكم بالغيب، والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

«وقد بعثتُ إليكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً فوازروه وأعينوه على الحق، وقد أمرتُه بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم. وهو ممن أرضى هَدْيَه وأرجو صلاحه ونصيحته، نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكتب عبيدالله بن أبي رافع، في صفر سنة ست وثلاثين».

و«لما فُرِغ من قراءة الكتاب قام قيس بن سعد خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«الحمد لله الذي أمات الباطل وأحيا الحق وكبت الظالمين، أيها الناس، إنّا بايعنا خير مَنْ نعلم بعد نبينا (ص)، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه، فإن نحن لم نعمل فيكم بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم».

«فقام الناس فبايَعوا، واستقامت له مصر وأعمالها، فبعث عليها عُمّاله، إلا أن قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة يقال له: يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس بن سعد: ألا إنّا لا نأتيك؛ فابعث عمالك، والأرض أرضك، ولكن أقرَّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس. ووثب مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري فنعى عثمان ودعا إلى الطلب بدمه. فأرسل إليه قيس: ويحك أعَلَيَّ تثب؟ ووالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلتك، فأحقن دمك. فأرسل إليه مسلمة: إني كافٌّ عنك ما دمتَ أنت والي مصر».

«وكان قيس له حزم ورأي، فبعث إلى الذين اعتزلوا: إني لا أُكْرِهكم على البيعة، ولكني أدعكم وأكف عنكم، فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلد، وجبى الخراج، وليس أحد ينازعه».

«وخرج أمير المؤمنين علي (ع) إلى الجمل، وهو على مصر، ورجع إلى الكوفة من البصرة وهو بمكانه، فكان أثقل خلق الله على معاوية، لقربه من الشام ومخافة أن يقبل إليه علي (ع) بأهل العراق ويقبل إليه قيس بأهل مصر فيقع بينهما. فكتب معاوية إلى قيس بن سعد وعليٌّ (ع) يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا آله إلا هو. أما بعد: فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثرة رأيتموها؛ أو في ضربة سوط ضربها؛ أو في شتمه رجلاً أو تعييره واحداً؛ أو في استعماله الفتيان من أهله، فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون إن دمه لم يحلّ لكم بذلك، فقد ركبتم عظيماً من الأمر وجئتم شيئاً إدّاً، فتب إلى ربك يا قيس إن كنتَ من المجلبين على عثمان إن كانت التوبة من قتل المؤمن تغني شيئاً. وأما صاحبك فإنّا قد استيقنّا أنه أغرى الناس به وحملهم على قتله حتى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عُظم قومك. فإن استطعتَ يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل وبايعْنا على أمرنا هذا ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرتُ ما بقيتُ، ولمن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني من غير هذا ما تحب فإنك لا تسألني من شيء إلا أوِتيتَه، واكتب إليَّ برأيك فيما كتبتُ به إليك. والسلام».

«فلما جاء قيساً كتابُ معاوية أحبَّ أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يعجل له حرب، فكتب إليه:

«أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ من قتل عثمان، وذلك أمر لم أقاربه، وذكرتَ أن صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان ودسَّهم إليه حتى قتلوه، وهذا أمر لم أطلع عليه، وذكرتَ أن عُظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان فلعمري أن أَوْلى الناس كان في أمره عشيرتي. وأما ما سألتني من متابعتك على الطلب بدمه وعرضتَ عليَّ ما عرضت فقد فهمتُه، وهذا أمر لي فيه نظر وفكر، وليس هذا مما يعجل إليه، وأنا كافٌّ عنك وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتى ترى ونرى. والسلام».

«فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقارباً مباعداً، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مخادعاً مكايداً، فكتب إليه معاوية أيضاً:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلماً، ولم أرك تتباعد فأعدك حرباً، أنت هاهنا كجملٍ جرور، وليس مثلي مَنْ يُصانَع بالخدائع ولا يختدع بالمكائد؛ ومعه عدد الرجال وأعنَّة الخيل. فإن قبلتَ الذي عرضتُ عليك فلك ما أعطيتك، وإن أنت لم تفعل ملأتُ عليك مصر خيلاً ورجلاً. والسلام».

«فلما قرأ قيس بن سعد كتاب معاوية وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة أظهر له ما في قلبه، فكتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فالعجب من استسقاطك رأيي واغترارك بي وطمعك في أن تسومني ـ لا أبا لغيرك ـ الخروج من طاعة أَوْلى الناس بالأمر وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلاً وأقربهم من رسول الله (ص) وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلاً وأبعدهم من رسول الله (ص) وسيلة، ولديك قوم ضالون مضلون طواغيت إبليس. وأما قولك: إنك تملأ عليَّ مصر خيلاً ورجلاً، فلئن لم أشغلك عن ذلك حتى يكون منك إنك لذو جدٍّ. والسلام».

«فلما أتى معاويةَ كتابُ قيس بن سعد أيس منه وثقل مكانه عليه، وكان أن يكون بالمكان الذي هو به غيره أحبَّ إليه، واشتد على معاوية لما يعرف من بأسه ونجدته، فأظهر للناس قِبَله إن قيساً قد بايعكم فادعوا الله له، وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه، واختلق معاوية كتاباً نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلى الأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد، أما بعد: فإن قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرتُ لنفسي وديني لم أر يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، ونستغفر الله لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وأنني قد ألقيتُ إليكم بالسلم وأجبتُك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم، فعوِّل عليَّ فيما أحببتَ من الأموال والرجال أعجله إليك إن شاء الله تعالى. والسلام».

ويقول الزهري في شرح هذه الأكذوبة المنسوبة إلى قيس فيما رواه الطبري عنه: إن معاوية كان يحدث جلاّسه قائلاً: «ما ابتدعتُ مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدةٍ كدتُ بها قيساً من قبل عليٍّ وهو بالعراق حين امتنع مني قيس. قلت لأهل الشام: لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة، يأتينا كيِّسِ نصيحته سراً، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا، يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمِّن سِرْبهم، ويُحسن إلى كل راكب قدم عليه منهم، لا يستنكرونه في شيء... قال معاوية: وهممتُ أن أكتب بذلك إلى شيعتي من أهل العراق فيسمع بذلك جواسيس عليٍّ عندي وبالعراق».

وقال أبو إسحاق الثقفي في تكملة ما تقدم:

«فشاع في أهل الشام كلها أن قيساً صالح معاوية، فسرحت عيون علي بن أبي طالب (ع) إليه بذلك، فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره وتعجب له، ودعا ابنيه الحسن والحسين وابنه محمداً ودعا عبدالله بن جعفر فأعلمهم بذلك وقال: ما رأيكم؟، فقال عبدالله ابن جعفر: يا أمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، أعزل قيس بن سعد عن مصر. فقال لهم: إني والله لا أصدِّق بهذا على قيس. فقال له عبدالله بن

جعفر: أعزله يا أمير المؤمنين؛ فوالله إن كان ما قد قيل حقاً لا يعتزلك إن عزلتَه».

«وإنهم لكذلك إذ أتاهم كتاب من قيس بن سعد، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني أخبر أمير المؤمنين (أكرمه الله) إن قِبَلي رجالاً معتزلين سألوني أن أكفَّ عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويرون، وقد رأيتُ أن أكف عنهم وألاّ أعجل، وأن أتألّفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يُقبِل بقلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله. والسلام».

«فقال له عبدالله بن جعفر: ما أخوفني يا أمير المؤمنين أن يكون هذا مما أتهم عليه، إنك إن أطعته في تركهم وأعتزالهم استشرى الأمر وتفاقمت الفتنة وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها. ولكن مُرْهُ بقتالهم».

«فكتب إليه علي (ع): بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فسِرْ إلى القوم الذين ذكرتَ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فناجزهم، والسلام».

«فلما أتى قيسَ بن سعد الكتاب فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد يا أمير المؤمنين، فالعجب لك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ولم يمدوا إليك يداً للفتنة ولا أرصدوا لها، فأطعني يا أمير المؤمنين وكفَّ عنهم فإن الرأي تركهم يا أمير المؤمنين. والسلام».

«فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبدالله بن جعفر: يا أمير المؤمنين؛ أبعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفك أمرها وأعزل قيساً، فوالله لبلغني أن قيساً يقول: أن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء، والله ما أحب أن لي سلطان الشام مع سلطان مصر وأني قتلتُ ابن مخلد».

«فبعث علي بن أبي طالب (ع) محمد بن أبي بكر إلى مصر وعزل قيساً، وكتب معه إلى أهل مصر كتاباً. فلما قدم على قيس قال له قيس: فما بال أمير المؤمنين؟ ما غيَّره؟ أدخل أحدٌ بيني وبينه؟، قال: لا، وهذا السلطان سلطانك ـ وكان بينهما نسب؛ إذ كانت تحت قيس قريبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق، فكان قيس زوج عمته ـ. فقال قيس: لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة، وغضب حين عزله علي (ع) عنها، فخرج منها مقبلاً إلى المدينة، ولم يمض إلى علي (ع) بالكوفة».

وجاء في إحدى الروايات: إن قيساً لما خرج عن مصر مَرَّ بأهل بيتٍ من بلقين فنزل بينهم، فنحر لهم صاحب المنزل جزوراً فأتاهم بها... فلما كان الغد نحر لهم أخرى، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث فنحر لهم ثالثة... فما أراد أن يرتحل ـ وكان جواداً ـ وضع عشرين ثوباً من ثياب مصر وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل وقال لها: إذا جاء صاحبك فادفعي هذه إليه. وخرج قيس بن سعد فما أتت عليه إلا ساعة حتى لحقه الرجل صاحب المنزل على فرسه ومعه رمح، والثياب والدراهم بين يديه، فقال: يا هؤلاء خذوا ثيابكم ودراهمكم، فقال قيس: انصرف أيها الرجل فإنّا لم نكن لنأخذها، فقال الرجل: والله لتأخذنَّها. فعجب قيس ثم قال: لله أبوك! ألم تكرمنا وتحسن ضيافتنا فكافأناك؛ فليس بهذا بأس. فقال الرجل: إنّا لا نأخذ لِقرى ابن السبيل والضيف ثمناً؛ والله لا أفعل ذلك أبداً. فقال قيس: أما إذ أبى ألاّ يأخذها فخذوها، فوالله ما فضلني رجل من العرب قط غيره».

«ثم أقبل قيس حتى دخل المدينة، فجاءه حسان بن ثابت شامتاً به ـ وكان عثمانياً ـ فقال له: نزعك علي بن أبي طالب وقد قتلتَ عثمان، فبقي عليك الإثم ولَمْ يُحسن لك الشكر. فزجره قيس وقال له: يا أعمى

القلب؛ يا أعَمى البصيرة، والله لولا أن أُلقي بين رهطي ورهطك حرباً لضربتُ عنقك، أخرج عني».

وروى البلاذري بسنده عن صاحب كيسان قال: لما عزل علي (ع) قيس بن سعد عن مصر لحق بالمدينة وبها مروان والأسود بن أبي البختري، فتوجس منهما الشر «فركب راحلته وأتى علياً. فكتب معاوية إلى مروان والأسود يعنفهما ويقول: أمددتما علياً بقيس ورأيه ومكيدته، والله لو أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لي من إخراجكما قيساً إليه»[١].

وهكذا حاول معاوية وابن العاص ومن يدور في فلكهما أن ينتصروا بالكذب والتلفيق، بعد اليأس من خداع الجماهير المسلمة باحبولة المطالبة بدم عثمان وثأره، وأن يستغلوا المكائد والحيل للتمهيد لبغيهم الجديد الذي بدأوا الإعداد له بعد فشل لعبة (الجمل) التي تصدر واجهتها المكشوفة طلحة والزبير وأم المؤمنين.

وعلى الرغم من أن أمير المؤمنين (ع) لم يصدِّق أكذوبة معاوية على لسان قيس ولم تنطل عليه أبعاد المؤامرة، فقال من خُدِع بكتاب قيس المفتعل على لسانه: «ويحكم، أنا أعلم بقِيس، إنه والله ما غَدَر، ولكنها إحدى فعلاته»[٢]. ولكن أصحابه وخاصته ـ وقد لفتهم عاصفة المؤامرة وردة فعلها العنيفة ـ كانوا يصرون على عزله، وكان علي (ع) في الوقت نفسه يعلم في ضوء ما تسرَّب إليه من أخبار الشام عزم معاوية

(١) يراجع في النصوص التاريخية المتقدمة: الغارات: ١/٢٠٨ ـ ٢٢١ وتاريخ الطبري: ٤/٤٤٢ و٥٤٧ ـ ٥٥٥ و٥/ ٩٤ وأنساب الأشراف: ٢/٣٠١ و٣٩٠ و٣٩٢ وكامل ابن الأثير: ٣/١٠٣ و١٣٦ ـ ١٣٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/٥٧ ـ ٦٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/١١٠.

(٢) أنساب الأشراف: ٢/٤٠٥.

على معاودة الحرب تحت أي ذريعة من الذرائع، فلم يكن هناك بد لدى الخلافة الراشدة من اتخاذ الحيطة والإعداد المقابل لهذا التمرد الجديد كي لا يؤخذوا على حين غَّرة، فدعا علي (ع) من كان معه من المهاجرين والأنصار إلى الاجتماع، وبدأ خطابه فيهم بحمد الله تعالى والثناء عليه، ثم قال:

«أما بعد: فإنكم ميامين الرأي مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر. وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم».

فتكلم بعض الحاضرين، «ثم قام قيس بن سعد بن عبادة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرِّد، فوالله لَجِهادُهم أحبُّ إليَّ من جهاد الترك والروم، لإدهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد (ص) من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيَّروه، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم ـ فيما يزعمون ـ قطين، قال: يعني رقيق».

فقال أشياخ الأنصار ـ منهم خزيمة بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وغيرهما لقيس ـ: لِمَ تقدمتَ أشياخ قومك وبدأتهم يا قيس بالكلام؟، فقال: أمّا أني عارف بفضلكم معظّم لشأنكم، ولكني وجدتُ في نفسي الضغن الذي جاش في صدوركم حين ذُكِرَت الأحزاب»[1].

وأعلن كل واحد من كبار القادة رأيه فيما هم مقدمون عليه، وكانوا مجمعين على وجوب صدِّ البغي والثبات له على كل حال.

---

(١) وقعة صفين: ٩٢ ـ ٩٣، وقريب من ألفاظه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

ثم بدأ التأهب للحرب في الكوفة على قدم وساق، وجعل علي (ع) «على رجّالة البصرة قيس بن سعد، وكان قد أقبل من مصر إلى صفين»، وتقول إحدى الروايات: إن «قرّاء العراق كانوا مع ثلاثة نفر: عمار وقيس بن سعد وعبدالله بن بديل»[١].

وكان مما أُثِر عن قيس من الشعر خلال هذه الحرب قوله فيها وقد أنشده بين يدي علي (ع):

قلتُ لما بغى العدو علينا ... حسبنا ربنا ونعم الوكيلُ
حسبنا ربنا الذي فتح النصـ ... ـرَ وبالأمس والحديثُ طويلُ
وله شكر ما مضى وعلى ذا ... إن هذا من شكره لقليلُ
وعليٌّ إمامُنا لا سواه ... في كتاب أتى به التنزيلُ
حين قال النبي: مَنْ كنتُ مولا ... ه عليٌّ مولاه هذا دليلُ
إن ما قاله النبي على الأمَّـ ... ـة فرض ما فيه قال وقيلُ
يا ابن هند أين الفرار من المو ... ت وللموت في الفجاج ذيولُ
ولواء النبي يخفق في كفٍّ ... عليٌّ نصيرُه جبريلُ
ثم حامت عليه من سلف الخز ... رج قوم كأنهم إكليلُ
عند ذاك العيان يخلفه الظنُّ ... وما غيره هناك سبيلُ[٢]

وزحف الجيشان وبدأت الحرب، والتحم الطرفان في معركة ضروس غَمَّ معاويةَ ما لقي فيها من بواسل الأوس والخزرج وهو يراهم يزدحمون في مقدمة جيش علي (ع) في الوقت الذي لم يكن مع أهل

---

(١) وقعة صفين: ٢٠٨ و٢٣٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ١١ و١٥ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٠٣ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٥٠ ـ ١٥١ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٩ و٥/ ١٧٨.

(٢) يراجع في هذه الأبيات كلاً أو بعضاً: فتوح ابن أعثم: ٣/ج٦١ والفصول المختارة: ٢/ ٨٧ وتذكرة الخواص: ٣٨ وبحار الأنوار: ٣٧/ ١٥٠ والغدير: ٢/ ٦٧.

الشام منهم سوى النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد؛ «فقال لأصحابه: أما والله لألقينهم بحدي وحديدي»، ثم ذكر الأنصار بسوء وعابَهم بأكل التمر والطفيشل. فلما انتهى كلامه إلى الأنصار جمعهم قيس بن سعد وقام فيهم خطيباً فقال:

«إن معاوية قال ما بلغكم... ولعمري إن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه أمس، وإن وترتموه في الإسلام فقد وترتموه في الشرك، ومالكم إليه من ذنب، أعظم من نصر هذا الدين، فجدُّوا اليوم جدّاً تُنْسونه به ما كان أمس، وجدُّوا غداً جداً تنسونه به ما كان اليوم، فأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل، والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب. فأما التمر فإنَّا لم نغرسه ولكن غلبنا عليه مَنْ غرسه، وأما الطفيشل فلو كان طعامنا لسُمِّينا به كما سميت قريش بسخينة».

«فقال الأنصار: يا ابن سيد الخزرج؛ مُرْنا بأمرك فها نحن بين يديك»، فكتب قيس بن سعد إلى معاوية:

يا ابن هندٍ دع التوثُّبَ في الحر ... ب إذا نحن بالجياد سرينا
نحن منك الغداة أقرب من أمـ ... ـس وقد قرَّب القنا عسكرينا
نحن مَنْ قد رأيتَ فادنُ إذا شئـ ... ـت بمن شئت في الحروب الينا[1]
إن برزنا في الجمع نلقك في الجمـ ... ـع وندعو في حربنا أبَوَينا
أو تشأ فارس له فارس مِنـ ... ـنا وإن شئت باللفيف التقينا
أي هذين شئتَه فخُذَنْهُ ... ليس منّا وليس منك الهُوَينى

(١) وفي رواية أخرى لهذا البيت:
نحن من قد علمتَ فادن إذا شئـ ... ـتَ بمن شئت من العجاج إلينا

ثم لا تبرح العجاجة حتى ... تنجلي حربنا لنا أم علينا
ليست ما تطلب الغداة أتانا ... أنعم الله بالشهادة عينا
إننا إننا الذين لك بالفتـ ... ـح شهدنا وخيبَراً وحنينا
بعد بدر وتلك قاصمة الظهـ ... ـر وأُحدٍ وبالنضير ثنينا
يوم كان الأحزاب قد علم النا ... سُ شفينا من قبلكم واشتفينا[1]

«فلما انتهى هذا الشعر إلى معاوية أرسل إلى وجوه الأنصار الذين هم مع علي بن أبي طالب (ع) فشكا إليهم من قيس بن سعد فمشت الأنصار إلى قيس... فقالوا: يا هذا؛ إن معاوية وإن كان عدواً لنا فإنه لا يريد شتمنا فكفَّ عنه ولا تذكره. فقال قيس: كلا؛ إني لا أمسك عن شتمه أبداً حتى ألقى الله»[2]. وفي لفظ نصر بن مزاحم أن قيساً قال: «أن مثلي لا يشتم، ولكني لا أكف عن حربه حتى ألقى الله»[3].

«وتحركت الخيل من نحو معاوية فظن قيس بن سعد أن معاوية فيها، فاستوى على فرسه وحمل على خيل معاوية حتى خالطها، ثم حمل على رجل منهم فقنعه بالسيف وهو يظن إنه معاوية، فإذا هو غير معاوية، ثم قنع آخر فقتله، وقنع ثالثاً فقتله. فتحاماه الناس، وصاح معاوية: ويحكم يا أهل الشام؛ إذا رأيتم هذا الرجل في الحرب فاحترسوا منه فإنه والله الأسد الضرغام. ورجع قيس بن سعد إلى موقفه»[4] وهو يقول:

قولوا لهذا الشاتمي معاويَهْ ... إنْ كلُّ ما أوعدتَ ريح هاويَهْ

---

(١) وقعة صفين: ٤٤٦ ـ ٤٤٧ وفتوح ابن أعثم: ٣/ ١٨١ ـ ١٨٢، ومعظم الشعر في نهج البلاغة: ٨/ ٨٥ ـ ٨٦.
(٢) وقعة صفين: ٤٤٧.
(٣) وقعة صفين: ٤٤٧.
(٤) فتوح ابن أعثم: ٣/ ١٨٣.

خــوَّفــتَــنــا أكــلــب قــوم عــاويــه إليَّ يـا ابـن الـخـاطـئـين الـمـاضـيـه
تـرقـل إرقـال الـعـجـوز الـجـاريـه في أثـر الـسـاري لـيـالي الـشـاتـيـه[1]

«ثم إن معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السلم. فخرج النعمان حتى وقف بين الصفين فقال: يا قيس، أنا النعمان بن بشير. فقال قيس: هيه يا ابن بشير فما حاجتك؟. فقال النعمان: يا قيس؛ إنه قد أنصفكم من دعاكم إلى ما رضي لنفسه، ألستم معشر الأنصار تعلمون إنكم أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار وقتلتم أنصاره يوم الجمل وأقحمتم خيولكم على أهل الشام، فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علياً لكانت واحدة بواحدة، ولكنكم خذلتم حقاً ونصرتم باطلاً، ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أعلمتم في الحرب ودعوتم إلى البراز، ثم لم ينزل بعليٍّ أمرٌ قط إلا هوَّنتم عليه المصيبة ووعدتموه بالظفر. وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم، فاتقوا الله في البقية».

«فضحك قيس ثم قال: ما كنتُ أراك يا نعمان تجترىء على هذه المقالة. إنه لا ينصح أخاه من غشَّ نفسه، وأنت والله الغاش الضال المضل. أما ذكرك عثمان فإن كانت الأخبار تكفيك فخذها مني، واحدة: قتل عثمانَ مَنْ لست خيراً منه وخذله من هو خير منك. وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث. وأما معاوية فوالله أن لو اجتمعت عليه العرب قاطبة لقاتَلَتْه الأنصار. وأما قولك: إنَّا لسنا كالناس؛ فنحن في هذه الحرب كما كنّا مع رسول الله (ص) نتَّقي السيوف بوجوهنا والرماح بنحورنا حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن أنظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أو أعرابياً

(١) وقعة صفين: ٤٤٨.

أو يمانياً مستدرَجاً بغرور، أنظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان الذين رضي الله عنهم، ثم أنظر هل ترى مع معاوية غيرك وصُوَيحبك، ولستما والله ببدريين ولا عَقَبيين ولا أُحديين، ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن، ولعمري لئن شغبتَ علينا لقد شغب علينا أبوك»[١].

«فانصرف النعمان بن بشير إلى عسكره وهو يقول: لقد كنت غنياً عن كلامك يا ابن سعد، وانصرف قيس بن سعد إلى عسكره وهو يقول:

والراقصات بكل أشعث أغبر ... خوص العيون تحثها الركبانُ
ما ابن المخلد مفلتاً أسيافنا ... في من نحاربه ولا النعمانُ
تركا العيان وفي العيان كفاية ... لو كان ينفع صاحبيه عيانُ[٢]

وجاء في إحدى روايات ابن أعثم: أن بسر بن أبي أرطأة قال لمعاوية في يوم من أيام صفين: «ما لي أراك منكسر القلب؟... فقال معاوية: إن علياً يطول عليَّ بخصال شتى: بقرابته من الرسول؛ وقدمته في الإسلام؛ وبأسه في الحرب. فقال عمرو بن العاص: إنك إذا نظرتَ في هذا فإن له من الفضائل ما لا تحصى، أبوه سيد في بني هاشم، وأمه سيدة في بني هاشم، وهو فقيه في حجر قريش، وقد بايعه المهاجرون والأنصار، ولكن والله لنقاتلنه أو نرده على عقبيه صاغراً خزياً!!. فلما سمع معاوية ذلك اشتد ظهره واجترأ على الحرب».

---

(١) وقعة صفين: ٤٤٩ والإمامة والسياسة: ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣ وفتوح ابن أعثم: ٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) وقعة صفين: ٤٤٩ ـ ٤٥٠ والأبيات الثلاثة فيه، وهي ثمانية في فتوح ابن أعثم: ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ولكنها لم تخل فيه من بعض التحريف والتصحيف.

«فبلغ ذلك أصحاب علي (ع) فقام قيس بن سعد بن عبادة إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين؛ لا يهولنك أمر ابن آكلة الأكباد ومن معه من أصحابه، فوالله إنّا لو قُتلنا عن آخرنا حتى لا يبقى منا أحد لعلمنا أننا على بصيرة من ديننا ويقين من أمرنا. . .، فأثنى عليه علي (ع) وعلى قومه من الأنصار ثناء حسناً. فأنشأ قيس بن سعد يقول:

نُـبِّـئْـتُ يـسـراً أطـال الله شـقـوتـه قال المحال وعمراً دعوة العاص
في عصبة الشام منهم كل ذي جنفٍ عاتي المقالة عند الحرب حيّاص
قروا طليقاً لأمر، ليس رغبتهم إلا الفجور على ذي رغبة حاصي
والـراقـصـات بـأشـيـاخ مـحـلـقـة صلع الرؤوس كبيض الرأل جرياص
ما في عليٍّ لأهل الشام من طمع ليث العرين وأفعى بين أعياصِ
كم من قتيل لأهل الشام قد سُلبتْ عنه الشياب كزقٍّ سائل شاص
لا تحسبنْ يا ابن هند في عداوتكم كالمرء سعدٍ أبي الزهري وقّاص
أو تـحـسـبـنّـي كـعـبـدالله فـي نـفـرٍ بـاعـوا عـلـيـاً بـودّان ومـقـلاص
أو كابن مسلمة الراضي بشبهته لله فـيـمـا يـمـاري ربَّـه عـاصـي
فالحرب توقدها الأنصار مشعلة والطيبون رجال غير أنكاص[1]

وروى نصر بن مزاحم قال:

«لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيدالله بن عمر بن الخطاب دعا عَمرو بن العاص وبسرَ بن أرطأة وعبيدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد فقال لهم: إنه قد غمّني رجال من أصحاب علي منهم سعيد بن قيس في همدان؛ والأشتر في قومه؛ والمرقال؛ وعدي بن حاتم؛ وقيس بن سعد في الأنصار؛. . . وقد

(١) فتوح ابن أعثم: ٣/ ٢١٠ ـ ٢١٢.

عبَّأْتُ لكل رجل منهم رجلاً منكم، فاجعلوا ذلك إليَّ. فقالوا: ذلك إليك. قال: فأنا أكفيكم سعيد بن قيس وقومه غداً، وأنت يا عمرو لأعور بني زهرة المرقال، وأنت يا بسر لقيس بن سعد، وأنت يا عبيدالله للأشتر النخعي، وأنت يا عبد الرحمن بن خالد لأعور طيّىء يعني عدي بن حاتم»[1].

«وأن بسر بن أرطأة غدا في اليوم الثالث في حمأة الخيل، فلقيَ قيس بن سعد في كماة الأنصار، فاشتدت الحرب بينهما، وبرز قيس كأنه فنيق مُقْرَم وهو يقول:

أنا ابن سعدٍ زانه عُبَادَهْ ... والخزرجيون رجال سادَهْ
ليس فراري في الوغى بعادَهْ ... يا رب أنت لَقِّني الشهادة
شهادة تتبعها سعاده ... والقتل خيرٌ من عناق غاده
حتى متى تُثْنى ليَ الوساده

«وطال عن خيل بسر، وبرز له بسر بعد مليٍّ... فطعن بسرقيساً فضربه قيس فردَّه على عقبيه، ورجع القوم جميعاً ولقيس الفضل»[2].

و«لما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمداني في همدان؛ وتقدم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في الأنصار وربيعة، وعدي بن حاتم في طيىء ـ وسعيد بن قيس الهمداني في أول الناس ـ فخلطوا الجمع بالجمع»[3]، «وكان علي (ع) قد أخرج في ذلك اليوم لواء رسول الله (ص) ولم يخرجه قبل ذلك، فدفعه إلى قيس بن سعد بن عبادة، فلما

---

(١) وقعة صفين: ٤٢٦ ـ ٤٢٧ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٦٩.
(٢) وقعة صفين: ٤٢٨ ـ ٤٢٩ وفتوح ابن أعثم: ٣/ ٦١ ـ ٦٢ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٧٠ ـ ٧١.
(٣) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٤.

رآه المسلمون صرخوا وبكوا، واجتمع تحته أهل بدر والأنصار والمهاجرون[١]، وقيس بن سعد يقول:

ما ضرَّ من كانت الأنصار عصبته (عيبته)
أن لا يكون له من غيرهم أحدُ
قوم إذا حاربوا طالت أكفُّهم
بالمشرفية حتى يُفْتَح البلدُ
والناس حزب لنا في الله كلهم
مستجمعون فيما ناموا ولا رقدوا
هذا اللواء الذي كنّا نحفُّ به
مع النبي وجبريل له مددُ
فاليوم ننظره حتى يقيم له
أهل الشنان ومَنْ في دينه أودُ
أهل الصلاة قتلناهم ببغيهم
والمشركون قتلناهم بما جحدوا
حتى تُطيعوا علياً إن طاعته
دين عليه يثيب الواحد الصمدُ
مَنْ ذا له في قريش مثل حالته
في كل معمعةٍ أو مثله أحدُ
لو عدَّد الناس ما فيه لما برحتْ
تُثْنى الخناصر حتى ينفد العددُ
هلاّ سألتَ بنا والخيل سائحة
تحت العجاجة والفرسان تطّردُ
وخيل كلب ولخم قد أضرَّ بها
وقاعُنا إذ غدوا للموت فاجتلدوا

(١) تذكرة الخواص: ١٠١.

مَـنْ كـان أصـبـر فـيـهـا عـنـد أزمـتـهـا
إذا الـدمـاء عـلـى أجـسـادهـا جـسـدُ[١]

«ثم اتصل القتال إلى الليل وكانت ليلة الجمعة، فاقتتلوا طول الليل، وهي ليلة الهرير... وهي الثامنة والعشرون من صفر»[٢].

وروى المؤرخون فيما رروا من أخبار صفين: إن قيس بن سعد كتب إلى معاوية كتاباً خلال هذه الحرب فيه شعرٌ مطلعهُ:

معاوي قد كنتَ رجو الخناق ... فألقحتَ حرباً تضيق الخناقا
تشيب النواهد قبل المشيب ... متى ما تذقها تذم المذاقا
فإن تكن الشام قد أُصفيتْ ... عليك ابن هندٍ فإن العراقا
أجابت علياً إلى دعوة ... تعز العدا وتذل النفاقا
أتتك الرجال رجال العراق ... تقود إلى الشام خيلاً عتاقا
لحاق الأياطل قب البطون ... تعيب الحزونة سهلاً رقاقا
دعاهم عليٌّ إلى خطةٍ ... أتوه المقاد له والمساقا
فنحن الفوارس يوم الزبيرِ ... وطلحة إذ أبدت الحرب ساقا
ودارت رحاها على قطبها ... ودارت كؤوس المنايا دهاقا
خضبنا الرماح وبيض السيوف ... وكان النزال هناك اعتناقا
وأنتم صباحاً غداً مثلهم ... وبزل الجمال تزمُّ الخفاقا[٣]

(١) فتوح ابن أعثم: ٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢، والأبيات ١ و٢ و٤ في الاستيعاب: ٣/ ٢٢١ والجمل: ٣٤٣ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٦، والبيتان ١ و٤ في تذكرة الخواص.
(٢) تذكرة الخواص: ١٠١.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٤١.

وانتهت حرب صفين ـ كما يعلم المطلعون ـ نهايتها المأساوية المعروفة؛ وعاد المقاتلون إلى الكوفة، فوجد الخوارج في تلك النهاية فرصتهم الملائمة لإعلان مروقهم وتمردهم على قيادتهم الشرعية، فعاثوا في البلاد فساداً بما استحلوا من دماء المؤمنين وأموالهم، ثم بدأوا يتجمعون خارج الكوفة للحرب والمواجهة والمجاهرة بالبغي، فقرر عليّ(ع) التصدي لهم حماية لأرواح الناس ووأداً للانحراف في مهده، وعبأ جيشه للقيام بهذا الواجب الشرعي، و«قدَّم قيس بن سعد بن عبادة، وأمره أن يأتي المدائن فينزلها حتى يأمره بأمره، ثم جاء أمير المؤمنين مقبلاً إليهم، ووافاه قيس وسعد بن مسعود الثقفي بالنهر، وبعث إلى أهل النهر: ادفعوا إلينا قَتَلَة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم، فلعل الله يقلّب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم. فبعثوا إليه فقالوا: كلنا قَتَلَتُهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم». فانبرى لهم قيس بن سعد ـ وكان يومذاك على شرطة عليّ في الكوفة بعد صفين ـ فقال لهم: «عباد الله؛ اخْرِجوا إلينا طَلِبَتنا منكم، وأدخلوا في هذا الأمر الذي منه خرجتم، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر: تشهدون علينا بالشرك والشركُ ظلمٌ عظيم، وتسفكون دماء المسلمين وتعدُّونهم مشركين. فقال

له عبدالله بن شجرة السُّلَمي: إن الحق قد أضاء لنا فلسنا نتابعكم»[(١)].

وقامت الحرب بعد فشل جهود الإصلاح والهداية، وانتهت بالقضاء على تمرد المارقين إذ ردهم الله على أعقابهم خاسئين مدحورين.

❀ ❀ ❀

ثم عاد علي (ع) على أثر ذلك إلى متابعة ما بدأ به من إعداد العدة لجولة أخرى من الحرب مع أهل الشام بعد صفين، إرغاماً للبغاة على الفيء إلى حكم الله تعالى كما أمر في محكم كتابه، و«جعل قيسَ بن سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قِبَل أذربيجان وعلى أرضها، وكذلك على شرطة الخميس الذي ابتدعه من العرب، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً (ع) على الموت»[(٢)]. وفي لفظ ابن أبي الحديد: إن علياً (ع) كان على وشك العودة إلى صفين، «فعقد للحسين في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد آخرى... فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله»[(٣)] فخر صريعاً بسيف الغدر في محراب صلاته، وانقلبت الأوضاع العامة إلى حال الجمود والترقب انتظاراً لتطورات الموقف في ضوء توجيهات الخلافة الراشدة الجديدة.

وإتجه المسلمون وفي مقدمتهم أهل العراق إثر شهادة علي (ع) إلى

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٨٣ و٨٥ والإمامة والسياسة: ١/ ١٣٧ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٤ و١٧٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٠٣ والبداية والنهاية: ٨/ ١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٠.

ابنه الحسن (ع) فبايعوه إماماً لهم وخليفة عليهم[١]؛ لأنه ابن نبيهم ووصي إمامهم وأحد سيدي شباب أهل الجنة والمنصوص عليه في ذلك من قبل جده الأعظم (ص)[٢]، فخرج إلى الناس فخطبهم وتقبّلَ بيعتهم وتعازيهم إياه بأبيه، وجاء في بعض روايات الطبري: «إن أول من بايعه قيس بن سعد قال له: أبسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلّين. فقال له الحسن (ع): على كتاب الله وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط. فبايعه وسكت، وبايعه الناس»[٣].

وبعد أن تمت البيعة «بلغه مسير معاوية في أهل الشام إليه، فتجهّز هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً، وسار من الكوفة إلى لقاء معاوية وقد نزل مسكن»[٤]، و«عقد لقيس بن سعد بن عبادة على أثنى عشر ألفاً. . . وأمر قيس بن سعد بالمسير، وودَّعه وأوصاه»[٥]، وقام قيس قبل أن يغادر الكوفة وقام معه معقل بن قيس الرياحي وزياد بن صعصعة التيمي فحثوا الناس على الخروج وأعلنوا للحسن (ع) الإجابة والقبول[٦]، ثم أخذ قيس بالسير على جانب الفرات وقرى الفلوجة حتى مسكن[٧]. وخرج الحسن (ع) يريد المدائن حتى نزل دير عبد الرحمن، «فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس، ثم دعا عبيدالله بن العباس بن عبد المطلب فقال له: يا ابن عم؛ إني باعث إليك إثنى عشر ألفاً من

(١) العبر: ١/ ٣٥.
(٢) يراجع كتابنا الإمام الحسن بن علي (ع): ٧٤ ـ ٧٩.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٨، ويراجع في ذلك أيضاً: البداية والنهاية ٨/ ١٤.
(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٩.
(٥) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٦.
(٦) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٣٩.
(٧) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٦.

فرسان العرب وقرّاء المصر، الرجل منهم يزيد (يزن) الكتيبة، فسر بهم وألِنْ لهم جانبك... وليكن خبرك عندي «كل يوم، وشاور هذين ـ يعني قيس بن سعد وسعيد بن قيس ـ، وإذا لقيتَ معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، فإن فعل فقاتلْهُ. وإن أُصِبتَ فقيس بن سعد على الناس، وإن أُصِيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس»[1].

ووافى معاوية حتى نزل قرية بمسكن، «وأقبل عبدالله بن عباس حتى نزل بإزائه... فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيدالله بن عباس إن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلِّم الأمر إليَّ، فإن دخلتَ في طاعتي الآن كنتَ متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن إجبتَني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجِّل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلتُ الكوفة النصف الآخر. فانسلَّ عبيدالله إليه ليلاً فدخل عسكر معاوية، فوفى له بما وعده، وأصبح الناس ينتظرون عبيدالله أن يخرج فيصلي بهم، فلم يخرج حتى أصبحوا، فطلبوه فلم يجدوه»[2]، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة، ثم خطبهم فثبتهم، وكان مما قال في خطابه:

«أيها الناس؛ لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع ـ أي الجبان ـ، إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيرٍ قط، أن أباه عم رسول الله (ص) خرج يقاتله ببدر فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، فأتى به رسول الله (ص) فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين، وإن أخاه ولاّه علي أمير المؤمنين على البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين، فاشترى به الجواري وزعم أن ذلك له حلال، وإن هذا ولاّه على اليمن فهرب من بسر بن أرطاة وترك ولده حتى قُتِلوا، وصنع

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٠، وبعضه في مقاتل الطالبيين: ٦٢.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٦٥ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٢.

الآن هذا الذي صنع. فتنادى الناس: الحمد لله الذي أخرجه من بيننا، فانهض بنا إلى عدونا»(١).

«وجعل قيس بن سعد ينتظر الحسن بن علي أن يقدم عليه وهو لا يعلم ما الذي نزل به. فبينا هو كذلك إذ وقع الخبر في العسكرين إن الحسن بن علي قد طُعِن في فخذه؛ وإنه قد تفرق عنه أصحابه، فاغتم قيس بن سعد، وأراد أن يشغل الناس بالحرب لكي لا يذكروا هذا الخبر، فزحف القوم بعضهم إلى بعض فاختلطوا للقتال، فقُتِل من أصحاب معاوية جماعة وجرح منهم بشر كثير، وكذلك من أصحاب قيس بن سعد، ثم تحاجزوا».

«وأرسل معاوية إلى قيس فقال: يا هذا؛ على ماذا تقاتلنا وتقتل نفسك؟ وقد أتانا الخبر اليقين بأن صاحبك قد خلعه أصحابه وقد طُعن في فخذه طعنة أشفى منها على الهلاك، فيجب أن تكف عنا ونكف عنك إلى أن يأتيك علم ذلك».

«فأمسك قيس بن سعد عن القتال ينتظر الخبر، وجعل أهل العراق يتوجهون إلى معاوية قبيلة بعد قبيلة حتى خف عسكره، فلما رأى ذلك كتب إلى الحسن بن علي يخبره بما هو فيه، فلما قرأ الحسن الكتاب أرسل إلى وجوه أصحابه، فدعاهم ثم قال:

«يا أهل العراق؛ ما أصنع بجماعتكم معي؟، وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية، أما والله ما هذا بمنكر منكم لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفين على الحكمين، فلما أمضى الحكومة وقبل منكم اختلفتم، ثم دعاكم إلى قتال معاوية

(١) مقاتل الطالبيين: ٦٥.

ثانية فوانيتم، ثم صار إلى ما صار إليه من كرامة الله إياه، ثم إنكم بايعتموني طائعين غير مكرهين، فأخذتُ بيعتكم وخرجت في وجهي هذا، والله يعلم ما نويت فيه، فكان منكم إلى ما كان يا أهل العراق، فحسبي منكم لا تعزوني في ديني»[١].

«وخرج إليهم بسر بن أرطأة في عشرين ألفاً فصاحوا بهم: هذا أميركم قد بايع، وهذا الحسن قد صالح، فعلام تقتلون أنفسكم؟».

«فقال لهم قيس بن سعد بن عبادة: اختاروا إحدى اثنتين: إما القتال مع غير إمام؛ أو تبايعون بيعة ضلال. فقالوا: بل نقاتل بلا إمام. فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم».

«وكتب معاوية إلى قيس يدعوه ويمنّيه. فكتب إليه قيس: لا والله لا تلقاني أبداً إلا وبيني وبينك الرمح. فكتب إليه معاوية:

«أما بعد: فإنما أنت يهودي ابن يهودي، تشقي نفسك وتقتلها فيما ليس لك، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وعزلك، وإن ظهر أبغضهما إليك نكّل بك وقتلك، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ورمى غير غرضه فأكثر الحزَّ وأخطأ المفصل، فخذله قومه، وأدركه يومه، فمات بحوران طريداً غريباً والسلام».

فكتب إليه قيس بن سعد رحمه الله:

«أما بعد: فإنما أنت وثن ابن وثن من هذه الأوثان، دخلت في الإسلام كرهاً، وأقمت عليه فَرَقاً، وخرجت منه طوعاً، ولم يجعل الله لك فيه نصيباً، لم يقدم إسلامك ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حرباً لله ورسوله وحزباً من أحزاب المشركين، فأنت عدو الله ورسوله والمؤمنين

(١) فتوح ابن أعثم: ٤/١٥٦ ـ ١٥٧.

من عباده. وذكرت أبي ولعمري ما أوتر إلا قوسه ولا رمى إلا غرضه، فشغب عليه مَنْ لا تشق غباره ولا تبلغ كعبه وكان امرءاً مرغوباً عنه مزهوداً فيه. وزعمتَ إني يهودي ابن يهودي، ولقد علمتَ وعلم الناس أني وأبي من أنصار الدين الذي خرجتَ منه، وأعداء الدين الذي دخلت فيه وصرت إليه والسلام».

«فلما قرأ كتابه معاوية غاظه وأراد إجابته، فقال له عمرو: مهلاً، إن كاتبتَه أجابك بأشد من هذا».

ثم حدث الصلح بين الإمام الحسن (ع) ومعاوية، «وانصرف قيس فيمن معه إلى الكوفة»[١].

وجاء في بعض الروايات: إن معاوية راسل قيساً بعد الصلح يدعوه إلى طاعته، وأرسل إليه بسجل وخَتَم على أسفله، وقال له: اكتب في هذا ما شئت فهو لك، فقال عمرو لمعاوية: لا تعطه هذا وقاتِلْهُ. فقال معاوية: على رسلك؛ فإنا لا نخلص إلى قتلهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك، فإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بداً. فلما بعث إليه معاوية ذلك السجل اشترط قيس له ولشيعة علي (ع) الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال؛ ولم يسأل في سجله ذلك مالاً، وأعطاه معاوية ما سأل. ودخل قيس ومن معه في طاعته»[٢].

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال:

«لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية، أرسل إلى قيس بن سعد بن

(١) مقاتل الطالبيين: ٦٥ ـ ٦٧ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٣.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٤.

عبادة يدعوه إلى البيعة، فأتي به... فلما أرادوا أن يدخلوه إليه قال: إني قد حلفتُ أن لا ألقاه إلا وبيني وبينه الرمح أو السيف. فأمر معاوية برمح أو سيف فوضع بينه وبينه ليبر يمينه»(١).

وفي رواية أخرى له قال:

«أُدخِل قيس بن سعد ليبايع... فأُلقي لقيس كرسي، وجلس معاوية على سريره، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس؟، قال: نعم، فوضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية، فجثا معاوية على سريره وأكبَّ قيس حتى مسح يده على يده، فما رفع قيس إليه يده»(٢).

❀ ❀ ❀

ودخل قيس بعد حين من وقوع الصلح على معاوية؛ ومع قيس جماعة من الأنصار، فقال لهم معاوية: يا معشر الأنصار؛ بِمَ تطلبون ما قِبَلي؟، فوالله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً عليّ، وأفلَلتم حدي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى في أسنتكم، وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنة، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم: ارْعَ وصية رسول الله (ص)، هيهات؛ يأبى الحَقينُ العِذرة».

«فقال قيس: نطلب ما قِبَلَك بالإسلام الكافي به الله لا بما تمتُّ به إليك الأحزاب، وأما عداوتنا لك فلو شئتَ كففتَها عنك، وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ويثبت حقه، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منّا، وأما فلُّنا حدَّك يوم صفين فإنّا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة، وأما وصية رسول الله (ص) بنا فمن آمن به رعَاها بعده، وأما قولك: يأبى الحَقينُ العِذرة فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية».

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٧١ ـ ٧٢ ومثله في شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ٧٤.

«فال معاوية يُمَوِّه: ارفعوا حوائجكم»(١).

ثم ذكر معاوية علياً (ع) بمحضر قيس فقال: رحم الله أبا حسنٍ فلقد كان هشّاً بشّاً ذا فكاهة. قال قيس: نعم؛ كان رسول الله (ص) يمزح ويبتسم إلى أصحابه، وأراك تسرُّ حَسْواً في ارتغاء وتعيبه بذلك. أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أَهْيَبَ من ذي لبدتين قد مسَّه الطوى، تلك هيبة التقوى، وليس كما يهابك طغام أهل الشام»(٢).

❀ ❀ ❀

وحاول مرتزقة الأمويين ورواتهم المأجورون أن ينتقموا من قيس ومجابهاته العنيفة لمعاوية، فاختلقوا خبر السراويل المنسوب لقيس ووضعوا على لسانه الشعر المزعوم في هذه المناسبة: ليسيئوا إليه تنفيساً عن حقدهم عليه، وزعم قائلهم: إن قيساً كان يوماً في مجلس معاوية، «فقدم رسول ملك الروم يحمل كتاباً إليه يطلب فيه منه أن يبعث إليه بسراويل أطول رجل في العرب، فقال معاوية لقيس: ما أرانا إلا قد احتجنا إلى سراويلك ـ وكان قيس مديد القامة جداً لا يصل أطول الرجال إلى صدره ـ، فقام قيس فتنحّى ثم نزع سراويله فألقاها إلى معاوية، فقال له معاوية: لو ذهبتَ إلى منزلك ثم أرسلتَ بها إلينا. فأنشأ قيس يقول عند ذلك:

أردتُ بها كي يعلم الناس إنها ... سراويل قيس والوفود شهودُ
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه ... سراويل عاديٍّ نمته ثمودُ
وإن يمن الحيِّ اليمانيْ لَسَيّدٌ ... وما الناس إلا سيد ومسودُ

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١١١.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥.

إلى آخر الأبيات، وهي خمسة: وأضاف الراوي إلى ما تقدم: إن معاوية أمر أطول رجلٍ في الوفد أن يضعها على أنفه، فوضعها فوقعت بالأرض. «وعاتب الأنصار قيساً في خلعه سراويله بحضرة الناس، فقال ذلك الشعر المتقدم معتذراً به إليهم»[(١)].

وكان الحافظ ابن عبد البر القرطبي قد أورد هذه القصة والأبيات، وعلَّق عليها قائلاً: «قلتُ: أما هذا الخبر فمنكر ليس بصحيح ولا له أصل»[(٢)]، وقال الحافظ نفسه في ترجمة قيس في كتابه المعنيّ بالصحابة: «وخبره في السراويل عند معاوية كذب وزور مختلق، ليس له إسناد... وهي حكاية مفتعلة وشعر مزوَّر»[(٣)]. وذكر هذه القصة أيضاً ابن الأثير وقال راوياً عن ابن عمر: «خبره في السراويل عند معاوية باطل: لا أصل له»[(٤)].

❀ ❀ ❀

وفي سنة ٥٩ هـ أو ٦٠هـ[(٥)] رحل قيس بن سعد من دار الدنيا إلى عالم النعيم الإلهي والخلود الأبدي، بعد أن قضى عمره المبارك المديد في شرف الصحبة النبوية وخدمة الرسالة والرسول؛ وفي مقارعة الظلم والظالمين تحت راية الحق والإيمان؛ وفي الصدق والإخلاص فيما عاهد عليه ربه من الدفاع عن دين الله وإعلاء كلمته.

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٠١ ـ ١٠٢ ومصادر أخرى لغوية وتاريخية.
(٢) بهجة المجالس: ٢/ ١٧٠ ـ ١٧١.
(٣) الاستيعاب: ٣/ ٢٢٣.
(٤) أسد الغابة: ٤/ ٢١٦.
(٥) تاريخ خليفة بن خياط: ١/ ٢٧٣ وتاريخ بغداد: ١٧٩ والاستيعاب: ٣/ ٢١٩ وأسد الغابة: ٤/ ٢١٦ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٥٨ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١١٢ والبداية والنهاية: ٨/ ٩٩ و١٠٢ والإصابة: ٣/ ٢٣٩.

[٢٩]

ميثم بن يحيى التمّار

ميثم بن يحيى التمّار

مِيْثَم «بكسر الميم وسكون الياء المنقوطة من تحتها بنقطتين وفتح الثاء المنقوطة بثلاث»[1] بن يحيى التّمّار الكوفي الأسدي: صحابي صلب الإيمان راسخ الاعتقاد شديد الجرأة في المصارحة بالحق، وقد عُرِف في يومه بحبه البالغ وولائه المطلق لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، حتى أصبح من خاصة أصحابه الذين أطلعهم على كثير مما سمعه (ع) من النبي (ص) من أخبار الغيب وأنباء المستقبل وتطورات الشؤون العامة فيما يحدث في قادم الأيام[2].

وكان الحافظ أبو عمر القرطبي قد ذكر ميثماً ونصَّ على كونه من صحابة رسول الله (ص)، وقال بعد ذكره إياه: «لا أعرف له نسباً»[3]، ولعل منشأ الجهل بنسبه يعود إلى كونه قبل التحرير عبداً مملوكاً لم يعرف الناس أباه.

وكذلك روى ابن حجر العسقلاني وذكر معاصرته للنبي (ص) وأنه

---

(١) أنساب السمعاني: ٤/ ٣٨٣.

(٢) روى رجال الحديث: إن النبي (ص) قام في أصحابه يوماً خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلاّ أخبرهم به، وقد «حفظه من حفظه ونسيه من نسيه».
صحيح البخاري: ٤/ ١٢٩ وسنن أبي داوود: ٢/ ٤١٠ وسنن الترمذي: ٤/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ومسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٢٥٤، و٥/ ٣٨٥ و٣٨٩ و٤٠١.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ٤٨٧.

كان «يمكنه أن يسمع منه»[١]، ولكن المحدِّثين لم يسندوا له حديثاً أو سماعاً منه، وربما يكون عدم السماع راجعاً إلى كون ميثم ـ في أيام استرقاقه ـ مقيماً في الكوفة بعيداً عن المدينة المنورة.

وأجمل المحدث القندوزي ذلك كله بقوله: «كانت له صحبة»[٢].

❀ ❀ ❀

وتقول الروايات التاريخية: إن هذا الصحابي كان مولًى لامرأة من بني أسد في الكوفة، ولذلك لُقِّب بـ«الأسدي» ودخل في عداد الأسديين بالولاء؛ على عادة العرب في التعامل مع مواليهم، ثم اشتراه علي (ع) من سيدته الأسدية وأعتقه، وقال له بعد شرائه وعتقه ما اسمك؟، قال: سالم. فقال له علي (ع): أخبرني رسول الله (ص) أن أسمك الذي سمّاك به أبواك: ميثم. قال: صدق الله ورسوله وصدقتَ يا أمير المؤمنين، فهو والله إسمي. قال: فارجع إلى إسمك الذي سمَّاك به رسول الله (ص) ودع سالماً. فرجع ميثم إلى اسمه الأول الأصيل، واكتنى بأبي سالم[٣].

❀ ❀ ❀

ولد ميثم في تاريخ لم أقف على خبره على وجه العلم واليقين، ولم أجد ذكراً في المصادر لعمره يوم شهادته ليتضح منه تاريخ مولده، غير أني أستطيع القول بأن ذلك كان قبل الهجرة بعدة سنوات، لأنه

(١) الإصابة: ٣/ ٤٤٨ و٤٧٩.

(٢) ينابيع المودة: ٦.

(٣) الإرشاد: ٣٢٣ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩١ والإصابة: ٣/ ٤٧٩ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٢٤.

المستفاد من نص المؤرخين على كونه صحابياً معاصراً لعهد الرسالة كما تقدم، ومما روي من أن أم المؤمنين أم سلمة قالت له لما زارها في المدينة: «لربما سمعتُ من رسول الله (ص) يذكرك ويوصي بك علياً كما يأتي بيانه، مما يدل على كونه في العصر النبوي رجلاً يستحق من النبي (ص) الذكر والتوصية به.

ونشأ هذا الرجل الصالح المؤمن بادىء بدء في حي بني أسد في الكوفة، ثم في كنف علي (ع) وحياطته بعد الحرية والانعتاق، واقترن هناك بشريكة حياته ورفيقة دربه. ورُزِق عدداً من الأبناء، عرفنا منهم:

١ ـ حمزة بن ميثم: وقد وقفنا في بعض المصادر[١] على رواية مسندة إليه.

٢ ـ شعيب بن ميثم: وقد عدَّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام جعفر الصادق (ع) والرواة عنه[٢]، وعرفنا من أولاد شعيب هذا: إبراهيم بن شعيب، وهو معدود كأبيه في أصحاب الإمام الصادق (ع)[٣]. كما عرفنا من أولاد شعيب المتقدم: يعقوب بن شعيب؛ أبا محمد، المعدود في أصحاب كلٍّ من الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الكاظم (ع)[٤]، وأشير في ترجمته إلى أن له كتاباً ولكني لم أقف على اسمه وموضوعه[٥].

---

(١) رجال الكشي: ٨٠.
(٢) رجال الطوسي: ٢١٧.
(٣) رجال الطوسي: ١٤٥.
(٤) رجال الطوسي: ١٤٠ و٣٣٦ و٣٦٣.
(٥) رجال النجاشي: ٣١٣ وفهرست الطوسي: ١٨٠.

ومن ذرية شعيب هذا: حفيده علي بن إسماعيل بن شعيب، أبو الحسن، الكوفي، المتكلِّم، المعدود في أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا (ع)[١]، وكانت لعلي هذا مؤلفات وقفنا على أسماء بعضٍ منها، وهي:

أ - كتاب الاستحقاق.

ب - كتاب الإمامة.

ج - كتاب الطلاق.

د - كتاب الكامل.

هـ - كتاب المتعة.

و - كتاب مجالس هشام بن الحكم.

ز - كتاب النكاح[٢].

ومن ذرية شعيب المتقدم الذكر - من الجيل التالي لما سبق - أحمد بن الحسن بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم، أبو عبدالله، الكوفي، الراوي عن الإمام الرضا (ع)، وهو صاحب كتاب في النوادر[٣].

٣ - صالح بن ميثم: ذكره أبوه في خلال رواية عنه[٤]، وعده الطوسي في أصحاب الإمامين الباقر والصادق (ع)[٥]، وورد في بعض

(١) رجال الطوسي: ٣٨٣.

(٢) فهرست ابن النديم: ٢٢٣ ورجال النجاشي: ١٧٦ وفهرست الطوسي: ٨٧ والذريعة: ٢/ ١٨.

(٣) رجال النجاشي: ٥٣ - ٥٤ وفهرست الطوسي: ٢٢.

(٤) رجال الكشي: ٨٦ ومجمع الرجال: ٦/ ١٦٨.

(٥) رجال الطوسي: ١٢٦ و٢١٨.

المصادر: «إنه كان صغيراً في حياة أبيه فلم يرو عنه»[١]، وذكر السمعاني «وَلَدَ صالح بن ميثم ورهطه» على الإجمال وقال: إن «أكثرهم ممن نزل الكوفة»[٢]، وقيل: إنه يروي عن بريدة الأسلمي[٣].

٤ ـ عمران بن ميثم: ورد اسمه في سند رواية عنه[٤]، وعدّه الطوسي من أصحاب الإمام علي بن الحسين (ع)[٥]، وذكر النجاشي أنه يروي عن الإمامين الباقر والصادق (ع)[٦]، وعدّه الزَّبيدي من التابعين[٧].

٥ ـ محمد بن ميثم: ورد ذكره في سند حديثٍ يرويه علي ابن محمد بن ميثم عن أبيه محمد عن جده ميثم[٨].

٦ ـ يعقوب بن ميثم: ورد اسمه في سند أحد الأحاديث وعُرِّف بأنه مولى علي بن الحسين (ع)[٩]، ولم يتضح لي المراد من كلمة (مولى) في التعريف به.

وجاء في إحدى الروايت تكنية ميثم بأبي جعفر[١٠]، ولم أقف على اسم جعفر في عداد أبناء ميثم في المصادر.

---

(١) سفينة البحار: ٨/ ٢١.
(٢) الأنساب: ٤/ ٣٨٤.
(٣) تاج العروس/ تركيب (وثم).
(٤) رجال الكشي: ١١٤ وأمالي المفيد: ١٤٥ ورجال النجاشي: ٢٠٧.
(٥) رجال الطوسي: ٩٨.
(٦) رجال النجاشي: ٢٠٧.
(٧) تاج العروس/تركيب وثم.
(٨) الإصابة: ٤/ ١١٨.
(٩) الوسائل: ٦/ ٤٤٤.
(١٠) بحار الأنوار: ٤٠/ ٢٧٤.

وقال السمعاني عند ذكر ميثم: «وبنو ميثم جماعة من شيوخ الشيعة»[1]، ولكنه لم يسمهم، ولعله أراد بهم أبناءه بالمعنى الشامل للأبناء والأحفاد ومجموع الذرية.

(١) الأنساب: ٤/ ٣٨٤.

وأصبح ميثم على مرِّ الأيام معدوداً من خاصة علي (ع) وأصفياء أصحابه[1]، ثم من أصحاب ولديه الإمامين الحسن والحسين (ع) من بعده[2]، ويبدو من مجموع الشواهد المتوفرة أن عناية علي (ع) به قد بلغت أعلى درجات الاهتمام والرعاية والتربية الفضلى، فلقَّنه المعارف والأخبار، وأطلعه «على علم كثير وأسرار خفية من أسرار الوصية، فكان ميثم يحدِّث ببعض ذلك فيشك فيه قوم من أهل الكوفة»، لما يتضمن حديثه من ذكر بعض الأمور الغيبية؛ ومنها ما سيلقى من الحاكم الجائر في المستقبل من أمره بصلبه ومن تحديد الموضع الذي يصلب فيه»[3].

وصار ميثم ببركة هذه الرعاية العَلَوية من العارفين بتنزيل القرآن وتأويله ومن الواقفين على دقائق ذلك التنزيل والتأويل، وجاء في رواية الرواة: إن ميثماً قال يوماً لعبدالله بن عباس: «يا ابن عباس؛ سلني ما شئتَ من تفسير القرآن، فإني قرأتُ تنزيله على أمير المؤمنين (ع) فعلَّمني تأويله»، فقال ابن عباس: «يا جارية، هاتي الدواة وقرطاساً، فأقبل يكتب»، فقال ميثم: «يا ابن عباس؛ كيف بك إذا رأيتني مصلوباً تاسع

(١) الاختصاص: ٣.

(٢) الاختصاص: ٨ ورجال الطوسي: ٥٨ و٧٠ و٧٩ والمناقب: ٤/ ٣٣.

(٣) الإرشاد: ١/ ٣٢٣ ـ ٣٢ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٢٤.

تسعة؛ أقصرهم خشبة وأقربهم إلى المطهرة»، فقال ابن عباس لميثم: «وتكهّن!. وخرّق الكتاب»، فقال له ميثم: «مه؛ احتفظ بما سمعتَ مني فإن يك ما أقول لك حقاً أمسكتَه وإن يك باطلاً خرقته. قال: هو ذاك»[1].

ويبدو أن الشيخ محمد محسن الطهراني (آغابزرك) قد اعتمد على هذا النص فنسب لميثم كتاباً في التفسير وقال: «وتفسيره بعضُ ما تعلّمه من أمير المؤمنين (ع)[2]».

كما ورد في بعض النصوص ذكر «كتب ميثم» على الإجمال من دون بيان لموضوعاتها بالتفصيل، ومن ذلك ما ورد من أن ولديه صالح بن ميثم ويعقوب بن ميثم قد رويا عن كتب أبيهما بعض الروايات[3]، وما أورد الشيخ الحر العاملي ـ راوياً عن كتاب المجالس للحسن بن محمد الطوسي حديثاً ينتهي سنده إلى يعقوب بن ميثم التمار ـ جاء فيه: «دخلتُ على أبي جعفر (ع) فقلت له: إني وجدتُ في كتب أبي.. إلى آخر الحديث»[4].

وروى ابن شهر أشوب السروي أبياتاً رائية للشاعر علي بن حماد العبدي البصري من شعراء القرن الرابع الهجري، جاء في أولها قوله:

رُوِيْ عن ميثم التمّا ر في مسنده الأكبر[5]

(١) رجال الكشي: ٨٠ ـ ٨١ وبحار الأنوار: ١٢٨/٤٢ ـ ١٢٩ ومجمع الرجال: ٦/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) الذريعة: ٣١٧/٤.

(٣) سفينة البحار: ٢١/٨.

(٤) الوسائل: ٤٤٤/٦.

(٥) المناقب: ٣٦١/٢.

مما يفيد بوجود روايات كثيرة تصلح لأن يُسَمّى مجموعها «مسنداً».

وهكذا يتضح لنا من مجموع هذه النصوص المتفرقة أن ميثماً كان مخزن علم مأثور عن علي (ع)؛ وإنه قد أودع بعض ما سمعه منه في كتاب أو كتب متعددة، وإنه بهذا القرب والصلة والرعاية من أمير المؤمنين قد أصبح معدوداً من «حواريي علي (ع)» كما جاء في الرواية عن الإمام موسى بن جعفر (ع)[1].

ويستفاد من بعض الروايات التاريخية: إن علاقة صميمة كانت تشدُّه بحبيب بن مظهر زعيم بني أسد في الكوفة وشهيد كربلاء في سنة ٦١ هـ، وجاء في أحد النقول عن الفضيل بن الزبير، إن ميثماً مرَّ يوماً على فرس له، «فاستقبل حبيب بن مظاهر (مظهر) الأسدي عن مجلس بني أسد، فتحدَّثنا حتى اختلفت أعناق فرسيهما. ثم قال حبيب: لكأني بشيخ أصلع ضخم البطن يبيع البطيخ عند دار الرزق، وقد صُلِب في حب أهل بيت نبيه (ص) ويبقر بطنه على الخشبة. فقال ميثم: وإني لأعرف رجلاً أحمر له ضفيرتان يخرج لينصر ابن بنت نبيه (ص) فيقتل ويجال برأسه بالكوفة. ثم افترقا فقال أهل المجلس: ما رأينا أحداً أكذب من هذين. قال: فلم يفترق أهل المجلس حتى أقبل رُشَيْد الهجري فطلبهما، فسأل أهل المجلس عنهما، فقالوا: افترقا، وسمعناهما يقولان كذا وكذا، فقال رشيد: رحم الله ميثماً؛ ونَسِيَ: ويزاد في عطاء الذي يجيء بالرأس مائة درهم. ثم أدبر فقال القوم: هذا والله أكذبهم. فقال القوم: والله ما ذهبت الأيام والليالي حتى رأيناه

(١) الاختصاص: ٦١ ومجمع الرجال: ٢/ ٢٤٩.

مصلوباً على باب دار عمرو بن حريث، وجيء برأس حبيب بن مظاهر قد قُتِل مع الحسين (ع)، ورأينا كل ما قالوا»[(١)].

❀ ❀ ❀

وجاء في أخبار تاريخ ميثم ـ على قلتها ـ أنه خرج من الكوفة في سنة ٥٩ هـ قاصداً الحجاز ليعتمر أولاً ثم يحج في أيام الحج، فلما انتهى إلى المدينة المنورة قصد دار أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) فاستأذن للدخول عليها، فأمرت فُضِرب بينه وبينها خدر ثم أذنت له بالدخول، فلما دخل قالت له: مَنْ أنت؟، قال: عراقي، فاستنسبته فذكر أنه مولى علي بن أبي طالب (ع)؛ أنا ميثم. فقالت: «والله لربما سمعتُ من رسول الله (ص) يذكرك ويوصي بك علياً... وكثيراً ما رأيت الحسين بن علي بن فاطمة يذكرك»، فسألها عنه فقالت: خرج إلى حائط له (أي بستان)، فقال: أخبريه إني قد أحببت السلام عليه فلم أجده، ونحن ملتقون عند رب العرش إن شاء الله تعالى. فدعت أم سلمة بطيبٍ، فخرجت جاريتها بالطيب فدهنت لحيته وطيَّبته ببانَ. فقالت له أم سلمة: أما أنها ستخضب بدم»[(٢)].

---

(١) رجال الكشي: ٧٨ ـ ٧٩ ومجمع الرجال: ٢/ ٨٠.

(٢) رجال الكشي: ٨٠ ـ ٨١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٢ والإصابة: ٣/ ٤٧٩ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٢٨ ومجمع الرجال: ٦/ ١٦٥ ـ ١٦٦، ومختصر منه في الإرشاد: ١/ ٣٢٤.

عاد ميثم إلى الكوفة بعد الحج من ذلك العام، فأرسل الوالي عبيدالله ابن مرجانة المعروف باسم عبيدالله بن زياد[1] إلى عريف ميثم يطلبه منه، فلما جاء به وأدخله عليه قال ابن زياد: أنت ميثم؟. قال: نعم أنا ميثم. «قال: تبرَّأَ من أبي تراب. قال: لا أعرف أبا التراب. قال: تبرَّأْ من علي بن أبي طالب. فقال له: فإن أنا لم أفعل؟. قال: أذن والله لأقتلك. قال: لقد كان يقول لي: إنك ستقتلني وتصلبني على باب عمرو بن حريث». قال: لأخالفنَّه. قال: ويحك كيف تخالفه!، إنما أخبر عن رسول الله (ص) وأخبر رسول الله عن جبرائيل وأخبر جبرائيل عن الله، فكيف تخالف هؤلاء؟!!!، أما والله لقد عرفتُ الموضع الذي أُصلَب فيه أين هو من الكوفة... فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيد الثقفي؛ فقال ميثم للمختار وهما في حبس ابن زياد: إنك تُفْلِت وتخرج ثائراً بدم الحسين (ع) فتقتل هذا الجبار الذي نحن في سجنه وتطأ بقدمك هذه على جبهته وخديه. فلما دعا عبيدالله بن زياد بالمختار ليقتله طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيدالله يأمره بتخلية سبيله، وذاك أن أخته كانت تحت عبدالله بن عمر بن الخطاب

(١) يراجع في كونه ابن مرجانة: كتاب نسب بني أمية: ٨٣ ـ ٨٧.

فسألت بعلها أن يشفع فيه إلى يزيد، فشفع فأمضى شفاعته وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد، فوافى البريد وقد أُخرِج ليُضْرب عنقه فأُطلق».

وأما ميثم فأمرَ ابن مرجانه به أن يصلب: «فصُلِب على باب عمرو بن حريث: فقال للناس سلوني ـ وهو مصلوب ـ قبل أن أقتل، فوالله لأُخبرنَّكم بعلم ما يكون إلى أن تقوم الساعة وما يكون من الفتن، فلما سأله الناس حدثهم حديثاً واحداً وفي لفظ الحافظ ابن حجر: «فجعل ميثم يحدث بفضائل بني هاشم. فقيل لابن زياد: قد فضحكم هذا العبد. قال: أَلْجِموه. فكان أول من أُلْجِم في الإسلام. فلما كان اليوم الثالث من صلبه طُعن بالحربة فكبَّر، ثم انبعث في آخر النهار فمه وأنفه دماً».

وتقول إحدى الروايات: إن ابن زياد أمر به أن يصلب وتقطع يداه ورجلاه، فلما صُلِب «نادى بأعلى صوته: أيها الناس؛ من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب (ع)؟، فاجتمع الناس وأقبل يحدثهم... وخرج عمرو بن حريث وهو يريد منزله فقال: ما هذه الجماعة؟، قالوا: ميثم التمار يحدث الناس عن علي بن أبي طالب (ع)، فانصرف مسرعاً (إلى أميره) فقال: أصلح الله الأمير؛ بادر فأبعث إلى هذا من يقطع لسانه... فالتفت إلى حرسيّ فوق رأسه فقال اذهب فاقطع لسانه... فقُطِع لسانه وتشحط ساعة في دمه، ثم مات».

ويقول الكشي في رواية له عن يوسف بن عمران الميثمي قال: «كان ميثم يمر بنخلة في سبخة فيضرب بيده عليها ويقول: يا نخلة؛ ما غُذِّيتِ إلا لي وما غُذِّيتُ إلا لكِ. وكان يمر بعمرو بن حريث ويقول: يا عمرو؛ إذا جاورتُكَ فأحسن جواري، فكان عمرو يرى أنه يشتري داراً أو ضيعة لزيق ضيعته، فكان يقول هل عمرو: ليتك قد فعلتَ».

ويقول الرواة ومنهم الحافظ ابن حجر: إن علياً (ع) هو الذي أخبره بتفصيل ذلك كله»[١].

وكانت شهادة ميثم في سنة ٦٠ هـ «قبل قدوم الحسين (ع) العراق بعشرة أيام»[٢].

وحدث صهيب أبو حكيم جدُّ حنان بن سدير: إنه اجتمع ومعه ستة من التمّارين فجاؤوا ليلاً حيث كان جثمان ميثم ملقى بعد شهادته، «والحراس يحرسونه وقد أوقدوا النار، فحالت النار بيننا وبينهم، فاحتملناه بخشبته حتى انتهينا إلى غيض من ماء في مراد فدفناه فيه، ورمينا بخشبته في مراد في الخرب»[٣].

❁ ❁ ❁

وعلى رغم أنف الطغاة والجبابرة فقد ذهب القاتل السفاح عبيدالله ابن مرجانة إلى مزبلة التاريخ، وخلد جثمان التمار الذي رُمِيَ بخشبته في الخراب متحدياً قتلته الأشرار في ظهور أمره وبروز قبره وبقاء ذكره عبر القرون، معبراً أصدق تعبير عن إرادة الله عز وجل بتخليد أوليائه في أعلى المقامات في الدنيا، كما هم في أعلى عليين في جواره تعالى في الآخرة.

---

(١) يراجع في النصوص المتقدمة: رجال الكشي: ٨٠ ـ ٨١ و٨٣ و٨٥ والإرشاد: ١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٣ والإصابة: ٣/ ٤٧٩ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٣٠ ـ ١٣١ و١٣٣ ومجمع الرجال: ٦/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٤ وبحار الأنوار: ٤٢/ ١٢٥ وسفينة البحار: ٨/ ١٩ وأعيان الشيعة: ١٥/ ٩٢ والأعلام: ٨/ ٢٩٤.

(٣) رجال الكشي: ٨٣ وبحار الأنوار؛ ٤٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠ ومجمع الرجال: ٦/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

ويقول مؤرخ الكوفة السيد حسين البراقي:

«ترى خارج مسجد الكوفة بقرب بيت الإمام أمير المؤمنين (ع) بنيَّة واسعة فيها قبر ميثم التمار (رض)، وهو مقام صلبه في السبخة، يقصده الزائر ويتبرك به»(١).

ويقول الكاتب المعاصر كامل سلمان الجبوري:

«مرقد ميثم التمار: يقع خارج مسجد الكوفة على الجهة اليسرى للذاهب إلى النجف، ويبعد عن المسجد بمسافة كيلومتر واحد تقريباً... والدليل على صحة نسبة القبر لميثم تسالم الأجيال عليه... وذكر بعض المعمَّرين إن قبة مشيدة كانت فوق بناية القبر وصندوقاً منقوشاً كان موضوعاً على المرقد، ثم غشيت هذه القبة بالكاشي الأزرق، وكان هناك سور يحيط بالساحة التي حول القبر، وكانت على القبر دكة وعليها صخرة كتب عليها اسمه وأنه صاحب أمير المؤمنين (ع)، والدكة والصخرة اليوم تحت الصندوق الخشبي القائم في الوقت الحاضر. وكان حول القبر سور قديم يبعد عن غرفة القبر ما يقرب من خمسة أمتار»، وفي عام ١٣٨٢هـ قام أحد المحسنين بهدم البناية القديمة وسورها، وشيد ضريحاً جديداً لميثم وقبة وأروقة وصحناً ونوراً، وانتهى البناء في عام ١٣٨٤هـ(٢).

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ الكوفة: ٦٢.
(٢) تاريخ الكوفة الحديث: ١/ ١١١ ـ ١١٣.

وليس لدينا ما نقوله في الختام ـ وقد عرضنا هذه الصفحات المشرقة من تاريخ عدد من صحابة رسول الله (ص) ـ إلا أن نتلو خاشعين متدبرين، تلك الآية الكريمة التي بدأنا بها هذا البحث، وهو قوله تعالى عز من قائل:

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

وسلام الله الأسنى وتحياته الحسنى، على هذه الكوكبة من صحابة رسول الله (ص) يوم ولدوا، ويوم أسلموا، ويوم حملوا سيف الجهاد وناضلوا في سبيل الله بأيديهم وألسنتهم ويوم يبعثون أحياءاً.

المصادر والمراجع

* الاحتجاج/ للطبرسي، النجف ١٣٥٠هـ.

* الأخبار الطوال/ لأبي حنيفة الدينوري، القاهرة ١٩٦٠م.

* اختيار معرفة الرجال ـ رجال الكشي/ لمحمد بن عمر بن عبد العزيز، مشهد إيران ١٣٨٩هـ.

* الإرشاد/ للشيخ المفيد، بيروت ١٤١٤هـ.

* الاستيعاب/ لابن عبد البرّ ـ هامش الإصابة ـ، القاهرة ١٣٥٨هـ.

* أسد الغابة/ لابن الأثير عز الدين، القاهرة ١٢٨٥هـ.

* أسماء المغتالين/ لمحمد بن حبيب/ نوادر المخطوطات، القاهرة ١٣٧٣هـ.

* الاشتقاق/ لابن دريد، القاهرة ١٣٧٨هـ.

* الإصابة/ لابن حجر العسقلاني، القاهرة ١٣٥٨هـ.

* أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية/ للدكتور حسن أحمد الحياري، عمّان ١٤١٣هـ.

* الأضداد/ للأنباري، الكويت ١٩٦٠م.

* الأعلام/ للزركلي، بيروت ١٣٨٩هـ.

* أعيان الشيعة/ للسيد محسن الأمين، بيروت ١٤٢٠هـ.

* الأغاني/ لأبي الفرج الأصبهاني ـ ج ١٥، القاهرة (طبعة مصورة).

ج ٢١، القاهرة ١٣٩٢هـ.

* الإقبال/ لعلي رضي الدين آل طاووس، قم/ إيران ١٤١٨هـ.

* الأمالي/ لابن الشجري، بيروت (طبعة مصورة).

* الأمالي/ لأبي علي القالي، القاهرة ١٣٤٤هـ.

* الأمالي/ للشيخ المفيد، بيروت ١٤١٤هـ.

* الإمام علي بن أبي طالب (ع)/ [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله/ المؤلفات] بيروت.

* الإمامة والسياسية/ لابن قتيبة ـ طبعة مصطفى محمد ـ، القاهرة (بلا تاريخ).

* الأمثال/ لأبي عبيد، بيروت ١٤٠٠هـ.

* الأنساب / للسمعاني، بيروت ١٤١٩هـ.

* أنساب الأشراف/ للبلاذري ـ ج ١ ـ، القاهرة ١٩٥٩م.

ـ ج٢ ـ، بيروت ١٣٩٧هـ.

ـ ج٥ ـ، القدس ١٩٣٦م.

* بحار الأنوار/ للمجلسي ج٣٨، طهران ١٣٨٠هـ.

* البداية والنهاية/ لابن كثير الدمشقي، القاهرة ١٣٥١هـ.

* بلاغات النساء/ لابن طيفور ـ طبعة أحمد الألفي ـ، القاهرة ١٣٦١هـ.

* بهجة المجالس/ لابن عبد البرّ القرطبي، القاهرة ١٩٦٧م.

* البيان والتبيين/ للجاحظ، القاهرة ١٣٥١هـ.

* تاج العروس/ لمحمد مرتضى الزبيدي، القاهرة ١٣٠٦ هـ.

* تاريخ الكوفة/ للسيد حسين البراقي، النجف ١٣٦٧هـ.

* تاريخ الكوفة الحديث/ لكامل سلمان الجبوري، النجف ١٣٩٤.

* تاريخ/ أبي زرعة الدمشقي، دمشق ١٤٠٠هـ.

* تاريخ/ أبي الفدا، القاهرة ١٣٢٥هـ.

* تاريخ بغداد/ للخطيب البغدادي، بيروت (طبعة مصورة).

* تاريخ خليفة بن خياط، دمشق ١٩٦٨م.

* تاريخ دمشق/ لابن عساكر، ج٣٥ دمشق ١٤١٨هـ.

* تاريخ الطبري، القاهرة ١٩٦٠م.

* التاريخ الكبير/ الذهبي ـ ج١ ـ، القاهرة ١٩٧٥م.

* تاريخ الكوفة/ للبراقي، النجف ١٣٨٩هـ.

* تاريخ اليعقوبي، النجف ١٣٥٨هـ.

* التبيين/ لابن قدامة المقدسي، الموصل ١٤٠٢م.

* تجريد أسماء الصحابة/ للذهبي، الهند ١٣٨٩هـ.

* تحف العقول/ لابن شعبة الحراني، النجف ١٣٨٣هـ.

* تذكرة الخواص/ لسبط ابن الجوزي، النجف ١٣٦٩هـ.

* التذكرة السعدية/ للعبيدي، النجف ١٣٩١هـ.

* التعازي والمراثي/ للمبرد، دمشق ١٣٩٦هـ.

* تهذيب التهذيب/ لابن حجر العسقلاني، الهند ١٣٢٦هـ.

* تهذيب اللغة/ للأزهري، القاهرة ١٣٨٤هـ.

تونس ١٩٨١م.

* الجمل/ لمحمد بن محمد المفيد، النجف ١٣٨٢هـ.

* جمهرة أنساب العرب/ لابن حزم، القاهرة ١٣٨٢هـ.

* جمهرة النسب/ للكلبي، بيروت ١٤٠٧هـ.

* حلية الأولياء/ لأبي نعيم، بيروت ١٣٨٧هـ.

* الحماسة/ لابن تمام ـ شرح المرزوقي ـ، القاهرة ١٣٨٧هـ.

* الحماسة/ للبحتري ـ ط. اليسوعية ـ، بيروت (بلا تاريخ).

* الحماسة البصرية/ لصدر الدين البصري، بيروت ١٤٠٣هـ.

* الحماسة الشجرية/ لهبة الله ابن الشجري، دمشق ١٩٧٠م.

* حياة الحيوان/ للدميري، القاهرة ١٣٥٦هـ.

* الحيوان/ للجاحظ، القاهرة ١٣٨٤هـ.

* الخرائج والجرائح/ لقطب الدين الراوندي، بيروت ١٤١١هـ.

* الدرجات الرفيعة/ لعلي بن أحمد المدني، النجف ١٣٨١هـ.

* الدرجات الرفيعة/ للسيد علي (خان) المدني، النجف ١٣٨١هـ.

* دلائل النبوة/ للبيهقي، بيروت ١٤٠٥هـ.

* الديارات/ للشابشتي، بغداد ١٣٨٦هـ.

* ديوان/ حسان بن ثابت، لندن ١٩٧١م.

* ديوان المتنبي ـ شرح العكبري، القاهرة ١٣٩١هـ.

* الذريعة/ للشيخ محمد محسن (آقابزرك) الطهراني (طبعة دار الأضواء)، بيروت الطبعة الثانية.

* ربيع الأبرار/ للزمخشري ـ ج١ ـ، بغداد ١٤٠٠هـ.

* سيرة/ ابن هشام، بيروت ١٣٩١هـ.

* السيرة الحلبية/ لعلي الحلبي، القاهرة ١٣٥١هـ.

* السير والمغازي/ لمحمد بن إسحاق، بيروت ١٣٩٨هـ.

* السيرة النبوية/ لابن هشام، بيروت ١٣٩١هـ.

* شذرات الذهب/ لابن العماد الحنبلي، القاهرة ١٣٥٠هـ.

* شرح نهج البلاغة/ لابن أبي الحديد، القاهرة ١٣٧٨هـ.

* الشعور بالعور/ للصفدي، عمّان ١٤٠٩هـ.

* صبح الأعشى/ للقلقشندي، القاهرة (طبعة مصورة).

* صحيح/ البخاري ـ طبعة محمد علي صبيح ـ، القاهرة (بلا تاريخ).

* صحيح/ مسلم ـ طبعة محمد علي صبيح ـ، القاهرة (بلا تاريخ).

* الصواعق المحرقة/ للحافظ ابن حجر الهيتمي، القاهرة ١٣١٢هـ.

* طبقات/ ابن سعد، ليدن ١٣٢٢هـ.

* طبقات/ خليفة بن خياط، دمشق ١٩٦٦م.

* العبر/ للذهبي، بيروت ١٤٠٥هـ.

* العبر/ للذهبي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ، بيروت (بلا تاريخ).

* العقد الفريد/ لابن عبد ربه الأندلسي، القاهرة ١٣٨١هـ.

* الغارات/ لأبي إسحاق الثقفي، طهران ١٣٩٥هـ.

* الغارات/ لأبي أعثم الكوفي، طهران ١٣٩٥هـ.

* غدير الحديث/ للخطابي، دمشق ١٤٠٢هـ.

* الغدير/ للشيخ عبد الحسين الأميني، بيروت ١٣٩٧هـ.

* غريب الحديث/ لابن الجوزي، بيروت ١٤٠٥هـ.

* غريب الحديث/ لأبي عبيد، بيروت ١٤٠٦هـ.

* غريب الحديث/ لابن قتيبة، بيروت ١٤٠٨هـ.

* غريب الحديث/للخطابي، دمشق ١٤٠٢هـ.

* الفائق/ للزمخشري ـ الطبعة الثانية، القاهرة (بلا تاريخ).

* الفتوح/ لابن أعثم الكوفي، الهند ١٣٨٨هـ.

* فتوح البلدان/للبلاذري، القاهرة ١٣٥٠هـ.

* فتوح الشام/للواقدي، القاهرة ١٣٥٤هـ.

* الفرج بعد الشدة/لأبي علي التنوخي، بيروت ١٣٩٨هـ.

* الفصول المختارة/ للمفيد محمد بن محمد بن النعمان، النجف (بلا تاريخ).

* الفهرست/لابن النديم، طهران ١٣٩١هـ.

* الفهرست/للطوسي، النجف ١٣٥٦هـ.

* الكافي/ للكليني محمد بن يعقوب، طهران ١٣٧٥هـ.

* الكامل في الأدب/ للمبرد ـ طبعة دار نهضة مصر ـ، القاهرة (بلا تاريخ).

* الكامل في التاريخ/ لابن الأثير عز الدين، القاهرة ١٣٥٦هـ.

* كشف المشكل/ للحيدرة اليمنى، بغداد ١٤٠٤هـ.

* كفاية الطالب/ لابن الأثير، الموصل ١٩٨٢م.

* اللباب/ لابن الأثير، القاهرة ١٣٥٧هـ.

* مالك بن الحارث الأشتر/ [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/المؤلفات] بيروت.

* المثل السائر/ لابن الأثير، الرياض ١٤٠٣هـ.

* مجاز القرآن/ لأبي عبيدة، القاهرة ١٣٧٤هـ.

* مجلة أكتوبر المصرية/ العدد (٣٣٢)، القاهرة ١٩٨٣م.

* مجلة (الرافدين) العدد ١٥٣/ ص ٨، بغداد ٢٠٠١م.

* مجمع الرجال/ للقهبائي، إيران ١٣٨٤هـ.

* مجمع الزوائد/ لابن حجر، بيروت ١٩٦٧م.

* محاضرات الأدباء/ للراغب، بيروت (بلا تاريخ).

* المحبَّر/ لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٩١هـ.

* محمد بن أبي بكر/ لمحمد حسن آل ياسين، بيروت ١٤٢٠هـ.

* مرآة الجنان/ لليافعي، الهند ١٣٣٧هـ.

* مروج الذهب/ للمسعودي، القاهرة ١٣٥٧هـ.

* مسند/ أحمد بن حنبل، بيروت ١٣٨٩هـ.

* المعارف/ لابن قتيبة، القاهرة ١٩٦٠م.

* معجم الأدباء/ لياقوت، القاهرة ١٣٥٥هـ.

* معجم البلدان/ لياقوت الحموي، القاهرة ١٣٢٣هـ.

* معجم الشعراء/ للمرزباني، القاهرة ١٣٥٤هـ.

* المعجم الكبير/ للطبراني، بغداد ١٣٩٨هـ.

* معجم ما استعجم / للبكري، القاهرة ١٣٦٤هـ.

* مقاتل الطالبيين/ لأبي الفرج الأصبهاني، القاهرة ١٣٦٨هـ.

* المقاييس/ لابن فارس ـ الطبعة الثانية ـ، القاهرة ١٣٨٩هـ.
* المقتضب/ لياقوت الحموي، بيروت ١٩٨٧م.
* المنمق/ لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٨٤هـ.
* منية الأدباء/ لياسين العمري، الموصل ١٣٧٤هـ.
* المؤتلف والمختلف/ للآمدي، القاهرة ١٣٥٤هـ.
* نثر الدر/ للآبي، القاهرة ١٩٨٠م.
* النجوم الزاهرة/ لابن تغري بردي، القاهرة (طبعة مصورة).
* نسب بني أمية/ لمحمد عبد الله الخزرجي، بيروت ١٤١٦هـ.
* نسب قريش/ للمصعب الزبيري، القاهرة ١٩٥٣م.
* نظام الغريب/ للربعي الوحاظي، بيروت ١٤٠٠هـ.
* نهاية الأرب/ للنويري، القاهرة (طبعة مصورة).
* نهاية الأرب/ للنويري ج٢٠، القاهرة ١٣٩٥هـ.
* نهاية الأرب/ للنويري ج٢٠، القاهرة ١٩٧٥م.
* نهج البلاغة/ بشرح الشيخ محمد عبده ـ طبعة عيسى البابي، القاهرة (بلا تاريخ).
* وسائل الشيعة/ لمحمد بن الحسن الحر العاملي، طهران ١٣٨٧هـ.
* وقعة الجمل/ لمحمد بن زكريا الغلابي، بغداد ١٣٩٠هـ.
* وقعة صفين/ لنصر بن مزاحم، القاهرة ١٣٨٢هـ.

المحتويات

عَبْد اللّه بن بديل بن ورقاء ١٣
هاشم بن عُتْبَة بن أبي وقاص «المرقال» ٣٩
عمار بن ياسر ٧٣
محمد بن أبي بكر ١٦١
مالك بن الحارث الأشتر ٢٠٩
ملحق الكتاب عهد أمير المؤمنين (ع) للأشتر النخعي لمّا ولاّه على مصر ٢٧٩
سَهْلُ بن حُنَيْف ٢٩٥
صعصعة بن صوحان ٣١٩
عمرو بن الحمق الخزاعي ٣٥٥
حُجْرُ بنُ عَدِيّ الكِنْديّ ٣٨٣
ملحق البحث أصحاب حُجْر بن عَديّ في ثورته ٤٣١
أ ـ الشهداء ٤٣٣
ب ـ السجناء والمنفّيون ٤٣٨
عُثمان بن حُنيف ٤٤٩
قيس بن سعد بن عبادة ٤٧٧

ميثم بن يحيى التمار ٥٢٣
المصادر والمراجع ٥٣٩
المحتويات ٥٤٩